

لماذا محمد؟

بقلم

عبد العزيز عيد

دعاء

اللهم إن يكن لهذا العمل أجر ، فاقسمه بين أبي وأمي

المقدمة

الحمد لله الذي أنعم على محمد بالنبوة ، وأنعم علينا بمحمد ، وأنعم على محمد وعلينا بالإسلام ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن محمدا عبده ورسوله والمجتبى من خلقه وحبيبه وبعد ، فلم يكن ولـوجي هـذا البحر الخضم العظيم جرأة مني على عبوره وسباحته أو معرفة بأغواره وأعماقه لا سيما وأنا غير المتخصص ، ولم يكن جهلا مني بقدر نفسي وضآلة حجمي أو رغبة في شهرة أو مال لا سيما وأنا المجهول بين البشر ، ولكنه كان هروبا من واقع آليم فرض نفسه على الأمة الإسلامية بأسرها ، إلى واقع لم يزل ممتدا منذ ما يزيـد علـى ألـف وربعمائة عام ، آويت إليه أتنسم عطره الفواح وأفخر بعزه وانتصاراته ، فكانت بدايتي بالسيرة النبوية ، رحـت أقلب صفحاتها وأطوف بين ربوعها ، فتوقفت بي عيني عند هذا المشهد المهيب .

" .. ثم مضى رسول الله صلى الله عليه وسلم .. وخرج لعشر مضين من رمضان فصام وصام الناس معه .. ثم مضى حتى نزل مر الظهران في عشرة آلاف من المسلمين وألف من مزينة وسليم ، وفي كل القبائل عدد وسلاح ،

وأوعب (1) مع رسول الله صلى الله عليه وسلم المهاجرون والأنصار لم يتخلف منهم أحد ، فلما نزل رسول الله صلى الله عليه وسلم مر الظهران - وقد عميت الأخبار عن قريش فلم يدروا ما هو فاعل- خرج في تلك الليلة أبو سفيان بن حرب وحكيم بن حزام وبديل بن ورقاء يتجسسون ، وكان العباس تلقى رسول الله بمر الظهران فلما رآه بجيشه هذا قال " واصباح قريش والله لئن دخل محمد مكة عنوة قبل أن يستأمنوه إنه لهلاك قريش آخر الدهر ... " فالتق العباس عند عودته بأبو سفيان وبديل بن ورقاء وهما يتراجعان – أي يراجع كلا منهما الآخر في القول – فقال أبو سفيان " ما رأيت كاليوم نيرانا ولا عسكر" ، وقال بديل " هذه والله نار خزاعة حمشتها الحرب " ، فقال أبو سفيان " خزاعة والله أذل وألأم من أن تكون هذه نيرانا وعسكرها " ، فذهب العباس بأبو سفيان يستأمنه عند رسول الله ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم للعباس "احبسه بالوادي عند خطم الجبل(2) حتى تمر جنود الله فيراها .. " ففعل العباس ما أمره رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فمرت القبائل على رآياتا ، فكلما مرت قبيلة قال أبو سفيان من هؤلاء ؟ فيقول له العباس بنو فلان فيقول ما لي وبني فلان حتى مر رسول الله صلى الله عليه وسلم في الكتيبة الخضراء فيها المهاجرون والأنصار لا يرى منهم سوى الحدق (3) ، فقال أبو سفيان من هؤلاء يا عباس ؟ فقال العباس " هذا رسول الله في المهاجرين والأنصار " ، فقال " ما لأحد بؤلاء قبل ولا طاقة " ، والله يا أبا الفضل لقد أصبح ملك بن أخيك الغداة عظيما " قال العباس " يا أبا سفيان إنا النبوة ، فخرج أبو سفيان مسرعا إلى قومه – بعد أن أمنه رسول الله – يقول " يا قريش هذا محمد قد جاءكم بما لاقبل لكم به فمن دخل دار أبو سفيان فهو آمن ، ومن أغلق بابه فهو آمن ، ومن دخل المسجد فهو آمن ... " (4)

عندئذ أدركت أن النجاة والسلامة والملاذ الآمن هو الانطواء بين صفحات التاريخ الإسلامي بوجه عام

----

(1) يوعِبونَ أي : يخرجون بأَجْمعهم في المَغازي (معجم الغريب لابن قتيبة) (2) مقدمته (3) الأعين خلف قناع الحرب

(4) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير 6419 ، وقال الهيثمي في الزوائد رواه الطبراني ورجاله رجال الصحيح ج6 ص166

والسيرة النبوية بوجه خاص ، والاستنارة بذا السراج الوهاج الذي أشرق في النفوس المظلمة ، فأحال سوادها إلى ضياء ، وبدل وحشتها إلى باء ، ولما كنت أحب تدوين ما أقرأ ، فقد رتبت ما كتبته وأرجعته إلى مصادره فتكون هذا البحث ، ولأن السيرة النبوية بحر ولج فيه كثير ممن هم من أهل العلم والتخصص ، فكان لا بد أن يكون عندي جديدا أقدمه ، فوجدت أن أحدث ما يمكن أن أقدمه هو الإجابة على سؤال إن لم يكن طرأ على ذهن أحد من المسلمين فقد سأله عصبة الكفر والنفاق ممن عاصروه صلى الله عليه وسلم ، وسأله من جاء بعدهم ممن هم على غير الملة عبر القرون المتعاقبة وهو لماذا محمد ؟ لماذا اختاره الله تعالى من بين الناس قاطبة ليكون نبيا ؟ ولماذا اختاره ليكون خاتم الأنبياء والمرسلين فيـ ل عليه القرآن ويحمله أمانة الدعوة إلى أهل الأرض كلهم ؟ ولماذا رفع الله تعالى ذكره في الأرض والسماء وأمر المسلمين بالصلاة والسلام عليه وجعل من ذلك ذكرا يثاب فاعله ويأثم تاركه ولماذا قرن اسمه باسمه وكتبه على العرش وجعل الشهادة برسالته آية على التوحيد والإيمان الخالص ؟ولماذا ولماذا ولماذا ؟ والله تعالى هو الموفق

عبد العزيز عيد عبد العزيز
بدأته في يوليو2003 وانتهيته في اغسطس 2006

الباب الأول

النبوة

الفصل الأول

معنى النبوة وشروطها

تعريف النبوة

النبوة من الناحية اللغوية لها اشتقاقان يحملان معناها : الأول اشتقاقها من النبأ أي الخبر ، والثاني مـن نبـا أو نباوة أي الارتفاع عن الأرض والسمو . وقد تبنى الأشاعرة الرأي الأول فاعتبروا النبوة هبة واصطفاء من الله تعالى دون كسب أو عمل من النبي ، بينما تبنى المعتزلة الرأي الثاني فعرفوا النبي بأنه الذي اسـتحق الرسـالة برفعـة وخصوصية منه وتكفل بأدائها وصبر عليها ومن ثم فهي جزاء على عمل ونتيجة مجاهدة ...(1)

واهتداء بذلك يمكن القول بأن النبوة تشمل كلا المعنيين :

فهي أولا اصطفاء من الله تعالى ، وهى ثانيا نتيجة كسب واجتهاد من النبي المصطفى .

فأما عن كونا اصطفاء وهبة فيستدل على ذلك بآيات كثيرة منها قوله تعالى"اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَته(2) وقوله (وَوَهَبْنَا لَهُ مِنْ رَحْمَتِنَا أَخَاهُ هَارُونَ نَبِيّاً) (3) وقوله (وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلّاً هَدَيْنَا) (4)

وأما عن كونا نتيجة كسب واجتهاد من النبي أو جزاء على عمل فمرد ذلك إلى المعايير التي على أساسها يتم اختيار النبي ، كقوله تعالى لموسى عليه السلام "(وَأَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَى) (5) واخترتك أي اصـطفيتك برسالتي لما توافرت فيك مؤهلات الاصطفاء ،يقرب هذا المعنى ما قاله بن كثير في تفسير هذه الآية من أن الله تعالى قال يا موسى أتدري لم خصصتك بالتكليم من بين الناس ؟ قال لا ، قال لأني لم يتواضع إلي أحد تواضعك "(6)

وهى من ثم لها أسس وضوابط ومعايير . وتنقسم هذه الأسس والضوابط والمعايير الى قسمين :

منهجية : تتعلق بطبيعة الرسالة ومنهجها ومكانا وزمانا ، ويمكن تسميتها بمعايير الاصطفاء

وبشرية : ويقصد با مدى الصفات التي ينبغي أن يتصف با هذا البشري حتى يكون جديرا بحمل أعباء الرسـالة وتبعاتا ويمكن تسميتها بمعايير المصطفين الأخيار ،

المشيئة الإلهية .

وقبل أن نخوض في بعض تفاصيل هذه المعايير ، نتعرض لمفهوم قد يبدو بسيطا في تناوله إلا أنـه يتفـق مـع الموضوع الذي نحن بصدده ، ويصح أن يكون توطئة له ، ألا وهو المتعلق بالمشيئة والعلم الإلهـيين ، فمـشيئة الله سبحانه تعالى وعلمه من الأمور المعلومة بالضرورة ، والتي لا يُتصور انعدامها أو نقصانا أو ضعفها أو ارتباطهـا بمقدرات وعوامل أخرى ، ولا يُتصور كذلك جريان أمر هذا الكون دون مشيئة خالقه ومدبره ، ودون علمه بكل ما هو كائن قبل أن يكون وأثناء كينونته وبعدما كان ومصيره بعد ذلك وما آل إليه أو ما كان يمكن أن يؤول إليه وهذا القول هو ما يتفق مع العقل والفطرة ، وهو ما يستقيم معه الخلق جميعا ، ويمكن تصور هذه المـشيئة مـن زاويتين : الأولى ما تعلق منها بجميع المخلوقات والثانية ما تعلق منها بالأنس والجن فقط

----

(1) النبوة من علم العقائد إلى فلسفة التاريخ للأستاذ/ علي مبارك ص 15 (2) الأنعام من الآية 124

(3) مريم 53 (4) الأنعام من الآية 84 (5) طـه:13 (6) تفسير بن كثير لسورة طه ج4 ص145

أما تلك المتعلقة بجميع المخلوقات فلها وجهين أيضا :-

الوجه الأول : هو إرادته سبحانه وتعالى في الخلق بداءة وتنظيم هذا الخلق وتدبيره وما يعتريه من تطـورات وأحداث فيما نعلمه وفيما لا نعلمه وفيما ندركه وما لا ندركه ، ويدخل في هذا الوجه الإنس والجن لكونهـا خلق من خلق الله ، ومشيئته سبحانه وتعالى في هذا الصدد هي خلق هذه المخلوقات بكيفية معينة وبيئـة معينـة ووظيفة معينة وبتسلسل زماني ومكاني معينين وعلى أنظمة معينة بعضها معلوم حكمته وكثير استأثر الله بعلمـه ، وكذلك خلق أفعال العباد وأقوالهم وأحوالهم ومصائرهم ، ومن ذلك قوله (اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أيام)(1) وقوله (هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُوراً وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَـدَدَ الـسِّنِينَ وَالْحِسَابَ مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ) (2) وقوله (اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَـى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ)(3) فقد بين الله تعالى في هذه الآيات ما اقتضته مشيئته من خلق السماوات والأرض والـشمس والقمر والليل والنهار بطريقة لا نعلمها وبيئة هو الذي اختارها إلا أنه بين لنا بعض الحكمة منها ، وأيضا هيئـة الإنسان وجوارحه : قال تعالى :(يَا أَيُّهَا الإنسان مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ فِي أَيِّ صُورَةٍ مَا شَاءَ رَكَّبَكَ) (4) ، فحدد سبحانه على وجه قاطع أنه هو الذي خلق الإنسان على ما هو عليه وعلى صـورته التي خلق عليها بمشيئته وإرادته ، وكذلك خلق الجان حيث قال تعالى : "(وَالْجَانَّ خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ مِنْ نَارِ السَّمُومِ) (5) ، أما خلق أفعال العباد فالحق الذي عليه أهل السنة والجماعة هو أنا مخلوقة ومقدرة سلفا ، وفي ذلك يقـول الطبري : "وأما الصواب من القول لدينا فيما اختلف من أفعال العباد وحسناتم وسيائتهم فإن جميع ذلك من عند الله والله سبحانه وتعالى مقدره ومدبره ولا يكون شيء إلا بأذنه ولا يحدث شيء إلا بمشيئته له الخلق والأمر"(6)

الوجه الثاني : هو مشيئته سبحانه وتعالى المتعلقة بمنهجه الذي ارتضاه لعبادته به العبادة الحرة التي من أجلها خُلق الإنس والجان قال تعالى : (وَمَا خَلَقْتُ الْجِن وَالْأِنسَ إِلا لِيَعْبُدُونِ) (7)

هذا المنهج هو الدين الذي يحب الله تعالى أن يتعبد به ، لذا نظمه سبحانه وفق ما يراه على مراحل زمنية متعاقبة بدأت مع نزول آدم عليه السلام إلى الأرض ، حتى بعثة محمد بن عبد الله عليه الصلاة والسلام الذي ختم الله تعالى به الأديان والرسل ، وهذين الوجهين لا إرادة للإنسان فيهما ولا شأن له بهما ، على ما بهما من حكمة علمها من علمها وجهلها من آبى .

أم الزاوية الثانية من المشيئة.

فهي المتعلقة بمشيئة الثقلين بوصفهما المكلفين بالعبودية ، وأعني با تعلق مشيئة هذين الثقلين بمشيئته سبحانه وتعالى بحيث لا تتعدى مشيئتهما مشيئته في خلقه ، ولا تتعرض لها ، ولا تحول بينها وبين نفاذها بما يريد وبما يشاء إذ الأصل أن المشيئة كلها لله والاستثناء هو أنه سبحانه وتعالى جعل لهذين المخلوقين من خلقه مشيئة .

----

(1) السجدة: من الآية4 (2) يونس 5 (3) الزمر 62 (4) الانفطار 6 وما بعدها (5) الحجر 27
(6) صريح السنة لمحمد بن جرير الطبري (7) الذاريات 56

إلا أنه حصرها في مجال واحد فقط هو مجال الفعل والفعل فقط ، أيا كان هذا الفعل سلبا أو إيجابا ، قولا أو فعلا ، سكونا أو حركة ، ويأتي هذا الاستثناء تماشيا مع حريتهما المخلوقين با وتكليفهما بعبادته بذه الحرية ، قال تعالى (وَقُلِ الْحَق مِنْ رَبكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ)(1) ،

وروي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قوله "قال عز وجل "بن آدم بمشيئتي كنت أنت الذي تشاء لنفسك ما تشاء وبإرادتي كنت أنت الذي تريد لنفسك ما تريد وبرحمتي أديت إلي فرائضي وقويت على معصيتي "(2)

وحتى لا تتعرض هذه المشيئة لمشيئته سبحانه وتعالى التي بيناها في الوجهين السابقين ، فقد ربط مشيئتهما بمشيئته وقيدهما بقدرته بحيث لا يستطيعا منفردين أو مجتمعين الحيلولة دون هذه المشيئة أو التعرض لها ، فذلك قوله جلا وعلا (وَمَا تَشَاءُونَ إِلا أَنْ يَشَاءَ اللهُ إِن اللهَ كَانَ عَلِيماً حَكِيماً) (3) ،

كما أن المشيئة والعلم الإلهيين مرتبطين ارتباطا لا يقبل التجزئة ولا الانفصال ، حيث كانت مشيئته جلا وعلا على ضوء علمه بكل ما هو كائن وما سيكون قبل أن يكون ، فقد علم سبحانه وتعالى مثلا أن آدم عليه السلام سيعصه ويتبع غواية إبليس ، فكانت مشيئته وفق علمه فاقتضت هذه المشيئة طردهما من الجنة فما كان بإمكانهما الامتناع أو عدم التنفيذ ، قال تعالى (وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنةَ وَكُلا مِنْهَا رَغَداً حَيْثُ شِئْتُمَا وَلا تَقْرَبَا هَذِهِ الشجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظالِمِينَ فَأَزَلهُمَا الشيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِما كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُو وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَر وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ) (4) ، وعلم الله أن الأقوام الذين أرسل إليهم أنبيائهم لن يتبعوهم وسيكذبونهم فاقتضت مشيئته إهلاكهم بالطريقة وبالزمان والمكان الذي اقتضاه ، فمنهم من أغرقه الطوفان ومنهم من أخذته الصيحة ومنهم من أخذته الصاعقة ومنهم من أصابته السكرة ، فقال (فَكُلّاً أَخَذْنَا بِذَنْبِهِ فَمِنْهُمْ مَنْ

أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِباً وَمِنْهُمْ مَنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُمْ مَنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُمْ مَنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ) (5) ، وعلم سبحانه وتعالى منذ الأزل وسطر في كتابه المكنون أن العرب لن يستطيعوا أن يأتوا بآية أو سورة من قرآنه ، فكانت مشيئته هي التحدي بالإتيان بمثل ما أتى فقال (قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً) (6) ، وعلم أن أبا لهب وامرأته لن يُسلما فكانت مشيئته الحكم عليهما بالنار يوم القيامة فقال (تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ مَا أَغْنَى عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ سَيَصْلَى نَاراً ذَاتَ لَهَبٍ الحطب وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِنْ مَسَدٍ) (7) ، وعلم أن الوليد بن المغيرة القائل عن كلامه سحر يؤثر سيبقى على كفره حتى موته فكانت مشيئته القضاء عليه بالخلود في سقر فقال سبحانه (ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيداً وَجَعَلْتُ لَهُ مَالاً مَمْدُوداً وَبَنِينَ شُهُوداً وَمَهَّدْتُ لَهُ تَمْهِيداً ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ كَلَّا إِنَّهُ كَانَ لِآيَاتِنَا عَنِيداً سَأُرْهِقُهُ صَعُوداً إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ثُمَّ نَظَرَ ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ فَقَالَ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ إِنْ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ سَأُصْلِيهِ سَقَرَ) (8)

----

(1) الكهف من الآية 29 (2) هكذا وجدته في تأويل مختلف الحديث لابن قتيبة ولم أجده عند غيره (3) الإنسان 30
(4) البقرة 35 وما بعدها (5) العنكبوت 40 (6) الإسراء 88 (7) المسد (8) المدثر 11 وما بعدها

ومن ثم علم سبحانه وتعالى أن خير البشرية في إرسال الرسل لهدايتهم إليه وتبليغ منهجه ، وأن يكون هؤلاء الرسل منهم – أي من البشر دون الملائكة أو دون غيرهم من المخلوقات – فكانت مشيئته سبحانه وتعالى بإرسالهم تترا ، رسول يتبع رسول ونبي يعقب نبي ، وفق منهج محدد ووفق أسس ومعايير مقدرة ومحكمة ، وعلم أن هؤلاء الرسل هم خير وأفضل من يؤدون دورهم المنوط القيام به ، فكانت مشيئته اختيارهم على العالمين واصطفائهم على غيرهم من البشر ،

فقال سبحانه (اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلائِكَةِ رُسُلاً وَمِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ) (1)

" ومن ها هنا تعلم اضطرار العباد فوق كل ضرورة إلى معرفة الرسول وما جاء به وتصديقه فيما أخبر به وطاعته فيما أمر ، فإنه لا سبيل إلى السعادة والفلاح لا في الدنيا ولا في الآخرة إلا على أيدي الرسل ، ولا سبيل إلى معرفة الطيب والخبيث على التفصيل إلا من جهتهم ، ولا ينال رضى الله البتة إلا على أيديهم ، فالطيب من الأعمال والأقوال والأخلاق ليس إلا هديهم ، وما جاؤوا به فهو الميزان الراجح الذي على أقوالهم وأعمالهم وأخلاقهم توزن الأقوال والأخلاق والأعمال ، وبمتابعتهم يتميز أهل الهدى من أهل الضلال ، فالضرورة إليهم أعظم من ضرورة البدن إلى روحه ، والعين إلى نورها والروح إلى حياتها ، فأي ضرورة وحاجة فرضت فضرورة العبد وحاجته إلى الرسل فوقها بكثير" (2) ،

والقول فى هذا الباب جم كثير ، وغاية ما أود الوصول إليه هو أن هذه المعايير أو الشروط القدرية هي عبارة عن تنظيم وتدبير من الله لكل ما يتعلق بالرسالة والرسل والمرسل إليهم ، وبدون هذه المعايير وهذا التنظيم تكون الأمور عشوائية لا ضابط لها ولا أساس ، فلا دخل للأنبياء إذن فيها لكونها هبة من الله لهم ومنٌ عليهم ، قال تعالى

على لسان بعض رسله ردا على قومهم الذين يكذبونم (قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِنْ نَحْنُ إِلا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ وَلَكِن اللهَ يَمُن عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ)(3) وإن استحقوا هذه الهبة لتوافر شروطها فيهم ، ولا دخل للمرسل إليهم أيضا فيها ، قال تعالى (وَقَالُوا لَوْلا نُزلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبكَ) (4) ، وإن كان الغرض من ارسال الرسل والأنبياء إليهم هو مصلحتهم ومنفعتهم ،، ومن ثم لا يجوز الدفع بعدم جواز هذه المشيئة أو بطلانا أو نقصانا أو فسادها ، ولا يجوز التعرض لها أو تأويلها إلا بالقدر الذي يتيح البحث عن الحكمة منها

---

(1) الحج 57 (2) ابن القيم زاد الميعاد ج 1 ص69

(3) إبراهيم من الآية 11 (4) الزخرف الآية 31 وما بعدها

معايير الاصطفاء

1- المكان : - نزول الرسالة أو النبوة في **مكان معد سلفا**

فكان المكان الذي بعث فيه موسى عليه السلام هو طور سينين بسيناء مصر ، وكان المكان الذي بعث فيـه عيسى عليه السلام الأرض المقدسة ، وكان لكل نبي مكانه المقدر والمحدد سلفا ، وفى معظم الأحوال يكون مكان النبي هو مكان قومه ومولده بالنظر الى إقليمية الدعوة وبالنظر إلى كونه منهم ويتحدث بلغتهم ، وقد حـدد الله تعالى مكان الرسل تحديدا خاصا له دلالة محددة ، حيث ذكر بأنم من أهل القرى وذلك في قوله تعـالى (وَمَـا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلا رِجَالاً نُوحِي إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى)(1)

والمراد بالقرى المدن لا البوادي ، وسبب ذلك " أن أهل البوادي من أجفى الناس طباعا وأخلاقـا وأن أهـل المدن أرق طباعا وألطف من أهل سواديهم وأهل الريف ، والسواد أقرب حالا من الذين يـسكنون في البـوادي ولهذا قال تعالى :(الْأَعْرَابُ أَشَد كُفْراً وَنِفَاقاً)(2) ، وقال قتادة " لأنم أعلم وأحلم من أهل العمود " (3) ،

وقال الطبري " من أهل القرى يريد المدائن ولم يبعث الله نبيا من أهل البادية لغلبة الجفاء والقسوة على أهـل البدو ولأن أهل الأمصار أعقل وأحلم وأفضل وأعلم ، (4)، لذا فأن أغلب الآيات إن لم تكن كلها تتحدث عـن القرى وأهلها ، بوصفها المكان الذي بعث فيها النبي ، ومن ذلك قوله تعاله (وَلَوْ أَن أَهْلَ الْقُرَى آمَنُـوا وَاتقَـوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنَ السمَاءِ وَالْأَرْضِ ..) (5) ، أما المكان الذي بعث فيه رسول الله صلى الله عليه وسـلم

فهو مكة المكرمة بوصفها أم القرى : قال تعالى (وَلِتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا)(6)، وهي المنطلـق إلى عالميـة الإسلام وهى أشهر مدن الحجاز ومتوسط الجزيرة العربية .وكان (لهذا التوسط من ناحية ولطبيعة العرب الرعـاة الرحل كعنصر حركي من ناحية أخرى إلى جانب التجانس النسبي الكبير فى البيئة الطبيعية الصحراوية بين الموطن والمهجر - مما كفل وحدة الوسط والوسيط - والرمال والجمال أثره فى هذا الزحف التاريخي الطولي)(7)

وكانت مكة معدة منذ بداية الإنسانية لتكون النواة لانطلاقة الإسلام ، حيث بها الكعبة التى مركـز الأرض ، قال شمس الدين السخاوي " إن أول ما خلق الله تعالى في الأرض مكان الكعبة ثم دحا الأرض من تحتها فهي سرة الأرض ووسط الدنيا وأم القرى " (8) ..

----

(1) يوسف: من الآية109) (2) التوبة: من الآية97 (3) بن كثير تفسير الآية 109 من سورة يوسف
(4) تفسير الطبري جزء 13 ص 80 (5) الأعراف:96
(6) الأنعام من الآية 92 (7) عالمية الإسلام للأستاذ/ جمال حمدان (8) مشتهر الأحاديث للسخاوي

2- الزمان : نزول الرسالة أو النبوة في **زمان محدد ومقدر سلف .**

ويقصد بالزمان الفترة الزمنية التي كان يرسل فيها كل نبي ، فكان وقت بعثة أي نبي هو الوقت المناسب لبعثته ، وفقا لما قدره الله في ذلك ووفقا لحاجة البشرية إلى هذه البعثة ، ولم أجد فيما بحثت ما يعينني على الحديث عن الفترات الزمنية التي بعث فيها الأنبياء ، لذا سيقتصر حديثي اجمالا عن الفترة التي بعث فيها رسول الله صـلى الله عليه وسلم ، فهى فترة نضوج الفكر البشري التي أصبح العقل الإنساني فيها مؤهلا لتلقي رسالة السماء النهائيـة وقادرا على حملها والقيام بها ، وليس أدل على ذلك من سرعة انتشار الإسلام انتشارا مذهلا فى فترة زمنية وجيزة " فتح فيها المسلمون فارس ومستعمرات الروم وكانتا أمتان عظيمتان تحملان أرقى المدنيات فى ذلـك العهـد ، وفتحت الشام ومصر مهد الحضارات الفرعونية القديمة والوارثة لحضارات اليونان والرومان وفتحت بلاد المغرب من برقة وتونس والجزائر ومراكش الى مضيق جبل طارق " (1) ، وفى عهد الوليد بن عبد الملك فتحـت الـسند وبخارى وخوارزم وسمرقند والأندلس ، بل نجد على المستوى الفردي ما أن يدخل المرء دين الإسلام حتى يـتمكن من كل جوارحه ومشاعره فيصير أحب اليه من نفسه التى بين جنبيه ويضحي من أجله بكـل عزيـز وغـالى ، والأمثلة على ذلك هى قصة حياة الصحابة بأسرها ، ليس ذلك فحسب بل نلمح هذا النضوج فى الملوك والأمراء الذين كاتبهم رسول الله وأرسل إليهم رسله يدعوهم إلى الإسلام ، فقد أسلم النجاشي أصحمة بن أبجر ، وكـاد

هرقل عظيم الروم والمقوقس ملك مصر أن يسلما لولا أنهما خشيا فقدان ملكيهما ، ولكنهما أكرما وفادة رسول الله صلى الله عليه وسلم وأحسنا إليهم ، وأسلم ملكي عمان ابنا الجلندي من ملوك النصارى على يد عمرو بن العاص رسول رسول الله إليهما ، وأسلم عبد الله بن سلام كبير أحبار اليهود ورهبانهم وسيدهم وابن سيدهم (2) وللتأكد من ذلك قارن بين هذا الرعيل الأول من المسلمين الذين استقبلوا الدعوة الإسلامية وبين اليهود الذين كافح موسى عليه السلام لإخراجهم من أرض مصر والنجاة بهم من بطش فرعون وجنوده ورأوا الآيات والمعجزات تتوالى لهم تترا أثناء وجودهم فى مصر وبعد خروجهم منها، وامتلأ القرآن الكريم بالعديد من الآيات التى تدل على عنادهم وصلفهم وغرورهم وتعنتهم مع نبى الله موسى وكفرهم وجحودهم رغم هذه الآيات والمعجزات حتى وصفهم الله بقوله : (ثُم قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَد قَسْوَةً وَإِن مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجرُ مِنْهُ الْأَنهَارُ وَإِن مِنْهَا لَمَا يَشقَقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ وَإِن مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللهِ وَمَا اللهُ بِغَافِلٍ عَما تَعْمَلُونَ) (3) ولما طلب موسى عليه السلام منهم أن يدخلوا الأرض المقدسة التى أعدها الله لهم ، رفضوا وظلوا على رفضهم رغم هذه الآيات والمعجزات وقالوا (فَاذْهَبْ أَنتَ وَرَبكَ فَقَاتِلا إِنا هَاهُنَا قَاعِدُونَ)(4) فحرمها عليهم ربهم وقضى عليهم بالتيه أربعين سنة مات فيها موسى وهارون دون أن ينفذوا أمرهما أو يقاتلا معهما فقال سبحانه (قَالَ فَإِنهَا مُحَرمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الْأَرْضِ فَلا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ) (5)

----

(1) فجر الإسلام أحمد أمين (2) هداية الحيارى لابن القيم بتصرف (3) البقرة 74 (4) المائدة من الآية 24 (5) المائدة 26

حتى عيسى عليه السلام لم يؤمن معه إلا قليل حتى قيل أن عددهم لم يتجاوز اثنا عشرة رجلا ، وكان إيمانهم بوحي من الله تعالى : قال جلا وعلا (وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيينَ أَنْ آمِنُوا بِي وَبِرَسُولِي قَالُوا آمَنا وَاشْهَدْ بِأَننَا مُسْلِمُونَ) (1) ، ولما أراد أعدائه أن يبطشوا به ويقتلوه لم يتمكنوا من إنقاذه وتركوه هاربين ، ليتدخل سبحانه وتعالى فيرفع نبيه إليه وينقذه من القتل والصلب ويلقى الشبه على خائنه ، وعلى هذه الشاكلة كان كل الأنبياء مع قومهم قال تعالى:(إِنْ كُل إِلا كَذبَ الرسُلَ فَحَق عِقَابِ)(2) وليس ذلك معناه نجاح رسول الله صلى الله عليه وسلم فى دعوته بينما اخفق باقي الأنبياء ، وإلا عد ذلك إنقاصا لقدرهم وطعنا فى أمانتهم ، فقد جاهدوا بنفس القدر من الجهد ، ولم يألوا جهدا فى سبيل تبليغ رسالة ربهم ، وليس معناه أيضا عظم رسالة الإسلام عن سائر الرسالات والكتب السماوية الأخر ، لأن معيار التفاضل بين الكتب والأديان السماوية ليس من هذا الوجه ، ولكن من وجه أخر سوف نزيده إيضاحا فيما بعد وهو أن الإسلام كان المرحلة النهائية فى اكتمال الشرائع والرسائل السماوية ، كما أن هيمنة القرآن على الكتب السماوية ليست من هذا الوجه أيضا ، فكل من عند الله وكل الأديان خرجت من مشكاة واحدة وكلها تدعو الى الإسلام قال تعالى" (وَقَالَ مُوسَى يَا قَوْمِ إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللهِ فَعَلَيْهِ تَوَكلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُسْلِمِينَ)(3) وقال (قَالَ الْحَوَارِيونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللهِ آمَنا بِاللهِ وَاشْهَدْ بِأَنا مُسْلِمُونَ)(4) وهكذا كل الأديان وتلك دعوة كل الأنبياء ، إنما هى الحقيقة تطل بوجهها المشرق المنير من بين صفحات كتب

السيرة وحياة الصحابة تنطق بالحق وتعرف به وتدل عليه ، إنم المهاجرين والأنصار والتابعين من بعدهم بإحسان ، أنضج العقول وأكملها، وأرق الأفئدة وأشرفها، وأعظم الرجال واصدقها، وأطهر القلوب وأسلمها ، هم الذين أعانوا نبيهم ونصروه وآزروه وأيدوه وحملوا معه أعباء الدعوة ونشروا الإسلام فى ربوع الأرض ، ولولاهم ما تحقق لهذا الدين الخلود ، لذا يمكن القول بأن الفترة الزمنية التى ظهر فيها الإسلام كانت أنسب الفترات ، لا بالمقارنة لما قبلها فحسب ولكن بالمقارنة لما بعدها أيضا ، ؟ وعدم صلاحية الفترة الزمنية اللاحقة لا يرجع إلى ضعف الدعوة الإسلامية أو لعدم قدرتا أو قدرة نبيها على إنجاحها ، وإنما لذات المعيار الخاص بالفترة السابقة ، وهو عدم وجود هذا الرعيل الأول من المهاجرين والأنصار أو مثلهم ممن تكون لديه القدرة والعزيمة على حمل لواء الإسلام والإيمان واليقين بما ، وإلا ما آلت الأمة الإسلامية إلى ما آلت إليه الآن وبعد الآن ، فضلا عن هذا التقدم التكنلوجي الذي يبدد أي تخيل أو تصور لظهور نبي أو دين جديد ، في عصر وعصور لاحقة له تقيس كل شيء بمعيار العقل والعلم . بما في ذلك علامات الساعة التي نبأ با الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم ، فالزلازل مثلا جعل رسول الله صلى الله عليه وسلم كثرتا علامة على الساعة (5) بينما نظر إليها مترفي القرى والمفسدين فيها من منظور علمي بحت وفسروها بتغيرات في باطن الأرض وماشابه ، إذن ما كان الزمان يصلح من قبل ومن بعد وصدق الله القائل (إنا كُل شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ) (6)

----

(1) المائدة 111 (2) ص 14 (3) يونس 84 (4) آل عمران من الآية 52
(5)صحيح البخاري 989 (6) القمر 49

3- المعجزة :

أن يكون مع النبي معجزة إلهية تؤيده هي من صنع الله ولا يد للنبي أو الرسول فيها ، وكان لكل نبي معجـزة تناسب قومه وزمانه ، وكانت معجزة رسول الله صلى الله عليه وسلم القرآن ، معجزة تناسب التفـوق اللغـوي والبياني للعرب من ناحية ودسـتورا يكفي العالمين حتى قيام الساعة من ناحية أخرى ، أما معجزاته الأخـرى صلى الله عليه وسلم والمعبر عنها بالمعجزات المادية فأن لها معلما آخر سنبينه في حينه بإذن الله تعالى (1) .

وتقوم حكمة المعجزة على دحض الحجج التي يمكن أن يتذرع با المرسل إليهم ، وحتى تكون للرسول الحجة والدليل فى بعثته من قبل ربه ، وليثبت أن دعوته ليست من صنع يديه . وفي ذلك يقول بن تيمية " المعجزة من أتم الطرق عند أهل الكلام والنظر حيث يقررون نبوة الأنبياء بالمعجزات ولا ريب أن المعجزات دليل صحيح لتقريـر نبوة الأنبياء لكمال الإيمان " (2) ،

وقال الجوينى "لا دليل على صدق النبي غير المعجزة فإن قيل هل فى المقدور نصب دليل علـى صدق الـنبي غير المعجزة ؟ قلنا ذلك غير ممكن فإن ما يقدر دليلا على الصدق لا يخلو إما أن يكـون معتادا ، وإما أن يكـون خارقا للعادة فإن كان معتادا يستوي فيه البر والفاجر فيستحيل كونه دليـلا وإن كان خارقا للعادة يجوز تقـدير

وجوده ابتداء من فعل الله فإذا لم يكن بد من تعلقه بالدعوى فهـو المعجزة بعينها "(3) ، والمعجـزة تتفـاوت بتفاوت الدور النوط به النبي أو الرسول والقوم المرسل إليهم ،

فقد كان المناسب لقوم ثمود مثلا الناقة بوصفهم قوم بدو وصحاري وكانوا يتخذون من الجبال بيوتا ، قـال تعالى (وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحاً قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ هَذِهِ نَاقَةُ اللهِ لَكُمْ آيَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللهِ وَلا تَمَسوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ)(4) ، وأعطى الله عيسى عليـه السلام بعض الآيات على الرغم من أنه لم يأتي بشرع جديد وإنما كان تشريعه مكملا للتوراة وذلك لطبيعة القوم الذين أرسل إليهم الذين طغت عليهم المادية وأصبحوا لا يؤمنون إلا بكل ماهو مادي فقال :

(وَرَسُولاً إِلَى بَنِي إِسْرائيلَ أَني قَدْ جِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبكُمْ أَني أَخْلُقُ لَكُمْ مِنَ الطينِ كَهَيْئَةِ الطيْرِ فَـأَنْفُخُ فِيـهِ فَيَكُونُ طَيْراً بِإِذْنِ اللهِ وَأُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ وَأُحْيِي الْمَوْتَى بِإِذْنِ اللهِ وَأُنَبئُكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَـدخِرُونَ فِـي بُيُوتِكُمْ إِن فِي ذَلِكَ لَآيَةً لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ) (5)

----

(1) سيأتي ذلك في الباب الثالث الخاص بالتفاضل (2) العقيدة الأصفهانية ج 1 ص120

(3)الإرشاد الجزء الثاني (3) بديع القرآن ص 307 (4) الأعراف 73 (5) آل عمران 49

وقد بين القرآن الكريم بعض المعجزات لبعض الأنبياء ، وأنبياء آخرين لم يبين لنا الله تعالى معجزاتم صراحة ، إلا أن ذلك لا يمنع عدم تأييدهم بمعجزة أو كرامة على أقل تقدير تعينهم على أداء رسالتهم ، وضرورة المعجزة أمر ثابت في سائر الكتب السماوية السابقة ففي التوراة :

" جعل الله تجليته هو المعجزة ودليل النبوة . لما تجلى لموسى فى سيناء ليرسله إلى بنى إسرائيل وإلى فرعون وملأه ، وثبت له وللناس رسالته بمعجزة العصا ومعجزة اليد البرصاء (1)

ثم ارسله والمعجزة بيده " خذ بيدك العصا تصنع با المعجزات ، وصنع موسى المعجزات على عيون الـشعب فأمن الشعب" (2) ، وفى الإنجيل جعل الله تعالى المسيح عليه السلام هو المعجزات ودلائل النبـوة " إن كنـت لا أعمل أعمال أبي (المكتوب عندهم أبي وهو تحريف) فلا تصدقونى . ولكن إن كنت أعمالهـا ولا تريـدون أن تصدقوني فصدقوا هذه الأعمال " (3) ، ثم يستشهد بالكتاب لنفسه ويستشهد بسابقة يحـيى المعمـدان ولكنـه يستشهد خصوصا بأعماله المعجزة :

"وإن لى شهادة أعظم من شهادة يوحنا إن الأعمال التى أتانى الله (الآب) أن اعملها هذه الأعمال عينها التى أنا أعملها هى تشهد لى بأن الله (الآب) قد أرسلنى " (4) .

والله تعالى في القرآن يسمى المعجزة سنة الأولين التى لا تبديل لها ولا تحويل

فقال سبحانه (فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلا سُنتَ الْأَولِينَ فَلَنْ تَجِدَ لِسُنتِ اللهِ تَبْدِيلاً وَلَنْ تَجِدَ لِسُنتِ اللهِ تَحْوِيـل) (5) ويسمى المعجزة أيضا " السلطان المبين " فيقول تعالى (وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مبين)(6) وإن كنت لم أقف في الحقيقة على تفسير مفصل لقوله تعالى (قَالُوا يَا هُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَنْ قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ) (7) إذ فسرت معظم التفاسير هذه الآية تفسيرا ظاهريا بسيطا ، مجمله أن هود عليه السلام لم يأتم بآية بينة (8) فهل معنى ذلك أن هود عليه السلام لم يأتي بخارق كما قال بن كـثير في قـصص الأنبيـاء ، وبالتالي تكون المعجزة ليست شرطا لازما للنبوة ، خاصة وأن بن كثير يؤكد ذلك في ذات المصدر بقوله مفـسرا الآية "وما نحن بالذي نترك عبادة أصنامنا عن مجرد قولك بلا دليل أقمته ولا برهان نصبته ؟ (9) أم أن الله تعالى لم يقص خبر المعجزة التي أيد بها نبيه هود باعتبارها خبر غير مؤثر في سرد قصته ؟

----

(1) الخروج 3-4:2 (2) الخروج 18-34: 4 (3) يوحنا 37-38 : 10 (4) يوحنا 36 : 5

(5) فاطر 34 (6) غافر 23 (7) هود 53 (8) تفاسير بن كثير والقرطبي والجلالين

(9) قصص الأنبياء لابن كثير قصة هود ص81

4 - الرسالة أو الشريعة أو المنهج .

فكان لكل نبي أو رسول منهجا وشريعة تناسب الزمان والمكان والقوم والإقليمية . وكما أن الله قص علـى نبيه رسلا ولم يقصص عليه رسلا ، فلا شك أنه قص عليه كتبا ولم يقصص عليه أخر .

قال تعالى (لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ)(1)

وقال سبحانه (لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجاً)(2) ، وفى هذا الصدد عقد شيخ الإسلام بن تيميه فصلا في بيان وحدة الأديان واختلاف الشرائع فاستند إلى قوله صلى الله عليه وسلم " إنا معاشر الأنبياء ديننا واحد "(3) وقول الله تعالى (وَإِن هَذِهِ أُمَتُكُمْ أُمةً وَاحِدَةً وَأَنا رَبكُمْ فَاتقُونِ) (4) أي ملتكم ملة واحدة وقوله (إنا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمة)(5) أي على ملة وقوله سبحانه :-

(شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدينِ مَا وَصى بِهِ نُوحاً وَالذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُـوا الدينَ وَلا تَتَفَرقُوا (6)

ثم قال رحمه الله " فدين الأنبياء واحد وهو دين الإسلام ، إلا أن بعض الشرائع تتنوع ، فقد يشرع في وقـت أمرا لحكمة ثم يشرع في وقت آخر أمرا آخر لحكمة ، كما شرع في أول الإسلام الصلاة إلى بيت المقدس ثم نسخ ذلك وأمر بالصلاة إلى الكعبة ، فتنوعت الشريعة والدين واحد وكان استقبال الشام من ذلك الوقت مـن ديـن الإسلام وكذلك السبت لموسى من دين الإسلام ، ثم لما صار دين الإسلام هو الناسخ وهو الصلاة إلى الكعبـة ، فمن تمسك بالمنسوخ فليس على دين الإسلام ولا هو من الأنبياء ومن ترك شرع الأنبياء وابتدع شرعا فـشرعه باطل لا يجوز اتباعه لقوله (أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُمْ مِنَ الدينِ مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللهُ)(7) ، ولهذا كفرت اليهـود والنصارى لأنهم تمسكوا بشرع منسوخ والله أوجب على جميع الخلق أن يؤمنوا بجميع كتبه ورسله ومحمد خـاتم الرسل ، فعلى جميع الخلق اتباعه واتباع ما شرعه من الدين وهو ما أتى به من الكتاب والسنة .

وفي موضع آخر يقول " فدين الأنبياء والمرسلين دين واحد وإن كان لكل من التوراة والإنجيل والقرآن شرعة ومنهاج ولهذا قال صلى الله عليه سلم في الحديث المتفق على صحته عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم " إنا معشر الأنبياء ديننا واحد وإن أولى الناس بابن مريم لأنا، إنه ليس بيني وبينه نبي " فدين المرسلين يخالف ديـن المشركين المبتدعين الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعا (8)

----

(1)الحديد 25 (2)المائدة 48 (3) صحيح البخاري 3442 م 2365 عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : "نحن معاشر الأنبياء أخوة لعلات ديننا واحد (4) المؤمنون 52 (5) الزخرف 23

(6) الشورى من الآية 13 (7) الشورى من الآية 21 (8) الجواب الصحيح على من بدل دين المسيح ج 1

ثانيا :- معايير الأنبياء

الثانية هي المعايير المتعلقة بالمصطفين من الرسل :

وهى الصفات المشترط توافرها فى الرسل بصفة عامة بما فيهم رسول الله صلى الله عليه وسـلم ، والـصفات المشترط توافرها في الرسول الخاتم بصفة خاصة ، وهذه الصفات أو الشروط وإن كانت قدرية أيضا إلا أن بعضها نتيجة كسب من النبي المرسل واجتهاد منه فتنسب إليه ، وأقصد بذلك على وجه التحديد المعيار الخلقي ، باعتبار أن أخلاق النبي كواحد من البشر نابعة من مشيئته المحضة في الفعل وإرادته وقدرته ، وعلى هذا الأساس اقتـضت مشيئة الله ، وعلى ضوء علمه المسبق اختيار هذا النبي أو ذاك لحمل أمانة الدعوة والتبليغ .

وهذه المعايير هي :-

المعيار النوعي

اللغة

الحرية والحسب والنسب

المعيار الأخلاقي .

المعيار العقلي .

المعيار الشكلي .

السن .

يزيد عليها ما يخص رسول الله صلى الله عليه وسلم وحده بوصفة الرسول الخاتم وهي

الاسم والصفة .

الأمـ ـ ـ ـ ـية .

المـ ـ ـ ـنعة .

ألا يعقب ولدا .

1-المعيار النوعي :

ويقصد به أن يكون النبي المقتضى ارساله رجلا لا امرأة ، وقد حدد الله سبحانه وتعالى ذلك على وجه قاطع في عديد من الآيات ، من ذلك قوله تعالى (وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلا رِجَالاً نُوحِي إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى)(1) وقوله (وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلا رِجَالاً نُوحِي إِلَيْهِمْ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ) (2) ،

وقال تعالى مؤكدا على أنه لا ينبغي للنبي أو الرسول إلا أن يكون رجلا (وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكاً لَجَعَلْنَاهُ رَجُلاً وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِمْ مَا يَلْبِسُونَ) (3) وقال تعالى (أَوَعَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِنْكُمْ لِيُنْذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ) (4) بل وكان المشركون من العرب يفهمون ذلك ، فعلى الرغم من تعجبهم بارسال واحد من البشر وليس من الملائكة ، إلا أنهم لم يتعجبوا من إرساله رجلا ، فقال تعالى (وَقَالُوا لَوْلا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ) (5) ، ولم يكن قوله تعالى (أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَباً أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ مِنْهُمْ أَنْ أَنْذِرِ النَّاسَ وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا)(6) اشارة إلى تعجبهم من إرساله رجلا ، ولكن اشارة إلى تعجبهم من اختيار محمد بن عبد الله بالذات دون غيره من الرجال رسولا ، وفي ذلك يقول بن كثير في تفسيره لاية الزخرف سالفة الذكر " وذلك أنهم قبحهم الله كانوا يزدرون بالرسول صلوات الله وسلامه عليه بغيا وحسدا وعنادا واستكبارا كقوله تعالى مخبرا عنه (وَإِذَا رَأَوْكَ إِنْ يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُواً أَهَذَا الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ رَسُولاً) (7) هذا مع اعترافهم بفضله وشرفه ونسبه وطهارة بيته ومرباه ومنشئه صلى الله عليه وسلم (8)

وقال القرطبي " قال العلماء من شرط الرسول أن يكون رجلا آدميا مدنيا وإنما قالوا آدميا تحرزا من قوله يعوذون برجال من الجن والله أعلم (9) كما قال بن كثير في تفسير قوله تعالى (وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالاً نُوحِي إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى) (10) " أخبر تعالى أنه إنما أرسل رسله من الرجال لا من النساء وهذا قول جمهور العلماء كما دل عليه سياق هذه الآية الكريمة أن الله تعالى لم يوح إلى امرأة من بنات آدم وحي تشريع " ، ثم يقول في ذات الموضع " والذي عليه أهل السنة والجماعة والذي نقله الشيخ أبو الحسن علي بن إسماعيل الأشعري عنهم أنه ليس في النساء نبية ، وإنما فيهن صديقات كما قال تعالى مخبرا عن أشرفهن مريم البتول (مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلانِ الطَّعَامَ) (11)فوصفها في أشرف مقاماتها بالصديقة ، فلو كانت نبية لذكر ذلك في مقام التشريف والإعظام فهي صديقة بنص القرآن "(يؤكد ذلك بن تيميه في الجواب الصحيح حيث قال " وقد حكى الإجماع على انه لم يكن في النساء نبية "(12) وروي عن الحسن قوله " لم يبعث الله نبيا من أهل البادية قط ولا من النساء ولا من الجن " (13)

----

(1) يوسف من الآية109 (2) النحل:43 (3) الأنعام:9 (4) الأعراف:63 (5) الزخرف:31
(6) يونس من الآية2 (7) الفرقان:41 (8)تفسير بن كثير جزء 2 / 174
(9) تفسير القرطبي للآية ج9ص274 (10) يوسف من الآية109 (11) المائدة من الآية75
(12) الجواب الصحيح على من بدل دين المسيح ج 2ص 349 (13) تفسير الطبري ج 13 ص 80

2- اللغة ، أن يكون النبي من القوم المرسل إليهم.

ولذلك تجده سبحانه وتعالى يعبر عن النبي المرسل إلى قومه بأنه أخاهم ، فيقول عن سيدنا هود عليه السلام على سبيل المثال ومثله سائر الأنبياء (وَاذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنْذَرَ قَوْمَهُ بِالْأَحْقَافِ)(1) ودائما يجعل سبحانه وتعالى نداء

النبي لقومه بـ يا قومي كقوله تعالى (يَا قَوْمِ لا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِنْ أَجْرِيَ إِلا عَلَى الَّذِي فَطَرَنِي أَفَلا تَعْقِلُونَ)(2) ، بما يعنى وجوب أن يكون النبي من القوم المرسل إليهم ، كما يقتضي التحدث بلغتهم فذلك قوله تعالى (وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلا بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ)(3) أي ليبين لهم ما أنزل إليهم حتى لا يكون هناك عائقا يحول بينه وبينهم . قال سفيان الثوري كل نبي أنزل كتابه بلسان قومه ،

وبالنسبة لرسول الله صلى الله عليه وسلم فقد قال فيه سبحانه وتعالى (لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ)(4) وقال (هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِنْهُمْ) (5) ولغة الإسلام هي العربية وهى أعظم اللغات والألسنة التي نطق بها البشر حتى قيل أنها أول اللغات ، وقيل أنها اللغة التى تكلم بها آدم عليه السلام وأنها لغة أهل الجنة ، فعن بن عباس قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " أحبوا العرب لثلاث لأني عربي والقرآن عربي وكلام أهل الجنة عربي (6) ، وقال مقاتل " لسان أهل السماء عربي " وليست عظمتها لأنها لغة القرآن فحسب ولكن لغناها وشمولها وكثر تصاريفها وحلاوة نطقها " لذا كان الشعراء فى الجاهلية هم العلماء وكانوا من أرقى الطبقات عقلا وقد سجلوا بالشعر عاداتهم وأخلاقهم وحروبهم وسلمهم وعقائدهم وفخرهم " (6) ، ثم ازدادت اللغة العربية ثقلا وجمالا بعد نزول القرآن ، وكان التحدي ببيان القرآن وفصاحته وبلاغته مالم يقوى عربي حتى تاريخه على الإتيان بمثل أية واحدة من آياته ، ويفسر بن القيم معنى ذلك بقوله " فلما جعل الله القرآن عربيا ويسره بلسان نبيه صلى الله عليه وسلم كان ذلك فعلا من أفعال الله جعل القرآن به عربيا . يعني هذا بيان لمن أراد الله هداه وليس كما زعموا – يقصد الزنادقة والجهمية – معناه أنزل بلسان العرب (7)

لا يقدح في ذلك ورود بعض الكلمات الخارجة عن لغة العرب في القرآن الكريم مثل " المشكاة وهي الكوة وناشئة الليل أي قام من الليل ، وكفلين أي ضعفين ، وقسورة أي الأسد فذلك بلسان الحبشة ، والغساق أي البارد بلسان الترك ، والقسطاس أي الميزان بلغة الروم ، والسجيل الحجارة والطين بلسان الفرس ، والطور الجبل واليم البحر بالسريانية ، والتنور وجه الأرض بالعجمية " إذ حقيقة هذه الكلمات والعبارات أنها في الأصل أعجمية لكن استعملتها العرب وعربتها فهي عربية بهذا الوجه" وقد استعمل رسول الله صلى الله عليه وسلم بعض الكلمات الغير عربية مثل الهرج في قوله صلى الله عليه وسلم " ثم إن بين يدي الساعة أياما يرفع فيها العلم وينزل فيها الجهل ويكثر فيها الهرج " (8) والهرج القتل بلسان الحبشة (9)

----

(1)الأحقاف من الآية 21 (2) هود 51 (3) إبراهيم من الآية 4 (4) التوبة 128

(5) الجمعة من الآية4 (6) فجر الإسلام للأستاذ/ أحمد أمين (7) فصل في فضل العرب لابن القيم ص

(8) صحيح مسلم 2056 (9) لسان العرب جزء 2 ص 389 نقلا عن مقاتل

3- الحرية والحسب والنسب

أما الحرية فهي شرط مفترض وبديهي ، إذ لا يستقيم أن يكون النبي عبدا لغيره من الناس ويدعو إلى عبـادة رب الناس ، فضلا عما في العبودية من مانع وشغل عن الدعوة ، " لذا اختلف السلف في لقمان هل كان نبيا أم

عبدا صالحا على قول الآكثرين بالثاني ، فقال ابن عباس " كان لقمان عبدا حبشيا نجارا ، وقال قتادة عن عبد الله بن الزبير " قلت لجابر بن عبد الله ما انتهى إليكم من شأن لقمان ؟ قال كان قصيرا أفطس الانف من النوبة " ، وقال سعيد بن المسيب " كان لقمان من سودان مصر ذو مشافر أعطاه الله الحكمة ومنعه النبوة " ، وقال شعبة عن الحكم عن مجاهد كان لقمان عبدا صالحا ولم يكن نبيا ، فهذه الآثار منها ما هو مصرح فيه بنفي كونه نبيا ومنها ما هو مشعر بذلك لأن كونه عبدا قد مسه الرق ينافي كونه نبيا لأن الرسل كانت تبعث في أحساب قومها ولهذا كان جمهور السلف على أنه لم يكن نبيا ، وإنما ينقل كونه نبيا عن عكرمة إن صح السند إليه قال كان لقمان نبيا وهو ضعيف (1)

وأما النسب والحسب فهما لفظان يكاد يجمعهما معنى واحد ، إذ النسَبُ يعني القَرابةُ؛ وقيل هو في الآباء خاصةً؛ ومصدرُه الاِنتِساب (2) ويعني في مجال حديثنا : التحاق النبي وانتسابه إلى نسل شريف لم يمسسه سفاح أو بغاء ، وهو ما عرف عنه كل الأنبياء والرسل ، حيث لم يثبت ولم يدعي أحد عن نبي غير ذلك ، وروي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قوله في الحديث الذي رواه عنه علي بن أبي طالب رضي الله " خرجت من نكاح ولم أخرج من سفاح من لدن آدم إلى أن ولدني أبي وأمي " (3) .. فيما يعني الحسب عراقة السلالة النبوية التي تمتد جذورها إلى آدم عليه السلام وطيب أصلها ، فقال صاحب معجم المختار " الحَسَبُ أيضا ما يعده الإنسان من مفاخر آبائه " (4)

وقد تلمست هذا الشرط من قول بن كثير في تفسيره لسورة لقمان الذي أشرت إليه آنفا الذي هو " لأن الرسل كانت تبعث في أحساب قومها " وقول هرقل عظيم الروم لأبي سفيان في الرواية الطويلة و المشهورة عنه " كذلك الأنبياء تبعث في أنساب قومها " وذلك عندما سأل أبو سفيان بعض الأسئلة عن رسول الله عليه وسلم ، فكان مما سأله إياه سؤاله عن نسبه صلى الله عليه وسلم ، فأجابه أبو سفيان بقوله هو فينا ذو نسب " (5) وفي بعض الحديث قوله صلى الله عليه وسلم " أنا من خيار إلى خيار " (6)

---

(1) تفسير القرطبي لسورة لقمان بتصرف (2) لسان العرب

(3) رواه الطبراني في الأوسط وقال الهيثمي فيه محمد بن جعفر صحح له الحاكم في المستدرك وقد تكلم فيه وبقية رجاله ثقات

(4) مختار الصحاح (5) الرواية بكاملها في صحيح البخاري برقم 7 باب بدء الوحي

(6) قال الهيثمي في الزوائد ضعيف ، وذكره الجرجاني في الكامل في ضعفاء الرجال 422 وضعفه الألباني في السلسلة الضعيفة

4 - المعيار الأخلاقي :-

ويقصد به الدرجة الأسمى والأعظم من مكارم الأخلاق التى يجب أن يتحلى بها النبي ، فلا يصح ولا يتفـق أن تشوب النبي ثمة نقيصة أو عيب أخلاقي ، وهذه الدرجة وصل إليها كل الأنبياء الذين قصهم الله تعالى على نبيـه محمد وأولئك الذين لم يقصصهم عليه ، إذ من الطبيعي أنه إذا اتصف المعلومين من الأنبياء بصفات الخلق الحـسن فأن الغير معلومين موصفين أيضا بذات الخلق . لأن المبدأ واحد لا يتجزأ ، فموسى عليه السلام وصفه الله تعالى فى القرآن على لسان إحدى السيدتين التى سقا لهما بأنه القوى الأمين فتقول لأبيها (يَا أَبتِ اسْتَأْجِرْهُ إِن خَيْرَ مَـنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِي الْأَمِينُ) (1) ويصفه الله في موضع آخر بقوله (وَكَانَ عِنْدَ اللهِ وَجِيهاً)(2)

ويوسف عليه السلام راودته إمرأة العزيز ونساء المدينة فقال (قَالَ رَب السجْنُ أَحَب إِلَي مِما يَدْعُونَنِي إِلَيْه (3) ورغم ذلك قبل السجن عن هذا الابتلاء ولم يقبل عفو الملك عنه الا أن يبرأ حقيقة وفعلا ، لعلمه أن النبـوة لا تتحقق بشك فى خلقه عليه السلام (وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ فَلَما جَاءَهُ الرسُولُ قَالَ ارْجِعْ إِلَى رَبكَ فَاسْأَلْهُ مَا بَـالُ النسْوَةِ اللاتِي قَطعْنَ أَيْدِيَهُن إِن رَبي بِكَيْدِهِن عَلِيمٌ) (5)

وبهذا السمو الأخلاقي والترفع عن الصغائر والكبائر عرف جميع الأنبياء والمرسلين ، وذلك بغض النظر عما ذكر عن بعض الأخطاء المنسوبة إلى بعضهم بكتاب الله تعالى وبكتب القصص النبوي الصحيحة ، حيث لا ينبغي التعامل مع هذه الأخطاء من المنظور الأخلاقي البحت ، إنما ينبغي النظر اليها كأحداث منفصلة لا تعبر بذاتها عن سوء خلق أو سوء طوية ، وبحيث لا ينظر الى الحدث مجردا ولكن ينظر إليه بمراعاة الظروف والعوامل التي أحاطته

فيوسف عليه السلام لم يهم بامرأة العزيز لسوء خلقه ، وإنما هم بها لكونه رجل به من الفحولة والرغبة ما حرك بداخله شهوته ، خاصة وأنها استعدت له استعدادا يضعف أمامه ذوو العفة والحصانة ، فغلقت الأبـواب وتزينـت بأحسن الزينة وتعطرت وحاولت وقالت هيت لك ، مدعمة رغبتها بجمالها ونفوذها وسطوتها ، ولكنه امتنع عنـدما رأى برهان ربه ، وباليقين الذي أستقر في وجدانه ، فتغلب على مشاعره وكبح جماح شبقه وقهره في حينه ، وهـذا أبلغ وأصدق في قوة الإيمان واليقين والخلق السامي عند يوسف عليه السلام ، إذ لو كان معيبا مثلا أو جاف المشاعر والأحاسيس ، أو كان برهان ربه شيئا ماديا مرئيا ملموسا كما جاء ببعض التفسيرات من أنه رأى أبوه يعقـوب أو رأى وجه أبيه ظاهرا فى الحائط لما كان من الرواية معنى (6) ومن ثم ينظر إلى هذا المواقف ومثيله من المواقف النبوية من منظور الابتلاء الذي نجح فيه النبي والذي يدل على استحقاقه النبوة

----

(1) القصص (2) الأحزاب من الآية 69 (3) يوسف من الآية 33 (5) يوسف 50 (6) نقل الطبري في تفـسيره لقوله تعالى (وَلَقَدْ هَمتْ بِهِ وَهَم بِهَا لَوْلا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبهِ (يوسف: من الآية24) عن بن عباس وسعيد بن جبير وغيرهـم قـولهم بروايات متقاربة " رأى صورة فيها وجه يعقوب عاضا على أصابعه فدفع في صدره فخرجت شهوته من بين أنامله

يقول الأمام أحمد بن حنبل " الهم همان هم خطرات وهم إصدار . وقد ثبت في الصحيح عن النبي صـلى الله عليه وسلم عن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم قال الله عز وجل إذا هم عبدي بسيئة فـلا تكتبوها عليه فإن عملها فاكتبوها سيئة وإذا هم بحسنة فلم يعملها فاكتبوها حسنة فإن عملها فاكتبوها عشرا (1) ويوسف هم هما تركه لله ولذلك صرف الله عنه السوء والفحشاء لإخلاصه . وذلك إنما يقوم إذا قـام المقتـضى للذنب وهو الهم وعارضه الإخلاص الموجب لانصراف القلب عن الذنب لله . فيوسف لم يصدر عنه إلا حـسنة أثيب عليها قال الله (إن الذِينَ اتقَوْا إِذَا مَسهُمْ طَائِفٌ مِنَ الشيْطَانِ تَذَكرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ)(2)(3)

ويسوق الإمام الرازي شهادة الشهود في مشهد بديع فيقول .

أما شهادة الزوج فقوله تعالى " (إِنهُ مِنْ كَيْدِكُن إِن كَيْدَكُن عَظِيمٌ)(4)

وأما شهادة الحاكم فقوله تعالى " (إِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُد مِنْ قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ الْكَاذِبِينَ وَإِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُد مِنْ دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ الصادِقِينَ) (5) وشهادة النسوة فقوله تعالى (قُلْنَ حَاشَ لِلهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ)(6)

وشهادة الملك فقوله تعالى (إِنكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ)(7) وأما ادعاء يوسف فقوله (هِيَ رَاوَدَتْنِي عَنْ نَفْسِي)(8)

وكان دفاع الخصم فقوله تعالى " (وَلَقَدْ رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ)(9)

وقولها " (الْآنَ حَصْحَصَ الْحَق أَنَا رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ وَإِنهُ لَمِنَ الصادِقِينَ)(10)

وأما اعتراف إبليس فقوله تعالى (وَلَأُغْوِيَنهُمْ أَجْمَعِينَ إِلا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ) (11)

ووصفه الله تعالى بقوله " (إِنهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ) (12) (13)

وكذا موسى عليه السلام عندما قتل المصري الذي كان يقتتل مع أحد اليهود هو تصرف لا يكشف عن سـوء خلق ورغبة فى القتل خاصة وأنه كان فى هذا الوقت وحيدا فقيرا حتى اضطر إلى الهرب ، إنما هو موقف اضُطر إليه موسى عليه السلام لما استغاث به اليهودي وعندما تدخل لإنقاذه لم يفعل إلا أن وكز المصري وكزة واحدة كان فيها هلاكه لضعف فيه أو لقوة في موسى عليه السلام وكان عليه السلام معروفا بقوته الجسدية حتى قبل بعثتـه ، وهو ماكان له أكبر الأثر في مهابة بنى إسرائيل له ، ذهب الجبائي إلى أن القتل كان بغير قصد وإنه كان على سبيل المدافعة للظالم . (14) وبالنسبة لنبينا صلى الله عليه وسلم فقد بلغ الدرجة الأسمى والأعلى من الأخـلاق الـتى تعدى بها الكمال البشرى . وفاق بها حدود التصور والخيال . إلى الحد الذي يصفه به سبحانه وتعالى بقوله (وَإِنكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ) ولم يلحق هذا الوصف محمدا بعد البعثة فحسب ولكن قبلها . وما كانت النبوة إلا تجلية لهـذا الخلق وتأديبا إلهيا وإعدادا من الله مباشرا وارتفاعا به الى مصاف الأنبياء .

----

(1) صحيح مسلم 128 (2) الأعراف 201 (3) نقلا عن كتاب عصمة الأنبياء د/ محمود ماضي (4) يوسف من الآية 28 (5) يوسف 27 (6)يوسف من الآية 51 (7) يوسف من الآية 54 (8) يوسف 26 (9) يوسف 32 (10)يوسف من الآية 51 (11) الحجر 40 (12) يوسف من الآية 24 (13) نقلا عن المصدر السابق (14) الفصل لابن حزم ج الرابع

5 - المعيار العقلي .

وهو سلامة العقل وصحته فلا يجدر بالنبى أن يعيبه عيب فى عقله كالجنون أو الخبل ، أو ضعف فى الإرادة كفقدان الأهلية أو نقصها ، وسلامة العقل كانت هى سمة الأنبياء والرسل جميعا ، فتأمل حجة إبراهيم وسرعة بديهته وتوقد ذهنه وهو يبهت النمرود عندما قال له إبراهيم (فَإِن اللهَ يَأْتِي بِالشمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِب)(1) فيصف الله سبحانه وتعالى أثر الحجة الدامغة على الطاغية فيقول سبحانه (فَبُهِتَ الذِي كَفَر) (2)

وانظر اليه عليه السلام يجادل قومه بالحجة والعقل فيقول الله تعالى بعد أن أراه ملكوت السماء فأصبح من الموقنين (وَحَاجهُ قَوْمُهُ قَالَ أَتُحَاجونِي فِي اللهِ وَقَدْ هَدَانِ وَلا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلا أَنْ يَشَاءَ رَبي شَيْئاً وَسِعَ رَبي كُل شَيْءٍ عِلْماً أَفَلا تَتَذَكرُونَ) (3) ثم يقول سبحانه عنه (وَتِلْكَ حُجتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ إِن رَبكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ) (4) فأقنعهم بالنظر والتأمل أن هذه الآلهة لا تصلح للعبودية ، ثم يقدم لهم الدليل على جهلهم وقصر نظرهم بعبادة الأصنام فيحطم أصنامهم ويدع كبيرا لهم ، وعندما يكتشف قومه فعلته يقول لهم (بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا فَاسْأَلُوهُمْ إِنْ كَانُوا يَنْطِقُونَ)(5) ، وهكذا كان كل الأنبياء وهكذا كان يقدم كل نبي حجته العقلية لقومه حتى إذا فشل معهم علوا وغرورا منهم ، قدم المعجزة أو الآية التي يطلبوها .

وكانت تصرفات نبينا عليه الصلاة والسلام تتصف بالسلامة العقلية ، وكان وصف الكفار له عليه الصلاة والسلام بالجنون ضربا من العناد والمكابرة والصلف والغرور ، وأعانته هذه السلامة العقلية على دعوته فكان يدعو قومه بالحجة والموعظة الحسنة ويجادلهم بالتى هى أحسن . ومن أجمل ما قرأت في هذا الصدد قول وهب بن منبه قال " قرأت احدى وسبعين كتابا فوجدت أن الله عز وجل لم يعط جميع الناس من بدء الدنيا إلى إنقضائها من العقل في جنب عقل محمد صلى الله عليه وسلم إلا كحبة رمل من بين رمال جميع الدنيا وأن محمدا صلى الله عليه وسلم أرجح الناس عقلا وأفضلهم رأيا"(6)

----

(1) ، (2) البقرة من الآية 258 (3) البقرة من الآية 258
(4) الأنعام 80 (5) الأنعام 83 (6) الشفاء للقاضي عياض وحلية الأولياء للأصبهاني ج 4

6 - المعيار الشكلي:

وأقصد به صلاحية النبي من ناحية الخلقة والاستواء الخلقي ، فلا يليق بالنبي أن يكون قصيرا مثلا قصرا ملفتا أو طويلا طولا بينا أو أعرج أو أعمى أو احدب أو أبتر ، ولا يليق به أن يكون أصم أو أبكم أو أعور ، أو ما إلى ذلك من عيوب خلقيه تحول بينه وبين أداء رسالته .. خاصة وأن علماء الفراسة استدلوا بالنواحي الشكلية على بواطن الإنسان وصفاته الخلقية فجعلوا من كل عيب دلالة على نقص فى الخلق والتركيبة النفسية ، فاستدلوا مثلا من الجبهة الصغيرة على الجهل ومن الجبهة العظيمة على الكسل ومن الحاجب الكثير الشعر على غث الكلام ومن جحوظ العين على سطحية الرجل ومن غورها على الخبث ومن غلظ الشفة على الحمق ومن ضعف الصلب بضعف النفس (1)

وقد سلم الأنبياء جميعا من هذه المعايب ولم يتصف إي نبي بعيب من شائبة هذه العيوب ،
ويلزم كذلك خلوه من الأمراض التي لا يرجى البرء منها أو التي تضعفه وتوهنه .. وما مرض أيوب عليه السلام إلا ابتلاء منه جلا وعلا كابتلاء يونس عليه السلام وغيره من الأنبياء بصور مختلفة وعلى ما هو مشهور في قصصهم ،كما ينبغي خلو النبي من الأمراض النفسية كالاكتئاب أو القلق .

وعن رسول الله صلى الله عليه وسلم فقد كان أحسن الناس خلقة كما كان أحسنهم خلقا ، وكان مبرأ مـن كل عيب ، ولم ينسب إليه ثمة نقيصة ، ففي الشمائل للترمزي عن علي بن أبي طالب قال:
"لم يكن رسول الله صلى الله عليه وسلم بالطويل المُمَغط ، ولا بالقصير المُتردد ، وكان ربعة من القوم، ولم يكـن بالجعد القَطَط ولا بالسبِط ، كان جعداً رِجلا ، ولم يكن بالمُطَهم ولا بالمُكلثم ، وكان في وجهه تدوير، أبـيض ، مُشرب أدْعَجُ العينين ، أهدب الأشفار ، جليل المُشَاش والكَتِدِ، أجرد ذو مسرُبَة ، شثن الكفين والقدمين إذا مشى تقلّع كأنما ينحط من صَبَبْ ، وإذا التفت التفت معاً ، بين كتفيه خاتم النبوة ، وهو خاتم النبيين ، أجود النـاس صدراً ، وأصدق الناس لهجة ، وألينَهم عريكة ، وأكرمَهم (عِشْرَةً) ، من رآه بديهة هابه ، ومن خالطه معرفة أحبه ويقول ناعِتُه لم أر قبله ولا بعده مثله صلى الله عليه وسلم ".

----

(1) الفراسة للرازي تحقيق أ/مصطفى عاشور (2) الممغط : الذاهب طولاً ، المتردد : الداخل بعضه في بعض قصراً ، والقطط : الشديد الجعودة ، الرجل : الذي في شعره حجون، أي تثن قليل، المطهم : البادن الكثير اللحم، المكلثم : المدور الوجه ، المشرب : الذي في بياضه حمره ، الأدعج : الشديد سواد العين ، الأهدب : الطويل الأشفار ، الكتد : مجتمع الكتفين وهو الكاهل ، المسربة : الشعر الدقيق الذي كأنه قضيب من الصدر إلى السرة ، الشثن : الغليظ الأصابع من الكفين والقدمين ، التقلع : أن يمشي بقوة ، الصبب : الحدور (امحدار) ، جليل المشاش : يريد رؤوس المناكب، ، العشرة : الصحبة ، العشير : الصاحب(الترمزي اشمائل المحمدية 6)

7- السن :-

بالإضافة إلى هذا فأن من أهم المعايير الهامة المتطلبة للنبوة معيار السن ، إذ يلزم ألا يقل عمر النبي عن سن مناسب ولا يزيد أيضا عن سن مناسبة ، وأنسب الأعمار التى كلف بها الأنبياء هى سن الأربعين يقل عن ذلك قليلا أو يزيد ، وقيل أنها السن التي تبعث فيها الرسل " (1)

وهي الفترة العمرية التي عبر الله تعالى عنها " بالأشُد " ، مثال ذلك قوله تعالى عن يوسف عليه السلام : (وَلَما بَلَغَ أَشُدهُ آتَيْنَاهُ حُكْماً وَعِلْماً وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ) (2) أما ما جاء عن المسيح من أنه رفع إلى السماء وله ثلاث وثلاثون سنة فهذا لا يعرف له أثر متصل يجب المصير إليه إلا ما جاء بإنجيل لوقا :- "ولما ابتدأ يسوع كان له نحو ثلاثين سنة (3) ،

" ففي الأربعين تناهى العقل وما قبل ذلك وما بعده منتقص عنه والله أعلم ، وقال مالك أدركت أهل العلم ببلدنا وهم يطلبون الدنيا والعلم ويخالطون الناس حتى يأتي لأحدهم أربعون سنة فإذا أتت عليهم اعتزلوا الناس واشتغلوا بالقيامة حتى يأتيهم الموت " (4)

وروي عن ابن عباس أن نوحا عليه السلام بعث وهو ابن أربعين سنة بعد آدم بثمانمائة سنة (5)

وعن رسول الله صلى الله عليه وسلم فقد كانت سنه التي بعث فيها الأربعون ، ففي صحيح مسلم تحت عنوان "باب في صفة النبي صلى الله عليه وسلم ومبعثه وسنه ، عن أنس بن مالك " بعثه الله – أي رسول الله صلى الله عليه وسلم - على رأس أربعين سنة فأقام بمكة عشر سنين وبالمدينة عشر سنين وتوفاه الله على رأس ستين سنة وليس في رأسه ولحيته عشرون شعرة بيضاء " (6)

----

(1) زاد الميعاد (2) يوسف 22 (3) زاد الميعاد لابن القيم ج أول
(4) القرطبي ج 14 (5) القرطبي ج7 (6) صحيح مسلم 2347

ثانيا شروط النبي الخاتم :

1 - الاسم والصفة .

أما الاسم فهو أحمد تحديدا وتصريحا ، قال تعالى (وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّراً بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ) (1) ، ومحمد هو اسمه الأشهر صلى الله عليه وسلم ، وورد في كتاب الله تعالى أربع مرات ، وكلاهما (محمد وأحمد) اسمين لمعنى واحد ، فيقول بن القيم " تقدير أحمد على قول الأولين أحمد الناس لربه ، وعلى قول هؤلاء أحق الناس وأولاهم بأن يحمد فيكون كمحمد في المعنى ، إلا أن الفرق بينهما أن محمدا هو كثير الخصال التي يحمد عليها وأحمد هو الذي يحمد أفضل مما يحمد غيره ، فمحمد في الكثرة والكمية وأحمد في الصفة والكيفية فيستحق من الحمد أكثر مما يستحق غيره وأفضل مما يستحق غيره فيحمد أكثر حمد وأفضل حمد حمده البشر ، فالإسمان واقعان على المفعول وهذا أبلغ في مدحه وأكمل معنى " (2)

وروى أن عبد المطلب إنما سمى محمدًا بذا الاسم لرؤيا رآها، فزعموا أنه رأى فى منامه كأن سلسلة من فـضة خرجت من ظهره لها طرف فى السماء وطرف فى الأرض وطرف فى المشرق وطرف فى المغرب ، ثم عادت كأنا شجرة على كل ورقة منها نور ، وإذا أهل المشرق والمغرب يتعلقون با. فقصها فعبروها له بمولود يكون من صلبه يتبعه أهل المشرق والمغرب ويحمده أهل السماء والأرض فلذلك سماه محمدًا (3)

أما الصفات فقد أخرج أحمد عن عطاء بن يسار قال " لقيت عبد الله بن عمرو بن العاص رضى الله عنـهما فقلت أخبرني عن رسول الله فى التوراة فقال أجل إنه لموصوف فى التوراة بصفته فى القرآن " يا أيهـا الـنبي إنـا أرسلناك شاهدا ومبشرا وحرزا للأميين أنت عبدي ورسولي سميتك المتوكل لافظ ولاغليظ ولاصخاب فى الأسواق ولا قوال بالخنا ولا يدفع بالسيئة السيئة ولكن يعفو ويغفر . اسدده بكل جميل وأهب له من كـل خلـق كـريم

وأجعل السكينة لباسه والبر شعاره ولن يقبضه الله حتى يقيم الملة العوجاء بأن يقولوا لا اله إلا الله يفتح به أعينـا عميا وأذانا صما وقلوبا غلفا . " ،(4)

وخلاصة هذا الشرط أن يتصف النبي الخاتم ويسمى بصفات الحمد والخيرية المطلقة .

----

(1) الصف 6 (2) ابن القيم زاد الميعاد ج أول (3) شرح الزرقاني ج 4 ص 558
(4) مسند أحمد الجزء الرابع والأدب المفرد للبخاري الجزء الأول .

2- المنعة

إذ كان لزاما وأخذا بسنته سبحانه وتعالى فى " الأخذ بالأسباب " أن يكون لرسول الله صلى الله عليه وسلم منعة تحميه وتمكنه من أداء رسالته ، وكانت منعته صلى الله عليه وسلم هي قبيلته قريش صاحبة السيادة والنفوذ والرئاسة ، وبيت من بيوت قريش هو بيت جده عبد المطلب سيد قريش وزعيمها ، كما تمثلت منعته فى كفالـة عمه أبو طالب له وزواجه من السيدة الطاهرة خديجة بنت خويلد ، حتى إذا حاربته قريش وقاطعته وخذلته ومات جده عبد المطلب ومن بعده عمه أبو طالب ثم خديجة رضى الله عنها ومن قبلهما أمه وأبيه ، لم يستطع أن يدخل عليه الصلاة والسلام مكة بعد أن خرج منها إلى الطائف إلا في جوار من قبل جواره وهو المطعم بن عـدى ، ثم عاهد رسول الله صلى الله عليه وسلم أوائل الأنصار ببيعة العقبة على أن يمنعوه مما يمنعوا منه نسائهم وأولادهـم وقال وقتها البراء بن معرور : " نعم والذي بعثك بالحق لنمنعك مما نمنع منه نسائنا وأولادنا نحن أهل الحـرب والسلاح ، ورثناها كابر عن كابر " (1) ولما أشتد إيذاء المشركين له قال لعمه العباس بن عبد المطلب " ياعم إن الله عز وجل ناصر دينه بقوم يهون عليهم رغم قريش عزا فى ذات الله تعالى فامضي بى إلى عكاظ فأرني منـازل وأحياء العرب حتى أدعوهم إلى الله عز وجل وأن يمنعوني ويؤوني إلى أن أبلغ عن الله عز وجل "(2) وظل يعرض نفسه صلى الله عليه وسلم على القبائل فى الأسواق ولاقى منهم ما لاقى من حرج وإيذاء ، وعن عاصم ورجـل من بني رقاش من بني عامر وقوم هم وفد بني كلب قال ، أتينا النبي صلى الله عليه وسلم فعرض علينـا الإسـلام فأسلمنا وقال " أنا النبي الأمي الصادق الزكي والويل كل الويل لمن كذبني وتولى عني وقاتلني والخير كل الخير لمن آواني ونصرني وآمن بي وصدق قولي وجاهد معي (2) .. ووفد رسول الله صلى الله عليه وسلم على قبيلة بـني شيبان لطلب المنعة ومعه أبو بكر رضي الله عنه فكان مما سأله أبو بكر لقائدهم - ويدعى مفروق - "كيف المنعة

فيكم إلى أن سأل هذا القائد رسول الله عما يدعو إليه فقال صلى الله عليه وسلم " أدعوكم إلى شهادة أن لا إلـه إلا الله وحده لا شريك له وأنى رسول الله وأن تؤونى وتنصرونى .. (3)

----

(1) السيرة النبوية لابن هشام ج 2 (2) ميزان الاعتدال في نقد الرجال لشمس الدين الذهبي باب علوان بـن داود البجلي أحد رواة الرواية ، وأيضا رواه بن حجر في لسان الميزان فصل من اسمه علوان الطبقات الكبرى لابـن سـعد
(3) القصة كاملة وردت في الثقات لابن حيان جزء أول ص 84 فصل عرض رسول الله نفسه على القبائل

3 - الأمية

عرف العرب جميعا بالأمية ولم يكن لهم علم ولا فلسفة ولم يكن من بينهم من يصح أن يصبح عالما إلا قليـل وكان الجهل فاشيا فيهم والأمية شائعة بينهم خصوصا فى الأقطار البدوية " وقد دخل الإسلام وفى قريش سـبعة عشر رجلا يكتب وقليل من النساء . ولندرة الكتابة كانوا يطلقون على من يجمع بين الكتابة والرمـى والعـوم "بالكامل "كسعد بن عبادة وأسيد بن حضير وسويد بن الصامت(1) إلا أنم على الرغم من ذلك كانت مهارتم التي تفوقوا با على العالمين هى اللغة العربية . والسبب في ذلك كما يقول صاحب أبجد العلوم " كان حملة العلـم في الإسلام أكثرهم العجم وذلك من الغريب الواقع ، لأن علماء الملة الإسلامية في العلوم الشرعية والعقلية أكثرهم العجم إلا في القليل النادر وإن كان منهم العربي في نسبته فهو عجمي في لغته ومرباه ومشيخته مع أن الملة عربيـة وصاحب شريعتها عربي ، والسبب في ذلك أن الملة في أولها لم يكن فيها علم ولا صناعة لمقتضى أحوال البـساطة والبداوة وإنما أحكام الشريعة التي هي أوامر الله ونواهيه ، كان الرجال ينقلونا في صدورهم وقد عرفوا مأخـذها من الكتاب والسنة بما تلقوه من صاحب الشرع وأصحابه والقوم يومئذ عرب لم يعرفوا أمر التعلـيم والتـأليف والتدوين ولا دفعوا إليه ولا دعتهم إليه حاجة ، وجرى الأمر على ذلك زمن الصحابة والتابعين وكانوا يـسمون المختصين بحمل ذلك ونقله القراء ، أي الذين يقرؤون الكتاب وليسوا أميين لأن الأمية يومئذ صـفة عامـة في الصحابة بما كانوا عربا ، فقيل لحملة القرآن يومئذ قراء إشارة إلى هذا ، فهم قراء لكتاب الله والسنة المأثورة عـن رسول الله لأنم لم يعرفوا الأحكام الشرعية إلا منه ومن الحديث الذي هو في غالب موارده تفسير له ، (2) فلما

بعد النقل من لدن دولة الرشيد فما بعد احتيج إلى وضع التفاسير القرآنية وتقييد الحديث مخافة ضياعه ثم احتيج إلى معرفة الأسانيد وتعديل الناقلين للتميز بين الصحيح من الأسانيد وما دونه ثم كثر استخراج أحكام الواقعات مـن الكتاب والسنة وفسد مع ذلك اللسان فاحتيج .. وهكذا " (3) وقد اقتضت إرادة الله أن يكون الرسول الخـاتم أميا ، لأن الكتاب الذي سي ل عليه سيكون التحدي به بالبلاغة والبيان وما احتواه من علوم لا يتأتى العلم بها إلا بالتعلم والاطلاع والسفر والترحال وبالعمر الطويل ، فكانت أميته صلى الله عليه وسلم أقوى الدلائل على صدقه وكانت الحكمة من هذه الأمية دحض حجج المبطلين القائلين بافتعال محمد بنفسه أو بمعاونة غيره من البشر للقرآن ، وهى الفرية التى طالما رددها أعداء الإسلام فقالوا إنما يعلمه بشر فقال لهم الله تعالى : (لِسَانُ الذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِي وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِي مُبِينٌ) (4)وقال (قُلْ لَوْ شَاءَ اللهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلا أَدْرَاكُمْ بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُـراً مِنْ قَبْلِهِ أَفَلا تَعْقِلُونَ) (5)ومن هنا لا ينظر إلى هذه الأمية على أنها شرف لرسول الله ونقيصة لغيره فحسب، إنمـا ينبغي النظر إليها من منظور أسمى وأجل هو الدلالة على نبوته صلى الله عليه وسلم

----

(1) فجر الإسلام أ/ أحمد أمين (2) أبجد العلوم لصديق بن حسن القنوجي المتوفى (3) المصدر السابق ج أول ص 159
(4) النحل 103 (5) يونس 16

وقد برر صاحب المصدر السابق سبب اعتبار الأمية نقصا في حق البشر وكمالا في حقه صلى الله عليه وسلم بقوله " أن ذلك كمالا في حقه بالنسبة إلى مقامه لشرفه وتـ هه عن الصنائع العملية التي هـي أسـباب المعـاش والعمران كلها وليست الأمية كمالا في حقنا نحن إذ هو منقطع إلى ربه ونحن متعاونون على الحياة الـدنيا شـأن الصنائع كلها حتى العلوم الاصطلاحية فإن الكمال في حقه هو تـ هه عنها جملة بخلافنا" (1)

وقد نعته الله تعالى بهذا الشرف في قوله تعالى (فَآمِنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ النِبي الأُمي الذِي يُؤْمِنُ بِاللهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتبِعُوهُ لَعَلكُمْ تَهْتَدُونَ)(4) وبين أن تلك صفته في الكتب الأولى فقال (الذِينَ يَتبِعُونَ الرسُولَ النبِي الأُمي الذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوباً عِنْدَهُمْ فِي التوْرَاةِ والإنجيل)(2) وقوله تعالى الأمي هو منسوب إلى الأمة الأمية التي هي على أصل ولادتها لم تتعلم الكتابة ولا قراءتها - قاله ابن عزيز- ، وقال ابن عباس رضي الله عنه " كان نبيكم صلى الله عليه وسـلم أميا لا يكتب ولا يقرأ ولا يحسب قال الله تعالى : (وَمَا كُنْتَ تَتْلُو مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَـابٍ وَلا تَخُطـهُ بِيَمِينِـكَ إِذاً لارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ (3) وكان أهل الكتاب يعرفونه بهذه الصفة ، فعن بن عباس قال حضرت عصابة من اليهود نبي الله صلى الله عليه وسلم فتسائلوا .. وكان من بين ما سألوه .. وأخبرنا كيف هذا النبي الأمي في النوم ومن وليـه من الملائكة ؟ قال فعليكم عهد الله وميثاقه لئن أنا أخبرتكم لتتابعني (4)

وكانت تلك صفته التي يفخر بها صلى الله عليه وسلم في الدنيا ، فعن عبد الله بن عمرو قال خرج علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم يوما كالمودع فقال " أنا النبي الأمي قاله ثلاث مرات ولا نبي بعدي أوتيت فواتح الكلم

وجوامعه وعلمت خزنة النار وحملة العرش وتجوز بي وعوفيت وعوفيت أمتي فاسمعوا وأطيعوا ما دمت فيكم فإذا ذهب بي فعليكم بكتاب الله أحلوا حلاله وحرموا حرامه (5) وتلك صفته أيضا التي ينادى بها في الآخرة ، فعن أبي أمامة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال " إذا كان يوم القيامة قامت ثلة من الناس يسدون الأفق نورهم كالشمس فيقال النبي الأمي ، فيتحشحش لها كل نبي ، فيقال محمد وأمته ، ثم تقوم ثلة أخرى تسد ما بين الأفق نورهم مثل كل كوكب في السماء فيقال النبي الأمي ، فيتحشحش لها كل نبي ، ثم يحثى حثيتين ، فيقال هذا لك يا محمد وهذا مني لك يا محمد ، ثم يوضع الميزان ويؤخذ في الحساب (6)

ويلحق بهذا الشرط شرط آخر اقتضاه ونص الله سبحانه وتعالى عليه صراحة ، وهو وجوب جهله التام بقول الشعر وفنونه وألوانه وأشكاله وكل ما يتعلق به ، فذلك قوله سبحانه (وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ إِنْ هُوَ إِلا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُبِينٌ) (7) ويؤدي ذلك بالضرورة إلى جهله بالكهانة والدجل والسحر للزوم العلم والقراءة والكتابة لمثل هذه الفنون

----

(1) المصدر السابق (2) الأعراف من الآية 158 (3) الأعراف من الآية 157 (4) العنكبوت:48
(5) مسند أحمد 2514 وقال الهيثمي في الزوائد رواه الطبراني عن شيخه عبد الله بن محمد بن سعيد بن أبي مريم وهو ضعيف
(6) مسند أحمد ج ثان 6606 (7) قال الهيثمي في مجمع الزوائد رواه الطبراني ورجاله ثقة (8) يس 69

4- ألا يعقب ولدا

قال تعالى (مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ وَلَكِنْ رَسُولَ اللهِ وَخَاتَمَ النبِيينَ وَكَانَ اللهُ بِكُل شَيْءٍ عَلِيمًا)(1) خصت هذه الآية عند المفسرين بتحريم التبني ، إلا أن هذا لا يمنع حملها على العموم ، بحيث يمتنع القول بأبوته صلى الله عليه وسلم لأحد من الرجال ، ويسري هذا القضاء الإلهي حال حياته صلى الله عليه وسلم وبعد مماته أيضا ، لذا لم يكن من قبيل المصادفة – والمصادفة لا مكان لها فى تدبير الله وتنظيمه لملكه - أن لا يعش لرسول الله صلى الله عليه وسلم ابنا ذكرا أو أنثى إلا فاطمة ، ولم تدم حياتها بعده صلى الله عليه وسلم إلا ستة أشهر ، وربما تكون الحكمة من ذلك ألا يفتتن الناس بهم من بعده ، أو ربما ليتوقف النسل الطاهر الممتد من إبراهيم ومن بعده إسماعيل إليه صلى الله عليه وسلم ، " وكل أولاده صلى الله عليه وسلم من ذكر وأنثى من خديجة رضى الله عنها سوى إبراهيم من ماريا القبطية ، وهم القاسم وبه كان يكنى عاش أياما يسيرة ومات قبل النبوة ، وولدان آخران اختلف في اسميهما إلا أنه لا يخرج عن عبد الله ، الطاهر ، والطيب ، " وبناته زينب وماتت سنة ثمان من الهجرة ، ورقية ماتت بعد بدر بثلاثة أيام وأم كلثوم وماتت أيضا حال حياته (2)

وقال القرطبي " وكل أولاده ماتوا في حياته غير فاطمة ، وأما الإناث من أولاده فمنهن فاطمة الزهراء بنت خديجة ولدتها وقريش تبني البيت قبل النبوة بخمس سنين وهي أصغر بناته ، وتوفيت بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم بيسير وهي أول من لحقه من أهل بيته رضي الله عنها ، وإبراهيم أمه مارية القبطية ولد في ذي الحجة سنة

ثمان من الهجرة وتوفي ابن ستة عشر شهرا وقيل ثمانية عشر ذكره الدارقطني ودفن بالبقيع وقال صـلى الله عليـه وسلم إن له مرضعا تتم رضاعه في الجنة " (3) وفي أخبار مكة للفاكهي " مات أولاد النبي صلى الله عليه وسلم الذكور كلهم رضعا بمكة " (4)

وخصوصية هذا الشرط بالنبوة الخاتمة إنما لانقطاعها ونهايتها ، بحيث لا يتصور نبي آخر من نسل النبي الخاتم أو من غيره ، بينما كانت الذرية مستمرة في الأنبياء السالفين باعتبار النبوة لم يؤذن في انقطاعها بعد ، قـال تعـالى (وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلاً مِنْ قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجاً وَذُرِيَةً) (5)

----

(1)الأحزاب 40 (2) جوامع السيرة النبوية لابن حزم الأندلسي (3) تفسير القرطبي ج 14

(4) أخبار مكة لمحمد بن إسحاق بن العباس الفاكهي دار نشر ببيروت تحقيق عبد الملك عبد الله دهيش

(5) الرعد:38

شروط وخصائص أخرى إجمالية

ومن الشروط التي وجدنا في بعض أمهات الكتب ومما اتفق عليه علماء الإسلام ما يلي

الشرط الأول: الذكورة لما في ذلك من ضمان للكمال المفترض في النبي مما لا يتصوره في الأنثى

الشرط الثاني: الأمانة والصدق وحفظ الله ظواهرهم وبواطنهم من الإثم

الشرط الثالث: العقل: فلا تجوز علي نبي الأخطاء العقلية والأفكار الخاطئة وسوء الاستنباطات.

الشرط الرابع : الضبط: يعني أن يفهم الخبر عن ربه قبل أن يبلغه كما ينبغي ويضبط معناه

الشرط الخامس : العدالة : وتعني عدم وجود دوافع شخصية ينقل لنا الخبر عن ربه بغير تعديل

الشرط السادس : عدم الوقوع في المعاصي والذنوب. سواء كان ذلك قبل البعثة أو بعدها

وعقد الماوردي فصلا أسماه " فصل شروط صحة النبوة " فقال : فإذا أثبت أن النبوة لا تصح إلا ممن أرسله الله تعالى بوحيه إليه فصحتها فيه معتبرة بثلاثة شروط تدل على صدقه ووجوب طاعته : -

الشرط الأول : أن يكون مدعي النبوة على صفات يجوز أن يكون مؤهلا لها لصدق لهجته وظهور فضله وكمال حاله فإن اعتوره نقص أو ظهر منه كذب لم يجز أن يؤهل للنبوة من عدم آلتها وفقد أمانتها .

والشرط الثاني : إظهار معجز يدل على صدقه ويعجز البشر عن مثله لتكون مضاهية للأفعال الإلهية ليعلم أنا منه فيصح با دعوى رسالته . والثالث : أن يقرن بالمعجز دعوى النبوة فإن لم يقترن بالمعجزة دعوى لم يصر بظهـور المعجزة نبيا ، لأن المعجز يدل على صدق الدعوى فكان صفة لها ،

ثم **عقد فصلا آخر** في **" شروط خطاب الرسول لأمته "** فقال : وأما خطاب الرسول لأمته فيما بلغهم من رسالة ربه بعد ظهور معجزته والإخبار بنبوته ولزومه للأمة فمعتبر بخمسة شروط :

الشرط الأول : العلم بانتفاء الكذب عنه فيما ينقله عن الله تعالى من خبر أو يؤديه من

الشرط الثاني : أن يعلم من حاله أنه لا يجوز أن يكتم ما أمر بأدائه لأن كتمانه يمنع من التزام رسالته

الشرط الثالث : أن ينتفي عنه ما يقتضي التنفير من قبول قوله لأن الله تعالى حماه من الغلظة لئلا ينفر من متابعتة وكان أولى أن لا ينفر عن قبول خطابه

الشرط الرابع : أن يقترن بخطابه ما يدل على المراد به لينتفي عنه التلبيس والتعمية في أحكام الرسالة

الشرط الخامس : العلم بوجوب طاعته ليعلم با وجوب أوامره واختلف في طاعته هل وجبت عقلا أو سمعا بحسب اختلافهم في بعثة الرسل هل هو من موجبات العقل أم لا (أ هـ) (1)

----

(1) أعلام النبوة للماوردي ج 1 بتصرف

الفصل الثاني

الاختيار

أسس الاختيار وجهل الناس بنبوة رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل أن يكلف بها

يتضح مما تقدم أن اختيار الله سبحانه وتعالى لرسله يقوم على أسس موضوعيه لتكون حجة فى مواجهة المرسل إليهم حتى يعينهم ذلك على أداء رسالتهم ، وتلمح من آيات الله سبحانه وتعالى فى القرآن الكريم أنه جلا وعـلا يقدم الدليل على صلاحية هؤلاء الأنبياء وتوافر شروط النبوة فيهم واستحقاقهم هذه الهبة الإلهية ، فيقول عن بعض أنبيائه على لسان قومهم (قَالُوا يَا صَالِحُ قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوّاً قَبْلَ هَذَا)(1) وقوله (قَالُوا يَا شُعَيْبُ أَصَلاتُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ نَتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ إِنَّكَ لَأَنتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ) (2) وفى سورة مريم يقـدم الله سبحانه وتعالى بعض صفات أنبيائه قبل تكليفهم بالنبوة ثم يتبع ذلك التكليف بها فيقول (وَاذْكُرْ فِـي الْكِتَـابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقاً نَبِيّاً)(3 ويقول (وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مُوسَى إِنَّهُ كَانَ مُخْلَصاً وَكَـانَ رَسُـولاً نَبِيّـاً) (4) ويقول(وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولاً نَبِيّاً)(5) ويقول (وَاذْكُرْ فِـي الْكِتَـابِ إِدْرِيسَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقاً نَبِيّاً) (6) فقدم الصدق عند إبراهيم عليه السلام قبل الخبر بالنبوة ، وقدم إخلاص موسـى قبل تكليفه بالنبوة أيضا ، وكذلك إسماعيل قدم له الصدق والوفاء في الوعد قبل أن يقدم صفته كنبي ، بما يعنى أنهم عليهم السلام كانوا متخلقين بهذه الصفات قبل أن يهبهم الله النبوة وأن هذه الصفات هى موجبات بعثتهم ومن ثم لا يتصور تخلقهم بها بعد بعثتهم ، حتى عيسى عليه السلام على الرغم من أنه نطق بالنبوة فى المهد إلا أن الله تعالى قدم الدليل على صلاحيته ، فقال (وَبَرّاً بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّاراً شَقِيّاً)(7) كما قدم ذات الدليل بالنسبة ليحيى عليه السلام فقال عنه (وَحَنَاناً مِنْ لَدُنَّا وَزَكَاةً وَكَانَ تَقِيّاً وَبَرّاً بِوَالِدَيْهِ وَلَمْ يَكُنْ جَبَّاراً عَصِيّاً) (8) وبـنفس هـذا المنطق كان اختيار رسول الله صلى الله عليه وسلم ، اختيار قائم على أسس ومعايير موضوعية ، وعلى المفاضـلة بينه وبين من حوله من البشر ، حتى ثبت أنه الأفضل والأصلح وهذا هو قول عبد الله بن مسعود رضى الله عنه " إن الله عز وجل نظر في قلوب العباد فوجد قلب محمد صلى الله عليه وسلم خير قلوب العباد فاصطفاه لنفـسه وابتعثه برسالاته " (9) وهذا الاختيار القائم على أسس موضوعية يقودنا إلى نتيجة حتمية مؤداها أن رسـول الله صلى الله عليه وسلم لم يكن معـروفا لدى الناس جميـعا بأنه هو النبي المنتظر قبل أن يكلف بالنبوة ولم يكن هو ذاته يعرف ذلك ، ولم يكـن يعرف ذلك أيضا من عندهم علم الكتاب ، إلا بما توسم فيه بعـض الأحبـار والرهبان مـن علامات النبوة ، لذا فوجئت قريش باختياره صلى الله عليه وسلم دون عظيم مـن عظمائهم نبيا ، وكان ذلك أهم أسباب عدم دخول أئمة الكفر والجهل منهم الإسلام فقال تعالى : (وَقَالُوا لَوْلا نُزِّلَ هَـذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ) (10)

----

(1) هود من الآية 62 (2) هود 87 (3)مريم 41 (4)مريم 51 (5) مريم 54 (6) مريم 56

(7) مريم 32 (8) مريم 14 (9) مسند أحمد 3600 (10) الزخرف 31

إذ كان محمد بالنسبة لهم واحد من الناس ورجل كسائر الرجال وفردا من العرب وإن اتصف بينهم بـصفات حميدة وأخلاق سامية ، وإن عرف بينهم بالصادق الأمين

ومن الأدلة على ذلك وعلى سبيل المثال ما يلي :

1-قال الحافظ أبو بكر البيهقي في الدلائل عن محمد بن إسحاق وصولا إلى علي بن أبي طالب رضي الله عنـه قال ما موجزه : لما نزلت هذه الآية على رسول الله (وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ) (1) قال رسول الله صلى الله عليه وسلم "عرفت أني إن بادرت بها قومي رأيت منهم ما أكره فَصَمَت فجاءني جبريل عليه السلام فقال يا محمد إنك إن لم تفعل ما أمرت به عذبك ربك " ، قال علي رضي الله عنه فدعاني فقال " يا علي إن الله تعالى قد أمـرني أن أنذر عشيرتي الأقربين فعرفت أني إن بادرتهم بذلك رأيت منهم ما أكره فصمت عن ذلك ، ثم جاءني جبريل فقال يا محمد إن لم تفعل ما أمرت به عذبك ربك فاصنع لنا يا علي شاةً على صاعٍ من طعامٍ وأعد لنا عس لبن ثم اجمع لي بني عبد المطلب ففعلتُ ، فاجتمعوا إليه وهم يومئذ أربعون رجلا يزيدون رجلا أو ينقصون رجلا فيهم أعمامه أبو طالب وحمزة والعباس وأبو لهب الكافر الخبيث ، ... فلما أراد رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يكلمهـم بدره أبو لهب إلى الكلام فقال: لهد ما سحركم صاحبكم فتفرقوا ولم يكلمهم رسول الله صلى الله عليه وسلم – روى البيهقي أن رسول الله صلى الله عليه وسلم فعل مثل ذلك في يومين متتاليين - وفي الثالثة قال عليه الـصلاة والسلام" يا بني عبد المطلب إني والله ما أعلم شابا من العرب جاء قومه بأفضل مما جئتكم به إني قد جئتكم بخـير الدنيا والآخرة وقد أمرني الله أن أدعوكم إليه فأيكم يؤازرني على هذا الأمر على أن يكون أخي وكذا وكـذا" ؟ قال فأحجم القوم عنها جميعا (2) ، وهو ما يستدل معه على عدم علم عشيرته صلى الله عليه وسلم أو قرابتـه أو قريش أو مكة بأسرها بنبوته قبل أن يكلف بها وإلا ما فوجئوا بما سمعوا

2- في قوله تعالى (مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلا الْإِيمَانُ)(3) ما يدل على عدم علمه صلى الله علـيه وسلم بالنبوات والرسل وأسبابها وكل ما يتعلق بها ، خاصة وأنه أمي نشأ في أمة أمية ، وتفسير الآية " أي لم تكـن تعرف الطريق إلى الإيمان ، وظاهر هذا يدل على أنه ما كان قبل الوحي متصفا بالإيمان (4)، بغير أن يمنع ذلك من أنه صلى الله عليه وسلم لم يسجد لصنم ولا أشرك بالله ، وكان على دين لقومه هو دين الحمـس ، ولم يحلـف باللات أو العزى أو بصنم من أصنامهم ، ولم يكن يعرف الكتب أو الشرائع السماوية السابقة ، ولم يتخلف على أحد عالما كان أو غير عالم يعرف منه ، " ويعضد ذلك ويؤيده قوله تعالى (وَوَجَدَكَ ضَالاً فَهَدَى) (5) " أي غافلا عما يراد بك من أمر النبوة ، فهداك ، وضالا أي لم تكن تدري القرآن والشرائع ، فهداك اللّه إلى القرآن، وشرائع الإسلام؛ (6)

----

(1) الشعراء:214 (2) دلائل النبوة للبيهقي ج أولو السيرة لابن حبان تحت عنوان فشو ذكر الإسلام بمكة
(3) الشورى 52 (4) القرطبي تفسير الآية (5) الضحى 7 (6) القرطبي ج الأخير تفسير الضحى

3- روى الطبراني من قول معاوية بن أبي سفيان عن أبيه أن أمية بن أبي الصلت قال له أني أجد في الكتـاب صفة نبي يبعث في بلادنا وكنت أظن أني هو ثم ظهر لي أنه من بني عبد مناف فنظرت فلم أجد فيهم مـن هـو منصف بأخلاقه إلا عتبة بن ربيعة إلا أنه جاوز الأربعين ولم يوح له فعرفت أنه غيره قال أبو سفيان فلمـا بعـث محمد قلت لأمية عنه أما إنه حق فاتبعه .. " (1)

4 - وهذه خديجة زوجته عندما جاءه الوحي صلى الله عليه وسلم لم تجزم بعلم عندها خبرت بـه مـن أي مصدر أنه نبي الأمة المنتظر ، وإنما طمأنته في بداية الأمر بما لديها من فطرة نقية وإحساس صادق أنه مـا كـان ليصيبه سوء ، ثم ذهبت به إلى ابن عمتها ورقة بن نوفل بوصفه عالم بالكتب السابقة فما إن سمع منـهما وقـع الكلام عليه موقع المفاجأة فقال " هذا الناموس الذي أنزل على موسى صلى الله عليه وسلم يا ليتني فيها جذعا يا ليتني أكون حيا حين يخرجك قومك " (2) ، وقبل ذلك لم يقل بنبوة محمد وهو أمامه دوما ولم يشيع بين النـاس سواء من العرب أو من اليهود والنصارى أن هذا الرجل المسمى محمد بن عبد الله هو النبي الذي بشرت به الكتب بغير أن يمنع ذلك توسمه فيه النبوة باعتبار أن صفاته وأخلاقه صلى الله عليه وسلم كانتا ترشحانه لذلك

5- وروى بن حجر في الإصابة عن المدائني بسند له عن ابن عباس أن نساء أهل مكة اجتمعن في عيد لهن في الجاهلية فتمثل لهن رجلا فنادى بأعلى صوته يا نساء مكة إنه سيكون في بلدكن نبي ، فمن استطاعت مـنكن أن تكون زوجا له فلتفعل ، فحصبنه جميعا إلا خديجة فإنا عضت على قوله ولم تعرض له بما يكشف عن جهل مكة ونساءها بخروج نبي آخر الزمان من بين ظهرانيهم (3)

6- وهذا عمرو بن نفيل يحكي عنه عامر بن وهب قوله : أنا أنتظر نبياً من ولد إسماعيل من بني عبد المطلب ولا أراني أدركه وأنا أؤمن به وأصدقه وأشهد أنه نبي فإن طالت بك مدة فرأيته فاقرأه مني السلام وسأخبرك مـا نعته حتى لا يخفى عليك ،قال هو رجل ليس بالقصير ولا بالطويل ، ولا بكثير الشعر ولا بقليله وليس يفارق عينيه حمرة وخاتم النبوة بين كتفيه ، واسمه أحمد ، وهذا البلد مولده ثم يخرجه قومه منها ويكرهون ما جاء بـه حـتى يهاجر إلى يثرب .. "(4) ثم رآه ابنه زيد ورغم ذلك لم يعرفه ، فعن سالم بن عبد الله أنه سمع ابن عمر يحدث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه لقي زيد بن عمرو بن نفيل بأسفل بلدخ (مكان)، وذلك قبل أن يـ ل عـى رسول الله الوحي، فقدم إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم سفرة فيها لحم، فأبى أن يأكل منه وقال" إني لا آكل مما تذبحون على أنصابكم ، ولا آكل مما لم يذكر اسم الله عليه." (5)

----

(1) المعجم الكبير للطبراني 7262 السيرة النبوية لابن اسحاق (2) صحيح مسلم بدء الوحي 160
(3) الإصابة لابن حجر 11086 (4) الإصابة لابن حجر 2925 (5) صحيح البخاري 5180

7- قال النضر بن الحارس لقريش قد كان محمد فيكم غلاماً حدثا أرضاكم فيكم وأصدقكم حديثا وأعظمكم أمانة ، حتى إذا رأيتم في صدغيه الشيب وجاءكم بما جاءكم به قلتم ساحر فلا والله ما هو بساحر ... (1) وهو ما يبين منه بجلاء أن محمدا كان مرضيا عندهم مقبولا لأخلاقه السامية التي تميز بها واشتهر بينهم بها ، حتى إذا قال بالنبوة صعقوا وألجمتهم المفاجأة فقالوا ما قالوا فيه .

8- ومن المعلوم أيضا أن بعض العرب سموا أولادهم باسم محمد عندما عرفوا من بعض الكهنة بمبعث نبي في الحجاز اسمه محمد ، فنذر كل منهم إن ولد له ولد ذكر أن يسميه محمد وهم : محمد بن أحيحة بن الجلاح الأوسي ، و محمد بن مسلمة الأنصاري ، و محمد بن براء البكري ، و محمد بن سفيان بن مجاشع ، ومحمد بن حمران الجعفي ، و محمد بن خراعي السلمي ،محمد الجشمي من بني سواءة ومحمد الأسيدي ومحمد الفقيمي (2) وبرر بن سعد ذلك بقوله : سموهم طمعا في النبوة ، كما برر عبد المطلب تسمية محمدا بهذا الاسم بالتيمن به أو لرؤية رآها. ما يعني عدم التيقن من نبوة محمد بن عبد الله بذاته وشخصه قبل أن يبعث .

9-وفي حوار هرقل مع أبو سفيان ، والنجاشي مع بعض مهاجري الحبشة ، وكتاب المقوقس إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ، ما يتضح بجلاء جهلهم جميعا وأساقفتهم وعلمائهم بأن هذا العربي المسمى محمدا هو النبي المنتظر - وإن علموا بخروج النبوة من حرة بين لبتين هي مكة المتوسطة الجزيرة العربية - حيث ثبت لدى هؤلاء الملوك من خلال الصفات التي سألوا عنها وعرفوها ممن سألوهم إياها ، أن هذا النبي صادق غير مدعى ، وأنه هو النبي الذي أخبرت به كتبهم . ولم يعرفوا ذلك من خلال علم مسبق لديهم بأن الفتى العربي ساكن مكة والمسمى محمد بن عبد الله هو النبي المنتظر . فهذا هرقل يعقب على إجابة أبو سفيان لأسئلته فيقول له بعد أن أخبره أبو سفيان عن بعض صفات رسول الله صلى الله عليه وسلم " إن يكن ما تقول فيه حقا فإنه نبي وقد كنت أعلم أنه خارج ولم أكن أظن أنه منكم " (3) وبعد أن يستمع النجاشي لمهاجري الحبشة الأول ، يقول أشهد أنه رسول الله وأنه الذي نجد في الإنجيل وأنه الذي بشر به عيسى ابن مريم (4) ، وهذا كتاب المقوقس إلى النبي صلى الله عليه وسلم يقول له فيه " قد علمت أن نبيا قد بقي وكنت أظن أنه يخرج بالشام " (5) وهو ما يفهم منه أن هؤلاء الملوك ما علموا بنبوة محمد بن عبد الله عليه الصلاة والسلام إلا من خلال رسل رسول الله صلى الله عليه وسلم إليهم ، وبما أخبروهم به من صفاته وأخلاقه ، وقبل ذلك لم يصل إلى علمهم ولم يخبرهم مخبر أو ينبئهم منبئ ، أن الفتى العربي المسمى محمد بن عبد الله هو هذا النبي ،

----

(1) السيرة النبوية لابن هشام ج 1 (2) الطبقات لابن سعد (3) والرواية بتمامها بصحيح مسلم باب كتاب النبي إلى هرقل يدعوه إلى الإسلام 1773 (4) مسند أحمد 1740 (5) الطبقات الكبرى ج أول بعثة رسول الله وكتبه

10- كما أن الصفات الموجودة في الكتب والتي تبشر به فكانت كلها تتعلق بالصفات الخُلقية التي من الممكن أن تتوافر في أي شخص ، إلا أنها لم تتوافر إلا في شخص واحد فقط ، استحق بموجبها شرف الرسالة هو محمد بن عبد الله بن عبد المطلب ، كما تشير هذه الكتب إلى المكان والزمان المقدرين سلفا بعلم الله ومشيئته والذين من المنتظر بعثة النبي فيهما ، ولم يرد بهذه الكتب صفات خَلقية محددة تحديدا قاطعا يدل على ذات محمد بن عبد الله أو شخصه ، فعن عطاء بن يسار قال : لقيت عبد الله بن عمرو بن العاص ، فقلت أخبرني عن صفة رسول الله صلى الله عليه وسلم في التوراة . قال أجل والله إنه لموصوف في التوراة ببعض صفته في القرآن ، يا أيها النبي إنا أرسلناك شاهداً و مبشراً و نذيراً و حرزاً للأميين ، أنت عبدي و رسولي ، سميتك المتوكل ، ليس بفظ ولا غليظ ولا صخاب في الأسواق ، و لا يدفع السيئة بالسيئة ، و لكن يعفو و يغفر ، ولن يقبضه الله حتى يقيم به الملة العوجاء بأن يقولوا لا إله إلا الله ، يفتح بها أعيناً عمياً ، وآذاناً صماً ، و قلوباً غلفاً " . (1)

11-وعن تفسير قوله تعالى (الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَإِن فريقا منهم ليكتمون الْحَق وَهُمْ يَعْلَمُونَ) (2) فيقول بن كثير " أن العلماء من أهل الكتاب يعرفون صحة ما جاءهم به الرسول صلى الله عليه وسلم كما يعرف أحدهم ولده ، والعرب كانت تضرب هذا المثل في صحة الشيء ، ثم أخبر تعالى أنهم مع هذا التحقق والإتقان العلمي يكتمون الناس صفته "وروى القرطبي عن عمر أنه قال لعبد الله بن سلام

"أتعرف محمدا كما تعرف ولدك قال نعم وأكثر نزل الأمين من السماء على الأمين في الأرض بنعته فعرفته"(3) ومعنى عرفته أي طابقت الصفة التي جاء بها الأمين من السماء على الصفات الموجودة بالتوراة والنجيل فتطابقت فعرفته فآمنت به ، بما يعني أن معرفتهم به صلى الله عليه وسلم كمعرفتهم أبنائهم إنما ذلك بعد قوله بالنبوة لا قبلها .

والسؤال الذي لا بد أن يطرح نفسه الآن ، هو ما الفائدة أن لا يعرف رسول الله عن نفسه أو لا يعرف عنه غيره أنه هو النبي التي نبئت به الكتب بشخصه وبيئته قبل أن يبعث ؟، والإجابة لها شقين : الأول ما يخص محمدا نفسه ، والثاني ما يخص غيره ، أما فيما يتعلق برسول الله صلى الله عليه وسلم فيفيدنا ذلك في معرفة أنه لم يكن

يتحنث في غار حراء منتظرا الوحي ، ولم يكن يحجم عن عبادة آلهة قومه لعلمه المسبق بإنه نبي ، ولم يكن يخوض مع الخائضين أو يسفه مع السافهين لذات السبب .

إنما كانت تنبع تصرفاته بتلقائية لا تحكمها ثمة معلومات مسبقة ، ولا تحكمها ثمة مقدمات أو إعدادات متقنة ، وإلا لكان لجأ إلى معلم يعلمه أو راهب يعده ويؤهله للنبوة .

----

(1) عيون الأثر الجزء الأول وصحيح البخاري 2018 (2) البقرة 146 (3) الأعراف 157 وتفسير بن كثير للآية

أما فيما يخص الناس دونه صلى الله عليه وسلم فما كانوا يتعاملون معه على هذا الأساس وما كانوا ينظـرون إليه نظرة النبي المنتظر ، وما كانوا ينتظرون الوحي لاختياره وإلا أعدوا لذلك العدة ، ومهدوا لذلك تمهيدا ، ولما كان اختياره صلى الله عليه وسلم مفاجأة لأكثرهم ، وعندئذ نعرف أنم كانوا يتعاملون معه كواحد من سـائر الناس له ما لهم وعليه ما عليهم ، وأن كان يتميز عليهم بسمت الأنبياء

علامات النبوة قبل مبعثه صلى الله عليه وسلم

ولكن هل معنى ذلك إنكار علامات النبوة ومقدماتا التي مهدت لها ودلت على زمانا ؟ كلا ولا يقول ذلك مسلم عاقل عارف ببعض دينه ، بل إن هذه العلامات هي من بعض فضائله صلى الله عليه وسلم التي فـضله الله تعالى با على سائر الأنبياء والرسل ، فلم يجعل لنبي غيره مثل هذه المقدمات والإرهاصات ، وهـي كـثيرة ولا تناقض العقل أو تناهضه ، ولكن ينبغي التفرقة بين القول بالعلم بنبوة هذا الشخص المسمى محمد بن عبد الله قبل أن يكلف بالنبوة خاصة في مرحلة الطفولة ، وبين هذه العلامات التي مهد الله تعالى با للنبوة ، خاصة في مرحلـة الطفولة أيضا ، إذ الأخيرة على ضربين : - الأولى : علامات عامة ، والثانية : علامات خاصة : وأقصد بالعامـة أن تأتي العلامة على سبيل العموم دون أن تكون دالة على محمد رسول الله صلى الله عيه وسلم بذاته ، مثل بزوغ نجمه صلى الله عليه وسلم عند مولده ، فهو نجم النبوة وإشراق نورها " فعن حسان بن ثابت قال إني والله لغـلام يفعة بن سبع سنين أو ثمان سنين أعقل كل ما سمعت إذ سمعت يهوديا يصرخ على أطم يثرب يا معـشر زفـر إذ اجتمعوا إليه ، قالوا ويلك ما لك قال طلع نجم أحمد الذي يبعث به الليلة "(1) والمقصود بنجم أحمد نجـم الـنبي الخاتم المسمى والموصوف في الكتب بالحمد ، ومثال العلامات الخاصة ما روته حليمة السعدية عن رضاعه صـلى الله عليه وسلم والبركة التي حلت عليها وعلى زوجها وولدها بسبب ذلك (2)

فهذه العلامات بهذين الضربين تدل على حدث جلي مهد الله تعالى له بها ، ولكنه تجلت قدرته لم يرد بهـذه العلامات إلا صرف أذهان الناس وهمتهم إلى محمد بن عبد الله طفلا وشابا ورجلا ، لكونه المحتفـى بـه بهـذه العلامات والمقصود بها ، حتى إذا بعثه الله كان عليهم تقبله وعونه وتأييده ، ولكن دون أن تشير هذه العلامـات على وجه صريح جلي بأن محمد بن عبد الله هو النبي المنتظر ، ففهم ذوي العلم والفراسة من هذه العلامات مراد الله تعالى بها فتوسموا في محمد النبوة ، وظل العامة وعتاة الكفر على جهلهم بهذه العلامات ومراد الله تعالى بهـا ، فلم يستوعبوا المفاجأة فسقوط في هوة الكفر والشرك السحيقة فكان جزاءهم ما أعده الله تعالى لهم .

----

(1) ذكره بن حجر في تهذيب التهذيب رواية عن الشيخين وغيرهما 450

(2) الرواية بتمامها عند بن حبان تحت رقم 6335

بحيرا الراهب

أشهر المصادر التي تكلمت في قصة بحيرا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم هي السيرة النبوية لابن هشام وسنن الترمذي في المناقب ، ويبدو أن عنهما أخذت جميع المصادر ، وقال الحاكم في المستدرك صحيح على شرط الشيخين، وذكرها ابن أبي شيبة في المصنف والماوردي في أعلام النبوة وأبو نعيم في دلائل النبوة والطبري في تاريخه ، وقال ابن حجر في الإصابة رجاله ثقات ، بينما أخرجه الذهبي في السيرة النبوية وقال أظنه موضوعاً وبعضه باطل وقال الشيخ الألباني اسناده جيد لا بأس به ..

وفي الأول قال ابن إسحاق ما موجزه " ثم إن أبا طالب خرج في ركب تاجرا إلى الشام فلما تهيـأ للرحيـل وأجمع المسير صب به رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما يزعمون فرق لـه(أبو طالب) .. فخرج به معه فلما نزل الركب بصرى من أرض الشام ، وبها راهب يقال له بحيرى في صومعة له وكان إليه علم أهل النـصرانية ... فلما نزلوا به قريبا من صومعته ... وذلك فيما يزعمون عن شيء رآه وهو في صومعته يزعمون أنه رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو في صومعته في الركب حين أقبلوا ، وغمامة تظله من بين القوم . قال ثم أقبلوا فـ لوا في ظل شجرة ، فنظر إلى الغمامة حين أظلت الشجرة ، وتهصرت أغصان الشجرة على رسول الله صـلى الله عليـه وسلم حتى استظل تحتها فلما رأى ذلك بحيرى نزل من صومعته ثم أرسل إليهم ..فزعموا أن رسول الله صلى الله

عليه وسلم قال (له) لا تسألني باللاتي والعزى ، فوالله ما أبغضت شيئا قط بغضهما ... فجعل بحيرى يسأله عن أشياء من حاله في نومه وهيئته وأموره ورسول الله صلى الله عليه وسلم يخبره فيوافق ذلك ما عند بحيرى من صفته ثم نظر إلى ظهره فرأى خاتم النبوة بين كتفيه على موضعه من صفته التي عنده "

وبرواية أخرى قال ابن إسحاق ما موجزه : أن خديجة بنت خويلد عرضت على رسول الله صـلى الله عليـه وسلم أن يخرج في مال لها إلى الشام تاجرا ... مع غلام لها يقال له ميسرة فقبله رسول الله صلى الله عليه وسـلم منها ... فخرج حتى قدم الشام فـ ل رسول الله في ظل شجرة قريبا من صومعة راهب من الرهبان فاطلع الراهب إلى ميسرة فقال له من هذا الرجل الذي نزل تحت هذه الشجرة ؟ قال له ميسرة هذا رجل من قريش من أهـل الحرم ؛ فقال له الراهب ما نزل تحت هذه الشجرة قط إلا نبي ... "(1)

بينما روى الترمذي قريب من هذا في مصنفه وقال في نهايته : هذا حديث حسن غريب لا نعرفه إلا من هـذا الوجه ا (2)

----

(1) السيرة الهشامية لابن اسحاق (2) لحديث الغريب هو ما انفرد واحد بروايته وينقسم إلى غريب صحيح كالأفراد المخرجة في الصحيح وهو الغالب على الغرائب ولذلك جاء عن أحمد بن حنبل لا تكتبوا هذه الأحاديث الغرائب فإنها مناكير وعامتها عـن الضعفاء " (المنهل الروي لمحمد بن ابراهيم بن جماعة)

وبداية أشير إلى أنه لا مانع من صحة بعض القصة ما بين سفر القوم وفيهم محمدا إلى الشام ، وما بين لقائهم بالراهب ، ولا مانع كذلك من توسم بحيرا في رسول الله صلى الله عليه وسلم النبوة بما وجد فيه من سمات الأنبياء ووقارهم وصفاتهم الحميدة .. وعندئذ يكون الأقرب إلى الصحة هو جزء من الرواية التي قال بها بن اسحاق برؤية الراهـب له صلى الله عليه وسلم عندما خرج تاجرا مع ميسرة في تجارة خديجة بن خويلد حيث أنها الأقرب إلى العقل ، وفيها توسم بحيرا في محمد سمات النبي المنتظر بعد أن بلغ من سن الشباب والرجولة - الخامسة والعشرين - بما عنده من علم بصفات هذا النبي .. ولكن المانع هو ما داخل القصة من كلام يبين منه علم بحيرا اليقيني بأن محمد الشخص الذي رآه في هذا الوقت وقبل نزول الوحي عليه بما يقرب من خمسة عشر عاما هو بذاته النبي المنتظر بما رآه من علامات ومعجزات كالغمامة أو سجود الحجر والأشياء له ، ومن هذا المنطلق نبدي الملاحظات الآتية :

1- البين من روايتي ابن إسحاق أن التباعد الزمني بينهما واضح ، إذ قيل في الأولى أنه خرج صـلى الله عليـه وسلم مع عمه وهو ابن تسع سنين أو اثنى عشر عاما ، وفي الثانية يكون خروجه مع ميسره وسنه خمس وعشرون عاما لأنه العام الذي تلاه زواجه من السيدة خديجة رضي الله عنها .، والبين ثانية أن ابن إسحاق نفسه يـشك في الرواية التي ينقلها بترديده بين كل فقرة وأخرى كلمه يزعمون ، وتكراره لها أكثر من مرة ، وهو يستخدم هـذه الكلمة غالبا في الروايات التي لا سند لها ولا مصدر ،

2- من المعلوم بيقين أن هيئة أو كيفية سجود الأشياء كالحجر والشجر لله تعالى من العلوم التي استأثر بها سبحانه وتعالى ولم يطلع عليها أحد من خلقه إلا من ارتضى من رسول ، فقال سبحانه (وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيماً غَفُوراً)(1) ، فإذا كان الإنسان لا يفقه تسبيح المخلوقات الأخرى فأولى ألا يفقه سجودها ، ولم أجد في أمهات كتب السلف الأولى ما يدل على أهلية بحيرا أو خصوصيته التي تؤهله لرؤية سجود الأشياء وكيفيتها إلا ما جاء في المعارف لابن قتيبة قوله " أنه سمع قبل الإسلام بقليل هاتف يهتف ألا إن خير أهل الأرض ثلاثة بحيرى ، ورباب بن البراء الشني والثالث المنتظر " وهو قول لا يكفي وحده كدليل على هذه الخصوصية ، باعتبار أن وحدانية المصدر في الدليل قاصرة على القرآن والسنة فقط

3- يقول بن تيميه وهو يرد بعض أقوال من نسبوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم معجزات لم تنقل عن ثقات من أهل العلم "ولكن أظلته الغمامة عندما رآه بحيرا الراهب وعلى الرغم من ذلك لا يُجزم بصحته" (2)أي يقول بقصة بحيرا ولكنه لا يجزم بصحة القصة

----

(1) الإسراء من الآية 44 (2) الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح

4 - أنشد أبو طالب في هذا القصة شعرا قال السهيلي فيه " إن في شعر أبو طالب دلالة على أنه كان يعرف نبوة النبي قبل أن يبعث لما أخبره به بحيرا أو غيره وهذا فيه نظر لما تقدم عن ابن اسحاق أن إنشاء أبي طالب لهذا الشعر كان بعد المبعث ، ومعرفة أبي طالب بنبوة رسول الله جاءت في كثير من الأخبار وتمسك بها الشيعة في أنه كان مسلما وأنه مات على الإسلام (1)

5- في تذيب التهذيب لابن حجر ذكر أن رسول الله غير اسم رجلا أسلم كان اسمه بحيرا وسماه عبد الله وهو عبد الله بن أبي ربيعة ، سافر مع عمرو بن العاص إلى الحبشة من قبل الملأ من قريش ليرد الفئة التي هاجرت الهجرة الأولى إلى الحبشة ، وهو ما يدعو للتساؤل أليس من العجيب أن يغير رسول الله صلى الله عليه وسلم اسم رجل هو أول من علم أن محمد بن عبد الله بذاته وشخصـه وهيئته هو النبي المذكور في التوراة والإنجيل وعلمه بـذلك كان قبل أن يبعث صلى الله عليـه وسلم بفترة زمنية كبيرة ، علما بأن هناك أسماء لم يغيرها رسول الله صلى الله عليه سلم على الرغم من أنها يهودية أو نصرانية مثل ميمون بن مهران وكعب الأحبار ، وأليس من العجيب أيـضا ألا يذكره رسول الله في قولة واحدة وهـو المعروف بوفائه صلى الله عليه وسلم لكل من رآه أو تعامل معه ولـو قبل بعثته ومن الذين ذكرهم صلى الله عليه وسلم ممن التقى بهم قبل النبوة أو عرف عنهم خبرا قيس بن سـاعدة

الأيادي وعمرو بن نوفيل . كما ذكر ورقة بن نوفل في قوله صلى الله عليه وسلم الذي أورده بن حجر ، " لقـد رأيت القس في الجنة عليه ثياب الحرير لأنه آمن بي وصدقني " (2) وقال بن حجر أخرجه البيهقي في الدلائل مـن هذا الوجه يعضده ما أخرجه الزبير عن عروة أنه – أي ورقة – مر على بلال وكانوا يعذبونه برمضاء مكة يلصقون ظهره بالرمضاء كي يشرك وهو يقول أحد أحد فيقول له والله لئن قتلتموه لأتخذنه حنانا

6 - قال السيوطي " القول بأن أبو بكر آمن برسول الله في زمن بحيرا الراهب يخالف الإجماع الذي عليه أهل العلم والحديث من أن أبو بكر آمن برسول الله أول ما آمن به عندما أخبره رسول الله صلى الله عليه وسلم بـ ول الوحي عليه وأنه نبي هذه الأمة ، كما قال صاحب عيون الأثر في الجزء الأول بعدمـا روى القصة عن ابن اسحاق "ومع ذلك ففي متنه نكارة و هي إرسال أبي بكر مع النبي صلى الله عليه و سلم بلالا . وكيف وأبو بكر حينئذ لم يبلغ العشر سنين فإن النبي صلى الله عليه و سلم أسن من أبي بكر بأزيد من عامين ، وكانت للنبي صلى الله عليه و سلم تسعة أعوام على ما قاله أبو جعفر محمد بن جرير الطبري وغيره ، أو اثنا عشر على ما قاله آخرون ، وأيضاً فإن بلالاً لم ينتقل لأبي بكر إلا بعد ذلك بكثير

7– ضعف الحافظ الذهبي الرواية وقال تحت عنوان سفره مع عمه حديث منكر جدا للسبب السابق (3)

----

(1) الإصابة في تمييز الصحابة لابن حجر

(2) قال بن حجر في الإصابة أخرجه البيهقي في الدلائل من هذا الوجه وعضده برواية أخرى (3) تاريخ الإسلام للذهبي

8– اختلف الرواة في اسم الراهب أصلا ما بين بحيرا عند بن اسحاق ، وسرخيس في سير الزهري ودون اسم في سنن الترمذي ، وذكره بن سعد في طبقاته باسم نسطور ، بل إن ابن خلدون في تاريخه جعلهما اثنين الأول هو بحيرا والتقى به رسول الله وهو ابن تسع أو اثني عشر سنة ، والثاني هو نسطور والتقى به رسـول الله في تجـارة لخديجة ومعه ميسرة وهو شاب وقال صاحب علامات النبوة بالقصتين معا

9 – المعلوم أيضا أن عم النبي عليه الصلاة والسلام أبو طالب لم يسلم ، ولم يكتب التاريخ كلمة خرجت من شفتيه يواجه با أهل مكة الذين ناصبوه العداء بسبب محمد صلى الله عليه وسلم بعلمه بنبوة ابن أخيه عليه الصلاة والسلام قبل أن يبعث بعشرات السنين عن طريق بحيرا . ولو كان الخبر صحيحا على النحو الوارد لكان هو أول من أسلم لكونه أول من سمع ولاحتج بعلمه هذا عليهم

10-والبين كذلك أن الروايات جميعها لم تشر من قريب أو بعيد إلى إسلام بحيرا أو إعلان إيمانه بمحمد كنبي منتظر مثلما فعل ورقة بن نوفل لما علم بـ ول الوحي على رسول الله فقال " لئن أدركت هذا اليوم لأنصرن الله نصرا يعلمه " ولم أجد ذلك إلا في مصدر واحد لم يقدم الدليل على صحة ما قاله على الرغم من أنه لم يصنفه ضمن الصحابة لشكه في لإسلامه وهو المنقول عن ابن حجر في باب تراجم الرجال بالإصابة ، وهو تناقض

يضعف من التصور الذي جاءت به الرواية إذ كيف يمكن قبول علم الراهب اليقيني بالعلامات والدلائل بنبوة محمد صلى الله عليه وسلم وعدم الإيمان به .

11- استغل المستشرقون في العصر الحديث هذه الرواية ونقلوا عن كاتب مسيحي في القرنين الحادي أو الثاني عشر يدعى اشوعيب قوله بتلقين سرجيوس محمدا صلى الله عليه وسلم عقيدته وشرائعه وأجزاء من القرآن وذلك بقصد أن يجعل العرب يدينون لليهود بعلمهم بإله واحد (1)

هذا وإن كانت هذه الملاحظات قائمة على اجتهاد قد يكون غير صائب ، فضلا عن عدم تملكي مكنات أو قدرات النقد العلمي القائم على التخصص للأحاديث سواء من ناحية الرواة أو المتن أو غير ذلك ، فأني أنقل هنا بعض ملاحظات هؤلاء الذين تتوافر لديهم هذه والقدرات ، فيقول أحدهم" روى الترمذي عن الفضل ابن سهل - عن عبد الرحمن ابن غزوان- عن يونس أبي اسحق - عن أبي بكر ابن أبي موسى عن أبيه [أبي موسى الأشعري] أنه قال " ذهب أبو طالب إلى بلاد الشام....الخ :

أما – عبد الرحمن ابن غزوان – فمع أنه حصل على اعتراف من نُقاد علم أسماء الرجال علم مصداقية رواة الأحاديث لكن آخرين قد وجهوا له التهم ، ومنهم العلامة الذهبي حيث يقول "أن عبد الرحمن يروي الأحاديث الضعيفة وأكثر تلك الأحاديث الغير مقبولة هو الحديث المتعلق بحادثة بحيرا

----

(1) دائرة المعارف الإسلامية مترجمة طبعة الشعب ج7 نقلا عن مجلة الوعي الإسلامي 2000/419

وقال ابن حبان " لقد ارتكب أخطاءً" . أما الإمام أحمد فقد صنف روايته بشكل عام على أنا غير موثوقة ولا قيمة لها ، مما جعل ابن سعد يصنف حديثه على أنه ضعيف. وبذلك فإن بالإمكان تصنيف الحديث على أنه منقطع سلسلة الرواة . وأبي موسى الأشعري الذي كان أحد صحابة نبي الإسلام صلى الله عليه وسلم وجمع عنه الحافظ شمس الدين محمد ابن أحمد ابن أسامة الذهبي معلومات مفصلة عنه ، فقال بعد أن ذكر جميع الروايات عن تاريخ وفاته ما بين عام 42هـ ، 52هـ لا يمكن بحال من الأحوال اعتبار أبي موسى الأشعري شاهد عيان للحادثة التي حدثت قبل ميلاده بمدة 20 إلى 34 عاماً ومن 30 إلى 40 عاماً قبل بلوغه ، حيث أن درجة فهمه وتذكره لمثل تلك الحادثة تكون ضعيف ، وحتى ولو لم يكن أبي موسى شاهد عيان فإن من الممكن قبول روايته لو أنه قال منذ البداية أنه سمع الحادثة من النبي صلى الله عليه وسلم نفسه ، أو من أحد من صحابته ، وعن أبو بكر بن أبي موسى رفض الإمام أحمد ابن حنبل رفضاً قاطعاً إمكانية قبول روايته . ويعتبره ابن سعد كاذباً ولا يؤخذ بقوله ، ويقول الحافظ يوسف المزني ضعيف ولا يُعتمد عليه ومهمل بل وحتى ملفق ، يقول أبو حكيم إنه غالباً ما يشعر بالحيرة والإحساس بالهذيان إزاء روايته ، رغم أن بعض النقاد أيدوا وقبلوا روايته إلا أن معظمهم يعتبرونه

غير موثوق به ، وقالوا عن يونس ابن إسحق " كان الإهمال وعدم الاهتمام صفة متأصلة فيه ، ويتبقى فقط الفضل ابن سهل ابن إبراهيم الأعرج .وقيل أنه كان راوياً قوياً ، ولكن هناك تحفظات بالنسبة له فيقول الخطيب البغدادي نقلا عن آخرين كان شخصاً ماكراً كالثعالب ومراوغاً ومخادعا(2) ،

فيما قال آخرون

1- كان الدخول في التعاملات التجارية والذهاب بها ضمن قوافل تجارية محصوراً على الأشخاص الأثرياء ولم يحلم أبو طالب أن يكون منهم ، لأنه لم يكن ثرياً أبداً بل إن ثروته كانت ضئيلة لدرجة عدم تمكنه من الإنفاق على أولاده ، مما جعل بعض أقاربه يتعاطفون معه ويأخذون على عاتقهم مسئولية تربية بعض أبنائه ، إن قصة الحديث مختلقة ولا يوجد دليل على أن أبا طالب كان له رحلات تجارية إلى أي مكان فقد كان بائع عطور بسيط ، وقد رُوي أنه كان أعرجاً وبذلك يفقد الأهلية للقيام برحلة كهذه

2- بما أن بحيرا فقط هو الذي أدرك سجود الأشياء والغمامة .فإن من المفترض أن علامة النبوة المذكورة تكون موجودة في الإنجيل ، لكن الأمر ليس كذلك مما يجعل الحادثة مختلقة وغير موثوقة ولو كان قوله أن الأشجار والحجارة ركعت للنبي صلى الله عليه وسلم ، فإن ذلك لن ينحصر في تلك الحادثة فقط ، ويكون مئات الآلاف من الأشخاص قد شاهدوا ذلك في مكة وسواها ، لكننا لا نجد حديثاً صحيحاً واحداً يؤيد حدوث ذلك مما يؤكد أن ذلك الحديث موضوع لا أصل له

.

--

3- ومما يجدر ذكره أن الإسلام قد حرّم الركوع لأحد سوى الله . فيقول تعـالى (لا تَسْجُدُوا لِلشمْسِ وَلا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلهِ الذِي خَلَقَهُن إِنْ كُنْتُمْ إِياهُ تَعْبُدُونَ) (1) وقد منع الرسـ ـ ـ ـول صلى الله عليه وسلم الركوع أمام أحد سوى الله ، كما مُنع ذلك في الإنجيل " لا تصنع لك تمثالاً منحوتاً ولا صورة مما في السماء من فوق وما في الأرض من تحت وما في الماء من تحت الأرض ، لا تسجد لهن ولا تعبدهن ، لأني أنا الرب إلهك إله غيور أفتقد ذنوب الآباء في الأبناء في الجيل الثالث والرابع ، وبذلك يتضح عدم جواز الركوع لغير الله في أية حال

4- يقول بعض المستشرقين المحايدين مثل جون ب. نوس ، وديفيد س. نوس في كتابهما الشهير" أديان الرجل" .. إن من الواجب إدراج الحديث الشريف الذي يقول إن محمداً صلى الله عـليه وسلم تعلم اليهودية والنصرانية خلال رحلاته مع القافلة التجارية المتجهة للشام ، وكانـت الأولى بصحبة عمه أبي طالب عندما

كان في سن الثانية عشرة ، والثانية عندما كان عمره 25 عـ ـاماً كموظف لخديجة التي تزوجها فيما بعد على أنه حديث غير مقبول

ويقــول تومــاس كارلايــل : حــديث الراهــب النــسطوري مبــالغ فيــه بــشكل كــبير . (2)

----

(1) فصلت 37 (2) نفس المصدر السابق

سيف بن ذي يزن

روى بن إسحاق عن ابن عباس ما موجزه " لما ظهر سيف بن ذي يزن على الحبشة ، وذلك بعد مولد الـنبي صلى الله عليه وسلم أتته وفود العرب ... فأتاه وفد قريش وفيهم عبد المطلب بن هاشم في أناس من وجوه قريش ... فتكلم عبد المطلب بكلام أعجب الملك ، كما تكلم بن ذي يزن بكلام أعجب منه وذكر بن إسحاق ما قالاه كلاهما تفصيلا ، فكان مما قاله سيف بن ذي يزن " إنى مفوض إليك من سنى علمي أمرًا لو يكون غيرك لم أبح له به ولكنى رأيتك معدنه فأطلعتك عليه فليكن عندك مكنونا حتى يأذن الله فيه، فإن الله بالغ أمـره. إنى أجـد فى الكتاب المكنون والعلم المخزون الذى اختزناه لأنفسنا واجتبيناه دون غيرنا خيرًا عظيمًا وخطرًا جسيمًا فيه شرف الحياة وفضيلة الوفاة، للناس عامة ولرهطك كافة ولك خاصة... إذا ولد بتهامة غلام بين كتفيه شامة كانت لـه

الإمامة ولكم به الزعامة إلى يوم القيامة ... هذا حينه الذى يولد فيه أو قد ولد ، اسمه محمد يموت أبوه وأمـ ـه ويكفله جده وعمه ، قد ولدناه مرارًا والله باعثه جهارًا وجاعل له منا أنصارًا يعز بهم أولياءه ويذل بـ ـهم أعـ ـداءه يضرب بهم الناس عن عرض ويستبيح بهم كرائم الأرض ويكسـ ـ ـ ـر الصلبان ويخمد النيران ويعبـ ـد الـ ـرحمن ويدحر الشيطان قوله فصل وحكمه عدل يأمـ ـ ـر بالمعروف ويفعله، وينهى عن المنكر ويبطلـ ـه ... والبيـ ـت والحجب والعلامات والنصب إنك يا عبد المطلب لجده غير كذب... فاحتفظ بابنك واحذر عليه اليهود، فـ ـإنهم أعداؤه، ولن يجعل الله عليه سبيلاً، واطو ما ذكرت لك دون هؤلاء الرهط الذين معك، فأنى لا آمن أن تدخلـ ـهم التعاسة من أن تكون لكم الرياسة فيطلبون له الغوائل وينصبون له الحبائل، وهم فاعلون وأبناؤهم، ولولا أنى أعلم أن الموت مخترمي قبل مبعثه لسرت بخيلي ورجلي حتى أصير بيثرب دار ملكه، ولولا أنى أخاف عليـ ـه الآفـ ـات واحذر عليه العاهات لأعلنت على حداثة سنه بذكره، ولكنى صارف ذلك إليك، من غير تقصير بمن معك " ،

ثم مات ابن ذى يزن قبل أن يحول الحول فكان عبد المطلب كثيرًا ما يقول يا معشر قريش، لا يغبطنى أحدكم بجزيل عطاء الملك وإن كثر فإنه إلى نفاد، ولكن ليغبطنى بما يبقى لى ولعقبى من بعدى ذكره وفخره وشرفه. فـ ـإذا قيل له : فما ذاك؟ قال: ستعلمون نبأه ولو بعد حين " .

الملاحظات :

1- ذكر بن كثير قصة سيف بن ذي يزن كما رواها بن اسحاق من جهة قصة أصحاب الخدود حيث ذكر بن إسحاق أن " سيف هو الذي استنقذ بعض مؤمني أصحاب الأخدود وهو دوس ذو تغلبان وهو الوحيد الذي نجا فذهب هذا الذي نجا إلى قيصر الروم ملك الشام فكتب الأخير إلى النجاشي فأرسل مـ ـع ذو نـ ـواس جيـ ـشا يقدمهم أرباط وأبرهة فاستنقذوا اليمن من اليهود (أصحاب الأخدود)

وهرب ذو نواس وغرق في البحر ثم استمر ملك الحبشة في أيدي النصارى إلى أن استنقذه سيف بن ذي يزن منهم ، ثم قال بن كثير تعقيبا على هذه القصة " إن زمن القصة قديما بعد زمان إسماعيل عليه السلام بقرب مـ ـن خمسمائة سنة وما ذكره بن إسحاق يقتضي أن قصتهم كانت في زمان الفترة بين عيسى ومحمد وهـ ـو أشبه "

ثم عقب بعد ذلك ابن كثير باحتمال حدوث قصة أصحاب الأخدود أكثر من مرة حتى يطابق ما قالـ ـه بـ ـن اسحاق ، (1)

2- الملاحظ أولا أن هذه القصة رويت من مصدر يكاد يكون وحيد هو الموجود في السيرة الهشامية لابن هشام في تهذيب سيرة بن إسحاق ، وعنها أخذت جميع السير ،

3- والملاحظ ثانيا أن القصة بالطريقة التي سردها بن إسحاق يغلب عليها الطابع الأدبي ،وهو الطابع الـذي يعتمد على القص والحكي متخذا من العبارات السهلة سبيلا لعرض القصص في أسلوب أدبي شيق شارحا بعـض الكلمات الغامضة أثناء العرض القصصي محليا الخبر بأبيات شعرية أو نصوص نثرية ، وهو ما فعله بن هشام حيث نحا في أغلب الحوادث التاريخية وخاصة قبل الإسلام نحوا قصصيا في أسلوب أدبي بليغ وتخلل عرض الأخبار كـثير من الحوارات الشيقة ، ومن هذه الحوادث أخبار غزوة يثرب التي قام بها تبان أسعد حاكم اليمن قاصـدا هـلاك المدينة ، وكان لحبرين من اليهود دخل في حوادث هذه القصة المغرقة في الإسرائيليات وكذا قصة سد مـأرب ، وأرى أن القصة صاغها بن إسحاق من هذا القبيل ،

وهذه الطريقة أخذ عنها أغلب الكتاب والأدباء المعاصرين حيث استخدموا قدراتهم الأدبية في صياغة الـسيرة النبوية في صورة القصص والرواية والشعر ومن هؤلاء طه حسين في كتابه على هامش السيرة ، وتوفيق الحكيم في (محمد) ومن الشعراء محمود سامي البارودي في كشف الغمة في مدح سيد الأمة (2) لذا جاء الحوار فيها بطريقة أدبية بالغة الدقة ظاهر فيها استخدام السجع والبلاغة والشعر ، بغير أن يعني ذلك جميعه نفي القصة من أساسها ، ولكن كما قلت في قصة بحيرا من أنه لا مانع من صحة الرواية ، ولا مانع من سفر محمد إلى الشام في تجارة ولقائه به ، ولا مانع من توسم بحيرا في محمد سمات الأنبياء ، فأقول هنا أيضا لا مانع من لقاء عبد المطلب بسيف بن ذي يزن على النحو الذي جاءت به القصة ، ولا مانع كذلك من صحة أغلب الحوارات والكلام الذي دار بينـهما ، ولكن يبقى مانع وحيد وهو علم ذي يزن هذا العلم اليقيني المؤكد تأكيدا ينقطع دونه كل شك أو احتمال بنبوة محمد ، وأن محدثه هو جده ، وأن الطفل محمد بن عبد الله هو حفيده ،

---

(1) تفسير بن كثير لسورة البروج د/ محمد حامد

(2) رسول الإنسانية في الأدب العربي الحديث \

5- من المعروف أن عبد المطلب مات وسنه صلى الله عليه وسلم ثماني سنوات ، فأصبح رسول الله صـلى الله عليه وسلم بعد وفاة جده عبد المطلب في كفالة عمه أبو طالب، وكان عبد المطلب يوصي أبا طالب برسـول الله صلى الله عليه وسلم ، لأن عبد الله والده وأبا طالب عمه كانا أخوان لأب واحد هو عبد المطلب وأم واحدة هي فاطمة بنت عمرو بن عائذ (2)، فهل كان من ضمن ما أخبر به عبد المطلب ابنه أبو طالب وأوصاه بـه هـو أن محمد النبي المنتظر ؟ وهل أخبره بكلام بن ذي يزن ؟ بل وهل أخبره بسائر الأقاويل التي سمعها والتي تؤكد كلها

بما لايدع مجالا للشك أن محمد بن عبد الله هو النبي المنتظر ومن هذه الأقاويل على سبيل المثال وما أفاض فيه بـن إسحاق أيضا ، ما رواه من قول أم أيمن : " كنت أحضن رسول الله صلى الله عليه وسلم فغفلت عنه يومًا فلـم أدر إلا بعبد المطلب قائمًا على رأسى يقول يا بركة ، قلت لبيك، قال أتدرين أين وجدت ابني ؟ قلـت لا أدرى قال وجدته مع غلمان قريًبا من السدرة، لا تغفلي عن أبني، فإن أهل الكتاب يزعمون أن أبني نبي هذه الأمة، وأنا لا آمن عليه منهم (3)

وأيضا "جلس عبد المطلب يومًا فى الحجر وعنده أسقف نجران وكان صديقًا له وهو يحادثه وهو يقول إنا نجد صفة نبى بقى من ولد إسماعيل، هذه مولده، من صفته كذا وكذا فأتى الطفل محمد وهم على هذا الحديث، فنظر إليه الأسقف وإلى عينيه وإلى ظهره وإلى قدميه فقال هو هذا ، فقال الأسقف ما هذا منك؟ قال ابني قال الأسقف لا ما نجد أباه حيا. قال عبد المطلب هو ابن أبني مات أبوه وأمه حبلى به قال صدقت. قال عبد المطلب تحفظـوا بابن أخيكم، ألا تسمعون ما يقال فيه (4)

6- الثابت أن التاريخ لم يسجل وصية لعبد المطلب بذا الشأن ، وما سجله هو وصيته عنـد موتـه عنـدما حضرته الوفاة وعرف أنه ميت فجمع بناته وكن ستا: صفية، وبرة، وعاتكة، وأم حكيم البيضاء، وأميمة ، وأروى فقال لهن ابكين على حتى أسمع ما تقلن قبل أن أموت. فقالت كل واحدة منهن شعرًا ترثيه به وأنـشدته إيـاه ، فأشار برأسه ، وقد أصمت أن هكذا فابكيننى (5)

7- بل إن موقف أبو طالب نفسه وعلى وجه الخصوص عدم إسلامه وإيمانه بمحمد يدل على جهله بذه النبوة ، وما كانت منعته لرسول الله صلى الله عليه وسلم وحدبه عليه إلا من منطلق واحد فقط هو منطلق القرابة وصلة الدم والحب له ، ولنستعيد موقفه يوم أن ذهب إليه الملأ من قريش ومعهم عمارة ابن الوليد بن المغيرة وقالوا له: يا أبا طالب إن هذا الفتى أَنْهَدَ فتى في قريش وأجمله فخذه فلك عقله ونصره، واتخذه ولدًا فهو لك، وأَسْلِمْ إلينا ابن أخيك هذا الذي خالف دينك ودين آبائك وفرق جماعة قومك وسفه أحلامهم، فنقتله فإنما هو رجل برجل فقال: والله لبئس ما تسومونني، أتعطوني ابنكم أغذوه لكم، وأعطيكم ابني تقتلونه؟ هذا والله ما لا يكون أبدًا. (6)

----

(2) سيرة بن إسحاق (3) عيون الأثر ج أول (3) سيرة بن كثير ج 1

(5) تاريخ الطبري الجزء الثاني (6) السيرة الحلبية

فكان إبائه من هذا الوجه فحسب ، ولو كان من وجه يقينه بنبوة محمد لكان أول من آمن . ولمـا لا وقـد تعجب أبو طالب من رسول الله صلى الله عليه وسلم مثلما تعجب الملأ الكفار من قريش عندما قال له صلى الله عليه وسلم " أي عم أو أدعوهم إلى ما هو خير لهم منها" ؟ قال وإلام تدعوهم ؟ قال

" أدعوهم أن يتكلموا بكلمة تدين بها لهم العرب ويملكون بها العجم " فقال أبو جهل بلى وأبيك لنعطيكها وعشر أمثالها " فقال هي لا إله إلا الله محمد رسول الله فنفروا منه وتفرقوا(1)فهل يفهم من هذا علم أبو طالب أو قريش المسبق بنبوة محمد صلى الله عليه وسلم خاصة وأنه أصر إصرارا غريبا على عدم الإيمان بمحمد حتى عند موتـه ،

ففي الصحيح عن المسيب أن أبا طالب لما حضرته الوفاة دخل عليه النبي صلى الله عليه وسلم وعنده أبو جهـل، فقال أي عم قل لا إله إلا الله ، كلمة أحاج لك بها عند الله فقال أبو جهل وعبد الله بن أبي أمية يا أبا طالـب ، ترغب عن ملة عبد المطلب؟ فلم يزالا يكلماه حتى قال آخر شيء كلمهم به " على ملة عبد المطلب (2)

8- وبالتالي يداخلنا الشك أيضا في بعض ما قيل في الإرهاصات وهواجس النبوة عن علم أبو طالـب بنبـوة محمد بن أخيه وهو لم يزل طفلا ، وتحققه بنفسه من بعض هذه العلامات ، مثل ماروي من أنه (أي أبو طالـب) عرضه على عائف من لهب كان إذا قدم من مكة أتاه رجال قريش بغلمانهم ينظر إليهم ويعتاف لهم ، فأتاه به أبو طالب وهو غلام مع من يأتيه فنظر _ أي العائف - إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم شغله عنه شىء فقال : الغلام على به. فلما رأى أبو طالب حرصه عليه غيبه ، فجعل يقول (العائف) ويلكم ردوا على الغـلام الـذي رأيت آنفًا، فوالله ليكونن له شأن فانطلق به أبو طالب(3)

9- ولست بذلك أكذب كل الإرهاصات التي نبئت بنبوته صلى الله عليه وسلم خاصة وأن

(يقيننا بما جاء بعد الرسالة وليس قبل أن يوحي إلى محمد صلى الله عليه وسلم ، ولم يتنبه الناس إليها إلا بعـد أن أعلن محمد – صلى الله عليه وسلم – أنه تلقى وحياً .. ولم يكن الوحي رغبة له صلى الله عليه وسلم ولم تكـن الرسالة أملاً يراوده ، ولا حلماً يسعى إليه ، ولقد عاش أربعين عاماً قبل أن يوحي إليه كما يعيش كافة أقرانـه لم يعرف عنه إلا أنه الصادق الأمين) (4) بل أني سأدرجها ضمن فضائله صلى الله عليه وسلم كما سيرد إن شاء الله في باب الفضائل . ولكن المبالغ في هذه الإرهاصات ، هو ما نرده وهو ما نراه مخالفا لقولنا بالاختيار .. والمبالغات التي أشير إليها هي بعض ما امتلأت به كتب التاريخ عن أخبار الكهان ، والتي صورت لنا إياهم قدرتهم الفائقـة على العلم بالغيب ، ومنذلك مثالا ما رواه السيوطي في تاريخ الخلفاء نقلا عن الخرائطي في الهواتف ما موجزه :

----

(1) قال الحاكم فصحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه 8737 (2) الرحيق المختوم

(3)السيرة لابن كثير ج1 (4) د/ المسير صحيفة النور 92/8/5

" أن الفاكه بن المغيرة طلق هند بنت عتبة لشكه في واقعة ما ، فأراد قومها أن يتأكدوا من صـدقه أو كذبـه فضربوا الرحال إلى كاهن باليمن ، فلما خشيت هند أن يخطئ الكاهن بوصفة بشري فيسمها بسيماء تكون عليها سبة في العرب ، قال لها أبوها عتبة أنه سوف يختبره قبل أن يعرض عليه أمرها ، فوضع في إحليل فرسه حبة مـن حنطة ، ثم دخلوا على الكاهن ، فقال له عتبة " إنا قد جئناك في أمر وقد خبأت لك خبيئا أختبرك فانظر ما هو ؟ فقال برة في كمرة ، قال أريد أبين فقال حبة من بر في إحليل مهر ، فقال عتبة صدقت ، ثم قال له انظر في أمـر

النساء ، فجعل يدنو من إحداهن ويقول لها انضي حتى إذا دنا من هند قال "قومي غير رسحاء ولا زانية ولتدلين ملكا يقال له معاوية "(1)

إذ بالوقوف عند ما انتهت إليه هذه الرواية نجد فيها شبهة المبالغة والتزيد ، وأقصد بذلك قوله لهند " تلـدين ملكا يقال له معاوية " ، إذ قد علم القائل علما تجاوز به حدود السنين الطوال ، فعلم أن هند ستتزوج ، وأنـا ستلد ولدا ، وأن هذا الولد سيكون اسمه معاوية ، وأن هذا الولد المسمى معاوية سيكون ملكا فمن أين تأتى هذا الكاهن بمثل هذا الغيب ؟ أمن شيطانه الذي كان يتسمع أخبار السماء ؟ فما بلغ العلم الشيطاني هذا الحد ، أم من كتاب أطلع عليه ؟ فما من كتاب سماوي أخبر بمثل هذا . بل بلغ الكاهن في قوله هذا علما لم يبلغه نبينا صلى الله عليه وسلم ، إذ غاية ما تنبأ به رسول الله صلى الله عليه وسلم لمعاوية قوله في الحديث الذي أخرجه البخـاري في صحيحه عن عبد الملك بن عمير قال : " قال معاوية ما زلت أطمع في النبوة منذ قال لي رسول الله عليه الـصلاة والسلام "يا معاوية إذا ملكت فأحسن " (2) ، ليس هذا فحسب بل ما يؤكد ذلك هو اختبار النبي صـلى الله عليه وسلم لابن صياد الدجال في الحديث الذي رواه عبد الله بن عمر وفيه أن رسول صلى الله عليه وسلم قـال لابن صياد –– وكان كاهنا بلغ في قدرته أن أقسم عمر بن الخطاب بأنه المسيخ الدجال الذي تنبأ به رسـول الله صلى الله عليه وسلم - ماذا ترى ؟ قال بن صياد يأتيني كاذب وصادق ، فقال له خلط عليك الأمر ، فقال لـه النبي إني قد خبأت لك خبيئا – وكان الخبيء آية من سورة الدخان وهي " فارتقب يوم تأتي السماء بدخان مبين " فقال بن صياد هو الدخ الدخ – لا يستطيع أن يكمل – فقال النبي أخسأ فلن تعدو قـدرك "(3) إذ دل هـذا الحديث على قدرة الكاهن المحدودة

----

(1) تاريخ الخلفاء الجزء الثاني فصل معاوية (2) صحيح البخاري 2988 (3)صحيح مسلم 2930

10- خاصة وأن هذه المبالغة اتخذها البعض سندا لاتجاه معين لهم فادعى أحدهم أن نبوة محمد بـن عبـد الله صلى الله عليه وسلم كان ممهدا لها من قبل جده عبد المطلب بن هاشم ،

فقال " إن عبد المطلب بن هاشم كان من ذوى النظر الثاقب والفكر المنهجي المخطط استطاع أن يقرأ الظـروف الموضوعية لمدينة مكة وأن يخرج من قراءته برؤية واضحة هي إمكان قيام وحدة سياسية بين عرب الجزيرة ، تكون نواتا ومركزها " مكة " تحديداً برغم واقع الجزيرة المتشرذم آنذاك ويؤيد ذلك بقولة عن عبد المطلب " إذا أراد الله إنشاء دولة خلق لها أمثال هؤلاء " وهو يشير إلى أبنائه وحفدته ، و يقصد الكاتب أن عبد المطلب كان يـسعى لإنشاء دولة هاشمية يكون هو ملكها ومن بعده أولاده." .. ثم يربط أحلام اليهود بأحلام العرب بقوله : " هـذا الحلم داعب خيال سراة العرب وأشرافهم حتى بدا لكل منهم طيف زعامته للدولة الموحدة مشرقاً في الخيال .

ثم يوضح " أنه إزاء كل العوائق الواضحة والمحبطات السافرة للحلم وللأمل وللتوقع لم يجد الآخـرون سـوى الاهتداء إلى أنه لا حل سوى أن يكون منشئ الدولة المرتقبة نبياً مثل داود ، وعندما وصلوا إلى هذا فـشا الأمـر بسرعة هائلة بين العرب حتى اشتد الإرهاص بالنبي المنتظر خلال فترة وجيزة وأمكن هؤلاء بذلك وأخذوا يسعون للتوطئة للعظيم الآتي " إلى أن قال " لكن العجيب فعلاً أن لا يمضي من السنين غير قليل حتى تقـوم في جزيـرة العرب دولة واحدة قادرة مقتدرة تطوي تحت جناحيها وفي زمن قياسي ملك الروم والعجم بعد أن أعلن حفيـد عبد المطلب بن هاشم محمد بن عبد الله عليه الصلاة والسلام أنه النبي المنتظر" (1)

----

(1) سيلاحظ القاريء في جميع هذا الكتاب أنني لا ذكر أسماء من انتقدهم من العلماء وما ذاك إلا إجلالا لهم وتوقيرا

صور الأنبياء

ذكر الحاكم والبيهقي عن هشام بن العاص الأموي قال ما موجزه " ذهبت أنا ورجل آخر من قريش الى هرقل صاحب الروم ندعوه إلى الإسلام .. فدخلنا عليه فإذا هو على سرير له .. فأذن لنا فقال تكلموا فكلمه هشام بن العاص ودعاه إلى الإسلام ... فأمر لنا بمـ ل حسن ونزل كثير فأقمنا ثلاثا فأرسل الينا ليلا ، فدخلنا عليه فاستعاد قولنا فأعدناه ثم دعا بشيء كهيئة الربعة العظيمة مذهبة فيها بيوت صغار عليها أبواب ففتح بيتا وقفلا واستخرج منه حريرة سوداء فنشرها ، فإذا فيها صورة حمراء وإذا فيها رجل ضخم العينين عظيم الاليتين لم أر مثل طول عنقه وإذا ليست له لحية واذا له ضفيرتان أحسن ما خلق الله قال هل تعرفون هذا قلنا لا قال هذا آدم عليه السلام وإذا هو أكثر الناس شعرا ثم فتح بابا آخر واستخرج منه حريرة سوداء وإذا فيها صورة بيضاء وإذا له شعر قطط أحمر العينين ضخم الهامة حسن اللحية قال هل تعرفون هذا قلنا لا قال هذا نوح عليه السلام ثم فتح بابا آخر فاستخرج منه حريرة سوداء واذا فيها صورة رجل شديد البياض حسن العينين صلت الجبين ثويل الخد أبيض اللحية كأنـه يتبسم فقال هل تعرفون هذا قلنا لا قال هذا إبراهيم عليه السلام ثم فتح بابا آخر فاستخرج حريرة فـإذا صـورة بيضاء وإذا والله رسول الله صلى الله عليه وسلم قال أتعرفون هذا قلنا نعم محمد رسول الله وبكينا قال والله يعلـم انه قام قائما ثم جلس فقال والله انه لهو قلنا نعم انه لهو كأنما ننظر إليه فامسك ساعة ينظر إليها ثم قال أما انه كان آخر البيوت ولكن عجلته لكم لانظر ما عندكم "

وتتابعت البيوت وفي كل باب يخرج لهم حريرة فيها صورة نبي ، منهم موسى وهـارون ولـوط ويعقـوب واساعيل ويوسف وسليمان وعيسى بن مريم عليهم السلام ، ثم سألوه من اين لك هذه الصور لانا نعلم أنا على ما صورت عليه الأنبياء لانا رأينا صورة نبينا مثله قال أن آدم سأل ربه أن يريه الأنبياء من ولـده فـانزل عليـه صورهم وكانوا في خزانة آدم عند مغرب الشمس فاستخرجها ذو القرنين فصارت الى دانيال ....

وعند الحافظ البيهقي في دلائل النبوة رواية عن أبي جبير بن مطعم يقول " فأخذوا بيدي، فأدخلوني ديرا لهـم فيه تماثيل وصور، فقالوا لي: انظر، هل ترى صورة هذا النبي الذي بعث فيكم؟ فنظرت فإذا أنا بصفة رسول الله صلى الله عليه وسلم وصورته، وإذا أنا بصفة أبي بكر وصورته وهو آخذ بعقب رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقالوا لي: هل ترى صفته؟ قلت: نعم. قالوا: أهو هذا؟ وأشاروا إلى صفة رسول الله صلى الله عليه وسلم، قلت: اللهم نعم، أشهد أنه هو. قالوا: أتعرف هذا الذي هو آخذ بعقبه؟ قلت: نعم. قالوا: نشهد أن هذا صاحبكم، وأن هذا الخليفة من بعده

الملاحظات

1- لم يؤكد بن كثير صحة الإسناد في رواية البيهقي بقوله " هكذا أورده الحافظ الكبير أبو بكر البيهقي رحمه الله في كتاب دلائل النبوة عن الحاكم إجازة فذكره وإسناده لا بأس به (1) بينما أشار بن حجر في فتح الباري إلى أن حديث هرقل الذي جاء في دلائل النبوة لأبي نعيم سنده ضعيف ، وذلك بصدد ما روي أن هرقل أخرج حُقا من ذهب عليه قفل من ذهب فأخرج منه حريرة مطوية فيها صور فعرضها عليهم فإذا هي صورة محمد صلى الله عليسه وسلم وأبو بكر .

2- الرواية المنقولة عن بن تيميه تشير إلى أن الملك هو المقوقس وليس هرقل (2)

3-رواية أبو نعيم تتحدث عن حرائر أو حريرات با صور الأنبياء بينما يتحدث البيهقي عن تماثيل

4- اختلاف الرواة حيث أن سند الرواية عند الحاكم هو " عبد الله بن ادريس عن شرحبيل ابن مسلم عن أبي أمامه عن هشام بن العاص الأموي في حياة رسول الله صلى الله عليه وسلم " ، بينما ذكر أبو نعـيم في الـدلائل والطبري في الرياض النضرة الرواية عن " دحية بن خليفة الذي أرسله رسول الله برسالته إلى هرقل " ، فيما كانت رواية البيهقي عن جبير في زمن أبو بكر ، حال كانت رواية بن تيمية عن المغيرة بن شعبة ، بينما قال بن حجـر أن رواية الصور تلك جاءت في (أمالي المحالي) من طريق هشام بن عروة عن أبيه عن أبي سفيان عن الأصبهانين وفيها أن صاحب بصرى أخذه فأدخله كنيسة لهم فيها صور فإذا أنا بصورة محمد وصورة أبو بكر (3)

5- أشارت الرواية الأولى إلى وصف آدم عليه السلام بغير لحية وهو ما لا يتصور باعتبار اللحية من الفطـرة ، لقوله صلى الله عليه وسلم " خمس من الفطرة " وجعل من بينها اللحية (4) كما يوحي الوصف بأنه كان عاريـا من قولهم ضخم الإليتين ، والحق غير ذلك حيث أن الله أنزله وحواء إلى الأرض بلباس يواري سواءتما .

6- لم يثبت أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أرسل غير دحية لدعوة هرقل ، وكان ذلك بكتاب منه صـلى الله عليه وسلم ، ولم يثبت أيضا أن أبو بكر رضي الله عنه أرسل أحدا لدعوة هرقل ،

7– لم يحتج رسول الله صلى الله عليه وسلم أبدا بذه الصورة كدليل على نبوته مع انعدام الفرض بعدم علمـه بوجودها ، ولم يحتج أبو بكر با كدليل على خلافته قبل علمه با أو بعد ذلك

8- فتح المسلمون الروم والدول التابعة لها ولم يذكر أنم حصلوا على هذه الصور

----

(1) تفسير ابن كثير لسورة سبأ (2) الجواب الصحيح ج 5 ، ومنهاج السنة ج 5

(3) فتح الباري لابن حجر العسقلاني (4) متفق عليه

9- خلت كل الروايات من أي هيئة للنبي صلى الله عليه وسلم أو وصفا واحدا له ، وهذا هو أهم محور هـذه الملاحظات وأهم ما أحاول اثباته ، إذ حتى لو صحت هذه الصور ، فهي خاصة ببعض الأنبياء السابقين فقط دونه صلى الله عليه وسلم ، وإلا ذكرت هذه الروايات ملمحا واحدا أو شكلا أو صفة له

10- إذا افترضنا أن الرواية صحيحة فإن المقصود بالصور - حسبما عرفها بن تيميه – هو التماثيل التي نحتها الكفار وعبدوها (1) وأيضا حسبما جاء في تفسير القرطبي للمحاريب في قوله تعالى (يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِنْ مَحَارِيبَ وَتَمَاثِيلَ وَجِفَانٍ كَالْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَاسِيَاتٍ اعْمَلُوا آلَ دَاوُدَ شُكْراً وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ الشكُورُ) (2) بأنها تماثيل تمثل صور الأنبياء والعلماء وكانت تصور في المساجد ليراها الناس فيزدادوا عبادة واجتهادا " ، وقال الفراء فـي ذات الآية " هي صُور الأنبـياء والـملائكة، كانت تُصَور فـي الـمساجد، لـيراها الناس فـيزدادوا عبادة. (3) ، وفي لسان العرب التمثال الصورة ، ومن ثم يكون ما جاء عن الحرائر سواء كانت سوداء او بيضاء زائد ، ومما يؤيد ذلك ما جاء بمعجم البلدان من أن

" صور الأنبياء بدير باعنتل من جوسيه من أعمال حمص على مرحلة منها من طريق دمشق على أزج أبواب محفورة ومنقوشة وفيها صورة مريم أنى توجهت نظرتك بعينها(4) مما يعني أنها تماثيل كبيرة أو صغيرة . الأمر الذي يدل دلالة شبه قاطعة على أن هذه الصور من وحي خيال اليهود والنصارى الذين برعوا في تحريف الكتب السماوية المقدسة وبالتالي فلا غضاضة عندهم من تحريف هيئات الأنبياء وصورهم ، ومن هذه الرسوم والصور ما أبدعه فناني عصر النهضة الأوربية كمايكل أنجلو وليوناردو دافنشي ، ومن رسومات الأول لوحة يوم الحساب على سقف احدى الكنائس ، وتمثالي نبيا الله داود وموسى عليهما السلام ، ومن رسومات الثاني لوحة العشاء الآخير الخاصة بالمسيح عليه السلام ، كما رسم الفنان جيرلانديو العشاء الرباني (المائدة) ورسم فرا أنجيلكو صلب المسيح ودفنه (5)

11- فإذا كان ذلك وكانت هذه التماثيل مما يعبده الناس قديما ويقدسونه ، فيخرج عنها رسول الله صلى الله عليه وسلم لأن الذين كانوا ينحتونها هم القوم الذين أرسل إليهم المرسلين ، فكانوا إذا ماتت معبوداتهم هذه أو بالغوا في تقدسيهم صوروهم ، بينما نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الصور (6)

12- وعلى محمل آخر قد تكون هذه القصة مستقاة من أحاديثه صلى الله عليه وسلم الـتي روتـها كتـب الصحيحين وغيرهما عن بعض صفات الأنبياء وملامحهم التي رآها النبي عيانا وحقيقة فنقلها لأصحابه ،

----

(1) مجموعة الفتاوى ج 5 (2) سبأ 13 (3) انظر تفسير سورة نوح للقرطبي وغيره

(4)معجم البلدان والأربعين البلدانية (5) روز اليوسف 98/2/2 عدد 3634 سنة 75

(6) انظر باب بعذاب المصورين يوم القيامة بصحيح البخاري 87

ومن ذلك ما روي عن ابن عباس قال سرنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم بين مكة والمدينة فمررنا بواد فقال أي واد هذا قالوا وادي الأزرق قال كأني أنظر إلى موسى فذكر من لونه وشعره شيئاً لا يحفظه داود واضعاً إصبعيه في أذنيه له جؤار إلى الله بالتلبية وسرنا حتى أتينا على ثنية فقال أي ثنية هذه قالوا هرشي قال كأني أنظر إلى يونس على ناقة حمراء عليه جبة صوف خطام ناقته خلبة قد انحدر في هذا الوادي ملبياً (1) وعن ابن عـون عـن مجاهد قال كنا عند ابن عباس فذكرنا الدجال فقالوا إنه مكتوب بين عينيه ك ف ر فقال ابن عباس لم أسمعه قـال ذلك ولكنه قال صلى الله عليه وسلم "أما إبراهيم فانظروا إلى صاحبكم وأما موسى فرجل آدم جعد على جمـل أحمر مخطوم بخلبة كأني أنظر إليه قد انحدر من الوادي يلبي وإسناده حسن (2)،وعن الليث بن سعد عن أبى الـزبير عن جابر قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " انه عرض علي الأنبياء فإذا موسى ضرب من الرجال كأنه من رجال شنوءة ورأيت عيسى ابن مريم وإذا أقرب من رأيت به شبها عروة بن مسعود ورأيت إبراهيم فإذا أقرب من رأيت به شبها صاحبكم يعني نفسه ورأيت جبريل فإذا أقرب من رأيت به شبها دحية ،إسناده حسن(3) ، وعـن سعيد بن المسيب عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم وصف لأصحابه ليلة أسري به إبراهيم وموسى وعيسى فقال " أما إبراهيم فلم أر رجلا أشبه بصاحبكم منه أو قال أشبه بولده منه ، وأما موسى فرجل آدم طوال جعد قني حتى كأنه من رجال شنوءة ، وأما عيسى فرجل أحمر بين القصير والطويل سبط الشعر كـثير خـيلان الوجه كأنه خرج من ديماس (الحمام) يخال رأسه يقطر ماء وما به ماء أشبه من رأيت بـــه عروة بن مسعود " (4) (5) وهو ما يؤكد عدم حقيقة هذه الأسطورة أو المبالغة فيها لمخالفتها العقل ، خاصة مع تعدد وجود الصور مع أكثر من شخص ، وخاصة وأن أحدا لم يخبرنا بكيفية وصولها إلى يد هرقل أو غيره وهي من لدن آدم عليـه السلام ، وكيف انتقلت هذه الصور من أجيال إلى أجيال ، ومن قرون تعقبها قرون ، إلى اليهود أو النـصارى أو غيرهم من أهل الديانات الأخرى ؟ وقد أهلك الله أمم من بعد آدم عليه السلام وقرون أخر ، وأباد قرى من على وجه الأرض وصوامع وبيع ومساجد وأديرة يذكر فيها اسمه ، فكيف بقيت هذه الصور من هذه العهود البائـدة بحالتها ؟ وكيف وصلت إلى أيدي الأحبار أو الرهبان أو غيرهم ؟ وما هو مصير هذه الصور أو مكان تواجـدها الآن ؟

----

(1)رواه مسلم عن داود بن أبي هند 424 (2) رواه مسلم عن محمد بن المثنى عن ابن أبي عدي 425

(3) رواه مسلم عن الليث 426 (4) رواه مسلم عن محمد بن رافع وعبد بن حميد عن عبد الرزاق 427

(5) جميع الأحاديث تحت البند 14نقلا عن المسند المستخرج على صحيح مسلم لابي نعيم الأصبهاني ج أول

الفصل الثالث

الخصائص النبوية المحمدية

وأقصد بها ما أختص به صلى الله عليه وسلم فى مجال النبوة الخاتمة من صفات لم يتصف بـها إلا هـو ومميزات لم يتميز بها إلا سواه ، وكانت هذه الصفات والمميزات سبيلا وعونا له في أداء الأمانـة وتبليـغ الرسالة . وأهمها ما يلي :-

اولا:- التحمل وله أربعة أوجه :-

الأول :- تحمل الوحي .

الثاني :- تحمل القرآن .

الثالث :- تحمل العلم

الرابع :- تحمل البشر

ثانيا :- الصدق والأمانة فى التبليغ

ثالثا :- العبودية الحقة

تحمل الوحي

قال الله تعالى (وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلا وَحْياً أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولاً فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلِيٌّ حَكِيمٌ) (1) ، كلام الله نوعان : الأول هو المقروء فى كتبه وصحفه السماوية لقوله تعالى (وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لا يَعْلَمُونَ) (2) وقوله تعالى (أَفَتَطْمَعُونَ أَنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ) (3) فسمى القرآن والتوراة كلام الله ، والثاني : هو المسموع لقوله تعالى (وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيماً)(4) والكلام المقصود فى الآية الأولى بنوعيه المشار اليهما هو الكلام المتعلق بمنهج الله المبعوث به الأنبياء . والقول به على ثلاثة طرق حددتم الآية وهي :-

الوحي ، الكلام من وراء حجاب ، إرسال ملك بالوحي

أما الطريقة الأولى - الوحي - فقد اختص الله تعالى با كل الأنبياء بما فيهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقد علم من سياق الآيات وأقوال العلماء أن الوحي هنا هو الإعلام بخفاء ، أي بلا صوت مسموع ولاحروف ولاكتاب مقروء إلا أن يكون نورا يقذفه الله فى قلب النبي الموحى اليه فيبلغ عن ربه مراده ، وقد يكون رؤيا كرؤيا إبراهيم عليه السلام ، أو غير ذلك ، والطريقة الثانية فهي الكلام من وراء حجاب ، واختص الله تعالى با موسى عليه السلام لقوله تعالى (قَالَ يَا مُوسَى إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالاتِي وَبِكَلامِي فَخُذْ مَا آتَيْتُكَ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ) (5) ففرق سبحانه وتعالى بين الرسالة و الكلام

أما الطريقة الثالثة فقد اختص الله با بعضا من الرسل وأحسبهم قليل ، منهم عيسى بن مريم الذي أيده الله بروح القدس ، ومن هذه الطريقة عُلم أن الله أختص بعضا من ملائكته بإرسالهم إلى الرسل من البشر أو جعل من بعض خصائصهم ذلك ليبلغوا منهجه سبحانه وتعالى إليهم ليبلغوه هم بدورهم إلى المرسل إليهم ، وأمير هؤلاء الملائكة هو جبريل عليه السلام" الروح الأمين " وهو الذي أنزله الله سبحانه وتعالى على رسوله محمد بالوحي ، قال تعالى " (نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ) (6) وقال تعالى "(قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوّاً لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ (7) ، وفى تفسير القرطبي"أن اليهود قالوا لرسول الله إنه ليس نبي من الأنبياء إلا يأتيه ملك من الملائكة من عند ربه بالرسالة والوحي فمن صاحبك حتى نتابعك ؟ قال جبريل ، قالوا ذاك الذي ينزل بالحرب والقتال . ذاك عدونا ولو قلت ميكائيل الذي ينزل بالقطر لاتبعناك " (8). وعند بن كثير فى تفسيره لذات الآية عن الأمام الطبري أنا نزلت جوابا لليهود من بنى إسرائيل إذ زعموا أن جبريل عدوا لهم وأن ميكائيل وليهم ، واختلفوا – أى العلماء – فى السبب الذي من أجله قالوا ذلك .

----

(1) الشورى 51 (2) التوبة 6 (3) البقرة 75 (4) النساء من الآية 164 (5) الأعراف 144
(6) الشعراء 194 (7) البقرة 97 (8) القرطبي تفسير سورة البقرة

فقال بعضهم من أجل مناظرة جرت بينهم وبين رسول الله فسألوه عن أمور منها أخبرنا بذا النبي الأمي الموجود فى التوراة من نبيه ؟ فكان جوابه صلى الله عليه وسلم " وليى جبريل ولم يبعث الله نبيا إلا وهو وليه " ، وأردف بن كثير فى تفسيره لقوله تعالى " وما كان لبشر (الآية) كما ي ل جبريل عليه السلام وغيره من الملائكة على الأنبياء " (1) . إذن فملائكة من قبل الله مختصون بذه الطريقة من الوحي

والقول بأن جبريل عليه السلام لم ي ل الا على قلة من الرسل لا يتعارض مع قوله صلى الله عليه وسلم " ولم يبعث الله نبيا الا وهو وليه " (2) إذ لا تقتضي الولاية نزول جبريل نفسه لكل الأنبياء بل ملائكة هو أميرهم ووليهم والمشرف عليهم بإذن الله تعالى ، و إن لم يكن ذلك - أي إن لم يكـن الأنبيـاء الـذين أختصهم الله ب ول جبريل قليلون - فإن الطريقة التي نزل با جبريل عليه السلام على رسول الله صلى الله عليه وسلم هي الطريقة الوحيدة وأشق الطرق وأصعبها التي نزل با على نبي ، ولم يكن قلب غـير قلبـه صلى الله عليه وسلم يحتمل هذه الطريقة وهذا ال ول بما فيها من عنصر المفاجأة ، خاصة وأن نزوله عليـه السلام كان فى صورته الملائكية الحقيقية .قال تعالى (عَلَمَّهُ شَدِيدُ الْقُوَى ذُو مِرةٍ فَاسْتَوَى وَهُـوَ بِالْـأُفُقِ الْأَعْلَى ثُم دَنَا فَتَدَلى فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى فَأَوْحَى إِلَى عَبْدِهِ مَا أَوْحَى)(3) حيث يـصف سـبحانه وتعالى جبريل عليه السلام بشدة القوة والمهابة وأنه ذو منظر جليل وبي ، وكان بـالأفق الأعلـى سـادا السماء كلها على صورته الحقيقية ، ثم اقترب من رسول الله وكان قاب قوسين منه أو أدنى فأوحى إليـه بالقرآن ، وإذ يعيب الله تعالى على هؤلاء المكذبين لرسول الله في رؤيته لجبريل ، فقد زاد مـن حـسرتم بإخبارهم بأنه صلى الله عليه وسلم رآه مرة أخرى على صورة الحقيقية والكاملة أيضا ولكنها هذه المـرة كانت عند سدرة المنتهى بالملأ الأعلى ، فيقول سبحانه (مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى أَفَتُمَارُونَهُ عَلَى مَا يَـرَى وَلَقَدْ رَآَهُ نَزْلَةً أُخْرَى عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى عِنْدَهَا جَنةُ الْمَأْوَى) (4)

ويعبر سبحانه وتعالى عن رؤية محمد لجبريل بالرؤية بالفؤاد فضلا عن البصر إمعانا في التأكيد على رؤيته بالبصر والبصيرة ، ويصفها رسول الله صلى الله عليه وسلم فيقول"جاءني جبريل وأنا نائم بنمط من ديباج فيه كتاب فقال أقرأ قلت ما أقرأ فغتنى (5) حتى ظننت أنه الموت [يصف رسول الله هذه الحالـة ثـلاث مرات وفى كل مرة يقول حتى ظننت أنه الموت] ، ثم يقول " فإذا جبريل فى صورة رجل صاف قدمية فى أفق السماء يقول يامحمد أنت رسول الله فوقفت أنظر اليه فما أتقدم ولا أتأخر وجعلت أصرف وجهـى آفاق السماء فلا أنظر فى ناحية منها إلا رأيته كذلك "(6)- أى كانت السماء كلها جبريل - كان الموقف جلل لا يحتمله إلا قلب محتواه الصدق واليقين . فكان أن أخذ رسول الله قدرا من المهابة والوجل هو أقـل ما يصيب انسان فى مثل هذا الموضع الوحيد الفريد فعاد الى زوجته المعين قائلا دثرونى ، زملونى .

----

(1) بن كثير تفسير البقرة ج أول (2) الحديث في مسند أحمد باب مسند عبـد الله بـن عبـاس رضـي الله عنـه
(3) النجم 5 وما بعدها (4) النجم 11 وما بعدها (5) ضمني بشدة (6) السيرة الهشامية ج 1

ولعل ذلك بعض ما يقصده ابن إسحاق في قوله " ثم تتام الوحي الى رسول الله صلى الله عليه وسـلم وهو مؤمن بالله مصدق بما جاء منه قد قبله بقبوله وتحمل منه حمله على رضا العباد وسخطهم ، والنبـوة أثقال ومؤنة لا يحملها ولا يستطيع بها إلا أهل القوة والعزم من الرسل بعون الله تعالى وتوفيقه ، لما يلقـون من الناس وما يرد مما جاءوا به عن الله تعالى " (1)

والتصور الذي يجب أن يعتمل في الخيال هو مدى قدرته صلى الله عليه وسلم علـى اسـتقبال هـذا المخلوق الجديد ، الذي لم تكن عينه رأته من قبل أو سمع عنه أو حتى تخيله إذ كان حتى لحظة نزوله عليـه منطويا في ملكوت الغيب ، لقد كان أقصى ما يتطلع إليه محمد بن عبد الله متأملا في ملكوت الـسماء فى غار موحش ، وحده بعيد عن العالم ، هو هذه المصابيح التي تزين السماء الدنيا ، وهذه السحب الـسائرة بطولها ، وهذه الشمس وضحاها والقمر الذى يعقب غروبها ، وهذه الأشجار المورقات والنخل الباسقات والطلع النضيد ، و الأرض المنبسطة والجبال الرواسي الشامخات والوهاد والـتلال والهـضاب والـسهول والوديان ، والليل إذا يغشى والنهار عندما يتجلى ، والإبل والشاة والعاديات ضبحا ، من موجـد هـذه المخلوقات من العدم ومن مبدعها ومن رازقها وما مصيرها بعد فنائها ومن مدبر هذا الملك الرحيب وكيف ومتى وأين ؟ ، يتأمل كل هذا وتحدثه نفسه الحائرة فإذا بمخلوق جديد أمامه يسد أفق السماء ، يغطيه يحدثه ويأمره قائلا له اقرأ ، وهو الذي لم يقرأ من قبل ولم يخط كتاب بيمينه أو بشماله ، حتى إذا قال له ما أنـا بقارئ يحتويه بجسده الملائكي بقوه ، مرة تلو أخرى قائلا له نفس المقال (اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ) (2) وقد عبر صلى الله عليه وسلم عن هذا القدر من التحمل فيما روته عائشة رضى الله عنها أن الحارث بن هشام سأل رسول الله عن كيفية الوحى فقال رسول الله " أحيانا يأتيني مثل صلصلة الجرس وهو أشده علي فيفصم عني وقد وعيـت عنه ما قال . وأحيانا يتمثل لى رجل فيكلمني فأعي ما يقول "(3) ثم تصف رضي الله عنها حالته وقتئـذ فتقول " والله لقد رأيته ينزل عليه الوحي فى اليوم الشديد البرد فيفصم عنه وأن جبينه ليتفصد عرقا "(4) ، ولك أن تقف عند كلمة " يفصم " المذكورة عنه صلى الله عليه وسلم وعن عائشة لأن الفصم هو الانفصام ويقصد به ها هنا خروجه صلى الله عليه وسلم من ذاته ، ويعبر عنها ابن خلدون بقوله " انـسلاخ مـن البشرية الجسمانية واتصال بالملكية الروحية " ويعبر أيضا عن حالة تمثل الوحي لرسول الله في صورة رجـل بأنها " انتقال الملك من الروحانية المحضة الى البشرية الجسمانية "، ولايعني ذلك تحول الملاك إلى بشر تجرى عليه الأعراض البشرية . لأن القصد من نزول الملك فى صورة بشرية الإيناس فقط أو فى حالة نزوله عليـه السلام فى وجود بشر أخرون بينما يظل جبريل عليه السلام محتفظا بروحانيته وملائكيته (5)

----

(1) المصدر السابق (2) أقرأ 1 وما بعدها (3) صحيح البخاري بدء الوحي
(4) المصدر السابق ج 2 وغيره (5) تاريخ بن خلدون ج1

ليست كل تصرفاته وحي

فإذا كانت أنواع الوحي بهذه الصورة من الشدة والصعوبة ، لزم العلم يقينا بأن كل تصرفاته صلى الله عليه وسلم قولا وفعلا وتقريرا ليست وحيا ، باعتبار أن الأصل في نزول جبريل عليه السلام على النحو الذي أوردناه سابقا هو بغرض إبلاغ القرآن ، تنفيذا لقوله تعالى (يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَبِّكَ)(1)وهذا هو معنى قوله تعالى (وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَى إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى)(2) وحالات أخرى كان ينزل فيها جبريل عليه السلام وهي وإن كانت كثيرة ، كما لم يكن تنزله فيها مباشرة على قلب رسول الله ، وليست بالشدة والقوة التي قلنا بها في بداية نزول الوحي ، إلا أنها لا تشمل كل تصرفاته ولا تشمل كل أقواله وأفعاله ، ومنها على سبيل المثال نزوله يوم بدر : قال عكرمة عن ابن عباس أيضا أن النبي قال يوم بدر " هذا جبريل آخذ رأس فرسه عليه أداة الحرب "(3) ونزوله لتعليم المسلمين أمور دينهم : فيما رواه مسلم وغيره في صحيحه عن عمر بن الخطاب قوله بينما نحن عند رسول الله إذ طلع علينا رجل شديد بياض الثياب (وعدد عمر الأمور التي سأل هذا الرجل إياها رسول الله) فلما انتهى قال رسول الله ياعمر أتدري من السائل ؟ قلت الله ورسوله أعلم قال فإنه جبريل أتاكم يعلمكم دينكم(4) ونزوله بالأحاديث القدسية ، وكذا نزوله لمدارسة القرآن مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في شهر رمضان ، قال أبو الفضل العسقلاني في فتح الباري " كان أجود ما يكون حين يلقاه جبريل في كل ليلة من شهر رمضان حتى ينسلخ رمضان " ثم يقول " لأن فيه كان يعرض جبريل على النبي وكان النبي يعرض على جبريل "(5) والقول بأن كل تصرفاته وحي تأسيسا على قوله تعالى "وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَى" فيه نظر ، إذ لا يتصور أن يكون كل ما يتلفظ به ويقوله ينزل به الوحي ولا يتصور أن يكون المراد تعلق ذلك بالأمور الشرعية عنه صلى الله عليه وسلم ، حيث أن كل أقواله وأفعاله صلى الله عليه وسلم هي تشريع واجب العمل به بما في ذلك بعض جبلياته كطريقة أكله وشربه وجلسته ونومته ، وأيضا ليس المراد بالآية الأحاديث النبوية جنبا إلى القرآن . إذ أن كل أقواله وأفعاله وما أقر عليه غيره أو لم يقره عليه ، أو حتى ما أسره وما أغضبه أو ما أبكاه وما أضحكه يعتبر حديثا نبويا ومصدرا أساسيا من مصادر التشريع الإسلامي فمثلا سأله سائل عن الحج أكل عام ؟ { سأله ثلاثا }وهو يسكت . ثم قال له لو قلت نعم لوجبت (6) فلم يكن سكوته صلى الله عليه وسلم انتظارا للوحي يجيب عنه أو يدله ، إنما كان إعراضا عن الرجل ، بينما كان يسكت عن الجواب أحيانا جهلا به إلى أن ينزل عليه الوحي بالجواب ، مثلما روي عن جابر أنه سأل رسول الله عند مرضه عن ماله كيف يقضي فيه فقال : فما أجابني بشيء حتى نزلت آية الميراث (7)

----

(1) المائدة من الآية 67 (2) النجم من الآية 3 وما بعدها ، نقل القرطبي عن قتادة قوله " ما ينطق بالقرآن عن هـواه إن هو إلا وحي يوحى إليه وعن أبو عبيدة قوله " عن الهوى أي بالهوى " (3) تاريخ الإسلام للذهبي تحت عنـوان رؤيـا عاتكة

(4) صحيح البخاري 50 (5) فتح الباري في شرح البخاري (6)صحيح مـسلم 1337 (7) صـحيح البخـاري 6879

ومثلما سُأل عن الروح وذي القرنين (1) وإلا كيف أرجأ توقيع عقوبة الرجم على الغامدية التي زنت فاعترفت بذنبها حتى تضع حملها وتفطم صغيرها وكذا ماعز بن مالك (2) ؟ كيف وافق على صيغة الأذان التي قالها عمر ولم يوافق على غيرها ؟ ،وذلك فيما رواه بن عمر قال " كان المسلمون حين قدموا المدينـة يجتمعون فيتحينون الصلاة وليس ينادي بها أحد فتكلموا يوما في ذلك فقال بعضهم اتخذوا ناقوسـا مثـل ناقوس النصارى وقال بعضهم بل قرنا مثل قرن اليهود ، فقال عمر أفلا تبعثون رجلا ينادي بالصلاة فقال رسول الله "قم يا بلال فناد بالصلاة "،وعنه أيضا أن بلالا أول ما أذن قال أشهد أن لا إله إلا اله حي على الصلاة فقال له عمر وأشهد أن محمد رسول الله فقال صلى الله عليه وسلم قل كما أمرك عمر (3) فهذان مثالان على تصرفه التلقائي البشري دون انتظار للوحي ، ولو كانت كل تصرفاته قولا أو فعلا أو تقريـرا وحيا من لدن الخبير العليم لما عاتبه الله سبحانه وتعالى في بعض المواضع مثل موقفه من أسرى بدر حينمـا استشار النبي صلى الله عليه وسلم الناس في الأسرى يوم بدر فقال "إن الله قد أمكنكم منهم" فقام عمر بن الخطاب فقال يا رسول الله اضرب أعناقهم فأعرض عنه النبي صلى الله عليه وسلم ثم عاد رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال "يا أيها الناس إن الله قد أمكنكم منهم وإنما هم إخوانكم بالأمس" فقام عمر فقال: يا رسول الله اضرب أعناقهم فأعرض عنه النبي صلى الله عليه وسلم فقال للناس مثل ذلك فقام أبـو بكـر الصديق رضي الله عنه فقال يا رسول الله نرى أن تعفو عنهم وأن تقبل منهم الفداء قال فذهب عن وجـه رسول الله صلى الله عليه وسلم ما كان فيه من الغم فعفا عنهم وقبل منهم الفداء (4) فـ ل قوله تعالى (مَـا كَانَ لِنَبِي أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتى يُثْخِنَ فِي الْأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَضَ الدنْيَا وَاللهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ وَاللـهُ عَزِيـزٌ حَكِيمٌ) (5) فلما كان من الغد جئت فإذا رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبو بكر قاعدين يبكيان، فقلت: يا رسول الله أخبرني من أي شيء تبكي أنت وصاحبك ؟ فإن وجدت بكاء بكيت، وإن لم أجـد بكـاء تباكيت لبكائكما ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم " أبكي للذي عرض علي أصحابك من أخذهم الفداء لقد عرض علي عذابهم أدنى من هذه الشجرة) (شجرة قريبة كانت من نبي الله صلى الله عليه وسلم) وأنزل الله عز وجل " مَا كَانَ لِنَبِي أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتى يُثْخِنَ فِي الْأَرْضِ)" إلى قوله تعالى:" فَكُلُوا مِما غَنِمْتُمْ حَلالاً طَيباً)" (6) ، ولما وافق صلى الله عليه وسلم على رأي الحباب بن المنذر في مطلع ذات الغزوة عندما سأله الأخير عن مـ له بماء بدر أمـ ل أنزله الله تعالى إياه فلا يتقدم عليه ولا يتأخر أم هـي الحـرب والمكيدة ؟ فقال بل الرأي والحرب والمكيدة ، فقال يا رسول الله إن هذا ليس بمـ ل فانـض بنا حتى نـأتي

أدنى ماء من القوم فنـ له ونغور ما وراء القُلُب ثم نبني عليه حوضا فنملأه مـاءا فنـشرب ولا يـشربون فاستحسن النبي ذلك من رأيه وفعل ما أشار به ، (7)

----

(1) تفسير القرطبي للكهف ،فتح الباري باب ما ودعك ربك (2) صحيح مسلم 1694 (3) بن خزيمة 361 ، 362

(4) تفسير بن كثير لسورة الأنفال (5) الأنفال 67 (6)تفسير القرطبي لسورة الأنفال (7) تاريخ الإسلام للذهبي غزوة

تحمل نزول القرأن

قال الله تعالى (لَوْ أَنزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعاً مُتَصَدِعاً مِنْ خَشْيَةِ اللهِ وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلناسِ لَعَلهُمْ يَتَفَكرُونَ) (1) ويقول أيضا سبحانه وتعالى (وَلَوْ أَن قُرْآناً سُيرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطعَتْ بِهِ الْأَرْضُ أَوْ كُلمَ بِهِ الْمَوْتَى)(2) ، وتبين هاتين الآيتين قدر القرآن وعظمته وجلاله ، ومدى تأثيره القوي على أقوى المخلوقات كالجبال أو الأرض أو ما انعدمت با الحياة كالموتى ، حتى أن الله جلت قدرته ساواه بجميع المعجزات التي سبقت للمرسلين من قبل وبالآيات التى طلبها الكفار من رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال سبحانه (أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ إِن فِي ذَلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَى لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ) (3) ، ثم يعبر سبحانه وتعالى عن مدى ثقله وعظمته فيقول لرسوله صلى الله عليه وسلم (إِنا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلاً ثَقِيلاً) (4) وتسبق هذه الآية تيئة من الله لرسوله ليتحمل هذا الثقل العظيم فيقول له : (يَا أَيهَا الْمُزملُ قُمِ الليْلَ إِلا قَلِيلاً نِصْفَهُ أَوِ انقُصْ مِنْهُ قَلِيلاً) (5)ولأن القرآن الكريم بمثل هذه العظمة والجلال بما يحتويه من آيات معجزات أعجزت الثقلين عن الإتيان بمثله ، وبما يحتويه من أحكام ومواعظ ، وحدود وزواجر ووعد ووعيد ، وأوامر ونواهى، وتشريعات وتكاليف ، وعبادات ومعاملات ، وحلال وحرام ، وعقائد وفقه ، وأمثال وعبر ، وأداب وأخلاق ، وأسماء لله وصفات ، وغير ذلك كثير مما تنوء بحمله الجبال حتى إذا أنزل عليها تصدعت وتشققت ، فلم يكن بمقدور قلب بشرى إذن أن يحتمله دفعة واحدة حتى ولو كان أطهر القلوب وأنقاها - قلبه صلى الله عليه وسلم - ، ولا يعنى ذلك بالضرورة ضعف هذا القلب أورقته كما يزعم بعض المفسرون (6) إذ لضعف القلب ورقته مدلولات أخرى سيأتي مجال ذكرها ، لذا اقتضت الحكمة الإلهية أن يتـ ل عليه القرآن مفرقا مصداقا لقوله تعالى (وَقَالَ الذِينَ كَفَرُوا لَوْلا نُزلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتلْنَاهُ تَرْتِيلاً) (7) - بالإضافة قطعا لفوائد هذا التـ يل الأخرى - إلا أن هذا التـ يل المفرق لا يستهان به ولايفهم منه أن القرآن فقد بالتالي كل أو بعض جلاله الذي تخشع له الجبال لو أنزل عليها مرة واحدة ، وإلا صار القلب الذي استقبله والأذن التي سمعته أقوى منه ، بل يفهم منه أن التدرج أخف حالا مما لو كان جملة واحدة ،لذا قال القرطبي في التفسير " أن اليهود حين رأوا نزول القرآن مفرقا قالوا هلا أنزل عليه جملة واحدة كما أنزلت التوراة على موسى والأنجيل على عيسى والزبور على داود ، فقال الله تعالى كذلك أي فعلنا لنثبت به فؤادك ، أي نقوي به قلبك فتعيه وتحمله لأن الكتب السابقة أنزلت على أنبياء يكتبون ويقرءون والقرآن أنزل على نبي أمي ،

ولأن من القرآن ما هو جواب لمن سأل عن أمور ، ففرقناه ليكون أوعى للنبي صلى الله عليه وسلم وأيسر على العامل به فكان كلما نزل وحي جديد زاده قوة قلب " ، (8)

----

(1) الحشر 21 (2) الرعد من الآية 31 (3) العنكبوت 51 (4) المزمل 5

(5) المزمل 1 وما بعدها (6) تفسير الصابوني (7) الفرقان 32 (8) تفسير القرطبي للآية ج13 بتصرف

ويظل للقرآن ذات الجلال والعظمة ، ويظل قلبه صلى الله عليه وسلم أقوى القلوب وأشدها استعدادا لاستقباله على مدى ثلاث وعشرين عاما هى عمر رسالته

ولتصور ذلك يقول سيد قطب – رحمه الله – " ورجال الصدر الأول رضوان الله عليهم عندما تلقوا القرآن تلقيا حقيقيا شعروا أن كيانم النفسي كله يتزلزل ليعاد تركيبه من جديد وفق ذلك التصور الذي جاء به القرآن ، وأن الكيان القديم الذي بني في الجاهلية لا يمكن أن يبقى ولا يمكن أن يثبت ولا أن يرقع ترقيعا بالتصور الإسلامي الجديد ، بل لا بد من زلزلة وتصدع كاملين في الكيان القديم ، ليعاد إنشاؤه وفق هندسة جديدة ووفق تصميم جديد " ثم يستشهد بذات الآية التي استشهدنا به لبيان قدرات صحابة رسول الله في استقبال القرآن ، ثم يتابع قوله " ولقد تصدع ما هو أقوى من الجبل تصدع كيان النفس البشرية التي مسها القرآن مسا حقيقيا ليعاد تركيبها على نسق غير مسبوق . (1) ، هذا هو حديثه عن الصحابة الأول الذين استقبلوا القرآن ومدى ما أحدثه في نفوسهم من تصدع وتزلزل وتغيير لمعالم هذه الأنفس ، فما بالنا برسول الله صلى الله عليه وسلم الذي استقبل القرآن بالمباشرة من الله سبحانه وتعالى عن طريق أمين الوحي جبريل عليه السلام وبالكيفية التي أشرنا إليها فيما سبق ..

ويأخذ تحمل رسول الله للتن يل القرآني وجهين :

الأول : هو التخلق بأخلاقه والتحلي بآدابه والوقوف عند حدوده والعمل بحروفه والانتهاء بنواهيه وهو الوجه عبرت عنه عائشة رضى الله عنها بقولها عنه صلى الله عليه وسلم " كان خلقه القرآن " (2) فلا هى بالغت أوجاملت ولا هو كان عكس ذلك ، إنما كان فعلا وحقيقة وواقعا خلقه القرآن ، هذا بالإضافة إلى الخشوع والتلذذ والاستمتاع بتلاوته وسماع آياته

الثانى : التدبر والعمل الفوري بمحكم ت يلاته ، لذا كان صلى الله عليه وسلم متعجلا تلاوته بمجرد سماعه من جبريل عليه السلام فأشفق عليه ربه فقال له (لا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ " (3) ، بمعنى أن مجرد سماعه صلى الله عليه وسلم للقرآن كان ذلك بمثابة تدبر ووجوب للعمل الفوري به ، فما إن يصعد جبريل الى الملأ الأعلى حتى يكون رسول الله صلى الله عليه وسلم استوعب ما أنزل عليه ووعاه واستقر فى قلبه تدبرا وعملا ، وتذكر قوله صلى الله عليه وسلم فى البند السابق الخاص بالوحي عندما قال واصفا حالة الوحي " فيفصم عنى وقد وعيت منه "

بينما كان الصحابة يتلقاه بعضهم منه صلى الله عليه وسلم مباشرة ، ويتلقاه البعض الآخر عن بعض ، وكان عامل الزمن بالنسبة لهم مأخوذ به بلا إثم أو وزر ، فكانوا إذا وعوا ما تلاه عليهم رسول الله فبها ، وإلا أمامهم الوقت والتشاور فيما بينهم للتدبر والعمل به ،

----

(1) التاريخ فكرة ومنهاج سيد قطب (2) مسند الإمام أحمد 25341 (3) القيامة 16وما بعدها

لذلك عندما أنزل الله قوله (وَإِنْ تُبْدُوا مَا فِي أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُمْ بِهِ الله)(1)على رسوله صلى الله عليه وسلم كان قد تدبر ما جاء بمجرد انتهاء جبريل عليه السلام من مهمة الإبلاغ وأصبح العمل به واقعا لاشك فيه ولا تسويف ولا تأخير ، بينما اختلف الأمر عند الصحابة إذ كان سماع الآية مرحلة أولى ، ثم تلا ذلك التدبر والاستيعاب ، الى أن جاءت مرحلة العمل فشق ذلك عليهم ، فهرعوا الى رسول الله صلى الله عليه وسلم بما أشتد عليهم وقالوا له " لا نطيق " فقال لهم " أتقولون كما قال أهل الكتاب قبلكم سمعنا وعصينا قولوا سمعنا وأطعنا (2)

ولا يتصور قطعا أن يكون رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لهم هذا القول عن غير قناعة أو إرضاء لربه فحسب ، ولا يتصور كذلك ألا يكون رسول الله وعى ما كلف به قبل أن ينقله لصحابته ، هذا محال إنما كانت قناعته كاملة بأن الله محاسب الناس على ما يبدون وما يخفون . وإنه استسلم لهذا الأمر الإلهي لحظة نزوله عليه عن يقين لا تشوبه شائبة بلا تضجر ولا مشقة كما كان وعيه الكامل بما كلف به حقيقة راسخة وما كان بوسعه صلى الله عليه وسلم أن يبلغ ما أنزل عليه و ما كان يستطيع أن يبلغه لو لم يكن تدبره ووعاه وعمل به فى نفس اللحظة التى صعد فيها جبريل الى السماء .

وتجدر الإشارة إلى أن القرآن لم يكن يتـ ل آية آية إنما كان يتـ ل أحيانا سورة سورة ، فقد روي عن بن عباس أنه قال " قال المشركون ان كان محمد يزعم نبيا فلم يعذبه ربه ألا يـ ل عليه القرآن جملة واحدة يـ ل عليه الآية والآيتين والسورة فأنزل الله على نبيه جواب ما قالوا " وقال الذين كفروا لولا أنزل عليه القرآن جملة واحدة " الى قوله " وأضل سبيلا "(3) ومنها يستدل على أن السورة قد تـ ل على رسول الله صلى الله عليه وسلم مرة واحدة ، وقال صاحب التمهيد "لم يـ ل القرآن جملة واحدة إلى الأرض وإنما كان يـ ل به جبريل عليه السلام سورة سورة وآية آية على حسب حاجة النبي صلى الله عليه وسلم إليه (4) وقد تكون السورة من السور الطوال ، فقد روي عن أسماء بنت يزيد قالت " نزلت سورة الأنعام على النبي صلى الله عليه وسلم جملة واحدة إن كادت من ثقلها لتكسر عظم الناقة " (5) يؤكد ذلك ما أورد الطبراني عن بن عمر قوله قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم نزلت علي سورة الأنعام جملة واحدة يشيعها سبعون ألف ملك لهم زجل بالتسبيح والتحميد (6) وفي الفردوس بمأثور الخطاب للهمذاني عن أنس

بن مالك قال "نزلت سورة الكهف جملة معها سبعون ألف من الملائكة " (7) وكان بمجرد سماعها صلى الله عليه وسلم يتلوها على أصحابه ويصلى بها .

----

(1) البقرة من الآية 284 (2) أسباب النزول النيسابوري وتمام الحديث في صحيح مسلم تحت عنوان باب بيان أنه سبحانه وتعالى لم يكلف إلا ما يطاق 125 (3) الأحاديث المختارة للمقدسي (4) التمهيد لابن عبد البر ج 6ص 191

(5) قال الهيثمي في الزوائد رواه الطبراني وفيه شهر بن حوشب وهو ضعيف (6) المعجم الصغير للطبراني 220

(7) مأثور الخطاب للهمذاني 6812 وقال العجلوني في كشف الخفاء رواه الديلمي عن أنس 2855

تحمل العلم .

تعليمه ما لم يكن يعلم وتكليفه وحده من العلم ما كلف الناس به جميعا .

قال الله تعالى (وَلَوْلا فَضْلُ اللهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُ لَهَمتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ أَنْ يُضِلوكَ وَمَا يُضِلونَ إِلا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَضُرونَكَ مِنْ شَيْءٍ وَأَنْزَلَ اللهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللهِ عَلَيْكَ عَظِيماً) (1) وقال (وَقُلْ رَب زِدْنِي عِلْماً)(2) وقال الطبري في تفسير قوله تعالى "وَعَلمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ " أي من خبر الأولين والآخرين وما كان وما هو كائن قبل أن يكون " ، ومن دعائه صلى الله عليه وسلم " اللهم انفعني بما علمتني وعلمني ما ينفعني وزدني علما " (3) وقال بن عيينه " لم يزل رسول الله في زيادة من العلم حتى توفاه الله ، كما أنه صلى الله عليه وسلم كلف وحده من العلم ما كلف به الناس جميعا لقوله تعالى (كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولاً مِنْكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكيكُمْ وَيُعَلمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلمُكُمْ مَا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ)(4) وقوله أيضا (لَقَدْ مَن اللهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكيهِمْ وَيُعَلمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلالٍ مُبِينٍ(5) ففي مثل هذه الآيات يذكر الله تعالى عباده المؤمنين بما أنعم به عليهم من بعثة الرسول محمد صلى الله عليه وسلم إليهم ، فيتلو عليهم آيات الله المبينات ، ويزكيهم من رذائل الأخلاق ودنس النفوس وأفعال الجاهلية ويخرجهم من الظلمات إلى النور ويعلمهم الكتاب - وهو القرآن- والحكمة - وهي السنة - ويعلمهم مالم يكونوا يعلمون ، إذ كانوا في الجاهلية الجهلاء يسفهون بالعقول الغراء فصاروا بفضل رسالته أعمق الناس علما وأبرهم قلوبا وأصدقهم لهجة ، كما تعني هذه الآيات ومثيلاتها أنه صلة الله عليه وسلم علم وحده العلم ثم علمه للمكلفين جميعا من البشر باعتباره أرسل إلى الناس كافة ، يؤيد ذلك ما روي عن ابن عباس رضي الله عنه وغيره أن الإنسان في قوله تعالى (عَلمَ الْأِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ)(6) يراد به محمد صلى الله عليه وسلم

وذكر البيهقي عن أبي ذر قوله " قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم (هَلْ أَتَى عَلَى الْأِنْسَانِ حِينٌ مِنَ الدهْرِ (7) حتى ختمها ثم قال " إني أرى ما لا ترون وأسمع ما لا تسمعون أطئت السماء وحق لها أن تئط وما في موضع قدر إصبع إلا ملك واضع جبهته ساجد لله ، والله لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلا

ولبكيتم كثيرا " (8) واستشهد البيهقي لإثبات ذلك بحديث بن عمر عن رسول الله قوله "بينا أنا نائم إذ أوتيت بقدح فيه لبن فشربت منه حتى أني لأرى الري يجري في أظافري ثم أعطيت فضلي عمر بن الخطاب " فأول ذلك صلى الله عليه وسلم بالعلم (9) والعلم المقصود هنا هو العلم الذي تلقاه صلى الله عليه وسلم عن ربه فعلم به ما لم يكن يعلم وما لم يكن يعلمه غيره وما لم يطيق تحمله غيره

----

(1) النساء113 (2) طه من الآية 114 (3) الترمذي 3599 وغيره (4) البقرة 151

(5) آل عمران 164 (6) العلق:5 (7) الإنسان 1 (8) مسلم 426 (9) مسلم 2391

وإذ تعجز الكلمات عن الإحاطة بقدرته صلى الله عليه وسلم في تحمل كل هذا العلم الذي استقاه مباشرة من الله العليم الحكيم ، وعن طريق أمين الوحي والسماء جبريل عليه السلام ، نتذكر في هذا المقام قول الخضر أعلم أهل الأرض في زمنه لموسى عليه السلام عندما أراد أن يعلمه مما يعلم (إِنكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْراً) (1) أي إنك يا موسى لا تطيق أن تصبر على ما تراه من علمي ، ولم يطق فعلا موسى عليه السلام ببعض علم الغيب الذي علمه الله تعالى للخضر ، فطاقه الخضر وتحمله وهو بعض من بعض علم رسول الله صلى الله عليه وسلم على ما سنرى ، وأتذكر أيضا قولة لعلي رضي الله عنه يعتد بها كدليل ضمن خصائصه ومناقبه وهو يشير إلى قلبه ويقول " إن هنا لعلوم جمة لمن يقدر على حمله "(2) فإذا كان ذلك وكان علي هو باب مدينة العلم التي هي رسول الله في حديثه صلوات ربي وسلامه عليه " أنا مدينة العلم وعلي بابها "(3) فما بالنا بالمدينة ذاتها وقد احتوت من العلوم ما عجز بابها عن حمله

ثم إذا علمنا أن علمه هذا صلى الله عليه وسلم علما يقينيا مؤكدا بلغ في اليقين والتأكد الغاية والإطلاق وأنه علم ما علم بداية من سن الأربعين وبعد جهل وعدم معرفة ، ليكون ذلك أثبت لمعجزته وأقوى في حجته ، وأن علمه يشمل كل شيء في أمور الدين بدءا بالذات الإلهية المقدسة ونهاية بلذة الرؤية يوم القيامة حيث لا نعيم بعدها ولا خبر يذكر ، لا نجد إلا أن نضرب بعض الأمثلة ونترك الخيال للأفئدة لعلها تصل إلى مالم أستطع التعبير عنه . ولما لا والخيال قد يكون أحيانا معبرا ودليلا ، أما تدبرت قوله صلى الله الله عليه وسلم في الحديث السابق ذكره " والذي نفس محمد بيده لو رأيتم ما رأيت لضحكتم قليلا ولبكيتم كثيرا قالوا وما رأيت يا رسول الله قال رأيت الجنة والنار " (4) وقال في بعض ما قاله لأمته عن علمه بالنار " عن أبي هريرة رضى الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " أوقد على النار الف سنة حتى احمرت ثم أوقد عليها ألف سنة حتى ابيضت ثم أوقد عليها ألف سنة حتى اسودت فهي سوداء مظلمة "(5) فحسبه من ذلك علما أبكاه وقض مضجعه ، بل وحسبه رؤيته للجنة والنار حقيقة وفعلا ، فعن نافع قال : صلى رسول الله صلى الله عليه وسلم صلاة الكسوف فقام فأطال القيام ثم ركع فأطال الركوع ثم رفع فقام فأطال القيام ثم ركع فأطال الركوع ثم رفع ثم سجد فأطال السجود ثم رفع ثم سجد فأطال السجود ثم رفع فقام فأطال القيام ثم ركع فأطال الركوع ثم رفع فقام فأطال القيام ثم ركع فأطال الركوع

ثم رفع ثم سجد فأطال السجود ثم رفع ثم سجد فأطال السجود ثم انصرف فقال " لقد دنت مني الجنة حتى لو اجترأت عليها لجئتكم بقطاف من قطافها ودنت مني النار حتى قلت أي رب وأنا فيهم " (6)

----

(1) الكهف:67 (2) الإمام علي لعبد الرحمن الشرقاوي (3) قال الحاكم صحيح الإسناد رواية عن أبي الـصلت وهو صدوق بينما ذكره الجرجاني في الكامل في الضعفاء (4) صحيح مسلم 426 (5) سنن الترمذي وقال في نهايتـه قال أبو عيسى حديث أبي هريرة في هذا موقوف أصح، ولا أعلم أحداً رفعه غير يحيى بن أبي بكير عن شريك (6) بن ماجة 1045 وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة ،

أما رأيت علمه ببعض ما يدور بخاطر بعض من حوله وحديث نفسه ، مثلما أحاطه الله علما بـالحوار الذي دار بين عمير بن وهب وصفوان بن أمية بعد وقعة بدر ، وكان الأول من شياطين قريش وممن يؤذون النبي وقد وقع ولده في أسر المسلمين ، فاتفق مع الثاني على أن يقتل محمدا مقابل أن يعول أولاده ويـسدد ديونه ، وكان اتفاقهما هذا سرا بينهما لم يطلع عليه أحد ولم يعرفه سواهما ، فلما ذهب عمير لقتل رسول الله قال له صلى الله عليه وسلم ما جاء بك يا عمير ؟قال جئت لهذا الأسير الذي بين أيديكم . فقال صلى الله عليه وسلم بل قعدت أنت وصفوان في الحجر وقلتما " كذا "فقص عليه فأسلم(1)

ومثلما علم بكتاب حاطب بن أبي بلتعه الذي بعثه إلى مكة يخبرهم ببعض أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فيما رواه البخاري ومسلم في صحيحهما عن علي بن إبي طالب قال بعثنا رسول الله أنا والـزبير والمقداد فقال " ائتوا روضة خاخ فإن بها ظعينة معها كتاب فخذوه منها " فانطلقنا تعادي بنا خيلنا فـإذا نحن بالمرأة فقلنا لها أخرجي الكتاب فأخرجته من عقاصها فأتينا به رسول الله فإذا هو من حاطب بـن أبي بلتعه إلى ناس من مشركي مكة يخبرهم ببعض أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم (2)

وما ذلك إلا بعض الغيب الذي أرتضاه الللـه تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم في قوله تعالى (عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَداً إِلَّا مَنِ ارْتَضَى مِنْ رَسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَداً) (3)

وعلم صلى الله عليه وسلم بعضا من بداية الخلق فقال عن أبي هريرة " خلق الله التربة يوم السبت وخلق الجبال يوم الأحد وخلق الشجر يوم الأثنين وخلق المكروه يوم الثلاثاء وخلق النور يوم الأربعاء وبث الدواب يوم الخميس وخلق آدم بعد العصر يوم الجمعة آخر خلق في آخر ساعة من ساعات الجمعة فيما بين العصر إلى الليل "(4) وتحدث عن الكرسي والعرش فقال رواية عن أبي ذر الغفاري " والذي نفسي بيده ما السموات السبع والأرضون السبع عند الكرسي إلا كحلقة ملقاة في فلاة وأن فضل العرش على الكرسي كفضل الفلاة على تلك الحلقة (5) وتحدث عن اللوح المحفوظ فقال صلى الله عليه وسلم عن ابن عباس رضي الله عنه " إن الله خلق لوحا محفوظا من درة بيضاء صفحاتها من ياقوتة حمراء قلمه نور وكتابه نور لله فيه في كل يوم ستون وثلاثمائة لحظة يخلق ويرزق ويميت ويحي ويعز ويذل ويفعل ما يشاء (6)

----

(1) القرطبي في تفسير سورة يونس وعند ابن اسحاق في السيرة النبوية لابن هشام ج أول
(2) مسلم 2494 والبخاري 2845 (3) الجن 27 (4) صحيح مسلم 2789 باب ابتداء الخلق
(5) قال القرطبي في الجزء الثالث ص 278 أخرجه ألآجري وأبو حاتم البستي في صحيح مسنده والبيهقي وذكر أنه صحيح ، وقال بن حجر في فتح الباري 6982 أخرجه الطبري والبيهقي من طريق السدي عن أبي مالك ثم قال وله شاهد عن مجاهد أخرجه سعيد بن منصور في التفسير بسند صحيح عنه المصدر السابق
(6) في معناه مسند الأمام أحمد جزء أول 251 وقال الحاكم في المستدرك 3771 صحيح الإسناد

وعلم عليه الصلاة والسلام أخبار الأنبياء من قبله فقال في بعض ذلك : عن مجاهد وسعيد بن جبير عن ابن عباس قال قال رسول الله " ما فتح الله على عاد من الريح التي أهلكوا بها إلا موضع خاتم . فمرت بأهل البادية فحملتهم ومواشيهم وأموالهم بين السماء والأرض فلما رأى ذلك أهل الحاضرة من عاد الريح وما فيها قالوا " هذا عارض ممطرنا " فألقت أهل البادية ومواشيهم على أهل الحاضرة " (1)

وقال جابر بن عبد الله : لما مر رسول الله بالحجر قال "لا تسألوا الآيات فقد سألها قوم صالح فكانت - يعني الناقة - ترد من هذا الفج وتصدر من هذا الفج فعتوا عن أمر ربهم فعقروها وكانت تشرب ماءهم يوما ويشربون لبنها يوما فعقروها فأخذتهم صيحة أهمد الله بها من تحت أديم السماء إلا رجل كان في حرم الله فقالوا من هو يا رسول الله فقال "هو أبو رغال فلما خرج من الحرم أصابه ما أصابهم "(2)

وعلم كثير من أخبار القبر فأخبر ببعض عذابه ونعيمه في الحديث الطويل المشهور المروي عن البراء بن عازب فيرجى الرجوع إليه في كثير من كتب الثقاة كالروح وحادي الأرواح لعمدة العلماء ابن القيم نقلا عن الأمام أحمد وأبو داود والنسائي وابن ماجه والأسفرائيني ، وأحاديث غير ذلك كثيرة ، وخبر عـذاب القبر علما ربانيا استأثر به الله سبحانه وتعالى نبيه ليخبره به ويخبر هو به ويصير إخبـاره قانونـا مـصدقا وتشريعا مقدسا واجب الإيمان به كالإيمان بذاته صلى الله عليه وسلم ، إذ من مقتضيات الإيمان بالرسـل وخاصة الإيمان برسول الله صلى الله عليه وسلم بوصفه خاتم الأنبياء والمرسلين الإيمان بمـا يقولونـه وبمـا يخبرون به ، فيقول بن القيم : ما تخبر به الأنبياء على قسمين الأول ما تشهد به العقول والفطر ، والثـاني مالا تدركه العقول بمجردها كالغيوب التي أخبروا بها عن تفاصيل البرزخ واليوم الآخر وعذاب القبر وسؤال الملكين ينالان كل من مات ، ولولم يدفن فهو اسم لعذاب البرزخ ونعيمه ، وهو ما بين الدنيا والآخـرة، قال تعالى: {وَمِنْ وَرَائِهِمْ بَرْزَخٌ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ} ، وسمي عذاب القبر باعتبار الغالب فالمصلوب والمحـرق والمغرق وأكيل السباع والطيور له من عذاب البرزخ ونعيمه قسطه الذي تقتضيه أعمالـه، وإن تنوعـت أسباب النعيم والعذاب وكيفياتها " (3).

وعلم رسول الله صلى الله عليه وسلم بعضا من علامات الساعة ودل عليها فعن عبد الله بن عمر بن الخطاب رضي الله عنها قال ، {وذكر حديث جبريل } ومنه فسأله عن الساعة فقال ما المسئول عنها

بأعلم من السائل . فسأله عن أماراتا فقال أن تلد الآمة ربتها وأن ترى الحفاة العراة رعاء الشاة يتعالون في البنيان "(4) .

مسند الإمام أحمد جزء 296/3 (2) قصص الأنبياء ابن كثير قصة إبراهيم عليه السلام كما قال به الطبري في ج8 تفسير والحاكم في المستدرك والهيثمي في الزوائد (3) الروح لابن القيم (4) صحيح مسلم باب الإيمان 8

ولم يقتصر علمه على ذلك فقط بل منحه الله فضلا عظيما لم يك لغيره من الأنبياء وهو التنبؤ ببعض أحداث المستقبل خلفه مثل إخباره بمصارع مشركي مكة وكفارها قبيل غزوة بدر ،

فعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال كنا مع عمر بين مكة والمدينة نترآى الهلال فحدثني عن أهل بدر فقال إن كان رسول الله ليرينا مصارعهم بالأمس فيقول هذا مصرع فلان غدا إن شاء الله ، وهذا مصرع فلان إن شاء الله فجعلوا يصرعون عليها ، قلت والذي بعثك بالحق ماأخطؤاتيك كانوا يصرعون عليها(1)

وإخباره عن فتح خيبر فيما رواه البخاري ومسلم عن سهل بن سعد رضي الله عنه أن رسول الله قال يوم خيبر " لأعطين الراية رجلا يفتح الله علي يديه يحب الله ورسوله ويحبه الله ورسوله . فبات الناس يدوكون ليلتهم أيهم يعطاها . فلما أصبح الناس غدوا على رسول الله كلهم يرجون أن يعطاها فقال " أين علي ؟ "فقالوا هو يشتكى عينيه قال فأرسلوا إليه فأتي به فبصق في عينه ودعا له فبرأ وأعطاه الراية وقال " انفذ على بركة الله ... " ففتح الله على يديه (2) وإخباره عن فتح فارس وكثرة المال : فعن عدي بن حاتم قال ما مختصره : أتى رجل يشتكي الفاقة ثم أتاه أخر يشتكي قطع الطريق فقال صلى الله عليه وسلم " ياعدي أرايت الحيرة ؟ إن طالت بك حياة لترين الظعينة ترتحل من الحيرة حتى تطوف الكعبة لا تخاف أحدا إلا الله ولترين الرجل يخرج ملء كفه ذهبا أو فضة يطلب من يقبله منه "قال عدي فرأيت الظعينة ترتحل من الحيرة إلى مكة حتى تطوف بالكعبة لا تخاف إلا الله وكنت فيمن أفتتح كنوز كسرى ولئن طالت بكم الحياة لترون ما قال النبي يخرج ملء كفه من الذهب أو الفضة (3) .

وعلوم كثيرة وأخبار عظيمة كان رسول الله صلى الله عليه وسلم أول من علمها وأول من أخبر عنها ، فقد صعد إلى السماوات سماء تعلوها سماء وفتح أبوابا ورأى ما با وعاين أحوالها ووصل إلى سدرة المنتهى ، ودخل الجنة وعاين نعيمها ، ورأى النار وجحيمها ، ورأى الصراط المضروب على طرفيها ورأى أرض المحشر ، ورأى الميزان ، وسمع صرير الأقلام ، وسمع أنين الجذع ، وسمع الضب يتكلم ، وسمع الظبية تطلب منه أن تعود إلى حشفيها (ولديها) ، وسمع الفرس يشتكي له ، وسمع تسابيح الملائكة ورآهم في الأرض كما رآهم في السماء مثلما رآهم مجتمعين عند موت سعد بن معاذ ومثلما رآهم يوم بدر ويوم حنين ،

وشاهد جبريل على حالته ، ورأى الجن وسمعهم واستمع إليهم ، ورأى شيطانه وقبض عليه وأحس بريقه على يديه الطاهرتين ، وسمع المعذبين في قبورهم ، وزويت له الأرض فرأى مشارقها ومغاربا وعلم أن دينه سيبلغ هذه المشارق والمغارب ، ورأى الأنبياء وكلمهم ، وكان يرى الناس من خلاف كما يراهم من أمام ، رأى كل ذلك وغيره كثير ، وعلمه علم اليقين واحتمل وحده ما رأى وما علم ، وما كل ذلك إلا بعض علمه صلى الله عليه وسلم

----

(1) صحيح مسلم 2873 (2) صحيح مسلم 2406 (3) صحيح البخاري 3400

ولعل قائل يقول وماذا في ذلك إذا كان المسلمون كلهم علموا ما علم رسول الله ؟ وماذا في ذلك إذا كان صلى الله عليه وسلم مكلفا بتبليغ ما علم عن ربه ؟ ونقول أن الفارق بين علم المسلمين جميعا وعلمه صلى الله عليه وسلم كالفارق بين نزول القرآن الكريم عليه وحده وعن طريق الوحي بالمباشرة من ربه ، وبين وصوله إلينا أو إلى الأوائل سهلا ميسرا ، وكالفارق بين رؤيته لجبريل عليه السلام أول مرة وتلقيه الوحي منه وبين تلقي الناس عنه هذا الوحي ، فضلا عن أن علمه صلى الله عليه وسلم هو علم يقيني تحققت فيه رؤية العين وحق اليقين ، كالعلم الذي توافر لدى إبراهيم عليه السلام عندما أراه ربه كيف يحي الموتى ، والذي توافر لموسى عليه السلام عندما رأى تجلي ربه على الجبل أو بسماع صوته وكلامه ، والذي توافر لداود عليه السلام عندما سمع تأويب الجبال معه ، والذي توافر لسليمان عليه السلام عندما سخر الله تعالى له الجن وأفهمه لغة الطير والحيوان ، ثم أن علمه حمل ثقيل حمل مؤونته وحده وتحمل ثقله وحده ، في الوقت الذي وزع العلم على الأمة كلها بدرجات متفاوته وبقبول متفاوت ، فقد عرض عليه سارق فقال : اقتلوه ، فقالوا : يا رسول الله إنما سرق ، فقال : اقتلوه قالوا : يا رسول الله إنما سرق ، قال اقطعوا يده ، قال : ثم سرق فقطعت رجله ، ثم سرق على عهد أبي بكر رضي الله عنه حتى قطعت قوائمه كلها ، ثم سرق أيضا الخامسة ، فجيء به إلى أبي بكر فقال : ما أجد لك شيئاً إلا قضاء رسول الله صلى الله عليه وسلم فيك يوم أمر بقتلك ، فإنه كان أعلم بك ، فأمر بقتله (1)

وهكذا كان العلم عنده وكان علم المكلفين جميعا . فحيث كان علمه شاملا ممتدا محيطا بالقدر الذي أتاحه ومكنه له ومنه ربه ، كان علمهم محدودا قاصرا قابعا في نقطة زمنية محددة ومكان لا يمكنهم تعديه ، هذا بالإضافة إلى أن تكليفه بالإيمان بما رأى وبما سمع وبما علم ، يختلف عن تكليف غيره بذلك لتفاوت المكلفين فيما كلفوا به ، فما كلف به الأنبياء من الإيمان والعمل بما آمنوا به يختلف عما كلف به أتباعهم والمؤمنين بم ولهم ، ويتفاوت ذات التكليف بين الأتباع حسب درجة علمهم وعقولهم ، ولم يقتصر علمه

على هذا فقط ، بل شمل العلم بجميع ما يخص المسلم من أمور الدين والدنيا .. ووضع بعلمه تشريعات المسلمين وسن لهم القوانين وترك لهم ميراثا من الحكمة لا ينضب معينه ولا ينتهي أثره ولا يفقد صلاحيته .

----

(1) المعجم الكبير للطبراني 3409 وقال الهيثمي في الزوائد رجاله ثقات وقال السيوطي في تاريخ الخلفاء في معرض حديثه عن أبو بكر أخرجه أبو يعلي عن محمد بن حاطب

تحمل من حوله .

حقيقتان يجب أن يرسخا في الأذهان :-

الأولى : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم بشر له ما للبشر وعليه ما عليهم والنبوة بالنسبة له مهمة وهبه الله إياها ، وهذه الحقيقة هى الغرض من هذا العنوان ، لكونها تقودنا الى محمد الإنسان فنتعامل معه وفـق هذا الأساس بحيث لا نجرده من بشريته ولا نتعلل بنبوته

الثانية : أن الاختلاف الذي جعله الله سنة فى خلقه لم يكن اختلافا عقائديا فحسب إنم هو اختلاف شكلي وموضوعي ومادي ومعنوي وظاهري وباطني وعلى المستويين الفردي والجمعي في كل شيء وفى أى شيء مهما دق أو عظم ومهما صغر أو كبر ، وأخص هذه الاختلافات البشرية هي التي في الطبائع والفطـر ، ولقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يتعامل مع كل البشر على اختلاف عاداتم وميولهم وأهـوائهم وأشكالهم وأذواقهم وأخلاقهم بذات واحدة لا تتجزأ هي ذات الإنسان النبي لا النبي الإنسان ، وهـؤلاء البشر المعنيين كانوا أنماطا مختلفة وأخلاطا غير مشتبهة ، فيهم من غلبت عليه صبوحات الخـير وأكثـرهم غلبت عليه ظلامات الشر ، فيهم القوى وفيهم الضعيف ، فيهم السيد وفيهم العبد ، فيهم الأسود وفـيهم الأحمر ، ومنهم القاصي ومنهم الداني ومنهم الأعجمي ومنهم العربي ، ويمكن تقسيمهم الى الأصناف الآتية

الكفار

المنافقين

الأعراب

أهل الكتاب
الأعاجم
النساء
الصحابة

---

1 - الكفار .

فالكفار والمشركين هم أول من واجههم رسول الله صلى الله عليه وسلم ولاقى منهم مالاقى واحتمل منهم ما احتمل ، ودعاهم فوق طاقته وفوق مايحتمل ، حتى هون عليه ربه فى عديد من الآيات منها قولـه تعالى (فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ عَلَى آثَارِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفاً) (1) ، فلم لم يجد صلى الله عليه وسلم معهم بدا امتثل لأمر ربه وقاتلهم وانتصر عليهم ومكنه الله والمسلمين معه منهم ، وأورثهم ديارهم وأموالهم وأرضا لم يطئوها ثم عفا عمن بقي منهم حتى دخلوا فى دين الله أفواجا

2 – المنافقين.

والمنافقين كانوا مثار حيرته صلى الله عليه وسلم ، فهم مسلمون ووصفهم صـلى الله عليـه وسـلم بصحابته عندما أشار عليه بعض الصحابة الخلص بقتلهم جزاء ما قدمت يداهم عندما تخلوا عن المـسلمين أثناء الذهاب الى أحد لملاقاة المشركين ، وكان ذلك أحد أسباب الهزيمة فقال عليه الصلاة والسلام : "دعه لا يتحدث الناس أن محمدا يقتل أصحابه " (2)ولاشك أن قوله صلى الله عليه وسلم عنهم صحابته لـيس معناه دخولهم فى زمرة الصحابة إلا من حيث هم ذلك ظاهرا ، وكان يعرفهم صـلى الله عليـه وسـلم بسيماهم ولحن القول وعلامات النفاق المفضوحة على وجوههم بفطنته وبفراسته وبنـور الله فى قلبـه ،

ورغم ذلك حماهم الله تعالى وحذر من قتلهم حتى لا يتخذها الناس سنة من بعد رسوله فيقتلون بناءا على الشك فقال تعالى : (وَمِمنْ حَوْلَكُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ مُنَافِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُوا عَلَى النفَاقِ لا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ سَنُعَذبُهُمْ مَرتَيْنِ ثُم يُرَدونَ إِلَى عَذَابٍ عَظِيمٍ) (3) فاستفيد من هذه الآية أن يدع الناس مهما علا شأنم العلم بالنفاق وما تطويه القلوب الى الله سبحانه وتعالى وحده ، إذ لو عُلموا لقُتلوا وأهدرت دمائهم ، وهو مالا ينبغي أن يكون لأنه بمثابة اطلاع على النوايا وما تكنه الصدور

يقول بن هشام فى معرض حديثة عن عداوة اليهود للرسول وكأحد أسباب ظهور هؤلاء المنافقين "وانضاف إليهم رجال من الأوس والخزرج ممن كان بقى على جاهليته فكانوا أهل نفاق على دين آبائهم من الشرك والتكذيب بالبعث . إلا أن الإسلام قهرهم بظهوره واجتماع قومهم من أسلموا عليهم فتظاهروا بالإسلام واتخذوه جُنة ونافقوا وكان هواهم مع اليهود (4)

وكانت لهذا النفاق سمات وعلامات منها السخرية من رسول الله وتمنى خذلانه وموالاة أعدائه وتحين الفرص للقضاء عليه أو على دعوته ، ومنها التثبيط عن الجهاد والتخلف عنه حين المواجهة وضرب المسلمين اثناؤه ، ومنها محاولة الوقيعة بين المؤمنين واستثارة حمية الجاهلية

----

(1)الكهف 6 (2)صحيح مسلم 2584 (3) التوبة 101 (4) سيرة بن هشام

وسجل التاريخ أسماء بعض هؤلاء المنافقين مثل : نبتل بن الحارث الذي قال إنما محمد أذن من حدثه شئ صدقه . وكان يأتى الى رسول الله فيسمع منه ثم ينقل حديثه إلى المنافقين ، وفيه قال الله تعالى (وَمِنْهُمُ الذِينَ يُؤْذُونَ النبِي وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَكُمْ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِلذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ) (1) ، ومنهم معتب بن قشير القائل يوم أحد لو كان لنا من الأمر شيء لما قتلنا هاهنا والقائل كان محمد يعدنا كنوز كسرى ولايأمن أحدنا أن يذهب إلى الغائط ، قال تعالى (وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ مَا وَعَدَنَا اللهُ وَرَسُولُهُ إِلا غُرُوراً(2) ومنهم وديعة بن ثابت ممن بنى مسجد ضرار وكان يقول كنا نخوض ونلعب فقال تعالى : (وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُن إِنمَا كُنا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ) (3) ، ومنهم قيس بن قيظى الذي قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم يوم الخندق إن بيوتنا عورة فأذن لنا بالرجوع ، قال تعالى (يَقُولُونَ إِن بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِنْ يُرِيدُونَ إِلا فِرَاراً)(4) ورأس هؤلاء جميعا وأشهرهم عبد الله بن أبي بن سلول وهو القائل فيه ربه (يَقُولُونَ لَئِنْ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَن الْأَعَز مِنْهَا الْأَذَل وَلِلهِ الْعِزةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِن الْمُنَافِقِينَ لا يَعْلَمُونَ) (5)

3- الأعراب،

أما الأعراب فطباع حادة وأجلاف ضربت فى البداوة ، يصفهم خالقهم بقوله :

(الأَعْرَابُ أَشَد كُفْراً وَنِفَاقاً وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنْزَلَ اللهُ عَلَى رَسُولِهِ وَاللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ)(6)وقال فيمن أسلم منهم (قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمنا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَما يَدْخُلِ الْإِيمانُ فِي قُلُوبِكُمْ)(7) ، وقال أيضا سبحانه (وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَنْ يَتخِذُ مَا يُنْفِقُ مَغْرَماً وَيَتَربصُ بِكُمُ الدوَائِرَ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السوْءِ وَاللهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ)(8) ، وهم الموصفون فى كتاب الله تعالى بالمعذرون والمتخلفون - أى عن الجهاد فى سبيل الله - قال تعالى (وَجَاءَ الْمُعَذرُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ وَقَعَدَ الذِينَ كَذَبُوا اللهَ وَرَسُولَهُ سَيُصِيبُ الذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ) (9) وقال (سَيَقُولُ لَكَ الْمُخَلفُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَا أَمْوَالُنَا وَأَهْلُونَا فَاسْتَغْفِرْ لَنَا يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِم)(10)، لأنم ما أسلموا الا تحت حد السيف ، وبقوا على شدتم وحدة طباعهم وتبلد عقولهم

----

(1) التوبة 61 (2) الأحزاب 12 (3) التوبة 65 (4) الأحزاب من الآية 13 (5) المنافقون 8 وله مواقف أخرى كثيرة سيئة منها موقفه في حادثة الأفك ، وموقفه قبيل غزوة أحد ، ووساطته ليهود بني قريظة (وفي الأخيرة انظر تفسير بن كثير لسورة النساء ج الثاني) (6) التوبة 97 (7) الحجرات 14 (8) التوبة 98 (9) التوبة 90 (10) الفتح من الآية 11

فيضع أحدهم خيط أبيض وأخر أسود تحت وسادته ليميز بينهما عند طلوع الفجر فيصوم ، فعن حصين عن الشعبي عن عدي قال ثم أخذ عدي عقالا أبيض وآخر أسود حتى كان بعض الليل نظر فلم يستبين فلما أصبح قال يارسول الله جعلته تحت وسادي قال إن وسادك لعريض أن كان الخيط الأبيض والأسود تحت وسادتك(1) ويدخل ثالث عليه المسجد ثائر الشعر واللحية كأنه شيطان فيزعجه " فعن عطاء بن يسار قال كان رسول الله صلى الله عليه وسلم في المسجد فدخل رجل ثائر الرأس واللحية فأشار إليه رسول الله بيده أن اخرج كأنه يعني إصلاح شعر رأسه ولحيته ففعل الرجل ثم رجع فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم أليس هذا خيرامن أن يأتي أحدكم ثائر الرأس كأنه شيطان(2)

ويسأله بعضهم عن أخص الأمور ككسل الرجل عند الجماع في حضرة زوجته أم المؤمنين عائشة فيجيبه " عن جابر بن عبد الله عن أم كلثوم قالت ثم إن رجلا سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الرجل يجامع أهله ثم يكسل هل عليهما الغسل وعائشة جالسة فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم إني لأفعل ذلك أنا وهذه ثم نغتسل (3) ، ويتجشأ آخر فى مجلسه " عن بن عمر قال تجشأ رجل ثم النبي صلى الله عليه وسلم فقال جشاءك (أي كف) فإن أكثرهم شبعا في الدنيا أطولهم جوعا يوم القيامة ، (4)

أو يدخل عليه ورائحة فيه كريهة فيضايقه " عن أبا سعيد الخدري حدثه انه ذكر ثم رسول الله صلى الله عليه وسلم الثوم والبصل والكراث وقيل يا رسول الله وأشد ذلك كله الثوم أفتحرمه فقال رسول الله صلى

الله عليه وسلم ثم كلوه ومن أكله منكم فلا يقرب هذا المسجد حتى يذهب ريحه منه (5)، ويخرج آخـر ريحا من دبره " عن همام بن منبه أنه سمع أبا هريرة يقول قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم لا تقبـل صلاة من أحدث حتى يتوضأ قال رجل من حضرموت ما الحدث يا أبا هريرة قال فساء أو ضـراط (6)، ويبدو أن مناسبة الحديث حدث ، ويتنخع غيرهما " فعن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسـلم رأى نخامة في قبلة المسجد فأقبل على الناس فقال ما بال أحدكم يقوم مستقبل ربه فيتنخع أمامـه أيحـب أحدكم أن يستقبل فيتنخع في وجهه فإذا تنخع أحدكم فليتنخع عن يساره تحت قدمه فإن لم يجد فليقـل هكذا ووصف القاسم فتفل في ثوبه ثم مسح بعضه على بعض "(7) أويبول آخر وليس بأخير بالمسجد " عن أنس بن مالك قال ثم جاء أعرابي إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فلما قضى حاجتـه قـام إلى ناحيه المسجد فبال فصاح به أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم قال فكفهم عنه ثم أمر بدلو من ماء فصبه على بوله أخرجه البخاري ومسلم في الصحيح من أوجه عن يحيى بن سعيد (8).

----

(1) البخاري 4239 (2) موطأ مالك 1702 (3) صحيح مسلم 350 (4) سنن الترمزي 2478
(5) بن خزيمة 1669 (6) البخاري 135 (7)صحيح مسلم 550 وبن خزيمة 1298
(8) سنن البيهقي الكبرى 4033

كانوا يرفعون أصواتم فوق صوته وينادونه من وراء الحجرات بصوت جهوري في أي وقت قال تعالى : (يَا أَيهَا الذِينَ آمَنُوا لا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النبِي وَلا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَنْ تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنْتُمْ لا تَشْعُرُونَ) (1) وقال (إِن الذِينَ يُنَادُونَكَ مِنْ وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْقِلُـونَ) (2) ولا يتركون له قيلولة يجد فيها بعض راحة ، وكانوا ينظرون إلي طعامه وشرابه منتظرين إناه، فقـال تعالى : (يَا أَيهَا الذِينَ آمَنُوا لا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النبِي إِلا أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَى طَعَامٍ غَيْرَ نَاظِرِينَ إِنَاهُ وَلَكِـنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانْتَشِرُوا وَلا مُسْتَأْنِسِينَ لِحَدِيثٍ إِن ذَلِكُمْ كَانَ يُؤْذِي النبِي فَيَسْتَحْيِي مِنْكُمْ وَاللهُ لا يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَق وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُن مَتَاعاً فَاسْأَلوهُن مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ ذَلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِن وَمَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ اللهِ وَلا أَنْ تَنْكِحُوا أَزْوَاجَهُ مِنْ بَعْدِهِ أَبَداً إِن ذَلِكُمْ كَانَ عِنْدَ اللهِ عَظِيمـاً)(3) ، إلى أن علمهم الله الآداب في حضرته صلى الله عليه وسلم فامتثلوا .ومن ذلك قوله تعالى :

(لا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضاً قَدْ يَعْلَمُ اللهُ الذِينَ يَتَسَللُونَ مِنْكُمْ لِوَاذاً فَلْيَحْذَرِ الذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ) (4) وقوله (يَا أَيهَا الذِينَ آمَنُـوا أَطِيعُـوا اللـهَ وَأَطِيعُوا الرسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدوهُ إِلَى اللهِ وَالرسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللـهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً) (5) وقوله (يَا أَيهَا الذِينَ آمَنُوا إِذَا نَاجَيْتُمُ الرسُولَ فَقَدمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَةً ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ وَأَطْهَرُ فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا فَإِن اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ) (6)

4- اليهود والنصارى

أما اليهود فحدث عنهم ولاحرج ، هم هم فى كل مراحل التاريخ ، مؤامرات ، دسائس ، خيانـة ، قلوب كالحجارة وأشد قسوة ، لم يسلم رسول الله والمسلمون من غدارتم ومحاولتهم الوقيعة وإثارة الفتن ومحاولة قتله أيضا وتأليب الأحزاب وعدم وفائهم بالعهود والمواثيق ، ولم يسلم أيضا من ألسنتهم الحـداد وأسئلتهم بغرض التشكيك فى دعوته ونبوته ، حسبنا منهم قول الله تعالى (لَتَجِدَن أَشَد الناسِ عَدَاوَةً لِلذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالذِينَ أَشْرَكُوا)(7) وقوله سبحانه (يَا أَيهَا الذِينَ آمَنُوا لا تَتخِذُوا بِطَانَةً مِنْ دُونِكُمْ لا يَأْلُونَكُمْ خَبَالاً وَدوا مَا عَنِتم قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَينا لَكُمُ الْآيَاتِ إِنْ كُنـتُمْ تَعْقِلُونَ ، هَا أَنْتُمْ أُولاءِ تُحِبونَهُمْ وَلا يُحِبونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كُلهِ وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوا آمَنـا وَإِذَا خَلَـوْا عَضوا عَلَيْكُمُ الْأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ قُلْ مُوتُوا بِغَيْظِكُمْ إِن اللهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصدُورِ إِنْ تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِنْ تُصِبْكُمْ سَيئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتقُوا لا يَضُركُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئاً إِن اللهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ) (8) ، وكانوا يستفتحون على العرب به صلى الله عليه وسلم ويتوعدونم به كنبي أخر الزمان الذي أطل مبعثـه فكانوا أول من كفر به . قال تعالى : (فَلَما جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللهِ عَلَى الْكَافِرِين) (9)

---

(1) الحجرات الآية 2 (2) الحجرات الآية 4 (3) الأحزاب 53 (4)النور:63 (5) النساء:59

(6) المجادلة 12 (7) المائدة من الآية 82 (8) آل عمران 182 وما بعدها (9) البقرة من الآية 89

بينما كان النصارى قلة فى العرب ودخل أكثرهم الإسلام ولم يكن لهم دور كبير سلبا أو إيجابا فى عهد الإسلام الأول ، ووصفهم الله تعالى فى كتابه بأنم الأقرب مودة للمسلمين عن اليهود والذين أشركوا

فقال تعالى (وَلَتَجِدَن أَقْرَبَهُمْ مَوَدةً لِلذِينَ آمَنُوا الذِينَ قَالُوا إِنا نَصَارَى ذَلِكَ بِأَن مِنْهُمْ قِسيسِينَ وَرُهْبَاناً وَأَنهُمْ لا يَسْتَكْبِرُونَ ، وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَى الرسُولِ تَرَى أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدمْعِ مِما عَرَفُوا مِنَ الْحَق يَقُولُونَ رَبنَا آمَنا فَاكْتُبْنا مَعَ الشاهِدِينَ وَمَا لَنَا لا نُؤْمِنُ بِاللهِ وَمَا جَاءَنَا مِنَ الْحَق وَنَطْمَعُ أَنْ يُدْخِلَنَا رَبنَا مَعَ الْقَوْمِ الصالِحِينَ)(4) ومودتم هذه كانت في عهد الإسلام الأول ، حيث كان بعضهم وخاصة القسيـسين منهم والرهبان على علم بـ ول نبي آخر الزمان وكتابه الم ل عليه . أم الآن فلا

5- النساء ،

كانت النساء في حياة رسول الله صلى الله عليه وسلم كثيرات ، فمنهن زوجاته ومنهن بناته ومنـهن حاضناته ومرضعاته ، ومنهن السائلات له صلى الله عليه وسلم والمستفتيات لشئون الدين والدنيا ، ومنهن المشركات اللائى عادينه وجاهرنه صلى الله عليه وسلم والإسلام والمسلمين بالعداء حتى أهدر دم بعـضهن ومنهن الصحابيات الصالحات اللائى كن له وللإسلام والمسلمين نعم العون والمعين ، ومنهن الإمـاء ومـا ملكت يمينه والسراري والأسيرات ، تعامل الرسول صلى الله عليه وسلم مع كل هؤلاء وغيرهن كثيرات ، فكن بالنسبة له شقائق الرجال لذا لم يفرط في العدل بينهن وبينهم بل كان فوق ذلك بن أرحم وعلـيهن

أشفق ، فقال فيما رواه عنه أبو هريرة " من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فإذا شهد أمرا فليتكلم بخـير أو ليسكت واستوصوا بالنساء فإن المرأة خلقت من ضلع وإن أعوج شيء في الضلع أعلاه ان ذهبت تقيمـه كسرته وإن تركته لم يزل أعوج استوصوا بالنساء خيرا (1) فأما بالنسبة لنسائه أمهات المؤمنين فكن علـى أكثر تقدير اثنا عشر وهن كما قال الزهري : " خديجة بنت خويلد ، عائشة بنت أبي بكر ، أم سلمة بنت أبي أمية ، حفصة بنت عمر ، أم حبيبة بنت أبي سفيان ، ميمونة بنت الحرث ، جويرية بنـت الحـرث ، زينب بنت جحش ، سودة بنت زمعة ، صفية بنت حيي ، العالية بنت ظبيان من بني عامر بن كـلاب ، زينب بنت خزيمة (2) وعلى الرغم من هذه الكثرة بما لا يطيقه ولا يتحمله كما وكيفا غيره صلى الله عليه وسلم ، وعلى الرغم من اختلاف طباعهن ومشاربهن ، فقد كان بينهن الأقرب إلى العدل والأحرص على ذلك ، ولم يثبت عن واحدة منهن أن حدثت بظلم أو جور وقع عليها من زوجها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فعن عائشة رضي الله عنها قالت ثم كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقسم فيعدل فيقول اللهم هذا قسمي فيما أملك فلا تلمني فيما تملك ولا أملك قيل يعني القلب (3) ، وبناته هن " زينب ورقية وأم كلثوم وفاطمة رضي الله عنهم "

----

(4) المائدة من الآية 82 وما بعدها (1) صحيح مسلم 1468 (2) رواه الطبراني و قال صاحب الزوائـد رواه الطبراني مرسلا ورجاله رجال الصحيح (3) قال الحاكم صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه المستدرك 2761

ومن الكافرات المشركات اللاتي عادينه وآذينه " أم جميل وهند بنت عتبة " وقد أسلمت الأخيرة فأما أم جميل فكانت زوجة أبو لهب عم رسول الله وأخت أبي سفيان ، وهي من سادات نساء قريش وكان اسمها أروى بنـت حرب بن أمية ، وكانت عونا لزوجها على كفره وجحوده وعناده فلهذا تكون يوم القيامة عونا عليه في عذابه في نار جهنم ولهذا قال تعالى (وَامْرَأَتُهُ حَمالَةَ الْحَطَبِ فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِنْ مَسَدٍ) (1) ، عن ابن عباس والضحاك قالا " كانت تضع الشوك في طريق رسول الله صلى الله عليه وسلم " وقال ابن جرير " كانت تعير النبي صلى الله عليه وسلم بالفقر وكانت تحتطب فعيرت بذلك " وقال سعيد بن المسيب " كانت لها قلادة فاخرة فقالت لأنفقنها في عداوة محمد يعني فأعقبها الله منها حبلا في جيدها من مسد النار " ، وخبر هجاءها لرسول الله ثابت في السنة (2) وهند بنت عتبة التي اخذت بلحية أبي سفيان عندما جاء قريش وقال لهم بأعلى صوته يا قريش هذا محمـدا قـد جاءكم بما لا قبل لكم به فمن دخل دار أبي سفيان فهو آمن ، فقامت اليه ثم نادت يا آل غالب اقتلوا هذا الشيخ الأحمق (3) وفي رواية " فاخذت بشاربه فقالت اقتلوا الدسم الاحمش فبئس طليعة قوم " وهي التي شـقت بطـن حمزة رحمة الله عليه في غزوة أحد ولاكت كبده فلم تستسيغها فلفظتها ، وقصتها في بيعة النساء مشهورة (4) ولم يرد لها ذكر في التاريخ عقب هذه البيعة

----

(1) المسد : 5 (2) عن أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنها قالت ثم لما نزلت تبت يدا أبي لهب أقبلت العوراء أم جميل بنت حرب ولها ولولة وفي يدها فهر وهي تقول مذمما أبينا ودينه قلينا وأمره عصينا والنبي صلى الله عليه وسلم جالس في المسجد ومعه أبو بكر فلما رآها أبو بكر قال يا رسول الله قد أقبلت وأنا أخاف أن تراك فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم أنا لن تراني فوقفت على أبي بكر ولم تر رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت يا أبا بكر إني أخبرت أن صاحبك هجاني فقال لا ورب هذا البيت ما هجاك فولت وهي تقول قد علمت قريش أني بنت سيدها (جاء في المستدرك قول الحاكم هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه 3376) (3) في الزوائد رواه الطبراني مرسلا وفيه ابن لهيعة وحديثه حسن وفيه ضعف

(4) جاءت رسول الله صلى الله عليه وسلم في البيعة فقالت إني إن أتكلم يعرفني وإن عرفني قتلني وإنما تنكرت فرقا من رسول الله صلى الله عليه وسلم فسكت النسوة اللاتي مع هند وأبين أن يتكلمن قالت هند وهي متنكرة وكيف يقبل من النساء شيئا لم يقبله من الرجال فنظر إليها رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال لعمر قل لهن ولا يسرقن قالت هند والله إني لأصيب من أبى سفيان قلح وما أدري أيحلهن لي أم لا قال أبو سفيان ما أصبت من شيء مضى أو قد بقي فهو لك حلال فضحك رسول الله صلى الله عليه وسلم وعرفها فدعاها فأتته فأخذت بيده فعاذت به فقال أنت هند فقالت عفا الله عما سلف فصرف عنها رسول الله صلى الله عليه وسلم (تفسير الطبري جزء 28)

6- الأعاجم :

هم غير العرب على العموم ، أما على وجه الخصوص فالأَعْجَمُ هو الذي لا يفصح ولا يبين كلامه وإن كان من العرب (1)،وقد عرفوا على وجه التحديد في الصدر الأول للإسلام بالروم والفرس " قال صلى الله عليه وسلم اسعد العجم بالإسلام فارس ، وأشقى العجم بالإسلام الروم ، وأشقى العرب بالإسلام تغلب والعباد (2)، وهـم من قساة القلوب وجفاة البشر ، ففيهم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم في الحديث الذي رواه عنه أبو هريرة رضي الله عنه "اللهم لا يدركني زمان أو لا أدرك زمان قوم لا يتبعون العلم ولا يستحيون مـن الحليم قلـوبم الأعاجم وألسنتهم ألسنة العرب (3)، كما كانت هيئاتم تدل على ذلك " فقد ذكر ابن مسعود أنه لما قدم الكوفة رأى شيوخا شمطا من الزط قال من هؤلاء ؟ قالوا هؤلاء نفر من الأعاجم ، قال ما رأيت للذين قرأ عليهم الـنبي الإسلام من الجن شبها أدنى من هؤلاء " وفي رواية أخرى "لما قدم ابن مسعود الكوفة رأى الزط وهم قوم طـوال سود وحجام فقال أظهروا فقيل له إن هؤلاء قوم من الزط فقال ما أشبههم بالنفر الذين صرفوا إلى الـنبي "(4)، وأقرب مثلا إلى ذلك أيضا مارواه أبو هريرة رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال ثم لا تقوم الـساعة حتى تقاتلوا خوزا وكرمان من الأعاجم " حمر الوجوه فطس الأنوف صغار الأعين وجوههم الـان المطرقة نعـالهم

الشعر (5) وعن بن عباس في قوله تعالى ")وَلَتَجِدَنهُمْ أَحْرَصَ الناسِ عَلَى حَيَاةٍ)(6) " قال اليهود ، وفي ذات الآية : (وَمِنَ الذِينَ أَشْرَكُوا) قالوا الأعاجم ، وفي قوله تعالى(وَد أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمرُ أَلْفَ سَنَةٍ)قال هم الأعاجم ،

وقال مجاهد حببت إليهم الخطيئة طول العمر " (7) ، وبلغ من قسوة قلوبهم وجفوتهم أن قال عمر بن الخطاب " إياكم ومواطنة الأعاجم وأن تدخلوا عليهم في بيعهم يوم عيدهم فإن السخط ي ل ، وقال عبد الله بن عمرو بن العاص من نشأ في بلاد الأعاجم فصنع نوروزهم ومهرجانهم وتشبه بهم حتى يموت وهو كذلك حشر معهم يوم القيامة (8)وسيلي إن شاء الله بعضا من منهيات الرسول عن التشبه بهم

----

(1) مختار الصحاح (2) الجامع لمعمر بن راشد الازدي (3) قال الحاكم في المستدرك الجزء الرابع هذا حـديث صـحيح الإسناد ولم يخرجاه (4) الزط جيل من الناس الواحد زُطي هكذا في مختار الصحاح أما في النهاية في غريب الحديث فالزطّ هـم جِنْس من السودان والهُنود ، ومثل ذلك جاء في لسان العرب وأضيف إليه الزط السيابِجةُ قوم من السِّنْدِ بالبصرة وراجع الطبري ج 26 ص 31 ، 32 كما ذكر هذه الرواية الترمزي 2861 وغيره حيث ضعف بعضهم هذهالرواية مثل بن قتيبـة في تأويـل مختلف الحديث (5) صحيح البخاري 3395

(6) البقرة: من الآية96 (7) ذكر الحاكم هذا القول وعقب اتفق الشيخان على سند تفسير الصحابي وهذا إسناد صحيح علـى شرطهما ولم يخرجاه ، المستدرك ج 2 (7) ابن كثير ج1 ص129 (8) مسند بن أبي شيبة 9387

7- الصحابة (محمد المعلم)

أما الصحابة فكانوا المعية المؤيدة والمعاونة لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكان أكثرهم من العرب وبعضهم من الأعاجم والجنسيات المختلفة كالفرس والروم والحبش ، فتعامل رسول الله صـلى الله عليـه وسلم مع كل هذه الأصناف والأنماط بميولهم المختلفة ونزعاتهم وطباعهم وأذواقهم المتباينة ، وكان هـو صلى الله عليه وسلم قائدهم ومعلمهم ومرجعهم فى كل صغيرة وكبيرة وفى كل شؤون حياتهم ، وعلمهم كل شيء وكأنهم كانوا لا يعلمون أي شيء حتى الخراء ، فروى الإمام أحمد في مـسنده عـن سـلمان الفارسي قال : قال بعض المشركين وهم يستهزئون بي إني أرى صاحبكم يعلمكم كل شيء حتى الخـراء قال فقلت له نعم أمرنا ألا نستقبل القبلة ولا نستنجي بإيماننا ولا نكتفي بدون ثلاثة أحجار ليس فيها رجيع أو عظم "(1) وكان أول ما علمهم إياه هو صبغهم بصبغة الإسلام وتنفيرهم من كل ما يمـت بـصلة الى الجاهلية ، فمنع أن يرث المسلم الكافر فقال عن أسامة بن زيد " لا يرث المسلم الكافر ولا يرث الكـافر

المسلم "(2) ومنع أن يتشبهوا بالمشركين فى أي شئ حتى تسريحة الشعر أو الشارب أو اللحية ومن ذلـك قوله عن عبد الله بن عمر "خالفوا المشركين حفوا الشوارب وأعفوا اللحى " وفي رواية عـن أبي هريـرة "جزوا الشارب وأرخوا اللحية وخالفوا الـوس (3) ، وحدث سليمان بن مروان العبدي عن إبراهيم بن أبي يحي عن عثيم بن كليب بن الصلت عن أبيه عن جده أنه أتى النبي صلى الله عليه وسلم فقال له الـنبي : " احلق عنك شعر الكفر " (4) ونر أحد الصحابة كان جالسا واضعا يده خلف ظهره ومتكىء على إلية يده وقال له " أتقعد قعدة المغضوب عليهم " روي ذلك عن عمرو بن الشريك بن السويد عن أبيه (5)

كما نى عن التشبه بالأعاجم فقال " لا تقوموا ثم رأسي كما تقوم الأعاجم ثم رءوس أكاسـرتا (6) وعن أبي أمامة قال خرج علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم متوكئا على عصا فقمنا إليه فقال "لا تقوموا كما تقوم الأعاجم يعظم بعضها بعضا " (7)

كما نى عن تقبيل اليد وقال " إنه من فعل الأعاجم ولا يتبعون على أفعالهم التي أحدثوها تعظيما منهم لكبرائهم " فروى أبو هريرة رضي الله عنه أن رجلا رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال هذا رسول الله ، فأخذ يده ليقبلها فجذبا رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال " مه إنما يفعل هذا الأعاجم بملوكها وإني لست بملك وإنما أنا رجل منكم "(8)

----

(1) مسند أحمد 23753 (2) صحيح مسلم 1614 (3) صحيح مسلم 259 ،260

(4)سنن أبي داود وأحمد وغيرهما وجاء بالمستدرك للحاكم والجامع الكبير للطبراني

(5) أسد الغابة فى معرفة الصحابة لابن الأثيرج 3 (6) ذكر هذا الحديث القرطبي في الجزء التاسع تفسير سورة يوسف ورفع أبويه على العرش (7) سنن أبي داود 5230 وأيضا مصنف بن أبي شيبة 25581

(8) شعب الإيمان للبيهقي 6244

وعن البراء بن عازب قال "لقيت رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخذ بيدي فقلت يا رسـول الله أن كنت لأحسب أن المصافحة للأعاجم فقال نحن أحق بالمصافحة منهم ما من مسلمين يلتقيـان فيأخـذ أحدهما بيد صاحبه مودة بينهما ونصيحة إلا ألقيت ذنوبما بينهما(1) وايضا نى صلى الله عليه وسلم أن يجعل الرجل أسفل ثيابه حريرا مثل الأعاجم أو يجعل على منكبه حريرا كالأعاجم (2)

وغير أسماء كثيرة من أسماءهم وأسماء شعبهم ومدنم وأولادهم تناسبا مع الإسلام ، وغير بعض العادات التى كانت سائدة فى الفترة السابقة على الإسـلام بما لاتتفق مع هذا الدين القويم ، ومن ذلك أن بن عباس استأذنه فى ذبح العتيرة (3) فقال له " أعتر كعتر الجاهلية ولكن من أحب مـنكم أن يـذبح لله فيأكـل ويتصدق فليفعل "(4)

وكان أشد مايخشاه عليهم أن يتأسوا أو يتعلموا أي شيء غير الأسلام ، وكان يعمل كـل طاقتـه فى سبيل ذلك ما وسعه الجهد والـاهدة ، إلى الحد الذي جعله يغضب على عمر بن الخطاب عندما رآه ممسكا

بصحيفة من آدم فيها بعض من أقاويل التوراة فنادى الى الصلاة جامعة فنفر الأنصار (5) فقال لهم فيما قال : أمتهوكون فيها يا ابن الخطاب ؟ والذي نفسي بيده لقد جئتكم با بيضاء نقية " فقال عمر رضينا بـ الله ربا وبمحمدا رسولا وبالإسلام دينا (6)

وبالجملة علمهم كافة أمور دينهم وجعل من أمور دينهم دينا وعبادة فخلطوا الدين بالدنيا في القربى إلى الله وجعلوا الأخيرة مطية للأولى ، قال أبو ذر: لقد توفي رسول الله صلى الله عليه وسلم وما طائر يقلـب جناحيه في السماء إلا ذكر لنا منه علم ، (7)

----

(1)تفسير القرطبي جزء 9 ص 266

(2) معتصر المختصر ليوسف أبو المحاسن (3) شاة تذبح في رجب

(4) هكذا في ك العمال وأورده السيوطي في الجامع الكبير (5) نفر الأنصار استعدوا للحرب ،

(6) حسنه الألباني في كتاب السنة ، والتهوك هو التحير والتردد (7) المعجم الكبير للطبراني 1647

ثانيا : الصدق والأمانة في التبليغ

لم يكن من قبيل المصادفة أيضا أن يعرف محمد بن عبد الله قبل البعثة بالـصادق الآمـين وأن يكـون الصدق والأمانة بعد بعثته هما أجل خصائصه النبوية . لأن إرادة الله لاتعرف المصادفة ولاتعرف العـشوائية وكل شيء بقدر ، ومحال أن يقع فى ملكه مالا يعلمه قبل وقوعه ، وسوف يأتي معنى الـصدق والأمانـة والفروع الأخلاقية المترتبة عليهما في باب الأخلاق إن شاء الله - .

ولا غرو ولاعجب أن تجد رجلا أو أكثر صادقا أو أمينا ، ولكن أن يعرف بهـا ويـشتهر ويـسمى بالصادق الامين ، فهذا هو المعيار الذى نعول عليه ونستند اليه ، خاصة أن العرب لم تكن لتطلق صفة على

أحد أو لقبا إلا كان جزءا من شخصيته وبضعة من ذاته ، فما اشتهر حاتم الطائي بالكرم لأنه كان الأوحد الكريم ، فالكـرم أحـدى الصفات العربية الشهيرة ولكن لأنه بالغ فى الكرم الى الحد الذي انفـرد بـه وحده وأصبح الكرم جزء منه لاينفصل عنه ، فإذا ذكر الكرم ذكر حاتم الطائي ، وكان العرب جميعا عامة والمحاربين خاصة معروفين بالشجاعة والقوة والإقدام ، ولكن أن يعرف بينهم رجل أسمه عمرو بن ود بشدة البأس والشجاعة حتى أنه يدعو المسلمين الى المبارزة فيحجمون جميعا ، فقد انطلق هذا الرجل في وصـف الشجاعة إلى الدرجة الأسمى ، فإذا قام إليه على بن أبى طالب رضى الله عنه ثلاث مرات ورسول الله يحذره إشفاقا عليه لصغر سنه ويقول له أنه عمرو بن عبد ود فيهزمه علي ويقتله (1) فقد سما على في الـشجاعة سموا أعلى وأجل ، فإذا قال علي رضى الله عنه كنا إذا حمي البأس واحمرت الحدق اتقينا برسول الله صلى الله عليه وسلم ، فما يكون أحد أقرب إلى العدو منه (2) فقد احتوى صلى الله عليه وسلم الشجاعة جميعا وصارهو الشجاعة كما ينبغى أن تكون لازيادة عليها ولانقصان ، وبهذا المفهوم يكون الحديث عن الصدق والأمانة وهما أهم عاملين وأجل خاصتين لضمان وصول الرسالة الى العالمين ، وكل أمر يمكن معالجته حتى ولو احتسب خطأ فى حق رسول الله صلى الله عليه وسلم وعاتبه من أجله ربه ، إلا الكذب فى نقل الرسالة أو عدم الأمانة في أدائها . قال تعالى (يا أَيهَا الرسُولُ بَلغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلغْـتَ رِسَالَتَهُ وَاللهُ يَعْصِمُكَ مِنَ الناسِ إِن اللهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ) (3) وحتى تصل الرسالة فكانت العصمة من الله المانعة لرسوله من كل شر يحول بينه وبين الرسالة ، ومن هنا وهنا فقط كان عتاب الله الأشد له إلى الحد الذي توعده فيه بالعذاب الاليم فقال سبحانه (وَإِنْ كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ لِتَفْتَـرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ وَإِذاً لَاتخَذُوكَ خَلِيلاً وَلَوْلا أَنْ ثَبتْنَاكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئاً قَلِيلاً إِذاً لَأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ ثُم لا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيراً) (4)

----

(1) عيون الأثر الجزء الثاني وباتفاق السير النبوية وانظر المستدرك للحاكم 4326 (2) نفس المصدر
(3) المائدة 67 (4) الإسراء 73

وقال سبحانه (وَكَذَلِكَ أَنزَلْنَاهُ حُكْماً عَرَبِياً وَلَئِنِ اتبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللهِ مِنْ وَلِي وَلا وَاقٍ) (1) ومن قبل هذه الآية يقول سبحانه عن الكافرين (لَهُمْ عَذَابٌ فِـي الْحَيَـاةِ الـدنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَق وَمَا لَهُمْ مِنَ اللهِ مِنْ وَاقٍ) (2) فتأمل نهاية الآيتين تجد أن الوعيد فيهما واحد ، وقال تعالى (وَلَوْ تَقَولَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ ثُم لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ)(3) وهو الدرس الذى واعاه رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال سبحانه (وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَينَاتٍ قَالَ الذِينَ لا يَرْجُونَ لِقَاءَنَـا ائْتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَذَا أَوْ بَدلْهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدلَهُ مِنْ تِلْقَاءِ نَفْسِي إِنْ أَتبِعُ إِلا مَا يُوحَى إِلَي إِني أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ) (4)لذا كان صلى الله عليه وسلم صادقا على مراد الله فى تبليغ الرسـالة

وكان أمينا على مراده أيضا فى أدائها ، وحسبه وحسبنا أن الله تعالى وحده هو الرقيب على منهجه وليس أحد غيره ، وذلك ماضمن له الحفظ والتمكين فقال (إِنا نَحْنُ نَزلْنا الذكْرَ وَإِنا لَهُ لَحَافِظُونَ)(5) فما كان أحد من قومه صلى الله عليه وسلم أو ممن حوله أو من أهل الكتاب يعلم مضمون الشريعة الإسـلامية أو محتواها أو يعلم كلمات القراءن وآياته .فما نزل كان جديدا على الأسماع جديدا على الأبصار جديدا على القلوب . وكان أول من علمه من قبل الله تعالى جبريل عليه السلام ومن أراده سبحانه من الملائكـه واول من علمه من البشر محمد بن عبد الله ، فكان لزاما إذن أن تكون الرقابة الالهية صارمة وكـان لزامـا أن يكون رسول الله صلى الله عليه وسلم أمينا عليها كما كان جبريل عليه السلام أمينا عليها :

ثم **هذه بعض الشواهد والدلالات على صدقه وأمانتة كرسول :**

1-قال له عمه ابو طالب الموجود صلى الله عليه وسلم فى منعته إن قومك جاءوني وقالوا لى كذا - "أقصد مقالتهم إنا قد استنهيناك من ابن أخيك فلم تنهه عنا وإنا والله لا نصبر على هذا من شتم آباءنا وتسفيه أحلامنا وعيب آلهتنا حتى تكفه عنا أو ننازله وإياك حتى يهلك أحد الفريقين فأبقى على نفسك ولاتحملني من الأمر مالا أطيق . فظن رسول الله أن عمه خاذله ورغم ذلك كان جوابه الصارم فقال " يا عم والله لو وضعوا الشمس فى يميني والقمر فى يساري على أن أترك هذا الأمر حتى يظهره الله أو أهلك دونه ماتركته " وجاءوه يعرضون عليه المال والسؤدد والشرف فقالوا له إن كنت تريد بما جئت به مالا جمعنا لك من أموالنا فجعلناك أكثرنا مالا ، وإن كنت إنما تريد بما جئت به شرفا سودناك علينا حتى لانقطع أمرا دونك وإن كنت تريد به ملكا ملكناك علينا وإن كان هذا الذي يأتيك رئيا تراه لا تستطيع رده عن نفسك طلبنا لك الطب حتى نبرئك ،فقال صلى الله عليه وسلم ما أدري ما تقولون ؟ ما جئت ما جئتكم به لطلب أموالكم ولا الشرف فيكم ولا الملك عليكم ولكن الله بعثني إليكم رسولا وأنزل علي كتاباً وأمرني أن أكون لكم بشيراً ونذيرا فبلغتكم رسالة ربي ونصحت لكم فإن تقبلوا مني ما جئتكم به فهو حظكم من الدنيا و الآخرة ، و إن تردوا علي أصبر على أمر الله حتى يحكم الله بيني وبينكم (6)

----

(1) الرعد 37 (2) الإسراء 34 (3) الحاقة 46 (4) يونس 15 (5) الحجر 9 (6)السيرة لابن هشام ج أول بتصرف

لم يتردد صلى الله عليه وسلم ولم يهادن ولم يجامل ولم ينافق ولم يخشى ولم يفكر ، ولو فعـل لأنـزم أمامهم وانارت حجته وسقطت دعوته ، فاجتمعوا وأصدروا قرارهم بقتله وأخبره الوحي بذلك فلم تلـن قناته ولم يهتز بنيانه فيقول له أبو بكر وهما وحيدين فى غار موحشة وقد دنا منهما المـشركين لـو نظـر أحدهم تحت قدمه لرآنا ، فيرد عليه بقلب محتواه الصدق واليقين ما ظنك باثنين الله ثالثهما ؟(1) فيـ ل فى ذلك قرآنا فيقول (إِلاّ تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُـولُ

لِصَاحِبِهِ لا تَحْزَنْ إِن اللهَ مَعَنا فَأَنْزَلَ اللهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الـذِينَ كَفَـرُوا السفْلَى وَكَلِمَةُ اللهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ) (2)

2-كسفت الشمس أثناء دفنه ابنه إبراهيم فتحدث الناس بمشاركة الشمس حزن رسول الله فكسفت ، فلم تفته الأمانة ولم ينسه الصدق في هذا الموقف الجليل وكان حسبه أن يصمت حـتى ينقـضى الموقـف فيشرح لهم فقال " إن الشمس والقمر آيتان من آيات الله لا ينكسفان لموت أحد او حياته "(3) وفى عرسه بعائشة رضى الله عنها قدمت مشروبا لبعض من صويحباتا فاعتذرن بحجة الشبع فلم يفته ذلـك فقـال " لاتجمعن جوعا وكذبا " (4)

3- أقبل عليه عامر بن طفيل فى المسجد وأشرف الناس لمقبله وكانوا يتمنون إسلامه فقال لرسول الله . يا محمد مالي إن أسلمت ؟ قال " لك ما للمسلمين وعليك ما عليهم " قال أتجعل لى الأمر من بعدك ؟ قال " إن الأمر لله يجعله حيث يشاء " قال افتجعلنى على الوبر وأنت على المدر ؟ قال " لا " قال فما تجعل لى قال " اجعل لك أعنة الخيل تغزو فى سبيل الله ، قال أو ليس لى أعنة الخيل اليوم ؟ (5) ولم يسلم المـأفون لأنه كان يدبر مؤامرة لقتله رسول الله مع آخر ، فلم يقل له رسول الله إلا الـصدق وإلا الحقيقـة بكـل تفاصيلها وبكل مراحلها لا تنقص ولاتزيد فلم يسوفه ولم يرجئه ولم يعده رغم رغبته فى إسـلامه ،لأنـه الأمين الذي يرغب فى إسلام الأمة كلها ، واتخذ فى سبيل ذلك كل الوسائل الممكنة حتى أنه غضب غضبا شديدا على أحد صحابته وهو اسامة بن زيد لقتله مشرك فى أحدى الغزوات شهد خوفا من السيف (6)

لم يتهاون أو ينسى ولو للحظة هذه الأمانة حتى وهو يعاني سكرات الموت ، حيث كانت أخر كلماته " الصلاة الصلاة وما ملكت إيمانكم " لعن الله اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد(7)

----

(1) البخاري باب فضائل الصحابة (2) التوبة 40 (3) متفق عليه
(4) مسند أحمد 27511 (5) تفسير القرطبي لسورة الرعد (6) تفاصيل القصة بمسلم 96 باب من قال لا إله إلا الله
(7) مسلم 530 باب النهي عن بناء المساجد على القبور

ثالثا :- العبودية الحقة

على الرغم من هذه الأعباء الجسام التي تحملها رسول الله صلى الله عليه وسلم وحده والتي ينوء بحملها أولي القوة والعزم من الرجال ، وعلى الرغم من هذه الصعاب والتحديات التي واجهها وما واجهت أحـد

بمثل ذلك ، وعلى الرغم من هذه الأعداد الجمة من البشر مابين أجناس مختلفة ومشارب متباينة وطباع متفاوتة ، وما بين بعيد يتجهمه وعدو يترصده وشقي يتربصه ، وأذن تسمعه وعين تنظره وقلوب ترقبه ، وعلى الرغم من شغله بالدعوة والرسالة وكفاحه ، مابين حروب مع الأعداء ولقاءات مع الوفود ، وعرض على القبائل ورسائل إلى الملوك ، وعلى الرغم من معاناته وآلامه ، مابين يتم وغربة ، وعيلة وزهد ، وحصار وقطيعة وإيذاء وسخرية ، وهجرة وفرار ، وعودة واستقرار ، وموت عزيز لديه زوجة أو ولد أو صاحب أو حبيب . وعلى الرغم من شغله الدائم وفكره المستمر وهمه المتواصل ، مابين سؤال وجواب وتعليم وتعلم وتهذيب وتربية ، وهم يشغله ومصير أمة يؤرقه ، ونار رآها فأقضت مضجعه وأكثرت دمعته وأقلت ضحكته ، وعلى الرغم من ذلك كله وغيره مما لاتسعه الأقلام ولا يدركه الإبداع ، كان الأمر الإلهي المباشر له صلى الله عليه وسلم (وَاعْبُدْ رَبكَ حَتى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ)(1) أي حتى الموت وما بعده (2) ، فلبى الأمين أمر ربه فعبد الله حق العبودية وشكره حق الشكر وذكره حق الذكر . لبى بكل حب ورضاء وبكل شوق وحنين ، لذا جعلت قرة عينه وراحته في الصلاة . ولنقرأ بعض أوامر الله سبحانه وتعالى له في هذا الصدد وسيكون في ذلك الغناء عن الإضافة أو المزيد ، قال تعالى (أَقِمِ الصلاةَ لِدُلُوكِ الشمْسِ إِلَى غَسَقِ اللّيْلِ وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِن قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُوداً) (3)وقال (وَأَقِمِ الصلاةَ طَرَفَيِ النهَارِ وَزُلَفاً مِنَ اللّيْلِ إِن الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السيئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرَى لِلذاكِرِينَ) (4) وقال (وَمِنَ اللّيْلِ فَتَهَجدْ بِهِ نَافِلَةً لّكَ عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبكَ مَقَاماً مّحْمُوداً)(5) وقال (يا أيها المزمل قم الليل إلا قليلا نصفه أو انقص منه قليلا أو زد عليه ورتل القرآن ترتيلا "(6)وقال (إن رَبكَ يَعْلَمُ أَنكَ تَقُومُ أَدْنَى مِنْ ثُلُثَيِ اللّيْلِ وَنِصْفَهُ وَثُلُثَهُ وَطَائِفَةٌ مِنَ الذِينَ مَعَكَ وَاللهُ يُقَدرُ اللّيْلَ وَالنهَارَ)(7)وقال(فَسَبحْ بِحَمْدِ رَبكَ وَكُنْ مِنَ الساجِدِينَ)(8) وقال (وَسَبحْ بِحَمْدِ رَبكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا وَمِنْ آنَاءِ اللّيْلِ فَسَبحْ وَأَطْرَافَ النهَارِ لَعَلكَ تَرْضَى) (9) وقال (يَا أَيهَا النبِي اتقِ اللهَ وَلا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ إِن اللهَ كَانَ عَلِيماً حَكِيماً)(10)

----

(1)الحجر 99 (2) بن تيميه مجموعة الفتاوي ج 8 (3) لإسراء 78 (4) هود 114 (5) الإسراء 79
(6) المزمل 1 وما بعدها (7) المزمل من 20 (8) الحجر 98 (9) طه من الآية 130 (10) الأحزاب 1

وفي بعض الآثار النبوية :

عن عائشة رضي الله عنها أن النبي كان يقوم من الليل حتى تتفطر قدماه فقلت له لم تصنع هـذا يـا رسول الله وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر ؟ ، " فقال أفلا أكون عبدا شكورا "(1) وعنـها أيضا أنه إذا دخل العشر أحيا الليل وشد المئزر وأيقظ أهله ، وعند مسلم عن أبى عبد الله حذيفة بن اليمان قال " صليت مع النبي ذات ليلة فافتتح بالبقرة فقلت يركع عند المائة ، ثم مضى فقلت يصلي بها في ركعـة فمضى . فقلت يركع بها ثم افتتح بالنساء ، فقرأها ثم افتتح آل عمران فقرأها ، يقرأ مترسلا إذا مر بآية فيها تسبيح سبح وإذا مر بسؤال سأل وإذا مر بتعوذ يتعوذ ، ثم ركع فجعل يقول سبحان ربي العظـيم فكـان ركوعه كنحو من قيامه ، ثم قال سمع الله لمن حمد ربنا لك الحمد فقام قياما طويلا قريبا مما ركع ثم سـجد فقال سبحان ربي الأعلى فكان سجوده قريبا من قيامه " (2) ، وعن بن مسعود قال صليت مع النبي ليلـة فأطال القيام حتى هممت بأمر سوء هممت أن أجلس أو ادعه " (3) ، وعن أبي إسحاق قال سمعت عاصـم بن ضمرة يقول سألنا عليا عن صلاة رسول الله من النهار فقال إنكم لا تطيقون ذلك فقلنا من أطاق ذلك صلى فقال كان إذا كانت الشمس من هاهنا كهيئتها عند العصر صلى ركعتين وإذا كانت الشمس مـن هاهنا كهيئتها عند الظهر صلى أربعا وبعدها ركعتين وقبل العصر اربعا يفصل بين كل ركعتين بالتـسليم على الملائكة والنبيين ومن تبعهم من المؤمنين(4)

والأحاديث والأخبار في هذا الباب جد عظيمة ، خلاصتها أن يومه كله كان عبادة من صلاة وصـيام وشكر وذكر وقيام وصوم وصدقة وزكاة وبر وصلة رحم وتعليم وتعلم فريضة أو نافلة وكل ما أمـر بـه المسلمون كان يؤده وكل ما ناهم عنه كان ينتهه ، وكأن عبادته لم تكن له ولكنها كانت دعاءا ومناشدة لربه ، وكان يسمع لصدره وهو يصلي أزيز كأزيز المرجل (4) فعن عبد الله بن عمرو قال " انكـسفت الشمس يوما على عهد رسول الله فقام رسول الله يصلي حتى لم يكد يركع ثم ركع فلم يكد يرفع رأسه ثم رفع رأسه فلم يكد أن يسجد ثم سجد فلم يكد أن يرفع رأسه ثم رفع رأسه فلم يكد أن يسجد ثم سـجد فلم يكد يرفع رأسه فجعل ينفخ ويبكي ويقول رب ألم تعدني أن لا تعذبهم وأنا فيهم رب ألم تعـدني ألا تعذبهم وهم يستغفرون ونحن نستغفرك فلما أتم الركعتين انجلت الشمس فقام فحمد الله " (5)

----

(1)صحيح البخاري باب قيام النبي صلى الله عليه وسلم حتى تتورم قدماه وما بعدها ، وقال بن القيم في عدة الـصابرين الجزء الأول الشكر هو الغاية من خلق الإنسان وهو الغاية التى خلق الله عبيده لأجلها وذلك استنادا إلى قوله تعالى " والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئا وجعل لكم السمع والابصار والافئدة لعلكم تشكرون " النحل

(2) صحيح مسلم باب استحباب تطويل القراءة والنسائي ومسند أحمد ، (3) مسلم 773

(4) الشمائل المحمدية للترمذي باب عبادة رسول الله (4) بن خزيمة 900 (5) المصدر السابق 901

الفصل الثالث

صلاحيته للرسالة

رسول الله صلى الله عليه وسلم هو البشري الأوحد الذي كان مؤهلا لحمل الرسالة والنبوة الخاتمة ، وللتدليل على ذلك نبحث فيمن كان يصلح غيرة لهذه المهمة ، ونرى هل نجانب الحقيقية عندما نقرر كمسلمين أنه هـو وحده الوحيد الأوحد الأصلح لحمل هذه الرسالة ، وأنه هو وهو فقط الذي بشرت به الكتب الـسماوية أم لا ؟

ولكن يجب بداية ولكي ننظم طريقة هذا البحث الغير دؤوب أن نحدد سبيلين على هديهما يكون البحث :

الأول : أن البحث سيكون فى إطار بعض الشروط العامة التي ذكرناها سلفا ..وهى المكـان والزمـان واللغـة والشريعة ، ومن ثم يدور البحث في هذه الأطر" مكة باعتبارها تمثل شرط المكان وعام البعثة باعتباره يمثل شـرط الزمان والمتكلمين بالعربية وعرب مكة لانطباق شرط اللغة عليهم ، وبالتالي يستبعد من هم خارج مكة لانتفاءهم لشرط المكان ، ويستبعد غير المتكلمين باللغة العربية وغير العرب وإن كانوا داخل مكة كما يستبعد أهل الكتاب لأنهم كانوا أصحاب ديانة ، بما يخالف الشرط الرابع من معايير الاصطفاء الخاص بالرسالة أوالمنهج أوالـشريعة ، لإنهم لما كانوا على دين سماوي وشريعة ومنهاج معلوم ، لزم أن تكون الرسالة الخاتمة غير رسالتهم والمنهج غـير منهجهم و الشريعة غير شريعتهم ، ومن ثم فكان من الطبيعي أن يبعث الرسول الخاتم من غيرهم

والثاني : أن البحث سيدور أيضا في اطار الشروط والمعايير الخاصة بالنبي الخاتم مثل الاسم والـصفة والنعـة والأمية وعدم بقاء ولد له من بعده ، ومن ثم نقر بحقيقة لاحاجة للتدليل عليها هي أنهم جميعا- أي من هم دونـه صلى الله عليه وسلم - افتقدوا الشرط الأول والأجل وهو الاسم والصفة ، وإذا أخذنا فى الاعتبار الشرط الخاص بالا يعقب من صلبه ولد فقد افتقدوا هذا الشرط أيضا . كما افتقدوا جميع خصائصه وصفاته التي ذكرنا طرفـا منها ما سبق مثل : التحمل بجميع أنواعه والصدق والأمانة والعبودية الحقة . وبالتالي سنطابق الشروط الأخـرى ونهتدي بها لنصل معا إلى الحقيقة ، والذين سوف يدور حولهم البحث هم من الأصناف الأتية :-

عظماء مكة ، الحنفاء ، الصحابة

فعظماء مكة وأشرافها حاربوا رسول الله صلى الله عليه وسلم لأن الله اختاره عليهم ، والحنفاء كانوا على الملة السمحاء ملة إبراهيم عليه السلام (1) ، ولكنهم لم يكونوا يدينون بدين معين أو منهج وشريعة محددة ، والصحابة هو خير البشر قاطبة بعد رسول الله ، فلما لا يكون واحد من هؤلاء جميعا :

----

(1) نقل الطبري عن أبو جعفر قوله " الحنيف عندي هو الاستقامة على دين إبراهيم واتباعه على ملته وذلك أن الحنيفية لو كانت حج البيت لوجب أن يكون الذين كانوا يحجونه في الجاهلية من أهل الشرك كانوا حنفاء وقد نفى الله أن يكون ذلك تحنفا بقوله- عن إبراهيم عليه السلام – (ولكن كان حنيفا مسلما وما كان من المشركين)ولو كانت هي الختان لوجب أن يكون اليهود حنفاء وقد أخرجهم الله من ذلك بقوله (ما كان إبراهيم يهوديا ولا نصرانيا ولكن كان حنيفا مسلما) فقد صح إذا أن الحنيفية ليست الختان وحده ولا حج البيت وحده ولكنه هو ما وصفنا من الاستقامة على ملة إبراهيم واتباعه عليها والائتمام به فيها ، فسمي الحنيف من الناس حنيفا باتباعه ملته واستقامته على هديه ومنهاجه وسمي الضال عن ملته بسائر أسماء الملل فقيل زفر ونصراني ومجوسي وغير ذلك من صنوف الملل ، أ هـ بتصرف ج 1 /465

أولا – أشراف مكة وعظمائها :-

قال الله تعالى (وَقَالُوا لَوْلا نُزِلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ) (1)

لم يكن رفض مشركي مكة إتباع محمد إلا لأن النبوة لم تنزل على رجل من عظمائهم وأغنيائهم من ناحية . ولأنها نزلت في بني هاشم دونهم من ناحية أخرى ، وهو ما عبر عنه أبو جهل فيما أخرجه البيهقي عن المغيرة بن شعبة قال " إن أول يوم رأيت فيه رسول الله أنى أمشى أنا وأبو جهل فى بعض أزقة مكة إذ لقينا رسول الله فقال لأبو جهل " هلم إلى الله ورسوله " فقال له أبو جهل يا محمد هل أنت منته عن سب آلهتنا ؟ هل تريد إلا أن نشهد أنك قد بلغت ؟ قد شهدنا فوالله لو أنى أعلم أن ما تقول حق لأتبعتك " ، ثم اقبل علي فقال " والله إنى لأعلم أن مايقوله حق " ولكن يمنعني أن بني قصي قالوا " فينا الحجابة فقلنا نعم ، ثم قالوا فينا السقاية فقلنا نعم ، ثم قالوا فينا الندرة فقلنا نعم ، ثم قالوا فينا اللواء فقلنا نعم ، ثم أطعموا فأطعمنا وسقوا فسقينا حتى إذا تحاكت الركب قالوا منا نبي ، والله لايكون ذلك " (2)

وهو قول يكشف عن صدق رسول الله صلى الله عليه وسلم عندما لقبه بأبو جهل ، وذلك لأنه وضع النبوة فى مصاف السيادة والريادة الدنيوية حتى تصور أنها من صنيع البشر وتنظيمهم ، وساير منهجه هذا السادة فى قريش فأخذهم العجب فى بعث محمد دونهم فقالوا فيما قالوا :

(وَقَالُوا لَوْلا نُزِلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ) فرد الله عليهم (أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضاً سُخْرِيّاً وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ) (3) إذ ليس لهم من الأمر شيء لأنه لا يتعلق بشئون حياتهم الدنيا التى لهم تنظيمها وفق تفاوت القوى والموازين ، فيجعلونها طبقات سادة وأرقاء وأغنياء وفقراء وأقوياء وضعفاء إنما يتعلق الأمر بشأن من شئون السماء وهبة من الله واصطفاء ، وحتى نكون منصفين نجاريهم فى زعمهم ونناقشهم بالحجة ونرى هل توافرت شرائط النبوة فى أحد عظمائهم ؟ وهل كان يصلح أحدهم هذا لحمل أمانة الرسالة وتولي شئونها وقيادة البشرية كلها لأخراجها من الظلمات الى النور ؟

----

(1) الزخرف 31 (2) حياة الصحابة للكاندهلوي ومصنف بن أبي شيبة 35829 (3) الزخرف 32

1-أبو مسعود عمر بن عمير الثقفى سيد ثقيف ؟

نسب إلى الوليد بن المغيرة قوله أي ل على محمد وأترك وأن كبير قريش وسيدها ويترك أبو مسعود عمر بن عمير سيد ثقيف . ونحن عظيما القريتين ، أما الأخير فقد ورد عنه أنه عرض على قريش أن ينيبوه إلى رسول الله عله يرده عن دعواه فقال لهم " أي قوم ألست بالوالد ؟ قالوا بلى ، قال ألستم بالولد ؟ قالوا بلى قال فهل تتهموني ؟ قالوا لا ، قال ألستم تعلمون أنى استنفرت أهل عكاظ فلما أبوا علي جئتكم بأهلي وولدي ومن أطاعني ؟ قالوا بلى . قال فدعوني آتيه ، قالوا فأته فاتاه فقال له أي محمد أرابت إن استأصلت أمر قومك هل سمعت أحد من العرب اجتاح أهله قبلك ؟ (يقصد أنك بذا تجتاح قومك وتستأصلهم ولم يفعل ذلك غيرك من العرب) وإني لا أرى وجوها ولكنى أرى أشوابا من الناس خليق أن يفروك ويدعوك . (يقصد أن من معه أخلاطا سيفروا منه ويخذلوه إن أشتد الأمر) . فقال ابو بكر امصص بظر اللات (كلمة تكم والبظر عضو الأنثى) أنحن نفر منه وندعه ؟ فقال من هذا ؟ قال أبو بكر قال أما لولا يد كانت لك عندي لم أجزك بها لأجبتك . (يقصد فضلا لأبي بكر) وكان المذكور كلما كلم رسول الله وضع يده على لحية رسول الله فيضربه المغيرة بن شعبه على يده بمؤخرة سيفه ويقول له أخر يدك عن رسول الله . فرفع عروة رأسه وقال من الرجل قالوا المغيرة بن شعبة . فقال أي غُدر ألست أسعى فى غدرتك ؟(وكان المغيرة قد قتل منهم قتيلا فى جاهليته ثم أسلم) . فقال رسول الله " أما الاسلام فأقبل ، وأما المال فلست منه في شيء " فعاد عروة الى قومه وقال لهم أي قوم والله لقد وفدت على الملوك قيصر وكسرى وما رأيت ملكا يعظمه أصحابه ما يعظم أصحابُ محمدٍ محمد ، إنه إن تنخم نخامة وقعت فى كف رجل فدلك بها وجهه وإذا أمر ابتدروا أمره ، وإذا توضأ تقاتلوا على وضوئه ، وإذا تكلم خفضوا أصواتم عنده ،

وما يحدون النظر إليه تعظيما ، وإنه قد عرض عليكم خطة رشد فاقبلوها . (1) وأخرج الطبرانى عن عـروة بـن الزبير قال " لما أنشأ الناس الحج سنة تسع قدم عروة بن مسعود (رضى الله عنه) على رسول الله وسأله أن يرجـع الى قومه بالإسلام فقال له رسول الله إنهم قاتلوك فقال له يا رسول الله أنا أحب إليهم من أبكارهم ، لو وجدوني نائما ما أيقظونى ، فرجع عروة الى قومه فدعاهم الى الإسلام فقتلوه وأوصى بأن يدفن مع الشهداء " (2)

انتهى ما جاء من ذكر عنه ، وبمجرد النظر يتبين لنا سعة أفقه وسلامة قلبه وعقله وعلى الرغم من ذلك فإن عظمته هى التى حالت بينه وبين النبوة ، لأن هذه المنزلة لم يكن ينالها عربي إلا إذا كان ثريا شريفا فى قومه ذو نفوذ واسع وسلطة قوية وكلمة مسموعة بينهم وبنين كثير ومال وفير بالإضافة الى سن كبير لاتقل بحال عن الستين . يدل على ذلك كلماته التي قدم بها نفسه لأهل مكة ليقبلوا وفادته إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ويبدو أنه كان يعاني من ضعف في بصره لسؤاله عن محدثه على الرغم من قربه منه كأبي بكر والمغيرة ،وكل هذه موانع تحول بينه وبين النبوة ، ناهيك عن أنه كان مقدر له الموت قبل أن يكتمل الدين وتنتشر الدعوى .

----

(1) صحيح البخاري باب الشروط في الجهاد والمصالحة مع أهل الحرب وكتابة الشروط 2581

(2) قال الهيثمي رواه الطبراني وروى عن الزهري نحوه وكلاهما مرسل وإسنادهما حسن

2- الوليد بن المغيرة .

كان الوليد بن المغيرة من أشراف قريش وأسنها وأكثرها حكمة وروية ورأي . وقد طلب منه أئمة الكفر أن يقول فى محمد قولا يتفقون عليه ويتحدون خلفه . فكانوا كلما قالوا قولا رده عليهم لعدم اقتناعه به ، فقالوا نقول كاهن فقال ما هو بكاهن لقد رأينا الكهان فما هو بزمزمة الكاهن ولاسجعه ، قالوا نقول مجنون قال وما هو بمجنون لقد رأينا الجنون وعرفناه فما هو بخنقه ولاتخالجه ولاوسوسته ، فقالوا نقول شاعر قال ما هو بالشعر لقد عرفنا الشعر كله رجزه وهزجه وقريظه ومقبوضه ومبسوطه فما هو بالشعر ، فقالوا فما نقول قال والله " إن لقوله حلاوة . وإن أصله لعذق . وإن لفرعه جناه " ثم فكر وقدر وأقبل وأدبر فقال "قولوا أنه سحر يؤثر " فأنزل الله تعالى فيه "ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيداً وَجَعَلْتُ لَهُ مَالاً مَمْدُوداً وَبَنِينَ شُهُوداً " إلى قوله " سَأُصْلِيهِ سَقَرَ " (1) (2)

وتدل أقواله على أنه ذو بصيرة وحكمة وسعة افق وفهم .وقال عنه ابنه خالد بن الوليد كنت أعلم من أبى رأيا وحلما وفضلا ، وتدل كلمات الله سبحانه وتعالى على ما أنعم به عليه من مال وفير وبنين كثير وشرف فى قومه وعز ، وكان الرسول صلى الله عليه وسلم يطمع فى إسلامه ، ويقال أنه هو الذي كان يكلمه عندما جاءه عبد الله بن أم مكتوم فعاتبه فيه ربه ، ثم انه كان يعرف للبيت حرمة وكان يكسو الكعبة وحده عاما وتكسوها قريشا عاما أخر وسمي لذلك بالعدل لأنه يعدل قريشا فى إنفاقها ، وعندما أعيد بناء الكعبة بعد أن أغرقتها السيول قبل البعثة نادى " يا معشر قريش لاتدخلوا فى بنائها إلا طيب ولاتدخلوا فيه مهر بغي ولا زنا و لا مظلمة ، وحرم كذلك الخمر على نفسه وعلى أبنائه وضرب إبنه هشام على شربها .

وعلى الرغم من كل هذا لم يكن يصلح هذا الرجل للنبوة ، لأنه افتقد كل شرائطها فمن الناحية الأخلاقيـة مثلا كان ذا صلف وغرور ومبذرا يتلف ماله للرياء والمفاخرة ويحب ذلك ، فكان ينهي أن توقد نار للحجيج فى منى الا ناره ، وكان على إنفاقه وبذخه وحبه للرياء والمفاخرة لايطعم المسكين ولا يحض على ذلك ، ويروى انه نزل فيه قول الله تعالى (كَلَّا إِنَّ الْإِنسَانَ لَيَطْغَى أَنْ رَآهُ اسْتَغْنَى) (3) وكان أيضا مرابيا شديد التعامل بالربا ومات وله من الربا على قبائل مكة وأرياضها ديون تحسب بالالاف ، وكان مختالا فرحا فخورا حتى روى انه مات مـن جراء أسبلة ، أي بسبب سيره فى ثوب يجره فى خيلاء فتعلق بكعبه ريش نبل فمات به ، كما كان ظالما حتى عند موته ، فعندما جمع أولاده وأوصاهم قائلا " دمي فى خزاعة فلا نطلقه ، وأردف وإنى لأعلم أنم منه براء ولكـني أخشى أن تسبوا به بعد اليوم " كما أوصى بأن يأخذوا رباه فلا يدعوه ، ومن الناحية العقلية وعلى الـرغم ممـا قدمنا له من سعة أفق وروية وحكمة إلا أنه لم يكن سالم العقل كامله ، فقد غيبته حكمته عن الدخول فى الإسلام واتباع محمد ، ولو كان دخل فيه لكان له شأن ولأدرجناه تحت بند الصحابة فى البند الذي سيأتي بعد

----

(1) المدثر 11 وما بعدها (2) سيرة بن هشام (3) اقرأ 5 ، 6

3- أمية بن أبي الصلت

أورد الأمام ابن القيم قصته فى هداية الحيارى وانقل عنه ما موجزه " أن أمية كان يلتمس الـدين ويطمـع فى النبوة وقد أخبره راهب بكنيسة أنه سيكون بعد عيسى ست رجفات مضت منها خمس وبقيت واحدة ، فطمع أن يكون هو وكان الراهب قال له حين رآه انك لمتبوع فمن أين يأتيك رايك ؟ فقال من شقي الأيسر ، فقال له أي الثياب أحب إليه أن تلقاه فيها ؟ فقال السواد ، فقال الراهب كدت أن تكون نبي العرب ولست به .هذا خـاطر من الجن وليس بملك ، وإن نبي العرب صاحب هذا الامر يأتيه الملك من شقه الأيمن وأحب الثياب إليه أن يلقـاه فيها البياض . ثم ذكر بن القيم قصة هي أقرب إلى الرؤيا منها إلى الواقع . دون أن يشير إلى أنا رؤيا ، وهـي إن صحت فإنا تؤكد ما سبق أن قررناه من أن حادثة شق الصدر هي بدورها رؤيا على الحقيقـة ، ولـست أدري كيف لم يشير إلى ذلك ابن القيم وهو من هو في عداد الصفوة من العلماء ولا يعتبر هذه القصة رؤيا أو منامـا ، باعتبارها على ما سنرى مخالفة لسنة إلهية كونية ، خاصة وأنا لا تمثل آية يمكن الاحتجاج با أو التعويل عليهـا ، وليس صاحبها بالذي تناله مثل هذه المعجزة أو هذه الكرامة على أقل تقدير . " فقال أدركه النوم عند أخت لـه فرأت طائرين انشق سقف بيتها عنهما فـ ل أحدهما على صدره ووقف الاخر مكانه ، فشق الذي وقـع علـى صدره صدره وأخرج قلبه فسأله الأخر هل وعى؟ قال نعم ، فسأله هل قبل ؟ قال لا ، فهما أن ينصرفا فنادهمـا أمية قائلا لبيكما لبيكما ها أنا لديكما لامال لي يغنيني ولا عشيرة تحميني . فعادا وكررا فعلتهما وسؤالهما وكانت نفس الإجابة ، فهما أن ينصرفا فناداهما : لبيكما لبيكما ها أنا ذا لديكما محفوف بالنعم محوط بالذنب ، فعادا

وهما أن ينصرفا فقال لهما : لبيكما لبيكما ها أنا لديكما " إن تغفر اللهم تغفر جما ، وأي عبد لك لا ألمـا " ثم انصرفا وانطبق السقف فأسرعت اليه أخته تسأله عن حاله فقال لها حرارة أجدها فى صدرى . ثم أنـشد شـعرا فقال . " ليتنى كنت قبل ماقد بدا لى ، فى تلال الجبال أرعى الوعولا "

" اجعل الموت نصب عينيك و ، احذر غولة الدهر إن للدهر غولا

الثابت من القصة أن شيطان يتلبس أمية ويوهمه وأن قلبه لم يحتمل أعباء النبوة وتكاليفها رغم أنه وعى وعقل وعلم ، وكأن الطائرين ملكين أرادا اختباره فنظرا فى قلبه وتبين لهما فشله ، ثم أنه يكذب حيث قرر أول مرة أنه لا مال يغنيه ولا عشيرة تحميه ، وكأنه على علم بشروط النبوة ، فلم رأى انصرافهما عدل عـن أقوالـه وقـال محفوف بالنعم محوط بالذنب . وأكد ذلك فى الأخيرة ، إضافة الى انه يقول الشعر وهى خله غير مطلوبة فى نـبي القرآن المنتظر ، ولمكانة هذا الرجل روى مسلم عن عمر بن الشريد قال ردفت النبي صلى الله عليه وسلم ، فقال هل معك من شعر أمية قلت نعم ، قال هيه فأنشدته بيتا فقال هيه ثم أنشدته بيتا فقال هيه حتى أنشدته مائة بيت، فقال صلى الله عليه وسلم لقد كاد أن يسلم في شعره (2) وفي رواية من حديث بن مهدي قال صلى الله عليـه وسلم " لقد كاد يسلم في شعره " (3)

----

(1) بن القيم هداية الحيارى (2) مسلم 2255 (3) مسلم 2255

4- أما عتبة بن ربيعة

سأل أمية بن أبي الصلت سفيان بن حرب عن عتبة بن ربيعة " أيجتنب المحارم والمظالم ؟ فقال لـه إي والله ، فسأله أو يصل الرحم ويأمر بصلتها ؟ فقال نعم . أكريم الطرفين وسط العشيرة ؟ فقال نعم ، هل تعلـم قـريش أشرف منه ؟ فقال له لا ، فقال أمحوج هو؟ فقال كلا بل ذو مال كثير ، فسأله كم أتى له من السنين ؟ قال هـو إبن سبعين أو قد قاربا . فقال أمية ازرى به السن والشرف .. (1)

قال القرطبي عن مقاتل بن سليمان كان عتبة يلتمس الدين في الجاهلية ولبس المسوح ثم كفر " (2)

وروى عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال اجتمعت قريش يوما فقالوا انظروا أعلمكم بالسحر والكهانـة والشعر فليأت هذا الرجل الذي فرق جماعتنا وشتت أمرنا وعاب ديننا فليكلمه ولننظر ماذا يرد عليه فقالوا ما نعلم أحدا غير عتبة بن ربيعة (3) فأتاه فقال يا محمد أنت خير أم عبد الله فسكت رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم " أفرغت " قال نعم فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم " بسم الله الرحمن الرحيم حم تـ يل الكتاب حتى بلغ فإن اعرضوا فقل أنذرتكم صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود " فقـال لـه عتبـة حسبك حسبك ما هذا فرجع عتبة إلى قريش فقالوا ما وراءك فقال ما تركت شيئا أرى أنكم تكلمونـه إلا قـد كلمته قالوا فهل أجابك قال نعم لا والذي نصبها بنيه ما فهمت شيئا مما أنه أنذركم صاعقة مثل صـاعقة عـاد وثمود قالوا ويلك يكلمك رجل بالعربية ولا تدري ما قال قال لا والله ما فهمت شيئا مما ذكر الصاعقة (4)

وتلمح من قصة هذا الرجل أنه على الرغم من أنه كان يصل الرحم ويأمر بها ويجتنب المحارم والمظالم وكـريم ووسط في قومه إلا أن سنه وشرفه منعاه من النبوة ، وهذا هو قول أمية أزرى به السن والشرف ، بالإضـافة إلى عدم سلامة عقله لضلاله عن الحق والحقيقة وبقائه على الشرك وعبادة الأوثان ، بمعنى أنه لو كان سـليم العقـل والفؤاد لكان الأولى به أن يرشده عقله ويحثه فؤاده على دخول الإسلام ، أما وإذ لم يفعل فقد دل ذلك على حمقه وضعف بصيرته ، إضافة إلى علمه وحنكته وخبرته بالشعر والكهانة والسحر ، وكلها خلال لا ينبغي تواجـدها بالنبي الخاتم فضلا عن سائر الأنبياء

----

(1) هداية الحيارى ابن القيم قصة عتبة (2) تفسير القرطبي جزء 12 (3) بن كثير ج4 تفسير فصلت وقال رواه الحـافظ أبو يعلى الموصلي في مسنده 1818 عن أبي بكر بن أبي شيبة بإسناده و البغوي في تفسيره بسنده عن محمد بن فضيل عن الأجلح
(4) قال الحاكم هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه 3002

الحنفاء

الحنفاء هم طائفة من الناس علموا من الكتب السماوية باطلاعهم وترحالهم بديـن إبراهيم عليه الـسلام فدانوا بها وآمنوا بملته وفضلوها على الأديان الأخرى ومن هؤلاء الحنفاء أربعة ذكرهم بـن هـشام فى سـيرته واشتهروا بين كتاب السيرة وهم ورقة بن نوفل ، عبيد الله بن جحش ، عثمان بن الحويرث وزيد بن عمرو بن نوفيل ، وكانوا قد اجتمعوا فى عيد لقريش وخلصوا نجيا وتعاهدوا على كتمان أمرهم وقال بعـضهم لـبعض" تعلمون والله أن قومكم ليسوا على شيء ولقد أخطئوا دين أبيهم إبراهيم ما حجر نطيف به لا يسمع ولا يبـصر ولا يضر ولا ينفع . يا قوم التمسوا لأنفسكم " فتفرقوا فى البلدان يلتمسون الحنفية دين إبراهيم عليه السلام .

1- أما ورقة بن نوفل فاستحكم فى النصرانية واتبع الكتب من أهلها حتى علم علما من أهل الكتاب فصار إذن من أهل الكتاب وعلى دين النصرانية فضلا عن سنه الطاعن فى زمن البعثة النبوية . ويخرج من ثم عن دائرة بحثنا ،

2- أما عبيد الله بن جحش فأقام على ما عليه من الالتباس حتى أسلم وهاجر مع زوجته أم حبيبة بنت إبى سفيان وأم المؤمنين بعده مسلما ثم تنصر بالحبشة وطلق زوجته وهلك هناك نصرانيا . فلم يكن إذن ليصلح للنبوة لاضطراب عقيدته وضعف إيمانه وتقلب قلبه وعدم ثباته على الحق ومرض عقله الذي أورده التهلكة بردته .

3- وعثمان بن الحويرث قدم على قيصر روما وتنصر هو الأخر ولم يدخل الإسلام ومات نصرانيا مما يصير حاله كحال سابقه

4- ولم يبقى إلا زيد بن عمرو بن نوفيل الذى قال عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم يبعث أمة وحده (1) ، قال بن اسحاق " أما زيد فوقف ولم يدخل فى يهودية أو نصرانية وفارق دين قومه فاعتزل الأوثان والميته والدم والذبائح لغير الله ونهى عن قتل المؤودة وقال أعبد دين إبراهيم وبادى قومه بعيب ماهم عليه " إلا أنه على الرغم من ذلك يفتقد كثيرا من شروط الصلاحية ومنها إطلاعه على الكتب السماوية وقراءتها ، وعلمه الذي يتنافى مع الأمية ، بالإضافة الى سنه الطاعن واستيفاءه الأجل قبل البعثة ، كما لم يعرف له منعة أو عشيرة تحميه

----

(1) قال ذلك القرطبي في تفسيره الجزء الثاني وبرر ذلك لأنه لم يشرك في دينه بالله

الصحابة

الصحابة هو مصطلح يطلق على الجيل الأول الذي صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم ورآه وتعلم منه ، وهم جماعة فاضلة لها مكانتها التي ما ينتبغى أن تكون لغيرهم ويليهم فى ذات المكانة بقليل من تفاوت التابعين لهم بإحسان بشرط التبيعية والاقتداء بهم مصداقا لقوله تعالى : (وَالسابِقُونَ الْأَولُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنصَارِ وَالذِينَ اتبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَد لَهُمْ جَناتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الْأَنهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبداً ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ) (1) وقد دلت الآيات والأحاديث الكثيرة علي هذه القدسية وهذه المكانة وحسبهم أنهم اختيار الله تعالى لصحبة نبيه ، فقال عليه الصلاة والسلام " إن الله اختارني واختار لى أصحابي فجعل منهم وزراء وأختانا وأصهارا فمن سبهم فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين "(2)

ومن أقوال الأئمة والعلماء بشأنهم قول الأمام الحافظ بن حجر العسقلانى فى شرح نخبة الفكر " الصحابة كلهم عدول ، والعدل ملكة تحمل على ملازمة التقوى والمروءة " ، وقال بن عابدين فى شرح الفتاوى الصغيرة " العدل هو من يجتنب الكبائر كلها حتى ولو ارتكب كبيرة تسقط عنه العدل " يقصد أنهم الموصفون

باجتناب الكبائر حتى ولو وقع أحدهم فى كبيرة ، وقال الأمام بن الصلاح فى علوم الحديث " للصحابة بأسرهم خصيصة وهى أنه لا يسأل عن عدالة أحد منهم فذلك أمر مفرغ منه لكونهم على الإطلاق عدول بنصوص الكتاب والسنة وإجماع الأمة .

وقال الحافظ بن عبد بر فى مقدمة الاستيعاب هم خير القرون وخير الأمم ، الأمة الهداة والعباقرة التقاة نور الظُلم وأسطاع الحكم " وقال الأمام أحمد فى رواية له نقلها الأصطخرى ." لا يجوز لأحد أن يذكر شيئا من إساءتهم ولا أن يطعن على أحد منهم بعيب او بنقص ومن فعل ذلك وجب تأديبه "

وقال النووى " الصحابة كلهم عدول من لابس الفتنة او لا " . (أ هـ) (3)

وعلى الرغم من كل ذلك وغيره فهل كان يصلح أحد منهم للنبوة ؟

سنرى وسنكتفي هنا بالأربعة الاول بوصفهم الخلفاء الراشدون من بعده صلى الله عليه وسلم الذين تولوا قيادة الإسلام ورفع رايته وهم : ابو بكر الصديق ، الفاروق عمر بن الخطاب ، ذو النورين عثمان بن عفان ، الأمام علي بن ابى طالب .

----

(2) التوبة 100 (2) الترمذي وغيره

(3) مقام الصحابة وعلم التاريخ للعالم الهندي محمد شفيع ترجمة د/ سمير عبد الحميد

1- عمر بن الخطاب :

كلنا يعرف لعمر بن الخطاب قدره ، ويعد إسلامه فتحا لايقل فى عظمته عن فتح مكة يقول عبد الله بن مسعود " مازلنا أعزة منذ أن أسلم عمر ، كان إسلامه فتحا . وكانت هجرته نصرا ، وكانت إمارته رحمة ، لقد رأيت ما نستطيع أن نصلي بالبيت حتى أسلم عمر " وهو أمنية ودعوة رسول الله صلى الله عليه وسلم والمسمى من قبله بالفاروق ، ولن يكون الحديث عنه رضى الله عنه قبل الإسلام حيث عرف بتعصبه لدين قومه وعبادته لأصنامهم ، كما كان معروفا بشدته وفظاظة قلبه ومعاقرته الخمر ووئده بناته ولكنى سأتخير موقفا له بعد الإسلام وهو على بساطته إلا أنه يؤدي للمطلوب .

زيد بن سعنة حبر يهودى جاء في قصة إسلامه قوله " ما من علامة من علامات النبوة إلا وقد عرفتها فى وجه محمد بن عبد الله إلا اثنتين لم اخبر بهما . وهما أن يسبق حلمه غضبه ولا تزيده شدة الجهل عليه الا حلما " ،

فجاء زيد رسول الله وأخبره أن سنة وجدبا أصابت نفرا من قريته اسلموا حديثا ويخشى ردتم من جراء هذه الردة وطلب منه أن يرسل معه شيء يغيثهم به ، فباعه رسول الله على أجل وقال له إعدل عليهم وأغثهم ، فلما كان محل الأجل بيومين أو ثلاث خرج رسول الله في بعض من أصحابه فيهم عمر بن الخطاب فأتاه زيد بن سعنه وأخذ بمجامع قيمصه وردائه ونظر إليه بوجه غليظ وقال له " يا محمد آلا تقضيني حقي ؟ فوالله ما علمتم بنى عبد المطلب إلا مطلا ، ولقد كان لى بمخالطتكم علم " ، ويقول زيد " ونظرت إلى عمر فإذا عيناه تدور فى رأسه كالفلـك المستدير ثم رماني ببصره وقال لى " ويحك يا عدو الله أتقول لرسول الله ما اسمع وتصنع به ما أرى والله لولا مـا أخشى فوته لضربت عنقك "ورسول الله – والكلام لم يزل لزيد – ينظر إليه فى سكون وتؤده فقال " يا عمر أنا وهو كنا أحوج الى غير هذا أن تأمرني بحسن الأداء وتأمره بحسن الطلب اذهب فأعطه حقه وزده عشرون صاعا مكان ما رعته ." (1) والأمر الذي لاشك فيه أن موقف عمر كصحابي يحسب له فى مواقف العظمة عنده ولكنه لم يكن ليحسب له لو كان نبيا ، لأن الحبر اليهودي وضع النبوة الخاتمة فى مجال الاختبار بما عنده من علم وبشارة ولو لم يكن محمد بن عبد الله هو هذا النبي لفشل عمر لو كان هو النبي ، وشبيه ذلك موقفه ساعة أن فتح رسول الله مكة فتمنى الانتقام من أهلها ، وقال " الآن أمكن الله منهم لأرينهم ما صنعوا " (2)

2- عثمان بن عفان

ذو النورين الحيي أكرم الحفدة وأوصل البررة وأصبر الغزاة ، الهجاد بالاسحار صاحب الجيش والبئر. هل كان يصلح رضى الله عنه للنبوة ؟، لا لم يكن يصلح لها . ولن أتعرض له قبل الإسلام أيضا، ولا للأخطاء التي نسبها اليه الثوار بعد توليه الخلافة وقتل بسببها ، ولكن لننظر بعين الحق والحياد فى ما نسب إليه بالإجماع وبلا خلاف من واحد فراره يوم أحد .

----

(1) تفاصيل الرواية عند بن حبان 288 وذكرها صاحب المستدرك تحت عنوان اسلام زيد بن سعنه 6547

(2) الطبقات الكبرى لابن سعد

أخرج البخارى من حديث عثمان بن عبد الله بن موهب قال " جاء رجل من أهل مصر يريد حـج البيـت فرأى قوما جلوسا فقال أيكم الشيخ ، قالوا عبد الله بن عمر ، قال يابن عمر إنى سائلك عن شيء فحدثني عنه ، هل تعلم أن عثمان فر يوم أحد ؟ قال نعم قال تعلم أنه تغيب عن بدر ولم يشهد ؟ قال اللهم نعم ، قال تعلم أنه تغيب عن بيعة الرضوان ؟ قال اللهم نعم ، فقال الرجل الله أكبر ، قال بن عمر تعالى أبين لك . أما فراره يـوم أحد فاشهد أن الله عفا عنه وغفر له ، وأما تغيبه يوم بدر فإنه كان تحت بنت رسول الله وكانت مريضة فقال له رسول الله إن لك أجر ممن شهد بدرا وسهما – وماتت رضي الله عنها فى مرضها هذا – وأما تغيبه عـن بيعـة الرضوان فلو كان أحد أعز ببطن مكة من عثمان لبعثه مكانه . فبعث رسول الله عثمان الى مكة ، ثم مـد يـده اليمنى صلى الله عليه وسلم فضرب با على يده اليسرى وقال هذه لعثمان ثم قال بن عمر للرجل اذهب با الان معك "(1) والشاهد فراره يوم أحد وليس الأمر في حاجة إلى المقارنة بين موقف النبي يوم أحد وموقف عثمان بن

عفان ذات اليوم ، وقال بن حزم الأندلسي في جوامع السيرة النبوية : " وانهزم – ربما يقصد فر – قوم من المسلمين فبلغ بعضهم إلى الجلعب دون الأعوص – مكانين قرب أحد – منهم عثمان بن عفان ، وعثمان بن عبيد الأنصاري ، غفر الله عز وجل ذلك لهم ونزل القرآن بالعفو عنهم في قوله تعالى :

(إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنْكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا وَلَقَدْ عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ) (2)

3- علي بن أبى طالب .

ما اختلفت الأمة على صحابي مثلما اختلفت على علي رضى الله عنه وكرم وجهه ووجه كل الصحابة الذين اكتحلت أعينهم برؤية رسول الله صلى الله عليه وسلم وصدقوا ما عاهدوا الله عليه ، وكان هو تنبأ بذلك فقال " ليحبني أقوام حتى يدخلوا النار في وسيبغضني أقوام حتى يدخلوا النار في" وقال "يهلك في رجلان مفرط بما ليس في ومبغض يحمله شنآنى على أن يبهتني بما ليس في" (3) (4) ولاشك أن مرد ذلك لكونه من آل البيت ، ولملازمته رسول الله صلى الله عليه وسلم وتعلمه منه ولأنه أول من أسلم ، ولما اتصف به من الشجاعة والقوة والتورع عن البغي والورع والزهد والحلم والصفح والعدل وغير ذلك من صفات جليلة ، إضافة الى علمه الجم وبلاغته وفصاحته ، وأيضا وأهم من ذلك كله كثرة أقوال رسول الله صلى الله عليه وسلم عنه وعن مدى حبه له حتى أورد بن حجر فى صواعقه أربعين حديثا فى وصفه ، مثل قوله عليه الصلاة والسلام " أما ترضى أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى إلا أنه لا نبي بعدي(5)" وقوله " من كنت مولاه فعلى مولاه " (6) فرفعته قلة إلى مرتبة الإلوهيه وهم السبأيين واعتبرته قلة من المارقين وهم الخوارج

----

(1) صحيح البخاري 3495 (2) آل عمران:155 (3) عبقرية الإمام للعقاد (4) مسلم 2404 باب فضائل علي

(5) قال الحاكم في المستدرك صحيح على شرط الشيخين وقال الترمذي حديث حسن صحيح (6) ذكر بن حيان هذا الحديث بالتفصيل تحت عنوان ذكر صلى الله عليه وسلم بالولاية لمن ولي عليا والمعادة لمن عاداه 6931

والذي يهمنا عنه هو مدى صلاحيته رضي الله عنه للنبوة من عدمه ، وهو بداية لا يصلح لفقده أهم شرط من شرائطها الخاصة بالنبي الخاتم ، ألا وهو السن ، إذ كانت سنه وقت نزول الوحي العاشرة يقل عنها قليلا أو يزيد .. وقد علمنا فيما سبق أن كل شيء خلقه الله إنما خلقه وأنزله بقدر وبحكمة تناسب الزمان والمكان وتحقق مصلحة البشرية كلها خاصة فى الحال الذي نحن بصدده ، وقلنا أن السن التي يبعث فيها الأنبياء غالبا هي الأربعين ووصف الله سبحانه وتعالى هذه السن بسن الأشد أي سن القوة والأهلية ، حتى ولو كان هناك استثناءا – على الفرض بنبوة يحي أو عيسى صغارا عن هذه السن - ومن ثم يصير القول الذي قال به بعض فدام الشيعة وأغبيائها بخطأ جبريل في النزول بالرسالة حيث كان المقصود بها عليا قول واضح فيه الحمق والفساد غني عن الرد عليه ولو مؤقتا (1) . هذا ومن ناحية أخرى فقد دلت مواقف التاريخ على عدم صلاحيته رضى الله عنه لها ، وسأبتعد أيضا

عن مواقف التاريخ الشائكة التي أعقبت موت عثمان بن عفان وسأختير موقفين بسيطين أيضا يقربان المعنى ويدلان على المقصود .

الأول فى حادثة الإفك الغراء كان صلى الله عليه وسلم يستشير الصحابة فكان مما سجله التاريخ لعلي قوله فى الفاظ وروايات مختلفة ذات مدلول واحد " النساء غيرها كثير " بما يفهم منه إمكان تطليقها رضي الله عنـها أو البناء بغيرها حسما للشك الذي يعتمل فى قلب رسول الله صلى اله عليه وسلم . ولعل هذه المقولة أحد أسـباب الفتنة التي اُبتلى بها المسلمين والتي كانت أم المؤمنين عائشة رضى الله عنها أحد أطرافها فى مواجهة على بـن أبى طالب رضى الله عنه .(2) ، فلو كان على هو النبي حائلذ لطلق زوجته من فوره بالبناء على الشك ، وسـيكون حينئذ الموقف فى غاية السوء بالنسبة له بعد نزول براءتها من فوق السماوات السبع ، إذ سيكون حينئـذ اقتـرف ظلما يترك أيما أثر على المسلمين والمشركين على حد سواء وسيجد الأعداء مدخلا للنيل من الإسلام ونبيه

الثاني أخرجه الحاكم فى المستدرك عن عبد الله بن عكرمة قال ما موجزه أنه لما كان يوم الفتح دخل الحـارث بن هشام وعبد الله بن أبى ربيعة على أم هانئ بنت أبى طالب شقيقة على رضى الله عنهما ، واستجارا بها وكانـا على شركهما ولم يسلما فخافا انتقام رسول الله منهما فأجارتهما ، فدخل عليهما عليا وأراد أن يقتلهما فتفلتت أم هانئ عليهما واعتنقتهما ، وقالت له " تصنع بي هكذا من دون الناس فلتبدأ بي قبلهما " فنهرها وقـال أتجيريـن مشركين ؟ وخرج فأتت رسول الله وروت له ما كان فقال لها رسول الله " ماكان له ذلك قد أجرنا من أجرتـى وأمنا من أمنت "، ثم يقول الحارث بعد ذلك جعلت استحي أن يراني رسول الله وأذكر رؤيته اياي في كل موضع مع المشركين واذكر بره ورحمته بى فجئته وشهدت بالحق وأسلمت .أولو كان على هو النبي لأجارهما وغيرهمـا كما فعل رسول الله وكان ذلك سببا في إسلامهما كلا ما يصنعها ولا يفعلها إلا رسول الله عليه الصلاة والسلام

----

(1) أقصد بذلك الإشارة إلى الجزء الثالث الذي سوف يصدر من هذا البحث متضمنا فيما سوف يتضمنه الرد علـى منكـري النبوات والمعجزات عامة ونبوة محمد ومعجزاته خاصة . (2) إشارة إلى موقعة الجمل

المقارنة :

ولعل قائل يقول لعل موقف الصحابي سيختلف عند كونه نبيا عنه إذا كان صحابيا وأقول كلا. فالـصفات الذاتية لا ترتبط بالحدث فتتغير بتغيره وإن تأثرت به . وإلا عد ذلك تميعا فى الشخصية وتذبذبا ودربا مـن دروب النفاق المقيت ، وهو مالم يتصف به هؤلاء الصحابة الأجلاء فى أي مرحلة من مراحل حياتهم إن لم يكـن قبـل الإسلام فبعده ، فالأحداث والمواقف لم تصنعهم ولم تحدد مسلكهم . إنما المبادىء والقيم المتوطنة فى وجدانهم هى التى صنعتهم وهى التى أهلتهم لصحبة نبيه والتعلم منه والتأسى به وحمل لواء الدعوة من بعده ، ومن ثم طوعـوا الأحداث وفق شخصيتهم ، لأن تصرفات كلا منهم نبعت من ذاته ومن محتوى ضميره وخلجات قلبه وما كانت لتتغير بتغير الزمن أو المكان أو الأحداث أو المنصب ، يقول بن مسعود في بعض كلمة مأثورة عنه "ونظـر الله الى

أصحابه فوجدهم أطهر القلوب فاختارهم لصحبة نبيه "فعمر هو عمر ، أول إسلامه كأخره ، لم يتورع ولم يتردد عندما قال رسول الله صلى الله علي وسلم وهو فى سكرات موته " هلم كتابا لا تضلون به بعـدى " أن يقـول حسبنا كتاب الله " (1) ، وعندما كان يصارع المرض من ضربة قاتله لم يزد على أن قال " لو أن لي طلاع الأرض ذهبا لافتديت به اليوم من هول المطلع (2) وأبو بكر خير متبع لرسول الله لم يفرط فى تبعيته عقيب موته صلى الله عليه وسلم إلى أن مات ، وقال "والله لو منعوني عقالا كانوا يؤدونه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم لقاتلتهم على منعه " (3) وهذا هو المستوى الذي سما به رسول الله صلى الله عليه وسلم على مصاف البشر جميعا وأخصهم الصحابة ، وهذا هو المستوى الذي سموا هم به على غيرهم من البشر دون الأنبياء ، فتشرفوا بصحبته صـلى الله عليه وسلم وصدقوا ما عاهدوا الله عليه ، فقضوا نحبهم وما بدلوا تبديلا ، وندرك عندئذ الفارق الأدق بين محمد وصحابته ، فهو كان جدير بالنبوة لأن صفاته وأخلاقه هي التي أهلته لذلك ، وهم كانوا جديرين بالـصحبة لأن صفاتم وأخلاقهم هي التي أهلتهم لذلك ، هو كان جديرا بتلقي الوحي من الله تعالى ، وهم كانوا جديرين بتلقي القرآن وتعاليم السماء منه صلى الله عليه وسلم ، هو كان جديرا بالصلة المباشرة بالله تعالى ، وهم كانوا جديرين بالصلة به صلى الله عليه وسلم ، وبذا المعيار الأدق تكون التفرقة بينه صلى الله عليه وسلم وبين من هو دونه من البشر حتى وإن كانوا خير البشر سوى الأنبياء

----

(1) الرواية كما جاءت في صحيح مسلم 1637 عن عبيد الله بن عبد الله بن عتبة عن بن عباس قال ثم لما حضر رسول الله صلى الله عليه وسلم وفي البيت رجال فيهم عمر بن الخطاب فقال النبي صلى الله عليه وسلم هلم أكتب لكم كتابا لا تـضلون بعـده فقال عمر إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد غلب عليه الوجع وعندكم القرآن حسبنا كتاب الله فـاختلف أهـل البيـت فاختصموا فمنهم من يقول قربوا يكتب لكم رسول الله صلى الله عليه وسلم كتابا لن تضلوا بعده ومنهم من يقول ما قال عمر فلما أكثروا اللغو والاختلاف قال رسول الله صلى الله عليه وسلم قوموا قال عبيد الله فكان بن عباس يقول إن الرزية كل الرزية ما حال بين رسول الله صلى الله عليه وسلم وبين أن يكتب لهم ذلك الكتاب من اختلافهم ولغطهم

(2) بن حبان 6905 (3) صحيح مسلم 20

فلقد كان رسول الله مفطورا على الأخلاق الكريمة الكاملة المتكاملة منذ نعومة أظافره وباكورة عمره ، وظل على ذلك حتى شب وبلغ أشده إلى أن أكرمه الله واصطفاه بالنبوة ، فزانته النبوة وزانا وأكرمته وأكرمها وصانته وصانا ، بينما بلغ الصحابة الكرام ما بلغوا بتعاليم الإسلام وبتعاليم نبي الإسلام وبنور القرآن ونور سنة المـوحى إليه بالقرآن ، كان أكثرهم في ضلالة الكفر منغمس ولم يكن محمد كذلك ، فـساهم بـذلك في هدايتـهم إلى الإسلام والإيمان فصاروا هداة مهدين .. وكانوا في ظلمات الشرك تائهون ولم يكن محمد كذلك فأخرجهم مـن الظلام إلى النور فصاروا نجوما وقمرا منيرا ..وكانوا للأصنام يعبدون ولم يكن محمد كذلك فدلهم إلى المعبود الحق فعبدوه فصاروا خير من عبدوا وخير من اتقوا .. وكانوا في الجهل والجاهلية أمة ولم يكن محمد كذلك فعلمهـم وزكاهم فصاروا علماء الإسلام وحماته وسدنته .

وكانوا أقواما وقبائل وفرقا شتى لا تجمعهم حضارة ولا تميزهم قيم ولا يسوسهم قائد ، حال كان محمد بن عبد الله نسيجا منفردا وفردا متميزا وفكرا ساميا وقلبا سالما وعقلا منيرا ، فجمعهم ووحد كلمتهم وآخى بينهم وبدد عصبيتهم وآلان قلوبهم ونقى عقولهم وأكثرهم من قلة وأغناهم من عيلة ورفعهم من سفول وأعلى من شأنهم بين الأمم فحكموا العالم وقادوا الدنيا ودانت لهم الأرض .. ولولاه ما تحقق لهم ذلك ولظلوا في مجاهـل التـاريخ وغياهبه ، دينهم اللات والعزى ومناة وهبل ومعبودهم الحجر والصنم وشريعتهم الغاب ، وحاضرهم البدوي هو ماضيهم ومستقبلهم ، فلم يكن من الملائم إذن عقد ثمة مقارنة بين موقف لرسول الله صلى الله عليه وسلم وبين موقف لأحد صحابته دون النظر إلى اختلاف صفة وشخص كلا منهما ، كمن يقارن بين تصرفه صلى الله عليه وسلم في هجرته عندما هاجر سرا وتصرف عمر عندما هاجر جهرا بالصورة المعلومة لدى الجميع . والمقارنة بين هذين الموقفين أو المبدأ في حد ذاته ليس عيبا أو جهلا ، شريطة أن تعتمد على أسس موضوعية وشخصية متكاملة غير مجزئة ، بما يعنى أننا إذا أردنا أن نقارن بين موقف لنبي وموقف لصحابي مشابه له أو موقفين متشابهين لنبـيين أو لصحابيين ، فلا يصح أن نقارن بين هذين الموقفين كحدثين منفصلين عن شخصية صاحب كل موقف منهما ، ولكن نربط بين الشخصية والحدث ارتباطا لا يقبل التجزئة ولا يقبل الانفصال ، مع مراعاة عوامل الزمان والمكان والظروف التى أحاطت بالموقف محل المقارنة ، مثلما فاضل ابن القيم بين عائشة وفاطمة رضي الله عنهما فقـال" التفضيل بدون التفصيل لا يستقيم فإن أريد بالفضل كثرة الثواب عند الله عز وجل فذلك أمر لا يطلع عليـه إلا بالنص ؛ لأنه بحسب تفاضل أعمال القلوب لا بمجرد أعمال الجوارح وكم من عاملين أحدهما أكثر عملا بجوارحه والآخر أرفع درجة منه في الجنة ، وإن أريد بالتفضيل التفضيل بالعلم فلا ريب أن عائشة أعلم وأنفع للأمة وأدّت إلى الأمة من العلم ما لم يؤد غيرها واحتاج إليها خاص الأمة وعامتها وإن أريد بالتفضيل شرف الأصل وجلالـة النسب فلا ريب أن فاطمة أفضل فإنها بضعة من النبي صلى الله عليه وسلم وذلك اختصاص لم يشركها فيه لغـير أخواتها وإن أريد السيادة ففاطمة سيدة نساء العالمين أو الأمة ،

وإذا ثبتت وجوه التفضيل وموارد الفضل وأسبابه صار الكلام بعلم وعدل ، وأكثر الناس إذا تكلم في التفضيل لم يُفصل جهات الفضل ولم يوازن بينهما فيبخس الحق ،وإن انضاف إلى ذلك نوع تعصب وهوى لمن يفضله تكلم بالجهل والظلم (1) ومن ثم فإن المقارنة بين الطريقة التي هاجر بها رسول الله صلى الله عليه وسلم وتلك التي هاجر بها عمر بن الخطاب ينبغي معها الأخذ في الأعتبار هذا التفصيل وهذه العوامل وأهمهـا شخصية كلا منهما ، وإذ علمنا في بعض ما قدمنا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم منذ طفولته شخصية سوية خلقة وخلقا وعقـلا وفؤادا ، اجتمعت فيها كل خصال الخير كاملة غير منقوصة وانتفت عنها كل خصال الشر كاملة غير منقوصـة

وعلمنا أيضا فيما قدمنا أن الصحابة بما فيهم الأقطاب ومنهم عمر بن الخطاب تعلموا في هذه المدرسة المحمديـة كل شيء وكأنم كانوا لا يعرفون أي شيء فأن ذلك يكفي ويقدم بذاته دليلا على عدم جواز المقارنة البتـه ، ولست بذه المداخلة أعني الإجابة عن أوجه الاختلاف بين هجرة رسول الله صلى الله عليه وسلم و هجرة عمر رضي الله عنه بقدر مايعنيني المقام الكشف بذه المقارنة عن مدى القصور في الفهم الذي تناول بـه رسـول الله صلى الله عليه وسلم ، إذ الإجابة انسياق مع هؤلاء الذين اجتهدوا لإثبات أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يكن أقل شجاعة من عمر بن الخطاب عندما هاجر الأخير جهرا ، وهو اجتهاد غير محمود يكشف عـن مـدى البساطة التي لم نزل نتعامل با مع خير خلق الله تعالى على الإطلاق فلم نوفيها حقها ولم نرفع بعد من قدرها لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم بما نعرفه أو بما يجب أن نعرفه عنه أشجع وأعدل وأصوب من عمر بن الخطاب بما عرفناه ووعيناه عن عمر جيدا ، وهو كذلك أذكى من سلمان الفارسي عندما أشار عليه بحفر الخندق(1) ومـن الحباب بن المنذر عندما أشار عليه بالا ول قرب ماء بدر (2) وبالمثل جميع الصحابة وفي جميع المواقف . لذلك فإن القول بأن عمر بن الخطاب كان من آحاد الناس لذا هاجر جهرا . وكان رسول الله نبي ورسول وأمة في ذاته لذا هاجر سرا حفاظا على حياته من أجل النبوة قول صحيح ولكنه يدل على عدم دقة ، إذ لو كان الأمر كذلك لمـا اشترك رسول الله صلى الله عليه وسلم في أي غزوة من غزواته ، ولما قادها بنفسه خاصة قبـل نـزول الـوحي بالعصمة ، لكونه كان معرضا في هذا الوقت للقتل وهو المستهدف والمراد في كل المعارك التي خاضها المـشركون واليهود ضده ، ولكن الأمر أجل من ذلك وأعظم ، فسنة الله تعالى في كونه هي الأخذ بالأسـباب . حـتى إذا عجزت هذه الأسباب تـدخلت الإرادة الإلهيـة لإتمـام أمـره ومـراده الـذي يجـب حتمـا أن يكـون ،

----

(1) بدائع الفوائد " (3 / 682 ، 68) (2) القصة بتفسير القرطبي لسورة الأحزاب آية 8

(2) القصة بتفسير القرطبي لسورة الأنفال آية 11

لذا عمي المشركون عن رؤيته صلى الله عليه وسلم خارجا من داره تاركا علي خلفه على فراشه ، وعموا عنه أيضا و معه صديقه داخل الغار ، وساخت قدم فرس سراقة داخل الرمال ، فكانت هجرته صلى الله عليه وسـلم سرا من هذا المنطلق منطلق الأخذ بالأسباب تنفيذا لأمر الله تعالى ووحيه له بذلك ، ولست أدري لماذا اعتبر عمر رضي الله عنه شجاعا وهو فعلا كذلك عندما هاجر على هذا النحو خاصة وأن أحدا لم يضطره الى ذلك ؟ ولما لا يكون ذلك تورا واندفاعا أو توظيفا غير محمود العواقب للشجاعة ؟ وماذا لو كانت تكالبت عليه جنود الشر خلف الوادي الذي طلب أن يلقاه خلفه من أراد أن تثكله أمه ؟ لما عرف عمر ولما ذكر في التـاريخ كـأعظم

الصحابة وأجلهم ، وهو إما أن يكون رسول الله صلى الله عليه وسلم أمره بالهجرة سرا كسائر من هاجروا خاصة وأن في ذلك حفاظا على سرية الهجرة تحقيقا لأهدافها المرجوة ، فخالف أمره وهاجر جهرا وهذا محال قطعـا ، وإما أنه اختار وحده الهجرة بهذه الطريقة فهذا اختياره دون سائر الصحابة، ومنهم مـن هـو مثلـه في القـوة والشجاعة والمنعة والبأس إن لم يكن أشد كحمزة بن عبد المطلب ، بل إني اعتبر صهيب الرومي(1) وأبو سـلمة الأسدي(2) لا يقلان عنه شجاعة وقوة وإقداما حين ضحيا بأموالهما وأولادهما وأزواجهما في سبيل الهجرة

4- أبو بكر الصديق

فلم يبقى إذن إلا هو رضى الله عنه وقد أرجئتة إلى أخر لأني لم أجد فى جعبتي ما يحول بينه وبـين النبـوة إلا أمور سلختها عنوة وتحاملا من سيرته وقد بلغ من كماله رضي الله عنه أن ابن الدغنة سيد قومه لما رد إليه جواره بمكة وصفه بنظير ما وصفت به خديجة النبي صلى الله عليه وسلم لما بعث فتواردا فيهما على نعت واحد من غـير أن يتواطأ على ذلك " خرج أبو بكر رضي الله عنه مهاجرا قبل أرض الحبشة حتى إذا بلغ برك الغماد لقيـه ابـن الدغنة وهوسيد القارة فقال له أين تريد يا أبا بكر فقال أبو بكر أخرجني قومي فإريد أن أسيح في الأرض وأعبـد ربي فقال ابن الدغنة مثلك يا أبا بكر لا يخرج ولا يخرج إنك تكسب المعدوم وتصل الرحم وتحمل الكل وتقـري الضيف وتعين على نوائب الحق فأنا لك جار فارجع "(3)وهذه الأمور هي :

التعليم :- كان أبو بكر متعلما وهو واحد من السبعة عشر الذين عرفت بهم قريش تعلموا ودرسوا وأحـسنوا القراءة والكتابة وإن كان التعليم تميزا يرفع من قدر صاحبه إلا انه بالنسبة للنبوة أكبر موانعها .. فالأميـة هـي الشرط الأهم الذي حاج الله تعالى به كفار قريش ومشريكها ودمغهم بهذه الحجة ، فكان من العجب العجاب أن يأتم رجل أمي بمثل ما أتى .

---

(1) انظر قصته في مسند بن حبان 7082 (2) هو أول من هاجر انظر فتح الباري 3685

(3) مصنف عبد الرازق باب من هاجر إلى الحبشة 9743

الحدة :- عرف أبو بكر بأنه عصبي المزاج وقد ضربت بعض الأقاويل فى هذا الصدد من قبل . وقد ندم رضي الله عنه عندما غالبته حدته فى قذف الفجاءة بن إياس بن عبد ياليل في النار جزاء ما قدمت يداه من ردتـه وترويـع المسلمين (1) لأن القتل بالنار عقاب بغيض عند العرب عامة والصحابة بصفة خاصة . لذا غضب الصحابة علـى علي بن أبى طالب عندما أحرق أو هم بإحراق عبد الله بن سبأ (2) ، وضربت مثلا عندما غالبت الحـدة صـبره رضي الله عنه وأرضاه حتى غضب رسول الله صلى الله عليه وسلم وبان ذلك عليه عندما وقع فيه رجـل فـاذاه فصمت عنه حتى الثالثة فانتصر منه . وقال ربيعة الاسلمي جرى بيني وبين أبو بكر كلام فقال لى كلمة كرهتـها وندم "(3) وخبر أبو بكر مع فنحاص اليهودي معروف وفيه " دخل أبو بكر الصديق بيت المدراس علـى يهـود فوجد منهم ناسا كثيرا قد اجتمعوا إلى رجل منهم يقال له فنحاص وكان من علمائهم وأحبارهم ومعه حبر مـن

أحبارهم يقال له أشيع فقال أبو بكر لفنحاص ويحك يا فنحاص اتق الله وأسلم ، فوالله إنـك لـتعلم أن محمـدا لرسول الله قد جاءكم بالحق من عنده تجدونه مكتوبا عندكم في التوراة والإنجيل ، فقال فنحاص لأبي بكر والله يا أبا بكر ما بنا إلى الله من فقر وإنه إلينا لفقير ومـا نتضرع إليه كما يتضرع إلينا ، وإنا عنه لأغنياء وما هو عنـا بغني ولو كان عنا غنيا ما استقرضنا أموالنا ، كما يزعم صاحبكم ينهاكم عن الربا ويعطيناه ولو كان عنا غنيا ما أعطانا الربا . فغضب أبو بكر فضرب وجه فنحاص ضربا شديدا ، وقال والذي نفسي بيده لولا العهد الذي بيننا وبينكم لضربت رأسك ، أي عدو الله ، فذهب فنحاص إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال يا محمد انظر ما صـــنع بي صـــاحبك ، فقـــال رســـول الله صـــلى الله عليـــه وســـلم لأبي بكـــر ما حملك على ما صنعت ؟ فقال أبو بكر يا رســول الله إن عدو الله قال قولا عظيما ، إنه زعم أن الله فقير وأنم أغنياء فلما قال ذلك غضبت لله مما قال وضربت وجهـه ، ف ل قوله تعالى "(لَتُبْلَوُنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْـرَكُوا أَذىً كَثِيراً وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ) (4) ، (5)

والحدة على هذا النحو زادت أو قلت مانع عظيم الشأن بالنسبة للنبي الخاتم .

<u>الخلقة</u> : كان رضي الله عنه دقيق البنية ضعيف اللحم صغير التركيب وكان ناتئ الجبهة غائر العينين معروق الوجه نحيفا دقيق الساقين وقيل أنه كان أجنأ – أي منحني القامة – (6) وهى عيوب شكلية بالنسبة للنبي الخاتم المبعوث الى الناس كافة .بما كان سيكون معه مثارا للسخرية واستهزاء المشركين به . والـسلامة الـشكلية أو الاعتـدال الشكلي عامل مهم وشرط أساسي تحاشيا للسخرية بالنبى والاستهزاء به . لذا سخر بعض الصحابة من عبد الله بن مسعود عندما رأوا دقة قدمه فقال لهم رسول الله " إنه أثقل عند الله من جبل أحد " (7) .

----

(1) عبقرية الصديق للعقاد (2) مختلف الحديث لابن قتيبة ج أول ص73 (3) العبقرية للعقاد (4) آل عمـران 186

(5) انظر تفسير الطبري للآية الجزء الرابع (6) عبقرية الصديق للعقاد (7) تفسير ابن كثير ج2 مناقب عبد الله بن مسعود

الباب الثاني
الأخلاق

الفصل الأول

استقلالية رسول الله

القارئ للسيرة النبوية بقليل من الدقة والتأمل سيجد أن لرسول الله صلى الله عليه وسلم استقلالية في رؤيته للأمور وفي قراراته التي يتخذها وفي أقواله وفي أفعاله ، وهي استقلالية يتميز بها ويختلف عن غيره من البـشر سواء أولئك الذين عاصروه أو ممن جاءوا بعدهم أو من كانوا قبلهم أيضا ، فأما الذين عاصروه فهم الصحابة وهم خير البشر وأفضل خلق الله بعد الأنبياء باتفاق جميع العلماء وعلى ما أخبر به صلى الله عليه وسلم ودلت عليه الوقائع والحقائق ، ومن ذلك قوله عليه الصلاة والسلام في الحديث الذي أخرجه مسلم عن عمران بـن حصين " خير القرون قرني ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم " (1) .

ويقول بن القيم " صار السابقون الأولون من المهاجرين والأنصار أفضل خلق الله سوى الأنبيـاء وصـار أفضل الناس من بعدهم من اتبعهم بإحسان رضي الله عنهم إلى يوم القيامة من العرب والعجم " (2)

وأما الذين كانوا قبلهم فأقصد بهم أولئك الذين اتبعوا أنبيائهم وآمنوا بربهم ، إلا أن هـؤلاء لم يكونـوا لأنبيائهم ولدينهم كما كان الصحابة لله ولرسوله ، لذا كان الصحابة أفضل منهم ،

ويستثنى بطبيعة الحال من البشر محل كلامنا أهل الكفر والضلال في جميع العصور والدهور سواء من عندهم كتاب سماوي أو من لا يدينون بدين مطلقا أو غيرهم . وسواء قبل الإسلام أو بعده

" لأن دين الإسلام هو الناسخ ، وهو كالصلاة إلى الكعبة الناسخة للصلاة إلى بيت المقـدس فمـن تمـسك بالمنسوخ فليس على دين الأنبياء . لهذا كفرت اليهود والنصارى لأنهم تمسكوا بشرع منسوخ . والله أوجـب على جميع الخلق أن يؤمنوا بجميع كتبه ورسله ومحمد الخاتم . لذا على جميع الخلق اتباعه " (3)

ومن ثم ينفرد صلى الله عليه وسلم بهذه الاستقلالية الفذة دون البشر جميعا أولهـم وآخـرهم .. وهـي استقلالية متميزة لا تنم عن شخصية ديكتاتورية ترى فى رأيها الصواب وإن اتخذت الشورى مبدأ لها ، ولا عن شخصية أنانية تعتز برأيها وتعشقـه . إنما مردها انفراده صلى الله عليه وسلم فى الخلق والاسـتواء الفطـري والعقلي والقلبي ، لذا كان ما يراه لم يكن يراه غيره ، وما كان يقرره لم يكن يقرره غيره ، وما وقر فى قلبـه واحتواه ضميره ما وقر فى قلب غيره أو ضميره . فما هي مظاهر هذه الاستقلالية وما هي أسبابها ؟

وللإجابة على هذا السؤال نفرق بين مرحلتين . ما قبل البعثة وما بعدها

----

(1) صحيح مسلم 2535 باب فضل الصحابة (2) فصل في فضل العرب لابن القيم

(3)مجموعة الفتاوى لابن تيميه الجزء الخامس والثلاثون

مرحلة ما قبل البعثة ، الصدق والأمانة :

اجمعت كتب السيرة والتاريخ على جميع المستويات . أن محمد بن عبد الله كان دمث الخلق مشهود له بطهـارة القلب ورجحان العقل ، ووصف بين الناس فى هذه المرحلـة بالصادق الأمين ، وهما خلتان تجمعان كل صفات الخير وتنفيان كل صفات الشر ، فالصادق لا يكذب ولا يغتاب ولا يمشى بين الناس بالنميمة ولا يقول فحـشا ولا يسب ولا يشتم ولا يحسد ولا يبغض ولا يحقد ...الخ ، وينفى الصدق عنه النفاق والرياء والوصولية والانتهازيـة

والأنانية والتدخل فيما لا يعنيه والغضب والتهور والمراء والجدل والثرثرة والتملق والهجاء والشعر والكهانة والدجل والسحر والشعوذة والتنبؤ ...الخ ، والأمين لا يغدر ولا يخون ولا يسرق ولا يرتشي ولا يرشي ولا يأكل سحتا ولا يتعامل بالربا ولا يطمع إلى ما عند غيره ولا يتجسس ولا يتحسس ولايتصنت لأن كل خلة من هذه الخلال تتعارض مع الأمانة ...الخ ، وهو مع كل تـ هه عن هذه المنهيات كان لابد أن يتحلى بكل الصفات الحميـدة . فالـصادق شجاع ونبيل وذو مروءة ، والمروءة صفة لا تنفك عن الصدق لمساعدة المحتاج ومد يد العون له ، والصادق عـف اللسان لا تخرج من شفتيه كلمات الفحش والسوء ، والصادق صبور لأن قائل الحق لابد أن يكون صبورا وقـورا رزينا متزنا ذا جلد دقيقا في أقواله دقيقا في أفعاله ... الخ والصادق يكون بارا بمن حوله واصلا لرحمه رحيما بمن هو دونه مجلا لمن يكبره .. ونتذكر هنا قوله صلى الله عليه وسلم فى جزء من حديثه الذي قال فيه : " الصدق يهدى الى البر ، والكذب يهدى الى الفجور " (1) فإذا كان الفجور هو أعلى درجات الفسق والرذيلة ، حيث لا يتورع المرء عنده من ارتكاب كافة المحرمات وإن اجتنب بعض الكبائر العظام كالسحر والقتل والشرك بل لعل الفجور الـذي منشأه الكذب يقوده إليها ، فأن الصدق على العكس من ذلك تماما يهدى إلى البر الذي هو أعلى درجات الـورع والعفة والخلق الحسن ، والأمين نزيه العين والسمع وسائر الجوارح ، لأن الأمانة لا تقتصر على المال وإنمـا تـشمل العرض والشرف ، فلا تنظر عينه الى مالا يحل له ولا يتسمع مالا ينبغي سماعه. فإذا كان أمينا في سمعه وفى بـصره ويأتمنه الناس على أموالهم وأعراضهم فهو إذن لا يزنى ولايهتك عرضا بأدنى درجات هاتين الفاحشتين أو أعلاهما ، وهو يتمتع بالحياء كله ويدرأ عن نفسه الشبهات كلها . والصادق الأمين متواضعا يمشى بين الناس الهوينى بغير كبر أو غرور أو اختيال ، إذا دعي أجاب وإذا أهدى قبل وإذا سئل أعطى وإذا وعد أوفى وإذا عمل أتقن .

كل هذا وغيره هو الذي جعل السيدة خديجة بنت خويلد التي كانت تسمى بالطاهرة فى الجاهلية والإسلام تـسعى الى الزواج منه وقد خطبها قبله كثير من العظماء فرفضت وكانت معروفة بالحزم والجد وفعل الخير وهـى أوسـط قريش نسبا وأكثرهم مالا ، فاسمع إليها وهى تخطب محمد فتقول له : " يا بن عم إني رغبت فيك لقرابتك وسطتك فى قومك وأمانتك وحسن خلقك وصدق حديثك " وتصفه فى موضع أخر عندما أخبرها بـ ول الوحي عليه فتقول " إنك لتصل الرحم وتصدق الحديث وتحمل الكل وتقري الضيف وتعين على نوائب الدهر " (2)

---

(1) صحيح البخاري 5743 (2) صحيح البخاري باب بدء الوحي 4670

ويقول أبو طالب عندما طلب يدها من أعمامها بنو أسد يقول " ثم إن بن أخي محمد بن عبد الله من لا يوزن برجل إلا رجح به شرفا ونبلا وفضلا وعقلا ، فإن كان فى المال قل فإن المال ظل زائل وأمر حائل وعارية مسترجعة ، ومحمد من قد عرفتم " ، فيرد عليه ورقة بن نوفل بن أسد " نحن سادة العرب وقادتنا وأنتم أهل ذلك لاتنكـر العشيرة فضلكم ولايرد شرفكم "(1) ويقول له أبو جهل فى أول بعثته صلى الله عليه وسلم تأثرا بما علمه عنه قبـل البعثه " اذهب أبا القاسم فما كنت جهولا " (2)، ويقول للمغيرة بن شعبة في واقعة أخرى : " إني لأعلـم أن مـا

يقوله حق "(4).. ويتحير الوليد بن المغيرة فى نسبة نقيصة له فينفى عنه الكهانة والشعر والكذب فلـم يجـد إلا أن يرضي غرور قومه فيقول " ساحر "(3)، ويتمنى أبو سفيان أن ينسب إليه زلة في مواجهة عظيم الروم فلم يجـد (4) ويسمع أمية بن خلف أن رسول الله قاتله فيصيبه الهلع ويرتعد ويمكث فى بيته خائفا لا من بطش محمد بـه وترقبـه لقتله ولكن لعلمه أنه صلى الله عليه وسلم لا يكذب وأنه إن قال صدق ولابد أنه مادام قال أنه سيقتله فهو قاتلـه . وما أسرع الإيمان بأبو بكر وتصديقه لرسول الله إلا من علمه بصدقه المطلق قبل نبوته . ورجل بكل هذه الـصفات لابد أن يكون راجح العقل قوى الحجة سريع البديهة فطن ذكي لبيب ، وإلا ما ارتضى سادة قريش وكبرائهـا أن يكون لهم حكما عند اختلافـهم على وضع الحجر الأسود وقد أثبت رجحان عقله وذكائه في هـذه الواقعـة(5 وحسم بذلك جدلا ونقاشا ربما لم تكن لتحمد عواقبه لو تطور دون هذا الحل الذي وفقه الله تعالى إليه ، الأمر الذي نقطع به أن محمد بن عبد الله كان مستقلا فى سماته الخلقية فى هذه المرحلة ، وحسبنا في هذه المرحلة قوله صـلى الله عليه وسلم " ما هممت بقبيح مما كان أهل الجاهلية يهمون به إلا مرتين من الدهر ،كلتاهما يعصمني الله منهما " (6)

عوامل استقلالية هذه المرحلة .

استمد محمد هذه الاستقلالية قبل البعثة من فطرته الخلقية التي جبل عليها وبعض من عوامل البيئة والوراثة وأمور ينفرد هو ذاته بها ، فمن المعروف أن الإنسان يولد على الفطرة كما قال رسول الله صلى الله عليه وسـلم " يولـد الإنسان على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه .." (7) والفطرة هنا هي ما جبل عليه الإنسان من حب الخير وبغض الشر ، وهى الخلقة التي يكون عليها كل مولود أول خلقه وهى الطبيعة السليمة التي لم تشب بعيب ، وفى اصطلاح الفلاسفة هي الاستعداد لإصابة الحكم والتمييز بين الحق والباطل .. وقد يصطدم الإنسان فى مراحل حياتـه الأولى بواقع يضاد هذه الفطرة ، فيقوى عنده نازع الشر ويفتر نازع الخير أو العكس ، وهـو المعبر عنه بالبيئة التي تـؤثر تأثيرا سلبيا أو إيجابيا فعالا ، بالإضافة إلى عامل الوراثة ، ثم إذا بلغ أهليته وأشده كان بالخيار والقوة ما يستطيع بـه أن يحول بينه وبين تأثير هذه العوامل فيه ، إلا أن إرادة الإنسان لم تـزل ضعيفة في هذه الفترة تقوى مـع مـرور السنون والأعوام واكتساب الخبرات .

----

(1) السيرة الهشامية (3)2 نفس المصدر (3)بن حبان 6567 (4) حياة الصحابة الكاندهلوي جزء أول

(5) صحيح البخاري 6 بدء الوحي (7) انظر الأحاديث المختارة للمقدسي 439

(6) رواه ابن الأثير ورواه الحاكم عن علي ابن أبي طالب ورواه الطبراني من حديث عمار بن ياسر (7) مسلم 2658

الفطرة والطفولة

فبالنسبة لرسول الله فقد كانت فطرته بالغة السلامة والاستواء ، فلم يرو أي أثر أو خـبر عن طفولته صلى الله عليه وسلم يكشف عن أنها كانت غير سوية في تصرفاتها أو أحوالها ، بل روي أنه كان يتسم بالجد والرزانة في هذه المرحلـة حتى أنه سافر صبيا في تجارة جده عبد المطلب ، وروي أنه كان يجلس مع كبار القوم في مجالسهم ،وكانـت عنايـة الله تعالى له في هذه الفترة عناية توفيق ، عناية مشيئة إلهية تريد بهذا المعتنى به مرادا لابد أن يتحقق ، عناية علم بصلاحية هذا

الإنسان لما يريده الله تعالى منه ، وبالجملة عناية تدخل إلهي مباشر يحول بين أي عارض يمكن أن يحول بـين مـشيئة الله وعلمه وبين مراده الذي سيكون ولابد أن يكون ، يقول محمد بن إسحاق: شبّ رسول الله صلى الله عليه وسلم يكلؤه الله ويحفظه ويحوطه من أدناس الجاهلية ، لما يريد من كرامته ورسالته ، وكان صلى الله عليه وسلم يحدّث عما كـان الله يحفظه به في صغره من أمر الجاهلية ، فيروى البخاري ومسلم " لما شب صلى الله عليه وسلم وُبنيت الكعبة، ذهب رسول الله صلى الله عليه وسلم ينقل الحجارة مع أشراف قريش لبنائها فقال العباس لرسول الله صلى الله عليه وسـلم: اجعـل إزارك على عاتقك من الحجارة ففعل فخرّ إلى الأرض وطمحت عيناه إلى السماء ثم قام فقال إزاري فـشد عليـه إزاره وقال " إني ُنهيت أن أمشي عُريانا "(1) وكان صلى الله عليه وسلم قول أيضا " ما هممت بشيء مما يهم به أهل الجاهلية إلا مرتين عصمني الله فيهما قلت ليلة لفتىً من قريش أبصر لي غنمي حتى أسمر هذه الليلة بمكة كما تسمر الفتيان قـال: نعم قال فدخلت حتى جئت أول دار من دور مكة، فسمعت غناءً وعزفاً وصوت دفوف ومزامير، فقلت: مـا هـذا ؟ فقالوا: فلان تزوج فلانة فجلست لذلك، فضرب الله على أذني فنمت، فما أيقظني إلا مـسُّ الـشمس، فرجعـت إلى صاحبيثم فعلت ليلة أخرى مثل ذلك، فنمت فو الله ما هممت بعدهما بشيء من ذلك حتى أكرمني الله " (2) قال ذلـك وهو صبى لم يبلغ بعد الحلم ولم يبلغ أشده ، ولكنه أدرك وهو فى هذه السن الباكرة أن ما هم به ذنب ، ومـا هـو في عرف غيره من الصغار والكبار على السواء بذنب ، أدرك أن هذا النعاس الذي ألم به أمر ذي بال فاستلهم منه الحقيقـة فعمل با ولها ولم يهم بعدها بإثم ، " وعاش صلى الله عليه وسلم طفولته ولم يكن له مؤدب ظاهر يعتني بتـثقيفه ، أو مربّ معروف يتولى تذيبه ، إلا سلامة الفطرة ، وسموّ الغريزة ، وطهارة القلب ولم يكن صلى الله عليه وسلم في نـشأته جارياً على المألوف في الصبيان ، من تأثر عقولهم ونفوسهم بما يرون ويسمعون ويحسون في بيئتهم ، فنشأ على أكمل ما تتحلـى بـه النفـوس مـن جميـل الـصفات، وحميـد الخـصال،"(3)

----

(1) ذكره بن حجر في فتح الباري تحت عنوان كراهية التعري في الصلاة (2) ذكره الذهبي والسيوطي وقال الحاكم صحيح على شرط مسلم وضعفه الألباني (3) أعلام النبوة الماوردي

البيئة والوراثة .

يقول العقاد فى عبقريته " قبيلة في تلك الأمة لها شعبتان .. الثانية من أصحاب التقوى والسماحة والتوسط بين مقـام القوي الذي يجور ويطغى ومقام الضعيف الذي يحتمل الأذى فيصبر وبيت من تلك الشعبة الوسطى له كـرم النـسب العريق وليس له لؤم الثروة الجامحة والكبرياء الجانحة والقسوة ذاكم هو بيت عبد المطلب ورأس هذا البيت هو عبد المطلب رجل قوى الخلق قوى الإيمان . "(1) فكانت هذه البيئة بذا الوصف هي البيئة التي نبت فيها محمد وترعرع بين ربوعها

وورث رسول الله صلى الله عليه وسلم عن أبيه نزولا إلي سالف أجداده عظيم الصفات وجليلها وهو القائل عن نفسه في صحيح مسلم عن أبي عمار شداد أنه سمع واثلة بن الأسقع " إن الله اصطفى كنانة من ولد إسماعيل واصطفى قريشا من كنانة واصطفى من قريش بني هاشم واصطفاني من بني هاشم (2) وقال من حديث بن عباس رضى الله عنه "لم يزل الله عز وجل ينقلني من الأصلاب الطيبة إلى الأرحام الطاهرة صفيا مهذبا لا تتشعب شعبتان إلا كنت خيرهما(3)

" فنسبه صلى الله عليه وسلم أشرف الأنساب ، وسببه إلى الله سبحانه باصطفائه إياه واختياره له أفضل الأسباب، وبيته فى قريش أوسط بيوتا الحرمية، وأعرق معادنا الكرمية ، لم تخل قط مكة من سيد منهم أو سادات، يكونون خير جيلهم ورؤساء قبيلهم، حتى إذا درجوا سما قسماؤهم فى المد الصميم، وشركاؤهم فى النسب الكريم إلى ذلك المقام ، فعرجوا فصحبوا على ذلك الزمان . لواؤهم على من ناوأهم منصور، وسؤدد البطحاء عليهم مقصور، والعيون إليهم أية سلكوا صور ، ثم أتى الوادى فطم على القرى ، وشد الله أركان مجدهم العريق العتيق بهذا النبى الأمى ، فاحتازوا المد عن آخره ، وفازوا من شرف الدين والدنيا بما تعجز ألسنة البلغاء عن أدنى مفاخره." (4)

" فهذا هاشم بن عبد مناف المسمى بذلك لكرمه المفرط ويده التي لم تنكر ، فقيل هشم الثريد وأطعم الناس فسمى هاشما ، وهو الذي جمع كل قريش على رحلتين في الشتاء إلى اليمن وفي الصيف إلى الشام للتجارة ، وكان يقسم ربح الغني بينه وبين الفقير حتى صار فقيرهم كغنيهم ، فجاء الإسلام وبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم وهم على هذا فلم يكن في العرب بنو أب أكثر مالا ولا أعز من قريش . وهذا عبد المطلب أجل قومه قدرا وأعظمهم خطرا وأعلاهم نسبا وأكرمهم حسبا وكان يعرف فيه هيبة الملك. وعنه قال الزبير : " ومكارم عبد المطلب أكثر من أن أحيط بها " ، كان سيد قريش غير مدافع نفسًا وأبا وبيتًا وجمالاً وبهاءً وفعالاً وكمالاً ، فصلى الله على المنتخب من ذريته ، المخصوص بأولية الفخر وآخريته ، وعلى آله الأكرمين وعترته وسلم تسليمًا " . وأبوه – عبد الله- "بضعة من عالم الغيب أرسلت الى هذه الدنيا لتعقب فيها نبيا دون أن تراه إنسان من طينة الشهداء يتجه إليه القلب الإنساني بكل ما فيه من حب وحنو ورحمة .وأحبه قومه وعظم خطره فيهم (4) ويقول عنه الزبير أيضا " كان عبد الله أحسن رجل رئى فى قريش قط " (5)

----

(4) عبقرية محمد (2) صحيح مسلم 2276 وبن حبان 6242

(3) زاد الميعاد وسيرة بن إسحاق (4) الاكتفا في المغازي (5) عبقرية محمد

معدنه

ولكن لم تكن تكفي هذه العوامل لتمييز استقلاليته صلى الله عليه وسلم إذ كلها عوامل قد يشترك معه فيها غيره ليبقى عامل آخر يخصه هو وحده ، هذا العامل هو المعدن المتوطن فى وجدانه صلى الله عليه وسلم هو اليقين الساكن فى فؤاده والنور الذي توهج فى أعماقه ، الذي جعله يميز الخبيث من الطيب والقبيح من الحسن والباطل من الحق ،

فيتمسك بالطيب والحسن والحق ويعمل بم ويتخذهم سبيله ، دون أن يأمره بذلك دين أو عقيدة ودون أن يحضه على ذلك إنسان ، فلم يله مع اللاهين ولم يسفه مع السافهين أو يخوض مع الخائضين ، لم يجار الصبية والشباب فى لهـوهم وعبثهم لما وجد فى ذلك حمقا وجهالة ، ولم يعاقر خمرا أو ميسرا لما وجد فيهما دنية ومذلة ، ولم يسجد لأصنام قومه ولم يحلف باللات والعزى لما وجدها أصنام لا تضر ولا تنفع ، عمل برعي الغنم ولم يزل صغيرا ، اشـترك في حلـف الفضول ولم يزل شابا يافعا ، سافر للتجارة وسنه اثنا عشر عاما . كان على دين الحُمس ، وكان يتحنث وحده فى غار يقضي في الليالي ذوات العدد يختلي فيه متأملا سائلا باحثا عن الحقيقة . وهكذا وصفته كتب السيرة فى مرحلة حياته قبل البعثة فقالت : " كان أفضل قومه مرءوة وأحسنهم خلقا وأعزهم جوارا وأعظمهم حلما وأصدقهم حديثا وألينهم عريكة وأعظمهم نفسا وأكرمهم خيرا وأبرهم محلا وأوفاهم عهدا وآمنهم أمانة وأوصلهم رحمـا وأشـدهم تواضـعا وأنقاهم سريرة . وكان أسلم الناس قلبا وأطهرهم ثوبا وأزكاهم عقلا .

ويصفه بن تيمية فيقول " كان رسول الله صلى الله عليه وسلم من أكمل الناس تربية ونـشأة ، لم يـزل معروفـا بالصدق والبر ومكارم الأخلاق والعدل وترك الفواحش ، والظلم وكل وصف مذموم ، مشهودا له بذلك عند جميـع من يعرفه قبل النبوة ، ومن آمن به ومن كفر بعد النبوة، ولا يعرف له شيء يعاب به؛ لا في أقواله ولا في أفعاله ولا في أخلاقه ولاجرت عليه كذبة قط، ولا ظلم ولا فاحشة. " وبذا المعدن اهتدى صلى الله عليه وسلم إلى الحقيقة ولكنه لم يكن يدري كنهها ولم يدري الطريق إليها ، فذلك قوله تعالى (وَوَجَدَكَ ضَالاً فَهَدَى) (1) شأنه في ذلك شأن من سموا بالحنفاء في عهده إلا أنه كان يفرق عنهم في أميته التي حالت بينه وبين العلم والتعلم فلم يقرأ كتابا ولم يطلع على عهد قديم أو جديد ولم يعرف زبورا أو مزمورا ولم يتخلف إلى أحد ينهل من علمه ، إلا أن ذلك لم يفتر من إرادة الخـير لديه فظلت تقوى حتى صارت إرادة مطلقة في حد الإطلاق والقدرات البشرية لا تعرف شرا ولا تعرف منكرا ، فكان باعث الخير لديه ينبع من داخله ومن جوهره دون تعلم ودون وحي .

----

(1) الضحى: 7

الوحي

الوحي وسيلة إلى غاية

ينقسم الوحي الى قسمين : القسم الأول وحي للمخلوقات جميعا بما فيهم البشر ويدخل في هؤلاء البشر الأنبياء ولكن قبل بعثتهم ، والقسم الثاني : الوحي المتعلق بالرسالة والرسل وهذا القسم سبق الحديث عنه في الخصائص النبوية المحمدية . أما بالنسبة للقسم الأول فقد عرفه بعض العلماء بالإلهام الإلهي وعرفه البعض الأخر بالإعلام بخفاء إلا أن كلاهما جعل هذين التعريفين قسما واحدا وخلطهما بوحي الرسل ، بينما انفرد بن خلدون بتعريف خاص به أرى أنه مستمد من غير دليل شرعي أو عقلي ألا وهو أن الوحي " انسلاخ الأنبياء من البشرية جملة جسمانيتها وروحانيتها إلى الملائكة من الأفق الأعلى ليصير النبي في لمحة من اللمحات ملكاً بالفعل "(1)

وللمزيد يمكن القول أن الوحي هو أحد الوسائل التي يستخدمها الله سبحانه وتعالى لتحقيق مرادا له ينبغى أن يكون أخذا بسننه جلا وعلا فى الأخذ بالأسباب . وذلك بأمر مباشر منه للموحى إليه يُجبر خلاله على تنفيذ هذا الأمر بإرادته أو بغير إرادته ، وهذا الوحي لجميع مخلوقاته سبحانه وتعالى ، وللبشر أيضا بما فيهم الأنبياء ولكن قبل أن يبعث إليهم لكونهم حينئذ من سائر البشر ، أما بعد تكليفهم بالرسالة أو النبوة فيصير الوحي إليهم وحي من نوع خاص يختلف عن الوحي محل هذا القسم ، ويستثنى من هذه المخلوقات التي يوحي إليها الله تعالى المشركين والشياطين . إذ لم يثبت وحي الله تعالى للشياطين إنما ثبت أنهم يوحي بعضهم إلي بعض ويوحون هم إلي أوليائهم ، قال تعالى (وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَى أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ)(2) ، وقال (وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوّاً شَيَاطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُوراً وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ) (3)، كما لم يثبت فى الكتاب والسنة وفى الكتب السماوية السالفة أو على ما يستدل به من أي مصدر من المصادر وحيه سبحانه وتعالى للمشركين في أي عهد من العهود البائدة أو المتقدمة ، إذ لا يستخدمهم تجلت قدرته فى تحقيق مراده ، إنما يوحي إلى الصالحين والأتقياء والأولياء بوصفهم الأجدر والأحق بذا التلقي وبتحقيق هذا المراد الذي يبتغيه الله .

فأوحى الله الى السماوات فقال (فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَى فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا) (4) وأوحى الى الارض فقال (يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَى لَهَا) (5) وأوحى الى الملائكة فقال (إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا (6)وأوحى الى النحل فقال (وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتاً)(7)

وأوحى الى أم موسى فقال (وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى أَنْ أَرْضِعِيهِ) (8) وأوحى الى يوسف طفلا فقال (وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُمْ بِأَمْرِهِمْ هَذَا وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ) (9)وأوحى الى الحواريين (وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ أَنْ آمِنُوا بِي وَبِرَسُولِي)(10)

---

(1) تاريخ بن خلدون الجزء الأول (2) الأنعام من الآية 121 (3) الأنعام 11 (4) فصلت من الآية 12 (5) الزلزلة 4 ، 5
(6) الأنفال 12 (7) النحل من الآية 68 (8) القصص من الآية 7 (9) يوسف 15 (10) المائدة111

وتلمح من هذه الآيات أن لكل وحي غاية وهدف .

فالوحي إلى السماء مثلا كان جزء من الخلق وتدبير الله لكونه إذ أمر الله كل سماء بما ينبغى أن يكون فيها من ملائكة ونجوم وشموس وكواكب وأقمار ونيازك وشهب وغيره . قال تعالى (ثُم اسْتَوَى إِلَى السمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ فَقَضَاهُن سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَى فِي كُل سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَزَينا السمَاءَ الدنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظاً ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ) (1)

ووحيه إلى الأرض إيذانا بيوم القيامة لتخرج ما فى بطنها من أجداث وجيف .

ووحيه إلى الملائكة فى الآية المشار إليها لتثبيت الذين أمنوا .. يقول تعالى (إِذْ يُوحِي رَبكَ إِلَى الْمَلائِكَةِ أَني مَعَكُمْ فَثَبتُوا الذِينَ آمَنُوا سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الذِينَ كَفَرُوا الرعْبَ فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُل بَنَانٍ) (2) وذلك بمناسبة موقعة الأحزاب

ووحيه إلى النحل بأن تتخذ من الجبال بيوتا ومن الشجر والعروش بقصد الاستفادة بأكبر عدد ممكن من البيئات المختلفة وبما فيها من متنوع النباتات حتى تنوع ذلك الشراب المختلف الألوان الذي يخرج من بطونا فيه شفاء للناس ، بخلاف العديد من الحشرات بصفة خاصة والحيوانات بصفة عامة التي حدد الله بيئة لها لا تستطيع الخروج عنها وإلا هلكت ، كما تلتقط الشغالات مادة صمغية من أماكن محددة من الأشجار ثم تضع الصمغ فى الشقوق والثقوب الموجودة فى بيوت النحل لمنع تسرب الحشرات إليها(3)

ووحيه إلى أم موسى عليه السلام لتلقه باليم فيلتقطه عدوه فيربى في قصره ويترعرع فى رعايته فينجو من الذبح والقتل الذي أعمله فرعون فى الأطفال ، قال تعالى (إِذْ أَوْحَيْنَا إِلَى أُمكَ مَا يُوحَى أَنِ اقْذِفِيهِ فِي التابُوتِ فَاقْذِفِيهِ فِي الْيَم فَلْيُلْقِهِ الْيَم بِالساحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُو لِي وَعَدُو لَهُ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبةً مِني وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي) (4) ، ووحيه إلى يوسف عليه السلام طفلا لينبئنهم بأمرهم الذي فعلوه بإلقائه في غيابت الجب كعلامة من علامات النبوة ، فقال تعالى (قَالُوا أَإِنكَ لَأَنتَ يُوسُفُ قَالَ أَنَا يُوسُفُ وَهَذَا أَخِي قَدْ مَن اللهُ عَلَيْنَا إِنهُ مَنْ يَتقِ وَيَصْبِرْ فَإِن اللهَ لا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ) (5) ، ووحيه تعالى للحواريين ليؤمنوا بعيسى عليه السلام ويساهموا فى نشر دعوته بعد رفعه الى السماء ، وهو ما يفهم منه أن الوحي أمر الهي مباشر لتحقيق مرادا له سبحانه وتعالى لابد أن يتحقق وليس بوسع أي مخلوق - وأقصد قطعا الأنس أو الجن لأن ما سواهما مفطور على الطاعة والانقياد - أن يحول دون ذلك

----

(1) فصلت 11، 12 (2) الأنفال 12

(3) جريدة الأهرام الإشارات الكونية للقرآن د/ زغلول النجار العدد الخاص بآية النحل المشار إليها نقلا عن عالم متخصص .

(4)طه 38، 39 (5) يوسف 90

بعض الحكمة من بعض الأحداث

ومن هنا يمكن أن ندرك بعض الحكمة والمعنى من بعض الأحداث والمعجزات التي حدثت فى قرون خلت،ومن ذلك على سبيل المثال :-

1-عندما أراد قوم إبراهيم عليه السلام أن يحرقوه ، أوحى الله تعالى إلي النار وأمرها أن تكن بردا وسلاما عليه فقال (قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْداً وَسَلاماً عَلَى إِبْرَاهِيمَ) (1) لماذا لأن دوره كنبي ورسول ومن نسله سيكون سلالة من الأنبياء لم ينقضي بعد ، فكان لابد من تدخل إلهي مباشر لوقف هذه المحرقة ، وكان الوحي والأمر الإلهي المباشر للنار هو أنسب الطرق ، فلم تكن الأمطار مثلا تجدي إذ أنا لن تحول بينهم وبين إعادة الكرة أو استخدام وسيلة أخرى لقتله

2- وأيضا كما فعل الله تعالى عندما أنقذ عيسى عليه السلام من القتل والصلب فرفعه إليه مباشرة فقال (وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِنْ شُبِّهَ لَهُم)(2) ،وذلك ليكذب الأسطورة الزائفة التي قامت عليها الديانة المسيحية المعاصرة بإلوهية المسيح عليه السلام والتي تعتمد على أن المسيح نور من نور وإله من إله نزل من السماء وتجسد ثم خرج فى صورة بشرية ليفدي ذرية آدم المأسورين بحكم الموت الأبدي ليحول موتم لحياة أبدية فى سماء رب البشرية (3) فيصفع ويقتل ويصلب ثم يدفن ثم يقوم ، بينما أعمل بنى إسرائيل القتل في جلة أنبيائهم ورسلهم ، قال تعالى (قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنْبِيَاءَ اللهِ مِنْ قَبْلُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ)(4) فهل فضل الله إبراهيم وعيسى على كثير من أنبياء بنى إسرائيل فأنقذهما من القتل وترك الآخرون ؟ كلا وحاشاه ذلك سبحانه وتعالى ، إنما هي أدوار ومهام ، وأهداف وغايات ، فإذا انتهى دور النبي وتحققت الغاية من بعثته وحان أجله ومنيته قضي هذا الأجل أيا كانت وسيلته بالموت أو القتل ، حتى ولو كان محمد خاتم الأنبياء والرسل وخير البشر كلهم ،فذلك قوله تعالى (وَمَا مُحَمَّدٌ إِلا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ (5) بما يعنى إمكانية موته عليه الصلاة والسلام وموت غيره من الأنبياء بالقتل .

3-وكذلك أوحى الله تعالى إلى حوت يونس عليه السلام ألا يأكله رغم أنه مكث فى بطنه ثلاثة أيام أو أكثر من ذلك حسبما اختلف العلماء (6) لأن دوره كنبي لم يكن انقضى وكان لزاما أن يستكمل رسالته فقال تعالى (فَلَوْلا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ) (7) وعن عبد الله بن رافع مولى أم سلمة قال : سمعت أبا هريرة يقول " قال رسول الله صلى الله عليه وسلم "لما أراد الله حبس يونس في بطن الحوت أوحى الله إلى الحوت أن أخذه ولا تخدش له لحماً ولا تكسر له عظماً " (8)

---

(1) الأنبياء 69 (2) النساء 157 (3) أدلة وبراهين على ألوهية المسيح لفكتوريا إبراهيم حنا نشر حديثا

(4) البقرة من الآية 91 (5) آل عمران من 144الآية (6) قال بن كثير في قصص الأنبياء في قصة يونس عليه السلام اختلف العلماء في مقدار لبثه في بطنه ، فقال مجاهد عن الشعبي : التقمه ضحى ولفظه عشية ، وقال قتادة : فمكث فيه ثلاثاً ، وقال جعفر الصادق : سبعة أيام وقال سعيد بن أبي الحسن وأبو مالك : مكث في جوفة أربعين يوماً، (7) الصافات 143 وما بعدها (8) رواه ابن جرير في تفسيره والبزار في مسنده من حديث محمد بن إسحاق وكذا قال به بن كثير في قصص الأنبياء من قصة يونس عليه السلام

4 -وعلى نفس هذا النمط من التفكير أقول أوحى الله تعالى إلى الهدهد أن يطوي الأرض حتى يقع على قوم يعبدون الشمس من دون الله فيأتي سليمان عليه السلام الذي وهبه الله ملكا ما وهبه أحد بعده من العالمين فيحطه بما لم يحط به علما فيقضى الله أمرا كان مفعولا فيدخلوا فى دين نبي الله سليمان الإسلام ،قال تعالى (وَتَفَقَدَ الطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِيَ لا أَرَى الْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ لأُعَذِّبَنَّهُ عَذَاباً شَدِيداً أَوْ لأَذْبَحَنَّهُ أَوْ لَيَأْتِيَنِي بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطْتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ وَجِئْتُكَ مِنْ سَبَأٍ بِنَبَأٍ يَقِينٍ ...الآيات)(1) وليعرف الإنسان أن مخلوقات أخر سواه توحد الله وتعبده .

5- وأوحى الله تعالى إلى فيل أبرهة أن يبرك ولا يقترب من الكعبة ليهدمها لأن دورها المعدة له لم يأتي بعد ، فأي قوة تلك التي تمنع هذا الدور الذي أعده الله ، فلما لم يعي أبرهة الدرس تطور التدخل الإلهي بصورة أكبر بإرسال الطير الأبابيل ، قال تعالى أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ) (2)

مثلما أوحى الله لناقة رسول الله ألا تدخل مكة عام الحديبية لأنه العام الذي لم يؤذن فيه بفتح مكة فبركت ، وقال الصحابة وقتها خلأت القصواء (3) فقال صلى الله عليه وسلم : " بل حبسها حابس الفيل "(4)

6- وأيضا أوحى تعالى إلى الملائكة بنصرة المسلمين فى غزوة بدر لأن هزيمة المسلمين فى هذا الوقت كانت تعنى القضاء على الإسلام فى مهده ، وهو ماتنبه له رسول الله صلى الله عليه وسلم فدعا ربه : " اللهم إلا تلك هذه العصابة لن تعبد فى هذه الأرض أبدا " (5) قال تعالى (إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أني مُمِدُّكُمْ بِأَلْفٍ مِنَ الْمَلائِكَةِ مُرْدِفِينَ)(2) ، بينما لم يحدث هذا المدد فى غزوة أحد مثلا لأن هزيمة المسلمين وقتئذ كانت لا تعني هزيمة الإسلام كله أو القضاء عليه .. أقول كل هذا على الرغم من وجود عوامل وحكم أخرى تخص الحدث ذاته بعضها معلوم وبعضها لا يعلمه إلا الله ، كمزيد من الدروس والعبر عن هزيمة أحد ، وليدخل الناس في دين الله إذا ما رأوا معجزة إبراهيم عليه السلام .

هذا ومن ناحية أخرى فأن الله لا يوحي بشر لا لأن الشر لا يصدر عنه سبحانه وتعالى ، فهو القائل (وَنَبْلُوكُمْ بِالشر وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ)(6) إنما لأن الوحي بالشر تحريضا على فعله وحاشه تعالى ذلك: إنما يصدر الوحي بالشر من الأنس والجن ، قال تعالى (وَإِن الشَيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَى أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُم)(7) وقال (وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوّاً شَيَاطِينَ الْأِنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُوراً)(8) كما أن الوحي لا يكون إلا لتحقيق منفعة عامة ومصلحة للبشر

----

(1) النمل 20 وما بعدها (2) سورة الفيل 1:2 (3) القصواء إسم ناقة الرسول (4) حياة الصحابة للكاندهلوي ج أول
(5)الرواية بالتفصيل رواها الطبري في تفسيرالأنفال بالجزء التاسع (6) الأنفال 9 (7) الأنبياء من الآية 35

(8) الأنعام من الآية 121 (9) الأنعام من الآية 112

وفى هذا الإطار ينبغي التفرقة بين الوحي وبين الأمور الآتية :

1- التيسير أو التوفيق ، المشار إليهما فى قول الله تعالى وبعض الآيات المماثلة (فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى) (1) وقوله (وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا)(2) ، فهما بهذا المعنى منفعة خاصة تعود على صاحبها وليست وحيا ، لأن الأخير يحقق منفعة عامة اقتضت التدخل الإلهي المباشر ، بالاضافة إلى أن الوحي وسيلة لله سبحانه وتعالى يحقق بها مرادا له في خلقه أما التوفيق فجزاء على فعل ، والوحي قد يكون لحظة أو برهة أو ومضة نور ، أما التيسير والتوفيق فمعية من الله تلازم صاحبها ،كما أن الوحي ليس في كل الأحوال تمييزا للموحى إليه ، بينما التيسير والتوفيق تمييزا للموفق لعلة فيه

2- التصرفات الأخلاقية ، هي التي تنبع من أخلاق الشخص الفطرية أو المكتسبة ، فإذا تصرف تصرفا نابعا من أخلاقه عد ذلك تصرفا أخلاقيا لاوحى فيه ، كمحاولة شخص إنقاذ أخر يشرف على الهلاك فاندفاعه لهذه المحاولة ليست وحيا إنما انطلاقة أخلاقية تدل على شيمة فيه هي الشجاعة أو النبل أو المرءوة ، وكمن يفرج عن مكروب فى ساعة ضيق قد يكون هلاكه فيها فذلك من صفة الكرم المتخلق به

4- التصرفات العقلية وهى الدالة على عبقرية الشخص أو سعة أفقه أو توقد ذهنه أو ألمعيته أو ثقافته أو نضوجه العلمي أو ذكائه ، كمن يتصرف تصرفا عاقلا يدل على حكمة وروية فلا وحي حينئذ

5- التصرفات الغريزية وهى التي مردها الى الغريزة كالأكل والشرب والجماع لاوحى فيها كالأم التي ترضع طفلها واستدراكا أقول أن وحي الله تعالى لأم موسى عليه السلام المذكور في قوله سبحانه : وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي اليم (3) لا ينصرف الى الرضاعة إنما ينصرف إلى الإلقاء فى اليم عقيب تغذيته بالرضاعة ، أو أن الوحي بالرضاعة جاء فى هذه الحالة خاصا كمرحلة سابقة على الإلقاء . بمعنى أن الأمر ليس للرضاعة ولكن للالقاء ، أذ الرضاعة لا وحي فيها باعتبارها تصرف غريزي . قال الطبري في تفسير الآية " حدثنا القاسم قال ثنا الحسين قال ثني حجاج عن أبي بكر بن عبد الله قال لم يقل لها إذا ولدتيه فألقيه في اليم إنما قال لها أن أرضعيه فإذا خفت عليه فألقيه في اليم بذلك أمرت وقال آخرون بل أمرت أن تلقيه في اليم بعد ولادتها إياه وبعد رضاعها "

6- الفراسة . هي درب من دروب الذكاء وفطنة المتفرس وتخص المتفرس وحده وعرفها الرازي بأنها الاستدلال بالأحوال الظاهرة على الأحوال الباطنة ، وجاء فى المعجم الوسيط أنها المهارة فى التعرف على بواطن الأمور من ظواهرها ، ومن الفراسة قوله تعالى (إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِلْمُتَوَسِّمِينَ) (4) وقوله صلى الله عليه وسلم عن أبي سعيد الخدري " اتقوا فراسة المؤمن فأنه يرى بنور الله" (5) فالمتفرس تنطلق فراسته من ذاته بلا وحي

----

(1) الليل 5 وما بعدها (2) الطلاق 2 (3) القصص 7

(4) الحجر 75 (5)سنن الترمذي 3127 وكذا المعجم الكبير للطبراني وجاء أيضا بفتح الباري وكلاهما عن أبي أمامة .

إذن فالوحي غايته تحقيق مرادا لله سبحانه وتعالى لابد أن يكون ، وأمر الله سبحانه وتعالى ومراده الأكيد الذي لا بد أن يتحقق هو منهجه الذي أختاره لخلقه ليعبدوه به ألا وهو الدين ، والدين كما سيتبين لنا مر بمراحل زمانية متعاقبة ظل يكتمل فيها حقبة بعد حقبة ودين بعد دين ونبي بعد نبي حتى اكتمل بدين الإسلام الخاتم هذا المنهج الذي أختاره الله قدر له منذ الأزل أن يكون وبكيفية معينة وما كان فى مقدور أي خلق من خلقه أن يحول دون ذلك

الوحي ومحمد

وبإنزال ما تقدم على محمد بن عبد الله قبل البعثة يمكن القول بأن محمدا كان واحدا من البشر الصالحين ، وكان الوحي هدفا بالنسبة له لتحقيق مرادا لله سبحانه وتعالى ولمنهجه الذي لابد أن يكون ، شأنه في ذلك صلى الله عليه وسلم شأن غيره من الصالحين المؤهلين لتلقي لهذا الوحي ، بما يعنى من وجه أخر أن تصرفاته صلى الله عليه وسلم وقتئذ كانت تنبع من أخلاقه وعقله وغريزته وفراسته وتيسير الله له ، أما الوحي فليس له إلا هذا الدور الذي ذكرته

زواجه من خديجة

فقبول زواجه صلى الله عليه وسلم من خديجة بنت خويلد رضى الله عنها مثلا كان وحيا، إذ بالنظر إلى هذا الزواج من المنظور العادي نجد أنه زواج غير متكافئ ، فسنه صلى الله عليه وسلم أثناءه خمس وعشرون سنة بينما كان عمر خديجة رضى الله عنها أربعون عاما ، وكانت هي من أشراف قريش وسيداتا الأثرياء ذوات الحزم والشرف وكان هو واحد من فتيان قريش البسطاء الأقرب الى الفقر منه الى الغنى ، وكانت هى سيدته وهو أجير عندها ، وكانت هى أرملة تعول أولادا وبناتا بينما كان هو فى ريعان الشباب وطراوته ولم يسبق له الزواج وكانت كل أبكار قريش وجميلاتها يتمنين وده لا لأخلاقه المعهودة فحسب وإنما لوسامته واستقامة خلقته واعتدالها وقد أورد مسلم في صحيحه عدة أحاديث في خلقته وجماله صلى الله عليها وسلم . منها مثالا :

حدثنا ،، شعبة قال سمعت أبا إسحاق قال سمعت البراء يقول ثم كان رسول الله صلى الله عليه وسلم رجلا مربوعا بعيد ما بين المنكبين عظيم الجمة إلى شحمة اليسرى عليه حلة حمراء ما رأيت شيئا قط أحسن منه صلى الله عليه وسلم ، وحدثنا ،عن البراء قال ثم ما رأيت من ذي لمة أحسن في حلة حمراء من رسول الله صلى الله عليه وسلم شعره يضرب منكبيه بعيد ما بين المنكبين ليس بالطويل ولا بالقصير قال أبو كريب له شعر حدثنا أبو كريب محمد بن العلاء حدثنا إسحاق بن منصور عن إبراهيم بن يوسف عن أبيه عن أبي إسحاق قال سمعت البراء يقول ثم كان رسول الله صلى الله عليه وسلم أحسن الناس وجها وأحسنه خلقا ليس بالطويل الذاهب ولا بالقصير . (1)

----

(1) صحيح مسلم باب صفة النبي صلى الله عليه وسلم وأنه كان أحسن الناس وجها وذلك في الجزء الرابع

فضلا عن أنه صلى الله عليه وسلم لم يسعى إلى الزواج با أنما هي التي طلبت وعرضت وصرحت فـ الطبيعي والفطري ووفقا لعادات العرب وعرفهم ألا يقبل محمدا هذا الزواج أو يدع لنفسه فرصة يفكر فيها ويتروى ، إلا أن الله أوحى إليه ليتمه ليقضى أمرا كان مفعولا فتكون خديجة نعم السند له والمعين فكانت أول من آمنـت بـه وأعانته بمالها وواسته وساعدته ومنعت عنه وكان موتا رضى الله عنها أشد ما أصاب رسول الله صلى الله عليـه وسلم .بينما كان موقفه صلى الله عليه وسلم حيال أحد أعمامه الذي كان يشكو العيلة والفاقة فأخذ أحد أولاده ليعينه تصرفا أخلاقيا بحتا ينبع من ذاته صلى الله عليه وسلم . واختلائه بغار حراء صلى الله عليه وسلم كان وحيا هداه الله إليه ليقضي أمرا كان مفعولا فيتـ ل عليه جبريل بالرسالة . وقول عائشة رضى الله عنها فيما أورده بـن هشام فى سيرته نقلا عن بن إسحاق : " حبب الله تعالى إليه الخلوة فلم يكن شيئا أحب إليه من أن يخلو وحده " لا يمنع من أن تكون بداية الخلوة وحي صار بعد ذلك تعلقا وحبا . بينما كان عدم سجوده لأصنام قومه واتباع دينهم تصرفا عقليا ينبع من ذاته صلى الله عليه وسلم وليس وحيا ، وكذا حسن تصرفه بخصوص حجر الكعبة .

وأنتهي من ذلك الى أن تصرفات محمد بن عبد الله كانت من منطلق ذاتي بحت وما كان الوحي إلا تدخلا إلهيا ليقضى سبحانه وتعالى أمرا كان مفعولا شأنه شأن كافة المخلوقات الموحى إليها ، بما يعني من وجـه صـريح أن أكثر تصرفاته صلى الله عليه وسلم قبل البعثة لم تكن وحيا ولكنها كانت تصرفات شكلتها عوامل فطرية وبيئيـة ووراثية وذاتية .

حادثة شق البطن

حديث شق الصدر جاء بأسانيد صحيحة ، فقد أخرجه البخاري في صحيحه ، والإمام أحمد في مسنده، وابن اسحاق في السيرة ، ورواه أبو نعيم في دلائل النبوة ، وابن سعد في طبقات الصحابة ، وأخرجه الحاكم في المستدرك وصححه ووافقه الذهبي ، وقال الحافظ بن حجر بعد أن عرض لذكر الروايات الدالة على شق الصدر وتكرره " وجميع ما ورد من شق الصدر، واستخراج القلب، وغير ذلك من الأمور الخارقة للعادة ، مما يجب التسليم به دون التعرض لصرفه عن حقيقته لصلاحية القدرة الإلهية ، فلا يستحيل شيء من ذلك ، إن نفي المعجزات الحسية الثابتة بالنقل الصحيح، إنما هو في الحقيقة خضوع وانصياع للفكر المادي والفلسفات الوضعية ، وسير الأنبياء ووقائع حياتم وخصائصهم وروابطهم لا توزن بميزان الفكر المادي وحده " (أ هـ) إلا أن ذلك لا يمنع من إبداء بعض الملاحظات عليها باعتبار أن ابن حزم أثبت الواقعة بثبوت القدرة الإلهية وهو ما لا ينكر ولكنه لا يصلح بذاته سندا ، لأن طلاقة القدرة الإلهية من المسلمات ، بينما تنصب الملاحظات على حصول الواقعة يقظة أم مناما .

(1)- اختلاف زمن حدوث الواقعة : فمن رواية بأنا حدثت له صلى الله عليه وسلم وهو طفل في زمن الرضاع ومن رواية بأنا كانت في سن العاشرة ، وأخرى بأنا كانت في سن العشرين ، وفي بعض الروايات الأخرى أنا كانت قبل إسرائه ومعراجه ، وتزعم بعض الروايات بحدوثها مرتين .

(2)- اختلاف المكان الذي حدثت فيه الحادثة مابين ذروة الجبل وشفير الوادي ، وأشهر الروايات تقرر أنا كانت بالمسجد الحرام بمكة وبعضها يقرر بحدوثها في قبيلة بني سعد بن بكر عند حليمة السعدية ،

(3)- الاختلاف في مسمى الشق ذاته وطبيعته مابين تسمية للحادثة بشق البطن وتسمية لها بشق الصدر ومن رواية تحدد المسافة من الصدر إلى البطن وأخرى تجعلها من البطن إلى العانة

(4)- الاختلاف في المادة التي أخرجها الملكان أو أخرجتها الملائكة مابين علقة سوداء ومابين مضغة ومابين شيء مجهول لا يدري رسول الله كنهه ، ورواية تقول بأنا مغمز الشيطان ، وتصف بعض الروايات المادة بأن الملك طرحها ، وتقرر أخرى بأنه غسلها ثم أعادها مكانا .

(5)- الاختلاف في الخاتم الذي ختم به الملائكة النبي صلى الله عليه وسلم ومكانه من رواية تقول أنه خاتم من نور ، ورواية تقرر بأنه خاتم فقط دون وصف له ، وتحدد بعض الروايات بأن مكان الختم كان بالقلب ، وتحدد بعضها مكانه بالكتف وأخرى بالظهر ، وتقول رواية بأنه خاتم النبوة .

(6)- الاختلاف في عدد من طلبت الملائكة وزن رسول الله صلى الله عليه وسلم بم إذ تقول بعض الروايات أن أحد الملائكة قال للأخر زنه برجل من أمته ، ثم زنه بعشرة ، ثم زنه بإلف ، فوزنوه فزانم رسول الله صلى الله

عليه وسلم ، ثم قال له تنحى فوالله لو وزنته بأمته كلها لأرجحهم ، وتقول رواية أخرى زنه بمائة ثم زنه بإلف ثم زنه بمائة ألف ، فضلا عن استحالة الوزن لأنه لم يزل طفلا ولم تكن أمته قد تكونت أو تشكلت بعد ،

---

(7)- اختلاف مقالة الأطفال في الروايات ومقالة السيدة حليمة السعدية في روايتها للحادثة ففي " الاكتفا " تروي حليمة السعدية فتقول " فوالله إنه بعد مقدمه به بشهر إذ أتى أخوه يشتد فقال لي ولأبيه " ذاك أخي القرشي قد أخذه رجلان عليهما ثياب بيض فأضجعاه فشقا بطنه فهما يسوطانه "

وفي تاريخ الطبري قالوا (أي الأطفال) " ما إربكم إلى هذا الغلام فإنه ليس منا . هذا ابن سيد قريش وهـو مسترضع فينا من غلام يتيم ليس له أب ، فماذا يدر عليكم قتله وماذا تصيبون من ذلك ولكن إن كنتم لابد قاتليه فاختاروا منا أينا شئتم فليأتكم مكانه فاقتلوه ودعوا هذا الغلام " مع ملاحظة أن الأطفال " أتراب رسـول الله " المتكلمين بهذا الكلام البليغ الفصيح البين كانوا في سن مابين الرابعة والخامسة من العمر حيث كـان رسـول الله صلى الله عليه وسلم عند ظئره حليمة السعدية ، بل تقرر بعض كتب السيرة أنا أخذته وعمره عامان ولم يلبـث عندها مدة طويلة ، وفي رواية ثالثة قول حليمة أن نفرا من الحبشة نصارى رأوا محمدا معها حين رجعت به بعـد فطامه ، فنظروا إليه وسألوها عنه وقلبوه ، ثم قالوا أنا سنأخذه فنذهب به إلى ملـكنا وبلدنا، فإن هذا غلام لـه شأن نحن نعرف أمره ، فلم تكد تتفلت منهم " ، واختلافات أخرى كثيرة يضيق المقام بذكرها كـالاختلاف في عدد الملائكة وأسمائهم و الاختلاف في الطست وفي الماء الذي غسل بـه رسـول الله والاخـتلاف في طبيعـة الاضطجاع والاختلاف في الرواة .

(8)- عند البخاري كانت الملائكة التي جاءت لتشقه مكلفة من قبل ربما تجهله ولا تعرفه صلى الله عليه وسلم من بين أترابه ، حيث يسأل أولهم أحدهم قائلا أيهم ؟- أي الأشخاص هو - فيرد عليه الأخر قائلا " أوسطهم "

(9)- في ذات رواية البخاري – رحمه الله تعالى – ترتبط الحادثة بالإسراء والمعراج حيث يعقبـها الإسـراء والمعراج مباشرة وكأنه كان تمهدة له بينما حكاية رسول الله صلى الله عليه وسلم عنـها في بعـض المـصادر لا يكشف عن هذا الارتباط حيث كان إجابة عن سؤال سئل إياه صلى الله عليه وسلم عن أول ما رآه من النبوة .

(10)- الأسباب التي يأخذ بها الله سبحانه وتعالى ويدبر بها خلقه ليس من بينها ما يخالف العقـل حـتى وإن دخل في طور المعجزة ، فعندما أسرى الله سبحانه وتعالى بنبيه وعرج به إلى السماوات العلا يقظة لا مناما وروحا وجسدا وحقيقة وواقعا ، كانت الأسباب والنتائج التي تضمنتها الحادثة مقبولة ولا ينكرها العقل على الرغم ما بها من معجزات ، علما بأن مما لا ينكره العقل حدوده وقدراته التي يستطيع أن يدرك بها ما أهله الله تعالى لإدراكه ، وما عدا هذه الحدود مما لا يدركها هذا العقل فهو أيضا لا ينكرها ، كالغيبيات لا يدركها العقل ولكنه لا أيـضا ينكرها بما يعني أن من المقبول عقلا أن يكون لهذا العقل حدودا لا يتعداها فيؤمن بما يدركه بهذه الحدود ، ويؤمن أيضا بما لا يستطيع أن يدركه لأنه فوق حدوده

(11)- كل الأنبياء كانوا بالضرورة والقوة ولزوم الرسالة من أطهر البشر وأسلمهم قلوبا ورغم ذلـك مـا حدثت لهم هذه العملية .

(12)- إزالة مغمز الشيطان أو حظه من قلبه صلى الله عليه وسلم يتنافى ماعلم من سـياق بعـض الآيـات والأحاديث النبوية من أنه لكل إنسان شيطان يوسوس له ويزين له بما فيهم محمد خير الخلق وأطهرهم ، قال تعالى (وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنْسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الـشَّيْطَانُ ثُـمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ) (1) وقوله أيضا " (وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ) (2) وقوله صلى الله عليه وسلم لعائشة " ليس أحد إلا ومعه شيطانه " قالت ومعك قال " ومعي إلا أن الله أعانني عليه فأسلم "(3) وتأمل كلمة أعانني تلمح فيها الدلالة

(13)- أن الأمر يبدو وفق هذه الروايات تصحيحا لخطأ أو تداركا له أو ، وجلا الله وتعالى عن ذلك علـوا كبيرا ، فما دامت الواقعة حدثت له صلى الله عليه وسلم وهو صغير لم يزل ولم يكلف بعد وما دام الأمر يتعلـق بإزالة السوء من قلبه أو حظ الشيطان منه ، فكان الآولى ألا يخلق بهذا النصيب أو الحظ الشيطاني منه بداءة ، وإذا تمت في الأولي فما الحاجة إلى أخرى ؟ .

(14)-إزالة موطن الشر من قلب رسول الله صلى اله عليه وسلم يجرده من بشريته المفطورة كباقي البشر على احتواء النقيضين " الخير والشر " إلا بتفوقه صلى الله عليه وسلم على سائر هؤلاء البشر في كبح جماح شره ووئد هذا الشر في مهده بحيث لم يكبر معه ولم ينمو وإنما بقي في سويداء القلب ضئيلا مخنسا لا دور له في حياته ،

(15)- إن إزالة موطن الشر أو الشيطان بهذه الطريقة المادية يعطي حجة لمشركي قريش في إبائهم اتباع محمـد لعدم تميزه عليهم إلا بعوامل خارجة عن إرادته وإرادتهم هي التي صنعته ووصفتهبما وصف به

(16)- إن أحدا من سكان مكة أو ما حولها تحدث بهذه الواقعة قبل إعلان رسول الله صلى الله عليه وسـلم عنها بعد البعثة ، وما هي بالحدث الذي يمكن تجاهله أو إخفائه أو كتمانه لعلانية حدوثه وغرابتـه ، في الوقـت الذي لا تجد فيه حدثا غريبا إلا واشتهر بين القبائل العربية كقصة الذبيح الثاني عبد الله أبو الرسول أو قصة بئـر زمزم أو قصة ابرهة والفيل .

(17)- تطهير القلب المحمدي لم يكن بحاجة إلى عملية جراحية لإزالة مابه من علقة سوداء أو مضغة ، أو لغسله وتطهيره ووضع السكينة والرحمة مكان ما أزيل منه ، لا لاستحالة القدرة الإلهية على ذلك ، ولكن لأن طهـارة هذا القلب حدثت بعوامل أخرى هي التي تحدثنا عن بعضها في هذا الفصل وما سيلي من حديث آخر عنها

----

(1) الحج 52 (2) فصلت 36 (3) بن حبان 6416 عن شريك بن طارق

(18)- يقول الشيخ محمد أبو زهرة في كتابه خاتم النبيين: إننا نلاحظ في ذلك الخبر أمرين، أولهما أنه غسله بماء من زمزم، وأن الواقعة إن صحت كانت في البادية في مكان ناء عن زمزم ،وإذا كان من ماء مع جبريل فمن أيـن عُلم أنه من زمزم ؟.. وثانيهما أنه ذكر أنه كان يري أثر المخيط في صدره عليه السلام،فإذا صحت الواقعة فـإن المعقول أنه عمل ملك، والملك لا يكون لعمله أثر محسوس، ونحن نري أن الأخبار بالنسبة لشق الصدر لا تخلو من اضطرب، وعلي فرض أنا صحيحة، لانقول إنا غير مقبولة، بل إننا نقبلها إن صحت، ولكـن الاضـطراب في خبرها يجعلنا نقف غير رادين ولا مصدقين، ومهما يكن الأمر في قصة شق الصدر فإن الغلام الطاهر كانت تحوطه أمـــــــــــــور خارقـــــــــــــة للعـــــــــــــادة .

(19)- وأفترض صاحب الروض الآنف سؤالا حتميا فكان جوابه عليه امتدادا للصورة اللامعقولة التي بدأت با الرواية وانتهت فقال ، فإن قيل وكيف يكون الإيمان والحكمة في طست من ذهب والإيمان عرض والأعـراض لا يوصف با إلا محلها الذي تقوم به ولا يجوز فيه الانتقال ، لأن الانتقال من صفة الأجسام لا من صفة الأعـراض قلنا : إنما عبر في المرة الأولى بالصورة التي رآها ، لأنه في هذه المرة كان طفلا فقال عما وجده في الطست بالثلج والبرد وفي المرة الثانية عبر عما كان في الطست بالحكمة والإيمان ، فكان لفظه في الحديثين على حسب اعتقاده في المقامين مناسبا مناسبة الذهب للمعنى المقصود .فكان تأويل ما أفرغ في قلبه حكمة وإيمانا،! فإن نظرت إلى لفـظ الذهب فمطابق للإذهاب فإن الله أراد أن يذهب عنه الرجس ويطهره تطهيرا وإن نظـرت إلى معـنى الـذهب وأوصافه وجدته أنقى شيء وأصفاه يقال في المثل أنقى من الذهب ثم قال "والحكمة في خاتم النبوة علـى جهـة الاعتبار أنه لما ملئ قلبه حكمة ويقينا ،ختم عليه كما يختم على الوعاء المملوء مسكا أو درا ،وأما وضـعه عنـد نغض كتفه فلأنه معصوم من وسوسة الشيطان وذلك الموضع منه يوسوس الشيطان لابن آدم " أهـ

(20)- اتخذ بعض الكافرين من هذه الحادثة دلالة على ميلاد الإنسان بطبيعة إنسانية ساقطة هي طبيعـة الميـل الغريزي إلى المعصية بما في ذلك رسول الإسلام الذي أقتضى الأمر تدخل جراحي إلهي يزيل عنه هذه الطبيعة الميالة إلى المعصية والآمرة بالسوء ، وهو ما يتعارض بالتالي مع قوله صلى الله عليه وسلم يولد الإنسان على الفطـرة ، وقول سائر علماء المسلمين بنقاء الفطرة الإنسانية حتى يغلب عليها أي القوتين الشر أو الخير .

وإزاء ما تقدم أرى أن الأقرب إلى الحقيقة أن الواقعة رؤية ، والرؤية بالنسبة للأنبياء تختلف عنها بالنبسة لغيرهم من البشر لكونا طريق من طرق الوحي والتبليغ الإلهي . خاصة وأن رواية البخاري تفيد أن الواقعة كانت نوما ..

المرحلة الثانية

أما المرحلة التي كانت عقيب البعثة فهي التي كان مهيئا فيها تماما لتلقى الوحي فلم يزده ذلـك إلا حـسن خلـق وتأدب وسمو ورفعة وبر وإحسان حيث أدبه ربه فأحسن تأديبه وعلمه ما لم يكن يعلم وزكاه واواه من يتم وأغناه من عيلة وهداه من ضالة وشرح له صدره ورفع له ذكره ووضع عنه وزره وكلأته عينه وحفظته وعصمه واجتباه بالحكمة والعلم ونور اليقين وتخلق هو بخلق القرآن الكريم فصار قرآنا يمشي على الأرض وتخـلق بخلق الأنبياء القويم فجمع سائر أخلاقهم الحسنة . وآيات القرآن والأحاديث النبوية وأقوال الصحابة والتابعين ومن بعدهم والعلماء والفقهاء والحكماء ، وأيضا كثير من المنصفين من المستشرقين والباحثين في كل زمان ومكان ، أجمعوا بغير شذوذ من واحد علـى سمـو خلقه ورفعة قدره وسلامة قلبه ، وهو ما سيكون لنا معه وقفة متأنية فيما سيلي إن شاء الله .

ولأن هذه المرحلة هي الأهم وهي الأعظم في تاريخ الإنسانية ، حيث تغير با وجه الأرض وانتقل الناس فيها مـن الظلمات إلى النور ومن الشك إلى اليقين ومن عبادة الناس إلى عبادة رب الناس ، فسوف استعرض فيها بعـضا مـن مواقفه صلى الله عليه وسلم لتكون خير دليل على تميزه وانفراده في قراراته ورؤاه . وسأحاول أن اتبع طريقة ربمـا تكون جديدة وهي الوقوف عند نتيجة الحدث أو الموقف لأتناوله بطريقة عكسية ، وذلك بسؤال يقوم على الافتراض والتخيل ، وهو ماذا لو كانت النتيجة التي انتهى إليها الحدث أو الموقف بخلاف تلك المعلومة لدينا ؟ وبمعنى آخر ماذا لو كان الذي كتب في التاريخ وسطرته كتب السيرة غير ما كتب ومادون ؟ وسنجد أن أحدا لن يلتفت ولـن ينتبـه إلى الفارق بين النتيجتين . لندرك عندئذ أن تصرفاته وقراراته عليه الصلاة والسلام كانت تنبع من ذات متفـردة . ذات لا تعرف إلا الحق مهما كانت عواقبه ومهما كانت أثاره ، هذه الذات هي ذات محمد رسول الله وخاتم الأنبياء والمرسلين

1- قصة الأراشي

قال بن إسحاق : حدثني عبد الملك بن عبد الله بن أبى سفيان الثقفي وكان واعية قال قدم رجل من أراش يقال له الأراشى لإبل ابتاعها منه أبو جهل فمطله ثمنها. فأقبل الأراشى حتى وقف على ناد من قريش ورسول الله صلى الله عليه وسلم فى ناحية من المسجد جالس . فقال يا معشر قريش من يؤدينى (1) على أبى الحكم بن هشام فأني رجل غريـب ابن سبيل وقد غلبني على حقي ، فقال له أهل ذلك المـلس أترى ذلك الرجل الجالس ؟ – يريدون رسول الله والهزء به لما يعلمون ما بينه وبين أبو جهل من عداوة – اذهب إليه فأنه يؤدي لك ، فأتاه فقال له يا عبد الله إن آبا الحكم ابـن هشام قد غلبني على حق لي قبله وأنا غريب ابن سبيل وقد سألت هؤلاء فأشاروا لى بك، فانطلق معه رسول الله صلى الله عليه وسلم . فلما رأوه قام معه اتبعوه ليروا مايكون .فضرب رسول الله باب أبو جهل فقال من داخله من هذا ؟ ، فقال " أنا محمد فاخرج إلي "، فخرج وما فيى وجهه من رائحة قد انتقع لونه ،

----

(1) يرد لي حقي

فقال " أعط هذا الرجل حقه " فقال نعم أفعل ، فدخل فخرج إليه بحقه فدفعه إليه ، ثم أنصرف رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال للأراشى الحق بشأنك ، فأقبل الأراشى حتى وقف على باب الناد وقال جزاه الله خيرا والله أخـذ لي حقي ، وما لبث أبو جهل أن جاء فقالوا له ويلك مالك ؟ والله ما رأينا مثل ما صنعت قط ، فقال ويحكم والله ما هو إلا أن ضرب على بابي وسمعت صوته فملئت منه رعبا فخرجت إليه وإن فوق رأسه لفحل من الإبل ما رأيـت مثـل هامته ولا قصرته ولا أنيابه لفحل قط ولو أبيت لقتلني (1)

والسؤال ماذا لو لم يقم رسول الله صلى الله عليه وسلم مع الرجل أو اعتذر له ؟

إن الطبيعي والعقلي في مثل موقفه صلى الله عليه وسلم من الضعف والهوان والبعثة لم تزل في مهدها ألا يقوم ولو أن أحد غيره لما فعل ما فعل ، ولو كتب التاريخ أنه صلى الله عليه وسلم اعتذر للرجل أو لم يقم معه لما لامه أحد ، ولدافع عن موقفه هذا وقتئذ المسلمون جميعا ، ولوجدوا لذلك أكثر من مبرر أقله تجنب رسول الله الحرج خاصة وأنه يعلم أن قريشا تريد الاستهزاء به ، وتأكد علمه بذا عندما أخبره الرجل أنم هم الذين دلوه عليه وهو غريب وعابر سبيل .

والتفسير الذي انتهي إليه بن إسحاق فى روايته بأن أبو جهل رأى فحلا فوق رأس رسول الله تفسير فيه نظر ، حيث قيل هذا المبرر فى أكثر من موضع قبل أو بعد ذلك ، ومن ذلك مارواه الماوردي في معجزات من " أن قريشاً اجتمعت في دار الندوة ، وكان فيهم شاعر القوم فحضهم على قتل محمد صلى الله تعالى عليه وسلم وقال هل محمد إلا رجل واحد وهل بنو هاشم إلا قبيلة من قبائل قريش فليس منكم من يزهد في الحياة فيقتل محمداً ويريح قومه ؟ ، فقال أبو جهل ما محمد بأقوى من رجل منا وإني أقوم إليه فأشدخ رأسه بحجر ، فإن قتلت أرحت قومي ، وإن بقيت فذاك الذي أوثره ، وعلى ذلك خرجوا فلما اجتمعوا في الحطيم خرج عليهم رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، فقام يصلي فنظروا إليه يطيل الركوع و السجود ،فقال أبو جهل فإني أقوم فأريحكم منه . فأخذ مهراشاً عظيماً ودنا من رسول الله وهو ساجد ، لايلتفت ولا يهابه وهو يراه فلما دنا منه ارتعد ، وأرسل الحجر على رجله فرجع وقد شدخت أصابعه و هو يرتعد وقد دوخت أوداجه . ورسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ساجد فقال أبو جهل لأصحابه خذوني إليكم فالتزموه وقد غشي عليه ساعة ، فلما أفاق قال له أصحابه ما الذي أصابك ؟ قال : لما دنوت منه أقبل علي من رأسه فحل فاغر فاه فحمل علي أسنانه فلم أتمالك ، وإني أرى محمداً محجوباً . (2) ، أو ربما برر أبو جهل – وهو الكذوب لا محالة - خوفه بذا الفحل ، وإلا فلماذا لم يرى هذا الفحل عندما سب رسول الله صلى الله عليه وسلم وشجه فاقتص له حمزة بن عبد المطلب وكان ذلك سببا في إسلام حمزة، ولماذا لم يرى هذا الفحل من القوا فوق رأسه الشريف القاذورات وهو ساجد يصلى ، فالتفسير الصحيح إذن هو هيبة رسول الله صلى الله عليه وسلم التي استولت على قلب هذا الجاهل ، والهيبة أحد الجوانب المهملة عن شخصيته صلى الله عليه وسلم التي لم يتناولها كثيرون شأنا شأن الذكاء والفراسة وسرعة البديهة .

----

(1) سيرة بن هشام (2) أعلام النبوة للماوردي باب معجزات عصمته صلى الله عليه وسلم

2- رد الأمانات

من المعلوم بيقين أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أخر عليا رضى الله عنه أثناء الهجرة ليرد الودائع والأمانات التي استودعها عنده المشركون الذين ظلوا على شركهم وظلوا أيضا محتفظين عنده بأماناتهم ، إذ لم يكن أحد بمكة يخشى عنده شيء استودعه ، فماذا لو لم يرد رسول الله هذه الأمانات للمشركين وأخذها معه فى هجرته لتكون عونا له وللمسلمين وهم في أمس الحاجة إلى المال ؟خاصة وأن هؤلاء المودع عنده مالهم هم الكفار والمشركين الذين آذوا المسلمين أيما إيذاء وطردوهم من أرضهم واستولوا على أموالهم وأولادهم وأزواجهم وأمتعتهم وأذاقوهم صنوف العذاب والذل والهوان وحاصروهم وقاتلوهم وأجبروهم على ترك أوطانهم ودياره ، أو لم تكن غزوة بدر الكبرى أصلا منشأها الاستيلاء على أموال المشركين ؟ وإن كان استيلاء ليس بمفهوم السلب والنهب وقطع الطريق وإنما بمفهوم استعادة مال سبق أن انتهبه المشركين ظلما . " سمع النبي أن سفيان بن حرب أقبل فى عير له من الشام وتجارة عظيمة فيها ثلاثون أو أربعون رجلا من قريش فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم هذه عير قريش فيها أموالهم فاخرجوا إليها لعل الله أن ينفلكموها فانتدب الناس فخف بعضهم وثقل بعضهم (1)

وعن كعب ابن مالك قال "ما تخلفت عن رسول الله فى غزوة غزاها قط غير أنى تخلفت عنه فى غزوة بدر ، وكانت غزوة لم يعاتب الله ورسوله فيها أحد تخلف عنها . وذلك إنما لأن رسول الله إنما أراد عير قريش فجمع الله بينه وبين عدوه من غير ميعاد. (2) وليس ذلك توقفا عند هذه الغزوة التي كانت بوحي من الله وإذن بالقتال . إنما أتخذها قياسا على أن الحق سيكون معه صلى الله عليه وسلم لو كان أخذ الأموال المودعة عنده ، فلماذا إذن لم يأخذها رسول الله ؟ ولماذا لم تشغله أحداث الهجرة الجسام عن ردها ولماذا لم يستشر صحابته العدول في ذلك ؟ ولماذا لم يأخذها ولو على سبيل التأقيت ثم يردها خاصة وأن أحدا لم يطلبها منه ؟ وماذا لو كتب التاريخ أنه أخذها تحت هذا المسمى أو ذاك ؟ لا ضير ولا ضرر ولا عيب ولا مأخذ .

3 - شراء إحدى الراحلتين :

جاء أبو بكر رضي الله عنه لرسول الله صلى الله عليه وسلم براحلتين للهجرة ليختار أفضلهما وقال اركب فداك أبى وأمي ، فقال له رسول الله " لا أركب بعيرا ليس لى "، قال أبو بكر فهي لك يا رسول الله . قال " لا إلا أن أبتاعها منك "(3) ، وأمام إصراره رضخ أبو بكر وأخذ الثمن .. فماذا عليك يا رسول الله لو ركبت وأبو بكر يهب لك الراحلة ؟ ماذا عليك لو ركبت حتى وصلتما إلى المدينة المنورة ثم تكلتما فى الثمن ؟ ماذا لو كتب التاريخ هذا أو ذاك ؟. لاشيء

----

(1) ذكره الطبري في تفسيره وتاريخه وقال رواه عروة بن الزبير وغيرهم من علمائنا عن عبد الله بن عباس وكذا بن كثير نقلا عن ابن اسحاق وغيرهما (2) مسند اسحاق بن راهوية الحنظلي ورواه الطبري في الرياض النضرة عن ابن اسحاق والطبري في التاريخ

(3) تاريخ الإسلام للذهبي غزوة بدر

4- فاطمة والخادم :

عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما زوجه فاطمة بعث معها خميلة ووسادة حشوها ليف ورحاءين وسقاء وجرتين . فقال علي قد جاء الله آباك بسبي فاذهبي فاستخدميه فأتت آباها فاستحيت أن تسأله ورجعت . ثم عادت إليه ثانية ومعها علي ، فقال على " والله لقد سنوت (1) حتى قد اشتكيت صدري ، وقالت فاطمة لقد طحنت حتى مجلت يداي (2) وقد جاء الله بسبي وسعه فاختدمنا (3) فأبى عليه الصلاة والسلام دون أن يبدي سببا وفي رواية أنه قال " لا أعطيكما وادع أهل الصفة تطوى بطونم " فرجعا ، فأتاهما النبي وقد دخل في قطيفة لهما إذا غطت وجهيهما كشف قدميهما وإذا غطيا قدميهما تكشفت رأسهما فثارا – أي قاما حياءا – فقال لهما " مكانكما وأبدلهما ذكرا دبر كل صلاة خير مما سألاه (4) ، إلا أن ذلك لا يمنع من السؤال ماذا لو منحهما الخادم ؟ وماذا لو كان الذي علمناه من سيرته أنه أعطاهما خادما ؟ أينقص ذلك من قدره أو قدرهما أو يعيبهما ؟ كلا .

5 - مفاتيح الكعبة :

عندما فتح الله سبحانه وتعالى على نبيه مكة المكرمة طلب رسول الله مفاتيح الكعبة وكانت وقتئذ مع بنوعبد الدار آل طلحة ، وكان معظمهم لم يزل على الشرك ولم يدخل الإسلام منهم إلا قليل ، ومن بين هؤلاء الذين دخلوا الإسلام حديثا قبيل فتح مكة عثمان بن ابى طلحة رضى الله عنه فطلب منه رسول الله المفاتيح . فذهب من فوره يحضرها فوجدها مع أمه " سلافة بنت سعيد " ،فأبت أن تعطيه إياها فجاهد معها وهى على إبائها. - لما فى ذلك من شرف معروف لدى العرب- حتى وضعت المفاتيح فى حجزها فلم يجد طلحة إلا أن يستل السيف عليها مهددا بالقتل فأعطتها له مرغمة ، وكان القلق في هذا الوقت قد بدا على رسول الله حتى تحدر العرق منه مثل الجمان وهو يقول ما يحبسه . إلى أن جاء وأعطاه المفاتيح ، فلما انتهى صلى الله عليه وسلم من مهمته داخل الكعبة خرج وبيده المفاتيح . فتطلع إليها الصحابة ومد معظمهم عنقه لينال أحدهم هذا الشرف العربي التليد . وقال على رضي الله عنه لرسول الله اجمع لنا الحجابة مع السقاية ، ولكن رسول الله سأل عن عثمان فجاءه ومثل بين يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم. فذكره رسول الله بموقف كان بينهما فى بداية البعثة ، وهو أن عثمان هذا كان قد فتح الكعبة وقت أن كانت المفاتيح معه فأراد رسول الله أن يدخلها فأبى طلحة وأغلظ له فقال له صلى الله عليه وسلم " لعلها تكون بيدي يوما ما يا عثمان " فقال له عثمان " إذا هلكت قريش يومئذ وذلت ، فقال له رسول الله " بل عمرت وعزت يومئذ "

\-

(1) سنوت : أخرجت الماء بالدلو من البئر (2)مجلت يدي: ورمت وظهر تخن جلدها
(3) اتخذتما خادما (4) قال الإمام أحمد في الأحاديث المختارة اسناده صحيح

فتذكر عثمان هذا الموقف فتملكه الخجل وقال لرسول الله أو مازلت تذكر ذلك يا رسول الله فقال صلى الله عليه وسلم بصوت مسموع "يوم بر ووفاء خذوها آل طلحة خالدة تالدة لا ي عنها منكم إلا ظالم (1)

والسؤال الآن ماذا لو انه صلى الله عليه وسلم أخذ المفاتيح لنفسه بصفته الرسول والقائد والأمام ؟ وماذا لو أعطاها أحد من صحابته وهم الذين سألوه إياها حتى انه أراد أن يهون عليهم فقال لهم أعطيكم من المناصب ما يكلفكم مالا ولا أعطيكم ما تأخذون عليه مالا (2) ، ماذا لو كان الذى سجله التاريخ أنه استرد المفاتيح لتعود إلى المسلمين باعتبار الكعبة قبلتهم و البيت الذي يحجون إليه ، وليس من الطبيعى أن تكون مع المشركين خاصة أل طلحة المعروف دورهم البارز فى العداء للمسلمين وعلى وجه الخصوص إبان غزوة أحد . لن يتوقف أحد ولن يعد ذلك مأخذا على رسول الله بل من مآثره .

6- اذهبوا فأنتم الطلقاء :

ثم ما هذه المقولة التى حفظتها الإنسانية وعفى بها رسول الله صلى الله عليه وسلم عن مشركي مكة وكفارها وتاريخهم الأسود الملطخ بالإيذاء والشر والحصار والطرد والحروب والمؤامرات وهي"اذهبوا فأنتم الطلقاء"(3) أي فاتح عرفته البشرية لم ينتقم ممن طردوه وأتباعه أن لم يكن بالسجن والقتل والتعذيب فهي صفات لا يتصف بها الأنبياء فعلى أقل تقدير بعقد المحاكمات أو المحاسبة والمسائلة او التعزير .فشيئا من هذا لم يحدث وأجزم لو أن قلوب البشر كلها اجتمعت حينئذ على موقف تتحد فيه آرائهم وتتفق راضية إزاء هؤلاء المشركين لكان الخيار الأمثل هو تخييرهم بين الدخول فى الإسلام أو العفو ، وكان من الممكن أن يلتهبها رسول الله فرصة ويخيرهم هذا الخيار العادل ، خاصة وأن اغلب هؤلاء الذين فتحت عليهم مكة هم صناديد قريش وأكابرها ممن قضى رسول الله ثلاثة عشر سنة يجاهد داعيا إياهم الدخول فى الإسلام . وعاتبه ربه أكثر من عتاب لتكليفه نفسه فوق ما يحتمل لترغيبهم ورغبته فى إسلامهم ، ألا انه لم يفعل شيئا من ذلك بل التمس لهم فرص العفو لا عند دخول مكة فحسب ولكن قبل وبعد ذلك ، " أخرج الطبرانى عن عروة رضى الله عنه قال العباس يا رسول الله إني أحب أن تأذن لى أن آتى قومي فأنذرهم ما نزل وأدعوهم الى الله ورسوله فأذن له ، فقال العباس علمني كيف أقول لهم . بين لى من ذلك أمانا يطمئنون إليه ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم "قل لهم من شهد أن لااله إلا الله وأن محمدا رسول الله فهو آمن ومن جلس عند الكعبة ووضع سلاحه فهو آمن ومن أغلق عليه بابه فهو آمن،فقال العباس إن آبا سفيان ابن عمنا وأحب أن يرجع معي فلو اختصصته بمعروف فقال صلى الله عليه وسلم "ومن دخل دار أبو سفيان فهو آمن "(4) إلى أن دخل رسول الله مكة فى أبهى مظاهر النصر والعزة والكرامة مؤيدا بنصر الله والفتح المبين تحت رايات عشرة آلاف من خيرة أجناد الارض على مر العصور

----

(1) السيرة النبوية لابن هشام (2) حياة الصحابة للكاندهلوي (3)سنن البيهقي 18055 والسيوطي في الجامع الصغير باب الشمائل وجاء في نيل الأوطار للشوكاني والطبري في التاريخ ، بينما قال الألباني هذا الحديث على شهرته ليس له إسناد ثابت، و هو عند ابن هشام معضل وضعفه الحافظ العراقي (4)صحيح مسلم 1780 باب فتح مكة

فكان أول ما فعله رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد تطلعت إليه القلوب والأبصار بعضها فى وجل وخوف ورعب وبعضها فى أمان وسلام وكرامة أن امسك بعضدي باب الكعبة فقال فيما قال" ما تظنون آني فاعل بكم ". فكأنم وجدوا طوق الأمان ينتشلهم من الرعب والفزع فقالوا خيرا.. أخ كريم وأبن أخ كريم وقد قدرت فقال " اذهبوا فأنتم الطلقاء " قال البيهقى" فكأنما نشروا من القبور فدخلوا فى دين الله أفواجا " (1) ، فلماذا إذن لم يحاسبهم رسول الله وقد تصور الجميع ذلك مسلمين وكفار . حتى قال عمر بن الخطاب رضى الله عنه " قد أمكن الله منهم لأعرفنهم بما صنعوا . "(2)، أي أن عمر بن الخطاب كالبشر مهما علت رتبته فى الإيمان ودرجته فى الإسلام ومهما صفت سريرته قد تأججت فى قلبه الرغبة الفطرية فى الانتقام فلما سمع مقالة الرسول قال " افتضحت حياء من رسول الله أن يكون سمع ما بدر منى (3)وهؤلاء هم بعض أئمة قريش يفرون خارج مكة بأرواحهم خشية انتقام رسول الله . . نذكر منهم . صفوان بن أمية . حويطب بن عبد العزى . النضر بن الحارث . عكرمة بن أبي جهل .

ولنضرب مثلا بالأول ،

عن عبد الله بن الزبير رضى الله عنهما " لما كان يوم الفتح هرب صفوان بن أمية حتى أتى الشعب فجاءه ذات يوم عمير بن وهب فظن صفوان أن عميرا يريد قتله - وكان كلاهما اتفقا على قتل رسول الله وفشلت خطتهما لما علم رسول الله بوحي من الله ما دار بينهما - فقال له صفوان ما كفاك ما صنعت بى حملتني دينك وعيالك ثم جئت تريد قتلى.قال آبا وهب جئتك من عند رسول الله وقد أمنك ودعاك أن تدخل في الإسلام وإلا سيرك شهرين(4)وكان عمير قد استأمن لصفوان عند رسول الله فأمنه رسول الله - فقال صفوان لا والله لا أرجع معك حتى تأتيني بعلامة أعرفها فعاد عمير لرسول الله وأخبره فأعطاه رسول الله عمامته وعاد لصفوان . فرجع صفوان حتى انتهى الى رسول الله فقال له يا محمد أن عمير بن وهب جاءني ببردك وزعم أنك دعوتني إلى القدوم عليك فأن رضيت وإلا سيرتني شهرين . فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم " انزل آبا وهب " فقال الأخير لا والله حتى تبين لى فقال رسول الله " بل لك تسير أربعة أشهر ف ل . وخرج رسول الله قبل هوازن ومعه صفوان وهو كافر وأرسل إليه يستعيره سلاحه فأعاره سلاحه - مائة درع بأداتا - إلا انه سأله أطوعا أم كرها ؟ فقال رسول الله "بل عارية رادة فحملها إلى حنين " فبينا رسول الله يسير في الغنائم وجد صفوان ينظر إلى شعب ملاء نعما وشاء ورعاء فأدام النظر إليه ورسول الله يرمقه فقال له " آبا وهب أيعجبك هذا الشعب قال نعم قال " هو لك " فقال صفوان ما تطيب نفس بذا إلا نفس نبي وشهد وأسلم مكانه (5) الإجابة أذن كسابقتها لن يتغير فى الأمر شئ ولن يحاسب التاريخ رسول الله صلى الله عليه وسلم

----
(1) سنن البيهقي الكبرى (2) حياة الصحابة للكاندهلوي (3)المصدر السابق (4) أي أجلك (5) حياة الصحابة

7 - عبد الله بن أبي سرح

كان من كتاب الوحي ثم ارتد وصار إلى قريش يحدثهم الكذب ويقول إني كنت أصرف محمدا حيث أريد ، وفيه نزل "وَمَنْ أَظْلَمُ مِمنِ افْتَرَى عَلَى اللهِ كَذِباً أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَي وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ وَمَنْ قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَا أَنْزَلَ اللهُ)(1) فلما كان يوم الفتح أهدر رسول الله صلى الله عليه وسلم دمه فنذر عباد بن بشر الأنصاري أن يقتله ، فلما ضاقت الأرض بهذا المهدر دمه لجأ إلى عثمان بن عفان أخوه من الرضاعة ، فغيبه عثمان ثم خرج به بعد اطمئنان ، ثم استأذن عثمان رسول الله في العفو عن بن أبي سرح ، فسكت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فظل به عثمان ورسول الله ساكت ينظر إلى عباد بن بشر ينتظر أن يفي بنذره ، والأخير واقف ويده على قائمة سيفه ينتظر أمر رسول الله له ، فعفا عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فبسط عبد الله بن أبي سرح يده يبايع رسول الله فبايعه .ثم قال رسول الله بعد ذلك " أعرضت عنه مرارا ليقوم أحدكم إليه ليقتله "(2) وفي رواية " أليس منكم رجل رشيد يقوم فيضرب عنقه " (3)

وفي أخرى " ما صمت إلا ليقوم إليه أحدكم فيقتله " (4) فقال عباد بن بشر كنت أومأ إلي بعينك يا رسول الله . فقال صلى الله عليه وسلم " ما كان لنبي أن تكون له خائنة الأعين " (5)

وهنا ينطلق السؤال مرة أخرى وليست بأخيرة ، ماذا لو كان الذي علمناه أن رسول الله أومأ فعلا بعينه لهذا الصحابي ؟ لم يكن ليتغير شيء ذلك لأنه صلى الله عليه وسلم هو المبعوث من قبل ربه والموحى إليه وهو القائد والمعلم والمشرع والحاكم وهو الذي أهدر دم هذا المرتد الذي افترى عليه الكذب وادعى أنه يوحى إليه ولم يوحي إليه الله بشيء . وهو المنوط به إقامة الحد أو تكليف أحد من أتباعه بذلك ، وطريقة التنفيذ تكون بأي طريقة تلائم الموقف بالقول أو بالفعل أو بالإشارة ، والإشارة قد تكون باليد أو بالإيماءة أو بأي حركة أو سكنة يفهم منها وجوب التنفيذ ، فلا ضير إذن لو كان فعل ذلك ولن يكون ذلك مأخذا عليه بأي حال من الأحوال . خاصة وأن الذي ستناله هذه الايماءة كافر مرتد افترى على الله ورسوله كذبا .

---

(1) الأنعام من الآية 93 (2) رجال نزل فيهم قرآن (3) القرطبي في تفسير الآية السابقة وفي كتاب عون المعبود لأبو الطيب نقلا عن أسد الغابة (4) نفس المصادر السابقة
(5) قال صاحب المستدرك صحيح على شرط الشيخين وقاله القرطبي في التفسير وأيضا في سنن البيهقي وأبي داود

---

8 - عبد الله بن أبي بن سلول .

أخرج الشيخان عن عبد الله بن عمر أن عبد الله بن أبي لما توفي جاء ابنه إلى النبي فقال له أعطـني قميـصك أكفنه فيه .وصل عليه واستغفر له فأعطاه قميصه وقال آذني أصلي عليه(1) " فلما أراد أن يصلي جذبه عمر وقال له أليس الله ناك أن تصلي على المنافقين ؟ فقال رسول الله " أنا بين خيارين إذ قال (اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لا تَـسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللهُ لَهُمْ ذَلِكَ بِأَنهُمْ كَفَرُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ وَاللهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ) (2) فصلى عليهم ف لت (وَلا تُصَل عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبداً وَلا تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ إِنهُمْ كَفَرُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ وَمَاتُوا وَهُمْ فَاسِقُونَ) (3) وعند أحمد عن عمر قال عمر " يا رسول الله أعلى عدو الله عبد الله بن أبي القائل كذا وكذا قال - ورسول الله يبتسم - حتى إذا أكثرت عليه قال " أخر عني يا عمر إني خيرت فاختترت
قد قيل لي " استغفر لهم أو لا تستغفر لهم " لو أني أعلم أني لو زدت عن السبعين غفر له لزدت ثم صـلى عليـه ف لت (وَلا تُصَل عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبداً وَلا تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ)فما صلى رسول الله بعدها على منـافق " (4) إذن فعبد الله بن أبي كان معلوم النفاق للكافة وعرف برأس المنافقين وأنه عدو لله ورسوله ، وأنه بالبناء على ذلك في الدرك الأسفل من النار حسب وعيد الله للمنافقين ، وأن مقتضى التخيير في الآية هو ألا يستغفر صلى الله عليـه وسلم وبالتالي لا يصلي عليهم وقد فهم ذلك رسول الله وعلمه جيدا . إلا أنه استخدم فطنته ورحمته في التخـيير وصلى على المنافق مادام لا يوجد نص صريح يحرم عليه ذلك من ربه ، حتى إذا نزل التصريح امتنع رسول الله عن الاستغفار لهم والصلاة عليهم أو الإقامة على قبورهم ، ولو أنه صلى الله عليه وسلم لم يصلي عليه لكـان معـه الحجة والمبرر الذين أرادهما عمر وأيده الله تعالى عليهما وهو أن الله تعالى ناه عن الاستغفار للمنافقين بـالتخيير وبالتالي عن الصلاة عليهم ، ولو أن التاريخ كتب أن رسول الله اعتذر لأبنه عن عدم الصلاة عليه لما توقف أحـد وتسائل لماذا لم يختار صلى الله عليه وسلم الاستغفار له ؟ ولماذا لم يصلي عليـه مـادام النـهي لم يتحـصل بعـد ؟

----

(1) صحيح البخاري باب الكفن في قميص 1210 (2) التوبة 80

(3) التوبة 84 (4) رجال نزل فيهم القرآن بتصرف

9- بيعة النساء

عن عائشة رضي الله عنها قالت كان النبي صلى الله عليه وسلم يبايع النساء بالكلام بهذه الآية :

(يَا أَيهَا النبِي إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَى أَنْ لا يُشْرِكْنَ بِاللهِ شَيْئاً وَلا يَسْرِقْنَ وَلا يَزْنِينَ وَلا يَقْتُلْنَ أَوْلادَهُن وَلا يَأْتِينَ بِبُهْتَانٍ يَفْتَرِينَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِن وَأَرْجُلِهِن وَلا يَعْصِينَكَ فِي مَعْرُوفٍ فَبَايِعْهُن وَاسْتَغْفِرْ لَهُن اللهَ إِن اللهَ غَفُـورٌ رَحِيمٌ) (1) وقالت رضي الله عنها وما مست يد رسول الله صلى الله عليه وسلم يد امرأة إلا امرأة يملكها(2)

وعن محمد بن المنكدر عن أميمة بنت رقيقة أنا قالت " أتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم في نـسوة نبايعـه فقلن نبايعك يا رسول الله على أن لا نشرك بالله شيئا ولا نسرق ولا نزني ولا نقتل أولادنا ولا نأتي ببهتان نفتريه بين أيدينا وأرجلنا ولا نعصيك في معروف " قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " فيما استطعتن وأطعتن " قالت " فقلت الله ورسوله أرحم بنا من أنفسنا هلم نبايعك يا رسول الله قال رسول الله صلى الله عليه وسـلم " إني لا أصافح النساء إنما قولي لمائة امرأة كقولي لامرأة واحدة " (3)

وتحت عنوان بيان صفة بيعة النساء وبيعة من كان يأتي النبي صلى الله عليه وسلم بعد الفتح قال الإسفرائييني عن عروة أن عائشة أخبرته عن بيعة النساء قالت " ما مس رسول الله صلى الله عليه وسلم بيده امرأة قط إلا أن يأخذ عليها فإذا أخذ عليها فأعطته قال اذهبي فقد بايعتك " (4)

وكذا أفرده مالك في الموطأ عن الزهري لفظ " ما مس رسول الله صلى الله عليه وسلم بيده امرأة قط إلا أن يأخذ عليها فإذا اخذ عليها فأعطته قال اذهبي فقد بايعتك " وفسر النووي هذا الاستثناء بقوله

" وتقدير الكلام ما مس يد امرأة قط ولكن يأخذ عليها البيعة ثم يقول لها اذهبي الخ " و أخـرج إسـحاق بـن راهويه بسند حسن عن أسماء بنت يزيد مرفوعا إني لا أصافح النساء (5)

وعن عائشة أيضا أن امرأة مدت يدها إلى النبي صلى الله عليه وسلم بكتاب فقبض يده فقالت يا رسـول الله مددت يدي إليك بكتاب فلم تأخذه قال " إني لم أدر أيد امرأة هي أم يد رجل قالت بل يد امرأة قال لو كنـت امرأة لغيرت أظفارك بالحناء كراهية ريح الحناء " (6)

----

(1) الممتحنة:12 (2)صحيح البخاري 6788 (3) موارد الظمآن للهيثمي أبو الحسن
(4) مسند أبي عوانه للأسفرائيني (5) فتح الباري لابن حجر ج 13
(6) السنن الكبرى للنسائي ج5 /9364

الذي لا شك فيه أن مصافحة رسول الله صلى الله عليه وسلم للنساء في أي مرحلة من مراحل حياته النبوية ستكون سنة لها حجيتها وذريعة لمصافحة النساء ولمس أيديهن ولن يكن للنهي عن مس النساء أثر بليغ حالئذ .

ولكن المأخوذ من واقعة البيعة هذه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يصافح النسوة اللائى جئن لمبايعته من منطلق النهي عن مصافحتهن وإلا لقال صلى الله عليه وسلم إني نهيت عن ذلك ، ولكن الواضح أن ذلك خلق تخلق به صلى الله عليه وسلم قبل النبوة وقبل أن يوحى إليه ، وآية ذلك قوله إني لا أصافح النساء ، وهي قولة تأخذ على اطلاقها الزمـاني والمكاني وتحت أي ظرف من الظروف ، وفي موضع آخر قول عائشة :

" ما مست يد رسول الله صلى الله عليه وسلم يد امرأة قط "

بما يدل ذلك دلالة قاطعة على استقلاليته وتفرده وتميزه صلى الله عليه وسلم عن سائر الخلق ، حيث لم يثبت ذلـك عن غيره في الأولين أو الآخيرين ، علما بأنه لو كان فعل ذلك لعد ذلك استثناءا وخصوصية له على أقل تقـدير حـتى يتناسب مع نهيه عن ذلك ، وسنرى بعد إن شاء الله أن من بعض فضائله وخصوصياته صلى الله عليه وسلم حرمته على النساء وحرمة النساء عليه وجواز اختلائهن به ، فلن يكون ثمة ما يمنع أن تكون من خصائصه مصافحتهن أو ملامـسة أيديهن ، أو ربما لو كان فعل لجاءه النهي بعد ذلك فيكون ذلك النهي ناسخا وحكما له حجيته والعمل به .

ثم لنتوقف عند هذه اللقطة الفريدة عندما قبض رسول الله صلى الله عليه وسلم يده عن يد المرأة التي مدت يدها مـن وراء حجاب لتناوله كتابا . ففيها أنه صلى الله عليه وسلم شك في هذه اليد أهي يد رجل أم يد امرأة ، وشـكه هـذا محمول على احتمالين أحدهما – وهو الاحتمال الأدنى – أنها يد امرأة ، لأن احتمال أن تكون يد المرأة أشبه بيد الرجـل

أقرب من احتمال أن تكون يد الرجل أشبه بيد المرأة ، وقد أخذ بالاحتمال الأدنى ، وما كان عليه من غضاضة إن هـو أخذ بالاحتمال الآخر وأخذ منها الكتاب ، خاصة وأن الأمر لن يعدو ذلك ولن يمتد إلى الملامسة أو حتى المصافحة وهو بذلك لا يضع أساسا لبرأة المرء لدينه باتقاء الشبهات فحسب إنما يجسد شخصيته المستقلة أروع تجسيد ويعبر عن هـذه الشخصية أروع تعبير بغير مبالغة وبغير تكلف وبكل ما تحتويه النفس البشرية من فطرة سوية سليمة غير مشوبة بعيب أو تردد .

----

10 - أعرابي يبول

عن أنس بن مالك قال دخل أعرابي المسجد على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقضى حاجته ثم قـام إلى ناحيـة المسجد فبال قال فصاح به الناس فصدهم رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى فرغ ثم دعا بذنوب من ماء فصبه علـى بول الأعرابي (1) وبرواية أخرى عن أنس بن مالك أيضا قال بينما نحن في المسجد مع نبي الله صلى الله عليه وسـلم إذ جاء أعرابي فقام يبول في المسجد فقال أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم مه مه فقال رسول الله صلى الله عليـه وسلم " لا تزرموه دعوه " فتركوه حتى بال ثم إن رسول الله صلى الله عليه وسلم دعاه فقال له " إن هذه المـساجد لا تصلح لشيء من هذا البول ولا القذر وإنما هي لذكر الله والصلاة وقراءة القرآن " ثم أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بدلو من ماء فشنه عليه (2)

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال بال أعرابي في المسجد فقام الناس إليه ليقعوا فيه فقال النبي صلى الله عليه وسـلم " دعوه وأريقوا على بوله سجلا من ماء أو ذنوبا من ماء فإنما بعثتم ميسرين ولم تبعثوا معسرين " (3) ، وفي سنن البيهقي قوله رواه البخاري في الصحيح عن الحجبي ورواه مسلم عن قتيبة كلاهما عن حماد بن زيد ، وفي مسند الشافعي قال النبي علموا ويسروا ولا تعسروا (4)

لقد انطلق الصحابة رضي الله تعالى عنهم من منطلق دعاهم إلى موقفهم الذي اتخذوه من هذا الأعرابي الجلف وانطلق رسول الله صلى الله عليه وسلم من منطلق آخر دعاه إلى موقفه الذي اتخذه تجاه ذات الرجل ، أما منطلقهم فهو منطلـق النفس البشرية بأسرها حين يعرض أمامها تصرف مثل تصرف هذا الرجل الذي بال في بيت من بيوت الله أمام الناس وفي مكان أعد للعبادة والذكر والصلاة وتغشاه الملائكة فضلا عن خير البرية محمد وصحبه ، أما منطلقه هو صلى الله عليـه وسلم فمنطلق ذاته المتفردة المستقلة

لم تمكنهم فطرتهم السوية من الصبر على الرجل حتى يقضي حاجته ، بينما مكنت فطرة رسول الله نفسه من الصبر ، ولم يتمالكوا فصاحوا وهموا بالرجل وأرادوا أن يقعوا فيه ، بينما تمالك هو وهو فقط الذي يمكنه أن يتمالك ، نبع تصرفهم إذن من تلقائية محضة ونبع تصرفه صلى الله عليه وسلم أيضا بتلقائية محضة ، ولكن كان الفارق بين التصرفين هو الفارق بين الناس جميعا وبينه صلى الله عليه وسلم ،

----

(1) مسند أبي عوانة للأسرافييني 565 (2) نفس المصدر

(3)قال المنذري صاحب الترغيب والترهيب رواه البخاري (4) مسند الشافعي

الفصل الثاني
منظومة الكمال

تخطيه الكمال

غاية ما توصل إليه الفكر الإسلامي أن رسول الله صلى الله عليه وسلم هو الإنسان الكامل أي الذي اكتملت فيه كل صفات الخير وانتفت عنه كل صفات الشر وبلغت الصفات الخيرية فيه حدها الأقصى ،

يقول الغزالي : أمهات محاسن الأخلاق هي الحكمة والشجاعة والعفة والاعتدال وغيرها فروع ولم يبلغ كمال الاعتدال فيها إلا رسول الله (1) وعلى وجاهة هذا التوصل وهذا الفكر إلا أنه لم يزل غير وافيا ، لأن الكمال على هذا النحو أمر غير بعيد المنال عن غيره صلى الله عليه وسلم وإلا ماكان الله سبحانه وتعالى طلبه من المسلم وحثه عليه ، فالإسلام هو الدين الوحيد الذي كفل الخير المطلق أي الخير الكامل الشامل المبرأ من الأثرة (2) ، ومما يقرب هذا المعنى ما جاء في البخاري عن أبي موسى الأشعري قول رسول الله صلى الله عليه وسلم (كمل من الرجال كثير ولم يكمل من النساء غير مريم بنت عمران وآسية امرأة فرعون وإن فضل عائشة على النساء كفضل الثريد ى سائر الطعام) (3) ، وهو كمال ليس المقصود به كمال النبوة كما جاء عند بعض العلماء مثل بن حجر في الفتح (4) ، لأن لفظة (الكمال) تطلق على تمام الشيء وتناهيه في بابه والمراد هنا التناهي في جميع الفضائل وخصال البر والتقوى (هكذا قال مسلم في شرحه)، مما يقرب من هذا المعنى أيضا ويؤكده الأحاديث الواردة عن الأبدال في بعض المسانيـد كمسند الأمام أحمد ومن ذلك ما أورده عن عبادة بن الصامت مرفوعا " الأبدال في هذه الأمة ثلاثون مثل إبراهيم خليل الرحمن، كلما مات رجل أبدل الله مكانه رجلا "(5)

وروي عن أبي سعيد الخدري أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال " إن أبدال أمتي لن يدخلوا الجنة بالأعمـال، ولكـن دخلوها برحمة الله تعالى وسخاوة النفس وسلامة الصدر والرحمة لجميع المسلمين ". وقـد أفرد الأبـدال بالتأليف السخاوي وسماه نظم اللآل، وكذا السيوطي وسماه القول الدال.وقالا إن للأبدال علامات: منها مـا ورد في حديث مرفوع " ثلاث من كن فيه فهو من الأبدال: الرضا بالقضاء، والـصبر عـن المحـارم، والغـضب لله " (6)

والمتتبع لآيات الله وأحاديث نبيه يجدها تحض على كل خير مهما كان دقيقا وتنهى عن كل شر مهما كان دقيقا ، ثم تجده جلا وعلا يجازي بالثواب على فعل الخير وإن كان مثقال ذرة ويجازي بالعقاب على فعل الشر وإن كان مثقـال ذره إلا أن يعفو سبحانه وتعالى ويغفر قال تعالى (يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَراً وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَـوَدُّ لَـوْ أَنَّ بَيْنَهَـا وَبَيْنَـهُ أَمَـداً بَعِيـداً وَيُحَـذِّرُكُمُ اللـهُ نَفْـسَهُ وَاللـهُ رَؤُوفٌ بِالْعِبَـادِ) (7)

---

(1) إحياء علوم الدين الجزء الثالث (2) من أخلاق النبي أ/ أحمد الحوفي (3) البخاري المجلد الخامس كتاب 62

(4) الفتح لابن حجر جزء 6 /447 (5)مسند أحمد 22803 وذكره بن كثير في تفسيره وقال الهيثمي في الزوائد رجاله صحيح عدا عبد الواحد بن قيس (6) قال المناوي في فيض القدير قال الذهبي في الضعفاء وقد وضع الألباني أحاديث الأبدال في الضعفاء انظر حديث رقم 1405 في ضعيف الجامع (7) آل عمران 30

وهو سبحانه وتعالى فى جماع هذه المطالب أمرا ونهيا لا يكلف النفس إلا بما تطيق قال تعالى :

(لا يُكلفُ اللهُ نَفْساً إلا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَت)(1) بل لعلى لا أكون مبالغا إذا قلت أن الله سبحانه وتعالى مايز الأمة الإسلامية بالوسطية فى كل شيء إلا في قيم الخير والأخلاق الحميدة أرادها كاملة غير منقوصة لا تشوبا شائبة ولا يعتريها ثمة نقص بحيث لا يجتمع فى المسلم فعل الخير والشر معا أو فعل الحسن والقبيح . فذلك معنى قوله صلى الله عليه وسلم " إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق "(2)أي ليجعلها كاملة ، فلنقرأ قوله تعالى (إن اللهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْل وَالْإحْسَان وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبى وَيَنْهى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْي يَعِظُكُمْ لَعَلكُمْ تَذَكرُونَ) (3) وقوله(قُلْ إنمَا حَرمَ رَبيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَق (4) ، تجد هذه الآيات تأمر بمعظم إن لم يكن كل خصال الخير ، وتنهى عن معظم إن لم يكن كل خصال الشر ، وقد أمر الله با ونى عنها وهي فى قدرات الإنسان واستطاعته ، لذا قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " الإيمان بضع وسبعون شعبة أعلاها لااله إلا الله وأدناها إماطة الأذى من الطريق والحياء شعبة من الإيمان ." (5) ، وعدد البيهقى فى شعب الإيمان سبع وسبعين شعبة جعل من بينها جميع ما حرمه الله كتحريم السرقة والفروج والجنايات والغل والحسد وتناول أعراض الناس و الكذب والغيبة والنميمة ، وجعل أيضا من بينها جميع ما أحله الله كبر الوالدين وصلة الأرحام وحسن الخلق ورد السلام وعيادة المريض .(6) ومن هذا المنطلق يصير الكمال غير مستحيل ، ومن هذا المنطلق أيضا يمكن القول بأن بعض الصحابة الأجلاء وصلوا الى هذه المرتبة من الكمال مثل أبي بكر الصديق وعمر بن الخطاب رضي الله عنهما رضى الله عنه ،فما أجد فيما سطرته كتب ومراجع حياة الصحابة وسيرهم ما يعيب الأول ، وما عابه امرئ قط قديما أو حديثا سوى غلاة الشيعة الجهلاء وما يلتفت إلى جهلهم ، فما من ثمة نقيصة نسبت إليه فضلا عن مثل الخير العليا التى كانت تجري في عروقه مجرى الدم حتى تمنى رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يكون له خليلا . (7) . فاسمع ابن الدغنة يقول لقريش وقد هم أبو بكر أن يهجر مكة قبل الهجرة " أتخرجون رجلا يكسب المعدوم ويصل الرحم ويحمل الكل ويقري الضيف ويعين على نوائب الدهر "(8) وهي نفس الأوصاف التي قيلت في رسول الله صلى الله عليه وسلم على لسان خديجة رضي الله عنها عندما جاءه الوحي صلى الله عليه وسلم فقالت له " أبشر فوالله لا يخزيك الله أبدا والله انك لتصل الرحم وتصدق الحديث وتحمل الكل وتكسب المعدوم وتقرى الضيف وتعين على نوائب الحق (9)،واتفقت أقوال واصفيه رضي الله عنه على أنه كان أليفا ودودا حسن المعاشرة مطبوعا على أفضل الصفات التي تتألف له الناس فيألفونه(10) ولم يعرف عنه أنه كان فاحشا أو جهولا أو قوالا بالخنا ولم يجد ناقدوه إلا حدة كانوا يجدونا فيه أحيانا

----

(1) البقرة من الآية 286 *(2)* في المستدرك صحيح على شرط مسلم (3) النحل 9 (4) الأعراف من الآية 33
(5) صحيح مسلم 35 (6) ذكرها تفصيلا د/ علي عبد الحليم محمود في كتابه التربية العقلية (7) صحيح البخاري 3457
(8) البخاري 2175 (9) شرح النووي على صحيح مسلم (10) عبقرية محمد للعقاد

فهذا عمر بن الخطاب رضى الله عنه يقول " كنت أدارى منه بعض الحد – أى الحدة " ويقول بن عباس كان خير كله على حدة كانت فيه " (1) ، وبذات المعيار يصل عمر أيضا الى رتبة الكمال – والإسلام يجب ما قبله – فلا خلاف على أنه إذا ذكر عمر كان اسمه قرينة على كل مكرمة وخير ، ولم أجد أيضا فيما نقل إلينا ما يـ ـشينه اللهم إلا شيئا من تور وحمية لله ولرسوله ، ومبالغة من بعض كتاب السير فيما ينقلونه عنه دون دليل ، كقولهم في كل مناسبة بمه بضرب العنق . فإذا كان ذلك وكان بمقدور أي إنسان أن يصل إلى هذه الرتبة من الكمـ ـال إذا التزم بتعاليم الإسلام وحدوده وأوامره ونواهيه ، وكان بعض الناس قد وصل إلى هذه الدرجة فعلا ، فإن القـ ـول بأن رسول الله صلى الله عليه وسلم هو الإنسان الكامل قول لم يبلغ به القدر الذي يستحقه ، ويكـ ـون القـ ـول الصحيح هو أنه عليه الصلاة والسلام تخطى الكمال البشري درجة لايعلمها إلا الله ، وبلوغه هذه الدرجة لم يكن لأنه تحمل أعباء الرسالة فتميز بذلك عن غيره فحسب ، ولكن لأنه احتمل ما لا يحتمله غيره وانطوى قلبه على ما يتعدى حدود الخير القصوى وبما يزيد على ما هو مطالب به ، وخير من الإطناب والأقاويل المرسلة نتخير بعـ ـضا من مواقفه صلى الله عليه وسلم لنرى حدود الكمال فيها وما كان ينبغي أن يصنعه الإنسان الكامل فيها

1- أنس خادمه.

روي بسند صحيح عن أنس رضى الله عنه قال " خدمت رسول الله عشر سنين فما قال لي لشيء فعلته لما فعلتـ ـه ولا لشيء لم أفعله لما لم افعله ولم يقل لى أف قط "(2) فهل الكمال ألا يتضجر فى وجه خادمه يوما أو يعاتبه عن شئ فعله لما فعله أو لشيء لم يفعله لما لم يفعله أو لا يقل له أف أبدا ؟ أم ترى أن أنسا هو الـ ـذي بلـ ـغ حـ ـدود الكمال القصوى فلم يتسبب فى أى فعلة تضايق سيده طيلة هذه السنوات ؟ ستجيب الأحداث والمواقف

2- حادثة الإفك

بعض المدينة تخوض في عرض زوجته الحبيب صلى الله عليه وسلم وهو حائر يستشير أصحابه ، وقد انقطع الوحي عنه قرابة الشهر فلم يزد على أن قال لعائشة بعد أن حمد الله وأثنى عليه " ياعائشة أنه قد بلغني عنك كذا وكـ ـذا فأن كنت بريئة سيبرئك الله . وإن كنت ألممت بذنب فاستغفري الله ثم توبي إليه فأن العبد إذا أعتـ ـرف بـ ـذنب وتاب تاب الله عليه "(3) وكانت عائشة طوال هذه المدة لاتعلم ما يدور حولهـ ـا حتى علمت ولم يكن قد بدا من رسول الله ما يعبر عن ذلك . وعندما نزلت براءتا وعرف رسول الله أن رأس المنافقين بن سلول هو قائد الإفك صعد المنبر وقال : " يا معشر المسلمين من يعذرني من رجل قد بلغ آذاه لى في بيتي . فوالله ما علمت على أهلـ ـي إلا خيرا ولقد ذكر لى رجلا (صفوان بن المعطل) ما علمت عنه إلا خيرا "(4) فقام سعد بن معاذ وقـ ـال أنـ ـا أعذرك يا رسول الله إن يكن من الأوس ضربت عنقه وأن يك من الخزرج أمرتنا فلبينا أمرك (5) فعـ ـلا صـ ـوتي زعيما الأوس والخزرج حتى هدأهما رسول الله وهدأت الأزمة إلا قليلا ،

----

(1) المصدر السابق (2) صحيح البخاري 5691 وغيره (3) صحيح مسلم 2770 باب حادثة الإفك

(4) المصدر السابق (5) سيرة بن هشام

ولاحظ أن رسول الله لم يذكر بالاسم عبد الله بن أبى بن سلول إنما اكتفى بالإشارة إليه بالعموم ، فهل كـان ينتقص من كماله عليه الصلاة والسلام إن هو سأل عائشة عما تلوكه الألسنة فى مهد الواقعة ؟ هذا هو التصرف الطبيعي . وهل كان ينتقص من كماله إن هو ذكر ابن سلول بالاسم أو عاتبه أو حتى أهدر دمه وهو الذي خاض في عرضه ؟

3 - إيذاء قريش له . وهل كان ينتقص من كماله إن هو غضب لنفسه وقد بلغ إيذاء قريش له وسخريتهم به واستهزائهم منه مداه ، حتى القوا الروث والوسخ على رأسه الشريف وهو ساجد يصلي .

أخرج أبو نعيم فى دلائل النبوة " عن عمرو بن العاص قال ما رأيت قريشا أرادوا قتل النبي إلا يوما ائتمروا به وهم جلوس فى الكعبة وهو يصلى عند المقام ، فقام إليه عقبة بن المعيط فجعل رداؤه فى عنقه ثم جذبه حتى وجب لركبتيه ساقطا ، فتصايح الناس فظنوا أنه مقتول ، فأقبل أبو بكر يشتد حتى أخذ بضبعي (بكتفي) رسـول الله يرفعه وهو يقول أتقتلون رجلا أن يقول ربى الله ؟ ، فلم يسلم بدوره من آذاهم (1) ، لك أن تتخيل وتتـساءل أهذه هي درجة الكمال والتي لا يغضب عندها رسول الله وينتصر لنفسه ولو مرة واحدة وهو بمكة ثلاثة عـشر عاما يعانى سخريتهم واستهزائهم وآذاهم وحصارهم وسبهم ووقاحتهم وكفرهم ؟ وكانت المرة الوحيدة التى عبر فيها عن غضبه لما قال لهم " أتدرون لقد جئتكم بالذبح " ،فيما أخرجه بن حبان في مسنده " اجتمـع أشـراف قريش فذكروا رسول الله فقالوا ما رأينا مثل ما رأينا وما صبرنا ما صبرنا على هذا الرجل ، سفه أحلامنا وشـتم آباءنا وعاب ديننا وسب آلهتنا ، فبينا هم كذلك إذ طلع رسول الله صلى الله عليه وسلم فأقبل يمشي حتى اسـتلم الركن فمر بهم طائفا بالبيت فغمزوه ببعض القول - قال الراوي فعرفت ذلك في وجهه – فلما مر بهم الثانيـة غمزوه بمثلها وفعلوا كذا الثالثة – ويعرف ذلك في وجهه صلى الله عليه وسلم ثم قال " أتسمعون معشر قـريش والذي نفسي بيده لقد جئتكم بالذبح " فأخذت القوم كلمته فما من رجل إلا وكأن على رأسه الطير حـتى أن أشدهم وطأة قبل ذلك ليقول له انصرف أبا القاسم فما كنت جهولا (2)، والقول بأن رسول الله نبي ورسـول فليحتمل كما احتمل غيره من أولى العزم من الرسل هو قول صحيح فى شكله سقيم فى جوهره ، لأن الله لم يجرد الأنبياء من بشريتهم ، فالنبي بشر كسائر البشر يأكل ويشرب ، وينام ويصحو ، ويتـزوج وينجـب ، ويبكـى ويضحك ، ويغضب ويفرح ، ويعتريه ما يعتري البشر جميعا من تغيرات وأحداث ، إلا أنهم يتمايزون عن البـشر فى البعث والتبليغ عن ربهم مع رفعتهم عن الدنايا والتحلي بمكارم الأخلاق ، فلا غرابة إذن أن يغضب رسول الله لنفسه وهو الذي قال " أوذيت فى الله وما يؤذى أحد ، وأخفت في الله وما يخاف أحد "(3)

----

(1) صحيح بن حبان 6567 وقال الهيثمي رجاله صحيح (2) بن حبان 6560 والمقصود بأشدهم وطأة من قبل هـو أبـو جهل وقد شكك محقق كتاب حياة الصحابة للكاندهلوي الدكتور محمد بكر اساعيل في صدور هذه الجملة عن النبي صـلى الله عليه وسلم لتنافي ذلك مع قول الله تعالى " وما أرسلناك إلآ رحمة للعالمين " وقوله " وإنك لعلى خلق عظيم " ج أول ص 249

(3) مسند أحمد 7036

وقال المقداد : لقد بعث النبي على أشد حال بعث عليه نبي من الأنبياء فى فترة وجاهلية على قوم ما يرون دينا أفضل من عبادة الأوثان (1)،والمقام الذي نتحدث عنه ليس مقام الاحتمال فحسب إنما مقام سموه عليه الصلاة والسلام على القدر المتاح لبشر نبيا كان أو غير نبي للاحتمال

4- أبي رهم الغفاري .

أحد الصحابة كان عائدا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم من غزوة وكان الى جنب النبي على ناقـة لـه وفى رجليه نعلان غليظان إذ زحمت ناقته ناقة رسول الله فوقع حرف نعله على ساقه صلى الله عليه وسلم فآلمته فقرعه رسول الله بسوط كان معه وقال له " أخر رجلك قد أوجعتني " فلم يبت الرجل ليلته من شدة القلق والظـن أن يكون رسول الله قد غضب عليه او أخذ منه حتى إذا كان الضحى أرسل إليه رسول الله فقال الرجل هي والذي نفسي بيده لقد أنزل الله في قرآن بسبب ما فعلته برسول الله ، فلما ذهب الرجل الى رسول الله ومازال الخـوف والوجل والحزن يملؤه قابله رسول الله ببشر وابتسامة وقال له " لقد أوجعتني بالأمس وأوجعتك فخذ هذه الغنمات عوضا لك عن ضربتي "(2) إن الكمال المفترض في هذه الواقعة يأخذ عدة وجوه ليس ما فعله رسول الله من بينها ، فإن كان رسول الله قد قرع الرجل بسوطه الذي كان بيده وما أظن الضربة إلا أنا كانت على سبيل العتـاب والمودة المعهود بنا صلى الله عليه وسلم فيكفي الرجل أن يعتذر له رسول الله أو يبتسم فى وجهـه خاصـة وأن ضربة رسول الله كانت رد فعل تلقائي لفجاءته بالألم الناتج عن اصطدام قدم أبى رهم به ، وخاصة أيـضا أن الرجل كان يظن أنه هو الذي أغضب رسول الله وأن مجرد تأكد الرجل من أن رسول الله غير آخذ عليه كـان يكفيه هو أو غيره . فالكمال أذن هو فض الأشكال الحاصل بابتسامة منه عليه الصلاة والسلام أو كلمة حانية أو قولة ترد لهذا الرجل الدم الذي هرب من عروقه ليلة كاملة ، إلا أنه تعدى هذه المرحلة صلى الله عليـه وسـلم وربما لم ينم قريرا هو أيضا خشية أن يكون الرجل قد ساءه ضربه بالسوط له وقوله له أوجعتني ، فلـم يمنعـه أن يرسل إلى الرجل ليزيل اللبس والوحشة إلا الليل فكان ماكان من رسول الله من عطاء يفوق خيال الرجل وتوقعاته

----

(1) بن حبان 6552والخبر بتمامه هو " أخبرنا .. حدثني عبد الرحمن بن جبير بن نفير عن أبيه قال جلسنا إلى المقداد بن الأسود يوما فمر به رجل فقال طوبى لهاتين العينين اللتين رأتا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، والله لوددنا أنا رأينا ما رأيت وشـهدنا مـا شهـدت ، فاستغضب فجعلت أعجب ما قال إلا خيرا ، ثم اقبل إليه فقال ما يحمل الرجـل علـى أن يـتمنى محضرا غيبه الله عنه لا يدري لو شهده كيف كان يكون فيه ، والله لقد حضر رسول الله صلى الله علـيه وسلم أقوام أكبهم الله على مناخرهم في جهنم لم يجيبوه ولم يصدقـوه ، أولا تحمدون الله إذ أخرجكم تعرفون ربكم مصدقين لما جاء به نبيكم صلى الله عليه وسلم قد كفيتم البلاء بغيركم ، والله لقد بعث النبي صلى الله عليه وسلم على أشد حال بعث عليها نبي من الأنبياء وفترة وجاهلية ما يرون أن دينا أفضل من عبادة الأوثان ، فجاء بفرقان فرق بين الحق والباطل وفرق بين الوالد وولده حـتى أن كـان الرجل ليرى ولده أو والده أو أخاه كافرا وقد فتح الله قفل قلبـه للإيمان ، يعلم أنه إن هلك دخل النار فلا تقر عينه وهو يعلم ان حبيبه في النار ، وأنا التي قال الـله " الذين يقولون ربنا هـب لنا من أزواجنا وذرياتنا قرة أعين " الآية ،

(2) مائتي قصة من حياة الصالحين

5 - لست ملكا .

رآه عمر ابن الخطاب وقد أثر فى جنبه حصير فقال له " يا رسول الله قد آثر في جنبك رمل هذا الحصير وفـارس والروم قد وسع الله عليهم وهم لا يعبدون الله . فاستوى عليه الصلاة والسلام وقال" أفي شـك أنـت يـابن الخطاب ؟ أولئك قوم قد عجلت لهم طيباتم فى الحياة الدنيا "(1) بأبي أنت وأمي يا رسول الله أنه تواضع النبـوة وأخلاقك أنت وحدك التى تنفرد با دون العالمين لأنك تعلم أن نبى الله داود كان ملكا وسليمان أيضا أوتى ملكا عظيما وما تركت فيهما الدنيا أثرا يحول بينهما وبين الرسالة والدعوة إلي الله .

6 - طعامه

ولأنك تعلم وأنت الم ل عليك الكتاب أن الله هو القائل (يَا أَيهَا الرسُلُ كُلُوا مِنَ الطيبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحاً إِني بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ) (2) فإذا زوجتك أم سلمة تصف لنا طعامك ليلة عرسها فتقول . " فإذا جرة فيها من شعير وإذا رحى وبرمة وقدر وكعب فأخذت ذلك الشعير فطحنته ثم عصدته فى البرمة وأخذت الكعب فأدمته فكان ذلك طعامه وطعام أهل بيته ليلة عرسه "(3) وتصف زوجتك أم المؤمنين عائشة بعض لياليك فتقول "لقد كنت أبكى رحمة به مما أرى به وأمسك بطنه بيدي مما أرى من الجوع "وتقول "كانت الليالي تمر دون أن يوقد فى بيتي زيت "

7 –معاناته .

عانى صلى الله عليه وسلم الفقر ومات ولم يدع ميراثا يورث لاعن ضيق ذات يد أو عدم قدرة على التكسب فقد كان له خمس الفيء والغنائم ولكن عن زهد وورع وعانى المرض والحمى وآلام السم ، وعانى اليتم والوحدة وعانى موت أولاده وبناته تباعا فى حياته وعانى موت زوجته الحبيب والسند المعين ، وعانى الإهانة والإيذاء وعانى الخوف والهروب والحصار ، وعانى الموت وسكراته ، عانى كل هذا ليعلو فوق الكمال فيحتوي كل نواقص أمته وكل آلمها وأحزانا ، فإذا وجد فيها فقيرا فلا يجحد ، وإذا وجد فيها محروما فلا ييئس ، وإذا وجد فيها ضالا فلا يتعب ، وإذا وجد جائعا فلا يغضب ، وإذا وجد فيها مهانا فلا يحزن وإذا وجد يتيما فلا يقنط ، وإذا وجد أرملا أو ميتا ولده فلا يبكي .

8 – عبس وتولى .

عبس فى وجه أعمى لأنه كاد أن يشغله عن دعوته صلى الله عليه وسلم لعلية القوم ، فانشقت السماء عن جبريل أرسله ربه بقرآن يتلى الى يوم الدين يعاتب رسوله المعظم عنده والمسمى محمودا في السماء ليقول له لا ، ليس أنت يا محمد الذي تعبس فى وجه إنسان أيا كان قدر هذا الإنسان وأيا كان حاله جاء يسألك وأنا القائل لك (وَأَمـا السائِلَ فَلا تَنْهَرْ) (4) ليس أنت ، إنما يفعلها غيرك من البشر فتكون هنة تمحوها اعتذار بسيط أو ابتسامة ، أمـا أنت فلا ، لأنك أسمى عندي وأحب

----

(1)صحيح مسلم 1479 (2) المؤمنون 51 (3) الطبقات الكبرى الجزء الثامن لمحمد الزهري (4) الضحى:10

9- الله أحق أن تخشاه .

أخفى في نفسه وحي الله تعالى له بأن زينب بنت جحش زوجته ، فأبى أن يأمر مولاه زيد الذي كان يشتكيها له ويستأذنه في طلاقها أن يطلقها فعاتبه ربه فقال له (وَإِذْ تَقُولُ لِلذِي أَنعَمَ اللهُ عَلَيهِ وَأَنعَمْتَ عَلَيهِ أَمسِكْ عَلَيـكَ زَوْجَكَ وَاتقِ اللهَ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى الناسَ وَاللهُ أَحَق أَنْ تَخْشَاهُ فَلَما قَضَى زَيْدٌ مِنْهَا وَطَراً زَوجْنَاكَهَا لِكَيْ لا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُن وَطَراً وَكَانَ أَمْرُ اللهِ مَفْعُولاً)(1) حتى قال عمرو بن مسعود الثقفي وعائشة والحسن " ما أنزل الله على رسوله آية أشد من هذه الآية (2)

وقال علي بن الحسن " إن النبي صلى الله عليه وسلم كان قد أوحى الله تعالى إليه أن زيدا يطلق زوجته زينـب وأن يتزوجها بتزويج الله له ، فلما تشكى زيد للنبي خلق زوجته وأنا لا تطيقه وأنه يريد طلاقها قال له رسول الله صلى الله عليه وسلم على جهة الأدب والوصية أمسك على زوجك وهو يعلم أن طلاقها واقع لا محالة وهذا هـو الذى أخفى رسول الله في نفسه وخشى قول الناس في زواجه بما بعد زيد فعاتبه الله في ذلك(3) وقال القرطبي " هذا القول هو أحسن ما قيل في تأويل هذه الآية وهو الذي عليه أهل التحقيق من المفسرين والعلماء الراسـخين كالزهري والقاضي بن العربي والقشيري وغيرهم" (4) كما قال الترمزي وهذا الذي قاله علي بن الحسين جاء به من خزانة العلم جواهر ودرا من الدرر (5) وقس كل المواقف النبوية على هذا النحو وأعلم أن كـل شيء خلقه الله وكل قوة أودعها فى خلقه لها حدود بما فى ذلك القيم والمثل الأخلاقية العليا .

واليك هذا المثل البسيط ، دخل رجل على رسول الله وأبو بكر - ويبدو أن خصومة كانت بينه وبين أبـو بكر –فنال الرجل من أبو بكر سبا وإيذاء مرة تلو أخرى وأبو بكر ساكت لا يتكلم ، فلم زاد الرجل فى إيذائه له ، لم يجد أبو بكر بدا وقد وصل الصبر معه الحد الكامل إلا أن ينتصر لنفسه ويرد على الرجل سبابه ، فما كان من رسول الله إلا أن قام من المجلس ، فسأله أبو بكر عن سبب ذلك وهو شاهد على الواقعة من بدايتها ، فقال لـه صلى الله عليه وسلم – بالمعنى – " وكل الله ملكا يرد عنك فلما انتصرت أنت لنفسك حضر الشيطان وأنصرف الملك وما كنت لأجلس بمجلس به شيطان . " شاهد الموقف الحد الذي أحتمله أبو بكر من الصبر ، والصبر ككل الملكات التى أودعها الله البشر كالعقل والعفو والإحسان والبر والعطف ، وكالجوارح أيضا كالـسمع والبـصر والإرادة كلها لها حدود وكلها لها قوى محددة . وقولنا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم تخطى الكمال ففـاق غيره من البشر ، لا يتعارض مع كمال الله الذي يليق بذاته سبحانه وتعالى ، لأن الحديث عن الكمال هو حديث عن بشر يتمايزون فيما بينهم من حيث الصفات والأحوال والطباع وما إلى ذلك ، فليس في ذلك تعديا للحدود البشرية ولا خروج بما عن المتاح لها ، أما صفات الله تعالى فليست محل للتمايز أو المقارنة ، لأنه سبحانه وتعـالى (لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السمِيعُ الْبَصِير)(6)

----

(1) الأحزاب 37 (2) تفسير بن كثير (3) نفس المصدر (5) تفسير القرطبي (5) نفـس المـصدر (6) الـشورى الآية11

منظومة الكمال

ويأخذ الكمال المحمدي في طلاقته وشموله معنى آخر يمكن أن نطلق عليه منظومة الكمال

1- دين الإسلام الكامل

فمن المعلوم أن الدين الإسلامي هو الدين الخاتم وهو الدين المهيمن على سائر الأديان السماوية السابقة قـال تعالى :(هُوَ الذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَق لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدين كُلِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ)(1) وهو بـهذا الوصف جاء مكملا لأوجه النقص التى اعترت الأديان الأخرى ومتمما لها ، قال سبحانه (الْيَوْمَ أَكْمَلْـتُ لَكُـمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلاَمَ دِيناً)(2) قال الآمادي في أحكامه " إكمال الدين إنما يكـون باشتمال الكتاب والسنة على تعريف كل ما لا بد من معرفته " (3) ، والكمال المشار إليـه فى هـذه الآيـة لا ينصرف إلى فرائض الإسلام وعباداته وأوامره ونواهيه ولكنه يمتد بأثر رجعى ليشمل اكتمال النقص في الأديـان الأخرى السابقة عليه بحيث لايتوقع ظهور دين جديد يضيف جديدا أو يمحو ثابتا أو يثبت منسوخا .فقد اشـتمل الدين الإسلامي على علوم الأولين والأخيرين وعلم ماكان من المبدأ والميعاد وخلق العالم وأحوال الأمم الماضـية والأنبياء وسيرهم مع أممهم ودرجاتم ومنازلهم عند ربم وعددهم وكيفية وأنواع العقوبات التى عـذب الله بـا أعدائهم وماأكرم الله به أتباعهم . وذكر الملائكة وأصنافهم وأنواعهم واليوم الأخر وتفاصيله والجنـة ونعيمهـا والنار وعذابا والبرزخ والساعة " (4) وذكر الجان وكيفية خلقهم ووصفهم وأنم مكلفون مثل الإنسان ومنـهم الصالحون ومنهم الطالحون ومنهم من سيدخل الجنة ومنهم من سيدخل النار ، وذكر بعض أنـواع الحيوانـات والطيور وأخبرنا أنم أمم أمثالنا ، وذكر الحلال والحرام والمتشابه والعبادات والمعـاملات والحـروب والـسلم والعلاقات الدولية ، وذكر أحكام الزواج والطلاق والميراث والوصايا والوقف والقتل والدية والحـدود، و ذكـر علوم الارض والسماوات والنجوم والكواكب ، وعلوم القلوب ودائها ودوائها وعللها وشفائها ، وصـفات الله وأسمائه الحسنى وعرشه وكرسيه ، وأيضا وسائل التقرب إليه ، وغيرذلك كثير مما افتقدته سائر الأديـان ، وربمـا يكون الملمح الدال على ذلك قوله تعالى على لسان موسى عليه السلام عندما سأله فرعون عن خبر القرون الأولى فقال "عِلْمُهَا عِنْدَ رَبي فِي كِتَابٍ لا يَضِل رَبي وَلا يَنسَى)(5)" إذ لو كان العلم بأخبار هذه الأمـم في التـوراة لأخبره با مثلما أخبر محمد با قومه لوجودها في القرآن. ولا تعارض بين هذا القول والقـول بـأن المقـصود بالكتاب في الآية هو اللوح المحفوظ ، ذلك لأن الله تعالى نسخ في اللوح المحفوظ كل شيء وكتب في القرآن أخبار الأمم الأولى ، وغنى عن البيان أن مصادر العلم والفقه فى الدين الإسلامي كثيرة منها القرآن والـسنة والإجمـاع وأقـوال الـصحابة وأراء العلمـاء والفقهـاء والقيـاس والمـصالح المرسـلة وسـد الـذرائع ،

----

(1) التوبة 33 (2) المائدة من الآية 3 (3) الأحكام للآمدي أبو الحسن
(4) هداية الحيارى (5) طه من الاية 52

وإذا كانت الأديان السماوية اتفقت كلها على الإيمان بالله وحده وبالبعث - أى بوحدة العقيدة - حتى أن الدين اسمه فى كل الأديان السابقة الإسلام إلا أن لكل منها شرع مستقل قال تعالى (لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجاً)(1) ، وقال (شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدينِ مَا وَصى بِهِ نُوحاً وَالذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدينَ وَلا تَتَفَرقُوا فِيهِ)(2)، لذا قال القرطبي في تفسير قوله تعالى (مَا فَرطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ)(3)" أي في اللوح المحفوظ فإنه أثبت فيه ما يقع من الحوادث ، وقيل أي في القرآن أي ما تركنا شيئا من أمر الدين إلا وقد دللنا عليه في القرآن إما دلالة مبنية مشروحة وإما مجملة يتلقى بيانها من الرسول عليه الصلاة والسلام أومن الإجماع أو من القياس الذي ثبت بنص الكتاب (وَنزلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَاناً لِكُل شَيْءٍ)(4) وقال: (وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذكْرَ لِتُبَينَ لِلناسِ)(5)وقال : (وَمَا آتَاكُمُ الرسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا)(6) فأجمل في هذه الآية وآية النحل ما لم ينص عليه مما لم يذكره فصدق خبر الله بأنه ما فرط في الكتاب من شيء إلا ذكره وإما تفصيلا وإما تأصيلا (7) وعن أبى هريرة رضي الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " إن الله لو اغفل شيئا لأغفل الذرة والخردلة والبعوضة (8)وقال بعض قدامى العلماء : قال تعالى : (وَنزلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَاناً لِكُل شَيْءٍ) وقال (مَا فَرطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ) إلا أن البيان ضربان : بيان جلي تناوله القرآن نصا ، وبيان خفي تناوله القرآن ضمنا ، وكان تفصيل بيانه موكولا إلى النبي صلى الله عليه وسلم قال تعالى :
(وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذكْرَ لِتُبَينَ لِلناسِ مَا نُزلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلهُمْ يَتَفَكرُونَ) فمن جمع الكتاب والسنة فقد استوفى نوعي البيان (9) وليس ذلك معناه ذكر كل شيء يخطر على العقل أو الفؤاد أو مما يتناوله الناس في حياتهم الدنيوية ولكن المقصود أنه مصدر البيان لكل شيء والمرجع إليه ، قال الآمدي " المراد منه إنما هو عدم التفريط فيما ورد من الكتاب لا أن المراد به بيان كل شيء فإنا نعلم عدم اشتماله على بيان العلوم العقلية من الهندسية والحسابية وكثير من الأحكام الشرعية وبتقدير أن يكون المراد به بيان كل شيء لكن لا بطريق الصريح بل بمعنى أنه أصل لبيان كل شيء فإنه أصل لبيان صدق الرسول في قوله (10) ويؤكد ذلك ما نقله بن حزم عن علي بن أبي طالب قوله " ولما تبين بالبراهين والمعجزات أن القرآن هو عهد الله إلينا والذي ألزمنا الإقرار به والعمل بما فيه وصح بنقل الكافة الذي لا مجال للشك فيه أن هذا القرآن هو المكتوب في المصاحف المشهورة في الآفاق كلها ، وجب الانقياد لما فيه فكان هو الأصل المرجوع إليه لأننا وجدنا فيه " وما من دآبة في الأرض ولا طائر يطير بجناحيه إلا أمم أمثالكم ما فرطنا في الكتاب من شيء ثم إلى ربهم يحشرون " (11) (12)

----

(1) المائدة 48 (2) الشورى 13 (3) الأنعام: من الآية38 (4) النحل: من الآية89 (5) النحل من الآية 44
(6) الحشر: من الآية 7 (7) تفسير القرطبي لسورة طه (8) أخرجه الأصبهاني في كتاب العظمة وبرواية أخرى عـن أبـو هريرة أيضا " يا أيها الناس لا تغتروا بالله فإن الله عز وجل لو كان مغفلاً شيئاً لأغفل الذرة والخردلة والبعوضـة كمـا هـو في الفردوس بمأثور الخطاب للهمذاني 8167 (9) تذيب الأسماء لأبو زكريا بن حزام نقلا عن أبو الحسن الخطابي
(10) الأحكام للأمدي ج (11) الأنعام 38 (12) الأحكام لابن حزم ج 1

وقال ابن مسعود رضي الله عنه " انزل الله في هذا القرآن كل علم وميز لنا فيه كل شيء ، ولكن علمنا يقصر عما بين لنا في القرآن ، وقال الشافعي جميع ما حكم به النبي صلى الله عليه وسلم فهو ما فهمه مـن القـرآن ، وعقب بن حزم بقوله " ويؤيد ذلك قوله صلى الله عليه وسلم " أني لا أحل إلا ما احل الله في كتابه " (1) وقال الشافعي أيضا ليست تـ ل بأحد في الدين نازلة الا وفي كتاب الله الدليل على سبيل الهدى فيها (2)

والدين السابق منها على الدين الإسلامي كان ناقصا خاصة فى مجال التشريع والعبادات والمعاملات والفقـه وكان النقص وقتئذ يتفق مع أحوال المكلفين فشريعة نوح عليه السلام تتفق مع قومه وكذا شريعة موسى وعيسى عليهما السلام . وماكان يصلح فى هذا الوقت لم يكن يصلح فى غيره ، بل أن الغالب الأعظم من الأنبياء لم يأتى بشرع لقومه وإنما اكتفى بالبلاغ عن ربه والدعوة الى الإيمان به وحده لاشريك له وبالبعث بعد الممـات وخلـع ماعداه من الآلهة والمعبودات دون منهج أو شريعة معلومة .

فكانت " مراحل فى كل مرحلة يبعث الله نبيها المناسب ويـ ل من الشرائع ما يلائم تطور النفس فى تلك المرحلة ، فإذا ارتقت الإنسانية وتقدمت وتخطت تلك المرحلة بعث الله الرسول الذي يكمل النـاموس ليواكـب التقـدم الروحي ، ففي زمن موسى عصر الفراعنة عهد العنف والعنفوان والجبروت يـ ل ناموس العدالة علـى موسـى ، فالعدالة المناسبة فى هذا العهد هر رد الضربة بمثلها " العين بالعين والسن بالسن " فإذا ارتقى الإنسان خطوة نـزل ناموس المحبة فيقول المسيح عليه السلام فى الإنجيل " سمعتم أنه قيل عين بعين وسن بسن وأما أنا فـأقول لكـم لا تقاوموا الشر من لطمك على خدك الأيمن فأدر له الأيسر ومن سخرك ميلا فأذهب معه ميلين . " وتصطدم تلك الأخلاقيات الرفيعة بجبروت المتجبرين وصلف الظالمين فتأتى شريعة محمد لتجمع بين ناموس العدالة وناموس الحب فى ناموس واحد هو ناموس الرحمة ، فيقول تعالى (وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْـرٌ لِلصابِرِينَ)(3) ثم تنقطع الرسالات لعلم الله المسبق أنه لن يحدث تطور روحي (4) فكانت كل شريعة تنسخ مـا قبلها حتى نسخ الإسلام ماسبقه من أديان وهذا هو تفسير قوله تعالى : (مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنْسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلِهَا أَلَمْ تَعْلَمْ أن اللهَ عَلَى كُل شَيْءٍ قَدِيرٌ) (5)

----

(1) رواه بذا اللفظ الطبراني في الأوسط من حديث عائشة (2) أبجد العلوم لصديق القنوجي دار نشر بيروت

(3) النحل 126 (4)د/ مصطفى محمود القرآن محاولة لفهم عصري (5) البقرة 106

2-في مجال العبادات

وفي مجال العبادات تجد الأديان السماوية الكبرى كاليهودية والنصرانية تخلو من بعض العبادات التى احتواهـا الدين الإسلامي كالوضوء والحج .. وكان مما حرم عليهم من بعض المأكولات قد أحله الله للمسلمين ، وتجـد عيسى عليه السلام عندما أرسل بالإنجيل يحل بعض ما حرم على بني إسرائيل بموجب أحكام التوراة ، فيقول ربنا جلا وعلا عنه عليه السلام (وَمُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَلِأُحِلَّ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ وَجِئْتُكُمْ بِآيَـةٍ مِنْ رَبِّكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ) (1) " قال قتادة " جاءهم عيسى بألين مما جاء به موسى لأن موسى جاءهم بتحريم الإبل وأشياء من الشحوم فحللها لهم عيسى كما حلل كل ذي ظفر (2) ، وفى تفسير الجلالين أحل لهم الـسمك والطير مالا صيصة له .. ثم يأتى رسول الله صلى الله عليه وسلم فيضع عنهم إصرهم والأغلال التى كانت عليهم فيقول الله (الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوباً عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْأِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ)(3) ..

أى يحل لهم ماحرم عليهم من البحيرة والسائبة والواصلة ويحرم عليهم الخبائث كلحم الخ ير والربا (قاله القرطبى) وجاءهم بالتيسير والسماحة ووضع عنهم مافرض عليهم من الشدة والعنت كتحريم العمل يـوم السبت ، ومثل قتل أنفسهم علامة على قبول التوبة ، وجعل قتل النفس الواحدة كقتل الناس جميعـا وإحيائهـا كأحيائهم جميعا، ويأمرهم بخلع الأنداد ويأمرهم بمكارم الأخلاق وصلة الأرحام ، ومن الإصر والأغلال أيـضا " كغسل البول وتحليل الغنائم ومجالسة الحائض ومؤاكلتها وكانوا لا يفعلون ذلك وتحليل العمل يوم الـسبت "(4) وكان الله مسخهم قردة وخنازير للعمل يوم السبت .

مع مراعاة ما تضمنه كتاب الله تعالى من ذكر الركوع والسجود والصيام إخبارا عن الأمم التى كانت قبلنا ، كقوله تعالى لبنى إسرائيل " (وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ) (5) ، إذ يقول بن كثير " أمرهم بالصلاة والزكاة مع النبي "(6) وقال القرطبى خص الركوع بالذكر لأن بـنى إسـرائيل لم يكـن في صـلاتهم ركوع(7)، وفى قوله تعالى (يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِـنْ قَـبْلِكُمْ لَعَلَّكُـمْ

َتتقُونَ)(8) قال بن عباس كان صيام اليهود ثلاثة أيام ويوم عاشوراء ثم نسخ بصوم رمضان . والدليل على ذلـك أن أحدا من اليهود أو النصارى لم يحتج بمشابهة صلاة المسلمين بصلاتهم فى أركانها وعددها وشروطها ،

----

(1) آل عمران 50 (2) تفسير القرطبي (3) الأعراف 157
(4) تفسير القرطبي (5) البقرة 43 (6) تفسير بن كثير (7) تفسير القرطبي (9) البقرة 183

بل " كان إذا أذن المؤذن وقام المسلمون إلى الصلاة قالت اليهود قد قاموا لاقاموا وكانوا يضحكون إذا ركـع المسلمون وسجدوا ، وقالوا فى حق الآذان لقد ابتدعوا شيئا لم نسمع به فيما مضى من الأمم فمن أين لهم صياح مثل صياح العير ما أقبحه من صوت وما أسمجه من أمر وكانوا يضحكون ويسخرون عند سماع الآذان(1)، قـال تعالى (وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى الصلاةِ اتخَذُوهَا هُزُواً وَلَعِباً ذَلِكَ بِأَنهُمْ قَوْمٌ لا يَعْقِلُونَ)(2) ،
والمراد أن العبادات أخذت في شكلها وجوهرها الكمال الذي لازيادة فيه ولانقصان ، ومن هنا صار كـل أمـر صغيرا أو كبيرا حسنا كان أم قبيحا يضعه الإنسان يضاهى به الدين الإسلامي وعلى غير منهج رسول الله صـلى الله عليه وسلم يعد بدعة .

3- جوهر الديانات

وعن جوهر الديانات تجد أن اليهودية غلبت فيها المادة على مطالب الروح تماشيا مع جبلة اليهود وصـفاتهم المادية ، إذ كانوا لا يؤمنون إلا بكل ما هو مادي ظاهرا أمام أعينهم حتى أنهم طلبوا أن يروا الله جهـرة فقـالوا لموسى عليه السلام(لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتى نَرَى اللهَ جَهْرَةً)(3)وقالوا (فَاذْهَبْ أَنْـتَ وَرَبـكَ فَقَـاتِلا إِنـا هَاهُنَـا قَاعِدُونَ)(4وما برحوا إذ فر بهم موسى من بطش فرعون بهم إلا أن قالوا (يَا مُوسَى اجْعَلْ لَنَا إِلَهاً كَمَـا لَهُـمْ آلِهَةٌ)(5)وما إن تركهم عليه السلام لميقات ربه حتى استضعفوا نبي الله هارون واتخذوا من حليهم التى سرقوها من المصرين (عِجْلاً جَسَداً لَهُ خُوَارٌ)(6) والمسيحية أدارت ظهرها للمادة واتجهت الى الروح وصبغت الحياة بـصبغة الروحانيات فدعت إلى سمو الروح بعيدا عن عالم الحس وكانت بشارته عليه السلام أعظم فتح فى عالم الروح لأنه نقل العبادة من عالم الحس إلى عالم الضمير .

4- الكتب السماوية والأنبياء .

وما يقال على الأديان يقال على الكتب السماوية والصحف والمزامير كالتوراة والإنجيل والزبور ، فلا تجـد في هذه الكتب – قبل تحريفها قطعا – ما اشتمل عليه القرآن الذى قال الله تعالى فيه : (مَا فَرطْنَا فِي الْكِتَابِ مِـنْ شَيْءٍ ثُم إِلَى رَبهِمْ يُحْشَرُونَ)(7)كل ذلك بغير تعارض مع قوله سبحانه وتعالى عن التوراة (إِنا أَنْزَلْنَا التوْرَاةَ فِيهَا

هُدىً وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النبِيونَ الذِينَ أَسْلَمُوا لِلذِينَ هَادُوا وَالربانِيونَ وَالْأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِنْ كِتَابِ اللهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ فَلا تَخْشَوُا الناسَ وَاخْشَوْنِ وَلا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَناً قَلِيلاً وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ) (8) وقوله عن الإنجيل (وَقَفيْنَا عَلَى آثَارِهِمْ بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ مُصَدقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التوْرَاةِ وَآتَيْنَاهُ الْأِنْجِيلَ فِيهِ هُدىً وَنُورٌ وَمُصَدقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التوْرَاةِ وَهُدىً وَمَوْعِظَةً لِلْمُتقِينَ وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ الْأِنْجِيلِ بِمَا أَنْزَلَ اللهُ فِيهِ وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ) (9)

----

(1) المائدة 58 (2)جريدة الأزهر الجزء العاشر 2003/12 مقالة للشيخ صديق بكر عطية
(3) البقرة من الآية55 (4) المائدة من الآية 24 (5) الأعراف من الآية 138
(6) الأعراف من الآية 148 (7) الأنعام من الآية 38 (8) المائدة 44 (9) المائدة 47

لأنما كانا مقيدين بالزمان والمكان اللذان أنزلا فيها وكذا بالقوم المنزل إليهما هذين الكتابين ، بينما كانت المزامير فمجموعة تراتيل وأناشيد تتضمن تمجيد الله وحمده والثناء عليه وكذا الزبور وليس بما أحكام أو أوامر ونواهي . ثم كان لابد أخيرا أن ينزل سبحانه وتعالى بدين كامل شامل يحميه ويحفظه من التبديل والتغيير والتحريف الذي طرأ على الديانات الأخرى ليبقى هذا الدين هو الحافظ لكلام الله تعالى وشرائعه ومناهجه الحقه

وما يقال على الأديان والكتب السماوية يقال على الأنبياء وسيأتي بشيء من التفصيل ما فضل الله به نبيه محمد على سائر الأنبياء من أمور فقدانم لها نقصا لا يعيبهم ولكنه يتماشى مع منهجهم والقوم الذين أرسلوا إليهم ، ويغنيني فى هذا المقام حديثه صلى الله عليه وسلم القائل فيه " مثلى ومثل الأنبياء كمثل رجل بنى بيتا فحسنه وجمله الا موضع لبنة فجعل الناس يقولون ما أحسنه ما أجمله لولا هذه اللبنة فأنا اللبنة وأنا خاتم النبيين . " (1) فأكمل هو البناء فصار شرعه هو المتمم للشرائع السابقة ودينه هو المتمم للأديان السابقة وكتابه هو المتمم للكتب السابقة وغاية بعثته ليتمم مكارم الأخلاق التى كانت قبل ناقصة

5- كمال الزمان والمكان .

ثم تأخذ منظومة الكمال بعدا آخر زمانيا ومكانيا ، فكان كل دين يتناسب مع المكان الذي أنزل فيه والزمان الذي بعث النبي فيه حيث جاءت رسالة الإسلام مثلا مناسبة فى المكان والزمان المناسبين ، فالمكان فهو مكة المكرمة أم القرى ومركز العالم وقلبه وكعبتها تتصل بعرش الرحمن وأما الزمان فهو نمايته حيث لا تكون الإنسانية في حاجة إلى دين جديد أو شرع جديد أو نبي جديد . (إِن الدينَ عِنْدَ اللهِ الْأِسْلامُ وَمَا اخْتَلَفَ الذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْياً بَيْنَهُمْ وَمَنْ يَكْفُرْ بِآيَاتِ اللهِ فَإِن اللهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ) (2)وكمال الإسلام وكمال كتابه وكمال نبيه ضرورة لعالمية الإسلام بينما كان النقص الوارد فى الأديان السابقة وكتبها وأنبيائها متفقا وإقليمية هذه الأديان ومحليتها

6- ما كان لمحمد أن يخطئ

ومن هذا المنطلق أقول ماكان ينبغي لمحمد أبن عبد الله أن يخطئ فيحتسب خطأه قرينة على كذب ادعائه النبوة ، فى وقت سيكون خطأه صلى الله عليه وسلم صغيرا أم كبيرا –خاصة فى المال الأخلاقي- حجة وذريعة لعـدم الدخول في الإسلام أو ردة من دخله ، فلنا أن نتخيل مثلا أن يكون حب زينب بنت جحش وهواها وقع فى قلبه صلى الله عليه وسلم فعلا وحقيقة بعد أن رآها فى زينتها حاسرة شعرها فأجبر دعيه زيد بن حارثة على تطليقها ليتزوجها مثلما روجت الإسرائيليات وأباطيل المستشرقين وأيضا بعض التفاسير ، ولنا أن نتخيل صـدق ادعـاء المستشرقين بزواجه صلى الله عليه وسلم بأكثر من امرأة رغبة وشهوة .. سيكون ذلك أو غيره سـببا لإحجـام كثيرين عن دخول الإسلام وذريعة لارتداد ضعاف الإيمان ، ومن هنا اكتملت عقيدة الإسلام وسمـت لـصفائها ونقائها شريعة وكتابا ونبيا ، ويصير محمد رسول الله جزء من هذا الكمال . بل هو المكمل لهذه المنظومة الرائعة ،

----

(1) صحيح مسلم 2286 (2) آل عمران 19

7- خير أمة .

ثم يغلق الله سبحانه وتعالى دائرة الكمال بالأمة المحمدية خير أمة أخرجت للناس وخير أمة تستقبل هذا التـشريع الكامل والكتاب الكامل والنبي الكامل وخير أمة تحافظ عليه وتحافظ على نبيها وشرعها وكتابا المقدس مهمـا ضربا الفساد ، وفي الحديث القدسي أوحى الله تعالى إلى أشعياء النبي أنى مرسل نبيا أميا ... وأجعل أمته خير أمة أخرجت للناس أمرا بالمعروف ونيا عن المنكر توحيدا بي وإيمانا وإخلاصا لي وتصديقا لما جاءت به رسلي وهـم رعاة الشمس ، طوبى لتلك القلوب والوجوه والأرواح التي أخلصت لي ، ألهمتهم التسبيح والتحميـد والتـهليل والتوحيد في مجالسهم ومضاجعهم ومتقلبهم ومثواهم ، يصفون لي فى المساجد كما تصف الملائكة حول عرشي ، هم ولاتي وأنصاري ، أنتقم بم من أعدائي عبدة الأوثان ، يصلون لي قياما وقعودا وركوعا وسجودا ويخرجون من ديارهم وأموالهم ابتغاء مرضاتي ألوفا . ويقاتلون في سبيلي صفوفا ، أختم بكتابم الكتب وبشريعتهم الشرائع وبدينهم الأديان ، أجعلهم أفضل الأمم وأجعلهم أمة وسطا ليكونوا شهداء على الناس ، إذا غضبوا هللوني . وإذا قبضوا كبروني ، وإذا تنازعوا سبحوني ، يطهرون الوجوه والأطراف ويشدون الثياب إلى الأنصاف ، ويكـبرون ويهللون على التلال والأطراف ، قربانم دمائهم وأناجيلهم صدورهم ، رهبانا بالليل ليوثا بالنهار ، ينادي مناديهم في جو السماء ، لهم دوي كدوي النحل طوبى لمن كان منهم وعلى دينهم ومنهجهم وشريعتهم ، ذلك فـضلى أوتيه من أشاء وأنا ذو الفضل العظيم ،

وعن أبى هريرة رضى الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ما مختصره " إن موسى لما أنزلت عليه التوراة قرأها ووجد ذكرا لهذه الأمة فقال يارب إنى أجد فى الألواح أمة هم الآخرون السابقون ، وهم الـسابقون المشفوع لهم ، وهم المستجيبون المستجاب لهم ، أناجيلهم في صدورهم . يأكلون الفيء ، يجعلـون الـصدقة فى بطونم يؤجرون عليها ، إذا هم أحدهم بحسنة ولم يعملها كتبت حسنة وإذا عملها كتبت عـشرة ، وإذا هـم

أحدهم بسيئة ولم يعملها كتبت حسنة وإذا عملها كتبت سيئة مثلها يؤتون العلم الأول والأخر فيقتلـون قـرون الضلالة المسيخ الدجال ، فأجعلها يارب أمتي ، قال الله يا موسى إني اصطفيتك على الناس بكلامـي ورسـالتي فخذ ماأتيتك وكن من الشاكرين ، قال قد رضيت يرب ." (1)

ويقول بن تيميه : " وأمته صلى الله عليه وسلم أكمل الأمم في كل فضيلة ، وإذا قيس علمهم بعلم سائر الأمـم ظهر فضل علمهم، وإن قيس دينهم وعبادتم وطاعتهم لله بغيرهم ظهر أنم أديـن مـن غيرهـم ، وإذا قـيس شجاعتهم وجهادهم في سبيل الله وصبرهم على المكاره في ذات الله ظهر أنم أعظم جهادا وأشجع قلوبـا ، وإذا قيس سخاؤهم وبذلهم وسماحة أنفسهم بغيرهم ظهر أنم أسخى وأكرم من غيرهم . وهذه الفضائل به نالوهـا، ومنه تعلموها ، وهو الذي أمرهم بها ،

----

(1) الحديث بتمامه ذكره الطبري في نفسيره بالجزء التاسع

الفصل الثالث
محمد الإنسان كما أراده الله

مراد الله تعالى

بذه الحقائق التي قدمنا لها يمكن القول بأن رسول الله صلى الله عليه وسلم هو الإنسان الوحيد الذي حقق مراد الله تعالى وكان كما يريد الله تعالى ، فحق عليه القول بأنه الإنسان كما أراده الله والنبي كما أراده الله .

فكما قلنا في الوحي سابقا أن لله تعالى مرادا في خلقه ينبغي أن يتحقق ، فإن له أيضا سبحانه وتعالى مرادا من خلقـه ينبغي أن يتحقق ، والفارق بين مراده في خلقه ومراده منهم : أن الأول يتحقق بفعله وتدخله هو سبحانه وتعالى وفق ما يرى وما يقدر ، أما الثاني فمرهون بفعل الإنسان وإرادته وتصرفه فإذا حقق أحد من خلقه – فـردا أو في جماعـة – هذا المراد فقد صار بذلك - أو صاروا- النموذج الأمثل ، وعندئذ يصير الخلق مُلزمين باتباع هذا النموذج بغير زيادة ولا

نقصان ، وبقدر ما يكون الإنسان قريبا من هذا النموذج وعلى شاكلته بقدر ما يكون قريبا من الله محققا لرضاه بما يناله من ذلك الأجر والثواب ، وبقدر ما يكون بعيدا عنه يبتعد عن الله موجبا لسخطه مع ما في ذلـــك مـن ذنـوب وعقاب ، فقد أراد الله تعالى مثلا دولة إسلامية تقام فيها شعائر الإسلام وتتاح فيها عبوديته ويطبق فيها شـرعه وتقـام حدوده ولا تنتهك محارمه ، وغير ذلك من متطلبات الدولة الإسلامية التي تعلو فيها كلمة لا إله إلا الله محمد رسول الله بأركانها وحقها ولا تـ ل أبدا ، فلم تك هذه الدولة إلا في بقعة واحدة فقط من بقاع الأرض ، هي تلك الصحراء الموغلة في البداوة والقدم - مكة والمدينة وما حولهما – وكان ذلك في فترة زمنية واحدة هي تلك التي بدأت من بعثته صلى الله عليه وسلم أو من هجرته إلى المدينة على وجه أدق ، ثم بعد فتح مكة وامتدت إلى مقتل أمير المؤمنين عثمان بن عفـان وجزء من خلافة على بن أبي طالب ، حيث صارت بعد ذلك ملكا عضوضا بدأت معه معالم هذه الدولة في الـزوال ، وأراد الله تعالى مثلا نساء مؤمنات صالحات قانتات عابدات ، يحمين الإسلام ويساعدن أزواجهن على حمايته وينشأ على أيديهن أبناء لحمايته أيضا ، فكان ذلك في هذه الدولة التي أشرنا إليها آنفا فقط ولم يكن في غيرهـا ، وفي ذات الزمـان وليس في غيره ، قال أنس رضي الله عنه : لقد رأيت عائشة بنت أبي بكر وأم سليم ، وإنهما لمشمرتان أرى خدم سوقهما (1) ، تحملان القرب على متونهما (2) تفرغانه في أفواه القوم ، ثم ترجعان فتملآنها ، ثم تجيئان فتفرغانه في أفواه القوم ، (3)وقال عمر: كانت أم سليط تزفر لنا القرب يوم أحد (4). وكان في هؤلاء النسوة أم أيمن، فإنها لما رأت فلول المسلمين يريدون دخول المدينة أخذت تحثو في وجوههم التراب، وتقول لبعضهم: هاك المغزل، وهلم سيفك ثم سارعت إلى ساحة القتال، فأخذت تسقي الجرحى، فرماها حبان بن العرقة بسهم، فوقعت وتكشفت، فأغرق عدو الله في الضحك، فـشق ذلك على رسول الله صلى الله عليه وسلم، فدفع إلى سعد بن أبي وقاص سهما لا نصل له، وقال ارم به ، فرمى به سعد ، فوقع السهم في نحر حبان، فوقع مستلقيا حتى تكشف . فضحك رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى بدت نواجـذه، ثم قال: استقاد لها سعد أجاب الله دعوته (5)

----

(1) خلاخيل (2) تحملان القرب على أكتافهما وتسرعان بها (3) مسلم 1811 (4) البخاري 2725 وتزفر أي تخيط
(5) الإصابة لابن حجر ترجمة سعد بن أبي وقاص 3196

وهذه أم عمارة تروي كتب السيرة أنها اعترضت لابن قمئة في أناس من المسلمين فضربها ابن قمئة على عاتقها ضربة تركت جرحا أجوف، وضربت هي ابن قمئة عدة ضربات بسيفها، لكن كانت عليه درعان فنجا، وبقيـت أم عمـارة تقاتل حتى أصابها اثنا عشر جرحا (1) وغيرهن كثيرات

وإذا كنا قلنا فيما سبق أن مراد الله الأكيد في خلقه هو تحقيق منهجه ، فأن مراده الأكيد منهم أيضا هو تحقيق هـذا المنهج .. ويتمثل هذا المراد في عبوديته العبودية الحقة القائمة على الحرية والتفرد ، أي إفراده وحده جلا وعلا بالعبوديـة ودون إكراه ، وكذا التحلي بالقيم الرفيعة والمثل العليا والأخلاق الراقية والسمو بها إلى مصاف الملائكة المقربين حيـث يصير صاحب هذه القيم والمثل والأخلاق واحدا منهم إن لم يكن أسمى وأعلى وإن اختلف في جوهره وتكوينه عنـهم ،

ومن صفاته ألا يقترف منكرا أو قبيحا طيلة حياته ، وألا يعرف معروفا إلا أتاه أو سعى إليه أو حث عليه ، وأن يكـون سليم القلب من كل سوء وصافي السريرة نقي الضمير طاهر النوايا .

ولما كان رسول الله واحدا من الخلق وجاء في فترة انقطاع من الرسل فقد كان معنيا بمراد الله المشار إليـه وكأحـد المكلفين المنعم عليهم بنعمة العقل والإرادة الحرة ، فكان هو هذا الإنسان الوحيد الذي حقق هذا المراد لكونه لم يقتـرف منكرا طيلة عمره قبل البعثة أو بعدها ، ولكونه أتى واتصف بكل صفات الخير والمعروف قبل البعثة وبعدها أيضا ،فضلا عن أنه أدرك الحقيقة في باكورة عمره وهي أن هناك إلها واحدا هو خالق هذا الكون ومدبره ، وأن هذا الإله ليس من بين هذه المعبودات التي يعبدها قومه ،ولكنه لم يستطع أن يهتدي إلى هذا الإله حتى هداه الله ، فكان صلى الله عليه وسلم بهذا المعنى هو الإنسان الذي أراده الله ليهبه النبوة ويكون جديرا بحمل تبعاتها فلما حملها صار الإنسان النبي كما يريده سبحانه

مع ملاحظة أن هناك فارقا بين مراد الله تعالى من عباده وبين رضاه عنهم ، وفرق بين هذا المراد أيضا وبين ما يريـده هو لهم ، أما الرضا فيتحقق بأي قدر حتى ولو لم يبلغ مراده جلا وعلا ، وهذا من رحمته وفضله على خلقه فقد يرضـى سبحانه وتعالى عن عباده بالتوبة بعد أن تبلغ ذنوبهم عنان السماء والأرض ، قال تعالى (قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَـى أَنفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ) (2) وأما ما يريده سـبحانه وتعـالى لعباده فمنفعتهم وصالحهم وخيرهم ، كقوله تعالى (يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ) (3) وكلاهما يختلفان عن مراد الله منهم ، إذ يمثل مراده جلا وعلا الدرجة الأسمى والأعلى والأجل وما حقق هذه الدرجة العالية السامقة إلا رسول الله صلى الله عليه وسلم والتي بها ستناله وحده الدرجة العالية الرفيعة في الآخرة ، بينما حقق غيره من الصحابة الأجلاء ما ينالون به رضا الله عنهم . قال تعالى "وَالسَّابِقُونَ الأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالأَنصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّـهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ)(4) وكل وإن وصـل إلى الكمال الأخلاقي لا يستطيع تخطي هذا الرضا وإن تفاوتت درجاته . وحسبنا بعض أمثلة من صفاته صلى الله عليه وسلم تدل على صحة هذا القول.

----

(1) الطبقات الكبرى لابن سعد ج8 عنوان نساء بني النجار (2) الزمر:53 (3) البقرة: من الآية185 (4) التوبة 10

الرحمة للعالمين .

قال تعالى (وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ) (1) وردت كلمة العالمين في كتاب الله تعالى حوالي 60 مرة وهي غالبـا ما تأتي بمعنيين : الأول : جميع العوالم والمخلوقات كعالم الأنس وعالم الجن وعالم الملائكة وعالم الحيوان والنبات والجماد وهكذا وذلك عند نسبتها إلى الله تعالى كقوله (الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ)(2)وقوله (وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ)(3)

وتأتي أحيانا على سبيل التخصيص كقوله (يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِينَ) (4) وقوله عن بني إسرائيل (وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ) (5) ، قال القرطبي أي على عالم زمانكم : ويقصد الأنس ، وأما عـن

قوله تعالى (وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ) فيقصد به النوع الثاني أي عالمي الأنس والجن بوصفهما المبعوث إليهما صلى الله عليه وسلم . وكونه صلى الله عليه وسلم رحمة للعالمين فهو رحمة ببعثته ومنهجه الذي جاء به ، وهو رحمة للعالمين أيضا في ذاته وشخصه وذلك بوصفه الأجدر والأصلح على إيصال هذا المنهج لهذين العالمين ، وبما أتاه الله من مواصفات الرحمة والشفقة والرأفة والتي تمثلت خير تمثيل في سنته بأقواله وأفعاله وحركاته وسكناته وفي أسوته وتشريعاته ، لذا وصفه الله بقوله : (فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكلْ عَلَى اللهِ إِن اللهَ يُحِب الْمُتَوَكِلِينَ) (6) وقال (مُحَمدٌ رَسُولُ اللهِ وَالذِينَ مَعَهُ أَشِداءُ عَلَى الْكُفارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ) (7) . قال أبو بكر بن طاهر " زين الله تعالى محمداً صلى الله عليه وسلم بزينة الرحمة فكان كونه رحمة وجميع شمائله وصفاته رحمة على الخلق ، فمن أصابه شيء من رحمته فهو الناجي في الدارين من كل مكروه والواصل فيهما إلى كل محبوب فكانت حياته رحمة ومماته رحمة ، كما قال عليه الصلاة السلام حياتي خير لكم و موتي خير لكم"(8) وكما قال عليه الصلاة و السلام أيضا " إذا أراد الله رحمة بأمة قبض نبيها قبلها فجعله لها فرطاً وسلفاً "(9) (10) ويقول بن عباس " من آمن بالله واليوم الآخر كتب له الرحمة في الدنيا والآخرة ومن لم يؤمن عوفي مما أصاب الأمم من الخسف والقذف ، وفي رواية له رضي الله عنه " من تبعه كان له رحمة في الدنيا والآخرة ومن لم يتبعه عوقب مما كان يبتلى به سائر الأمم من الخسف والمسخ والقذف " ، وقال بن القيم رحم الله به أهل الأرض كلهم مؤمنهم وكافرهم . أما المؤمنون فنالوا النصيب الأوفر من الرحمة .وأما الكافرون فأهل الكتاب منهم عاش في ظله وبعهده وأما من قتله منهم هو وأمته فأنه عجل بم إلى النار وأراحوهم من الحياة الطويلة التي لا يزداد بأ إلا مزيد من العذاب في الآخرة (11).

وبذات المعنى قال في جلاء الأفهام إنا – رحمة للعالمين – على قولين . الأول : أن عموم العالمين جعل لهم النفع برسالته أما أتباعه فنالوا به كرامة الدنيا والآخرة .

----

(1) التوبة:100 (2) الفاتحة:2 (3) البقرة: من الآية251 (4) آل عمران:من42 (5) البقرة: من الآية47 (6) آل عمران:159

(7) الفتح: من الآية29 (8) قال به الهيثمي في مجمع الزوائد جزء 9 تحت عنوان باب ما يحصل لأمته صلى الله عليه وسلم من استغفاره بعد وفاته وتمامه " عن عبدالله بن مسعود عن النبي صلى الله عليه وسلم قال "حياتي خير لكم تحدثون وتحدث لكم ووفاتي خير لكم تعرض علي أعمالكم فما رأيت من خير حمدت الله عليه وما رأيت من شر استغفرت الله لكم " وعقب الهيثمي رواه البزار ورجاله رجال الصحيح (9) صحيح مسلم 2288 (10) عيون الأثر لمحمد بن محمد بن محمد بن عبد الوهاب (11) زاد الميعاد الجزء الأول

وأما أعداؤه فالمحاربون له عجل بقتلهم وموتم خيرا لهم من حياتم ، لأن حياتم زيادة لهم في العذاب عليهم في الآخرة وهم قد كتب عليهم الشقاء فتعجيل موتم خير لهم من طول أعمارهم في الكفر ، وأما المعاهدون فقد عاشوا في الدنيا تحت ظله وعهده وذمته وهم أقل شرا بذلك العهد من المحاربين ، وأما المنافقون فحصل لهم بإظهار الإيمان بم حقن

دمائهم وأموالهم وأهلهم وجريان أحكام المسلمين عليهم ، وأما الأمم الأخرى فأن الله سبحانه رفع برسالته العذاب العام عن أهل الأرض .. فأصاب كل العالمين النفع برسالته . (1) الثاني : أنه رحمة للكل : أما المؤمنون فقبلوها فانتفعوا بـها في الدنيا والآخرة والكفار ردوها فلم يخرج بذلك من كونه رحمة لم يقبلوها " ويقول بن تيميه في مجموعة الفتاوي " كـان الواحد من الأمم السابقة إذا أصاب بعض الذنوب يحتاج مع التوبة إلى عقوبات شديدة كقوله تعالى (فَتُوبُوا إِلَى بَارِئِكُمْ فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ عِنْدَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُ هُوَ التوابُ الرحِيم)(2) (3) وروى عن أبي العالية أن أحدهم كان إذا أصاب ذنبا أصبح مكتوبا على بابه الخطيئة والكفارة ، بينما أنزل الله على هذه الأمة (وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلا اللَّهُ وَلَمْ يُصِروا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ) (4)

وقال أيضا " تصل الرحمة إلى كل واحد كل حسب الإمكان وبحسبه حتى المكذبين هو في حقهم رحمة أعظم مما كـان لغيره " ، وقال رحمة للناس بلا عوض وبالصبر على آذاهم ، كما قال " والعالمين يدخل فيهم العرب وغير العـرب مـن الفرس والروم و الهند والبربر . فلو قال قائل إن محمد لم يرسل إلى هؤلاء لأن الله لم يذكرهم في القرآن صار جاهلا كما لو قال إن الله لم يرسله إلى بني تميم وبني غطفان وبني أسد لأن الله لم يذكر هذه القبائل بأسمائها ."(5)

وبهذه القيم والمعاني الجليلة كان صلى الله عليه وسلم رحمة للعالمين . كما كان رحمة بتعاليمه وسنته . فعن عمرو بن عبسة أن شيخا كبيرا أتى النبي وهو يدعُم على عصا فقال يا رسول الله أن لي غدارات وفجرات فهل يغفرها الله لي فقال النبي " ألست تشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله ؟ قال بلى فقال له إن الله قد غفر لك غدراتك وفجراتـك فانطلق الرجل وهو يكبر " (6) وأمثال هذه الأحاديث كثيرة ، وقال " في كل ذي كبد رطب رحمـة " (7) وعـن أبي هريرة رضي الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " إنما مثلي ومثل الناس كمثل رجل استوقد نـارا فلمـا أضاءت ما حوله جعل الفراش وهذه الدواب التي تقع في النار يقعن فيها فجعل ينـزعهن ويغلبنه فيقتحمن فيها فأنا آخـذ بحجزكم عن النار وأنتم تقحمون فيها "(8) وعن بريد عن أبي بردة عن أبي موسى عن النبي صلى الله عليه وسلم قال " إن مثل ما بعثني الله عز وجل من الهدى والعلم كمثل غيث أصاب أرضا فكانت منها طائفة طيبة قبلت الماء فأنبتت الكلأ والعشب الكثير وكان منها أجادب أمسكت الماء فنفع الله بها الناس فشربوا منها وسقوا ورعوا وأصاب طائفـة منـها أخرى إنما هي قيعان لا تمسك ماء ولا تنبت كلأ فذلك مثل من فقه في دين الله ونفعه بما بعثني الله به فعلم وعلم ومثـل من لم يرفع بذلك رأسا ولم يقبل هدى الله الذي أرسلت به (9)

----

(1) جلاء الأفهام في الصلاة على خير الأنام (2) البقرة: من الآية 54 (3) مجموعة الفتاوي الجزء 155 (4) آل عمران:135

(5) مجموعة الفتاوي الجزء 15(6) مسند أحمد 19451 (7) مسند أبي عوانة الأسفرائيني 5342 وبألفاظ متقاربة في سـنن البيهقـي وغيره

(8) صحيح البخاري 6118 (9) صحيح مسلم 2282 باب ما بعث به رسول الله من الهدي والعلم

وَإِنكَ لَعَلى خُلُقٍ عَظِيمٍ

القائل هنا هو الله تعالى والذي يصفه هذا الوصف هو الله تعالى ، وقد جاء القول والوصف مجملا شاملا لكل الأسس والمعايير الأخلاقية ، إذ يشملا كل ما يحب وما يريد الله تعالى أن يتحلى به الإنسان من قيم نبيلة بكل درجاتها وبكل أحجامها ، وما يجب ألا يتصف به من مساوئ مهما صغرت ومهما قلت . وكان بالإمكان أن يصفه سبحانه وتعالى بالخلق فقط أو بالخلق الكامل ، فيقول وإنك على خلق أو على خلق كامل وكلاهما كانا سيؤديا إلى المعنى ، ولكنه أضاف إلى الخلق العظمة دلالة على انفراده وتفرده صلى الله عليه وسلم بهذه القيم الأخلاقية النبيلة وبلوغه الدرجة العظمى فيها ، قال المناوي " وصفه بالعظم وزاده في المدحة بعلى المشعرة باستعلائه على معالي الأخلاق واستيلائه عليها فلم يصل إليها مخلوق " (1) والعظمة تطلق على نهائية الموصوف في وصفه وبلوغه الإطلاق فيها ، وكل موصوف فصفته بحسب ما وصف به . فقد وصف الله تعالى الكرب الذي نجى منه نوح عليه السلام بالعظيم فقال (وَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ) (2) فدل ذلك على بلوغ كربه النهاية ، ووصف الكبش الذي فدى به إسماعيل عليه السلام بالعظيم فقال (وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ) (3) فصار هذا الكبش هو أفضل كبش على وجه الأرض .

وهكذا أخلاقه صلى الله عليه وسلم ، بلغت بوصفها العظمة النهائية فيها بما يستحيل معه بلوغ غيره هذه النهائية . ولما لا وهو المبعوث (ليتمم مكارم الأخلاق) (4) ، فكان حتما أن يكون على خلق عظيم من ميلاده حتى موته لا من مبعثه فقط ، إذ لو لم يكن عظيما في أخلاقه قبل بعثته لما استطاع الوصول إلى قلوب وعقول تابعيه ولما نجح في دعوته ، ولو لم تكن أخلاقه شاملة متكاملة غير منقوصة لما تمم مكارم الأخلاق التي كانت ناقصة كما وكيفا، ويقول بن القيم بقوله " وسمى الدين خلقا لأن الخلق هيئة مركبة من علوم صادقة وإرادات زكية وأعمال ظاهرة وباطنة موافقة للعدل والحكمة والمصلحة وأقوال مطابقة للحق تصدر تلك الأقوال والأفعال عن تلك العلوم والإرادات فتكتسب النفس بها أخلاقا هي أزكى الأخلاق وأشرفها، فهذه كانت أخلاق رسول الله المقتبسة من مشكاة القرآن فكان كلامه مطابقا للقرآن تفصيلا وتبيانا وعلومه علوم القرآن وإراداته وأعماله ما أوجبه وندب إليه القرآن وإعراضه وتركه لما منع عنه القرآن ورغبته فيما رغب فيه وزهده فيما زهد فيه وكراهته لما كرهه ومحبته لما أحبه وسعيه في تنفيذ أوامره وتبليغه والجهاد في إقامته فإذا كانت أخلاق العباد وعلومهم واراداتهم وأعمالهم مستفادة من القلم وما يسطرون وكان في خلق القلم والكتابة به إنعام عليهم وإحسان إليهم وصلوا به إلى ذلك فكيف بإنعامه واحسانه على عبده ورسوله الذي أعطاه أعلى الأخلاق وأفضل العلوم والأعمال والإرادات التي لا تهتدي العقول إلى تفاصيلها من غير قلم "أهـ (5)

كما قال إنك لعلى الخلق العظيم الذي أنزل الله به في القرآن الكريم . وفي قوله تعالى (خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ) (6) مجامع مكارم الأخلاق

----

(1) فيض القدير لعبد الرؤوف المناوي جزء خامس (2) الصافات:76 القلم:4 (3) الصافات:107

(4)موطأ مالك 1609 وفي المستدرك هذا حديث صحيح على شرط مسلم (5) التبيان في أقسام القرآن (6) الأعراف:199

غير أنك تلاحظ أن قول الله تعالى لنبيه هذا القول كان في بداية بعثته صلى الله عليه وسلم وفي أوائل نزول القرآن بما يعني أن القرآن لم يكن نزل منه إلا القليل ولم يكن يتضمن أوامر ونواه أخلاقية ، بل كان حث للرسول علـى دعوتـه وإبلاغ قومه مثل سور أقرأ والمدثر و المزمل و نون ، وهو ما يعني أن وصف الله تعالى لنبيه هذا الوصف إنما ينصرف إليه كإنسان من طفولته حتى بعثته وهو الوصف الذي استحق بموجبه النبوة لأن خلقه العظيم صلى الله عليه وسلم لم يكـن وليد البعثة أو تكليفه بالدعوة إنما كان قبل ذلك بكثير ، لذا تضرب السيدة عائشة رضي الله تعالى عنها مثلا وإن كان بعد البعثة إلا أنه يكشف عن خلق متأصل فيه صلى الله عليه وسلم فتقول " كان رسول الله صلى الله عليه وسلم مع أصحابه فصنعت له طعاما وصنعت له حفصة طعاما ، قالت فسبقتني حفصة فقلت للجارية انطلقي فأكفىء قصعتها فلحقتها وقد همت أن تضع بين يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم فأكفأتا فانكسرت القصعة وانتشر الطعام ، قالت فجمعها رسول الله صلى الله عليه وسلم وما فيها من الطعام على النطع فأكلوا ، ثم بعث بقصعتي فدفعها إلى حفصة فقال خـذوا ظرفـا مكان ظرفكم وكلوا ما فيها قالت فما رأيت ذلك في وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم (1) كما يضرب الزرقـاني في شرحه مثلا لذلك فيقو " لما قدم صفوان على رسول الله صلى الله عليه وسلم بردائه ناداه على رؤوس الناس جهرا فقال يا محمد إن هذا وهب ابن عمير جاءني بردائك وزعم أنك دعوتني إلى القدوم عليك فإن رضيت أمرا - أي الإسلام - قبلته وإلا سيرتني شهرين فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم "انزل أبا وهب " - كنية صفوان – ثم يقول الزرقاني خاطبه بما تعظيما واستئلافا مع أن صفوان خاطبه باسمه فأغضى عن ذلك ويستشهد بقوله تعالى (وَإِنكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ)

----

(1)قال صاحب مصباح الزجاجة أحمد بن أبي بكر الكناني " هذا إسناد ضعيف للجهالة بالتابعي وله شاهد من حديث أنس بـن مالـك رواه أبو داود والنسائي وابن ماجه 328

صبره :

ضرب رسول الله صلى الله عليه وسلم المثل الأعلى والأسمى والأروع في الصبر حتى ليتسائل المرء فيما وكيف كان صبره ؟ ألأن الله تعالى قال له (فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُوا الْعَزْمِ مِنَ الرسُلِ وَلا تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ)(1)

ربما بيد أن مناط الصبر الموصوف به أولي العزم من الرسل هنا هو الصبر على هداية قومهم لقوله ولا تستعجل لهم أي لا تستعجل لأولئك المشركين حتى تديهم (إِنكَ لا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِن اللهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ)(2) أم لأنه قال له (وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلا بِاللهِ وَلا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِما يَمْكُرُونَ"(3) ربما ولكن مناط الصبر هنا هو أيضا ذات السبب السابق الإشارة إليه ـ إذ يسبق ذلك قوله تعالى (ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالتِي هِيَ أَحْسَنُ إِن رَبكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَل عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ) (4)

ومعظم الآيات التي تدعوه إلى الصبر من هذا القبيل مثل (وَاتبِعْ مَا يُوحَى إِلَيْكَ وَاصْبِرْ حَتى يَحْكُمَ اللهُ وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ " (5)(وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبكَ فَإِنكَ بِأَعْيُنِنَا وَسَبحْ بِحَمْدِ رَبكَ حِينَ تَقُومُ) (6) أم لأنه قال (وَاسْتَعِينُوا بِالصبْرِ وَالصلاةِ وَإِنهَا لَكَبِيرَةٌ إِلا عَلَى الْخَاشِعِينَ) (7) وقال (يَا أَيهَا الذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتقُوا اللهَ لَعَلكُمْ تُفْلِحُونَ) (8) أم لأنه أعلن حبه للصابرين فقال (إِن اللهَ مَعَ الصابِرِينَ) (9) ووصفهم بالصادقين والمتقين فقال (وَالصابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضراءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتقُونَ) (10) وأوجب لهم الجزاء بغير حساب) إِنمَا يُوَفى الصابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ" (11) وبشرهم فقال (وَبَشرِ الصابِرِينَ)(12)

نعم هو لكل هذا كان صابرا ولكن فاق صبره حدود الإمكان والمعقول وسما به إلى الحد الذي جاء على مراد ربه فجعله نموذجا ومثالا لما ينبغي أن يكون عليه صبر الأنبياء وصبر النبي الخاتم على وجه الخصوص .

نعم هو لكل ذلك كان صابرا ولكن صبره كان صبر أمة بأسرها حتى إذا وزع عليهم شملهم وإذا أرادوا أن ينهلوا من نبعه كفاهم ، بينما كان الصبر موزعا عليهم متفاوتا بينهم حسب درجات إيمانم وحسب قدراتم وسعة تحملهم ولم يكونوا فرادى أو جماعات مأمورين بذا الصبر كله شاملا كاملا متكاملا مستوفيا كافة أركانه وشروطه كما كان هو مأمورا بذلك . كان الأمر الإلهي له بالصبر للإسلام والمسلمين جميعا حتى يكون لهم أسوة ويكون لهم قدوة ويكون لهم عونا في مواجهة المحن والمصاعب فما كان من الملائم إذن أن يفقد جزءا واحدا من الصبر أيا كان حجمه وفي أي مرحلة من مراحل رسالته وفي أي موطن من المواطن وتحت أي ظرف من الظروف ، حتى حذره ربه فقال له (وَلا تَكُنْ كَصَاحِبِ الْحُوتِ) (1) ،حال كان الأمر إليهم بالصبر حسب طاقتهم وحسب قدرتم ، كان صبرهم لأنفسهم وابتغاء الأجر والثواب من عند الله ، بينما كان صبره أمرا إلهيا مجردا وفي سبيل البلاغ عن ربه وفي سبيل تحقيق دعوته

كان صبره وسيلة إلى غاية وسببا إلى نتيجة ومنهجا ورسالة ، وكان صبرهم هو الغاية والمنتهى وهو النهاية والنتيجة

----

(1) الأحقاف: من الآية35 (2) القصص:56 (3) النحل:127 (4) النحل:125 (5) يونس:109 (6) الطور:48

(7) البقرة:45 (8) آل عمران:200 (9) الأنفال: من الآية46(10) البقرة: من الآية177 (11) الزمر: من الآية10
(12) البقرة: من الآية155 (1) القلم: من الآية48

لأنم كانوا على الرجاء والأمل ، بينما كان هو المنبأ من قبل ربه بأنه أول من يدخل الجنة وأول من يقرع بابا . كـان صبره اختيارا وقدرا وطريقا وسبيلا سار فيه فما حاد عنه وما حال دون مسيره حائل فلم يغضب لنفسه مرة ولم ينـبس بكلمة تفلتت من عقال صبره اللهم إلا أن تنتهك حرمة من حرمات الله فعندها وعندها فقط يغضب ولكن بلا فحـش وبلا سوء وبلا تجهم . لذا غضب وكاد أن يفقد بعضا من صبره عندما كادت دائرة المشركين تدور على المسلمين يـوم بدر ، وغضب عندما أراد أسامة بن زيد أن يشفع في حد من حدود الله ، وغضب عندمـا وجد عمر ممسكا بآدم مـن التوراة ، وغضب لأجل حمزة وتوعد المشركين بالتمثيل بسبعين من قاتليه وغضب على عائشة لأنا نالت من خديجـة ، وغضب عندما سب أحدهم بلالا وقال له يا بن السوداء .. وغير ذلك وكلها غضبات بالله وفي الله ولله ، وكان غـضبه كصبره إرساءا لمبادئ وقواعد لدستور وشريعة لأمة ، فعندما غضب على أسامه أرسى مبدأ العدالة كما هـي وكمـا يريدها الله فقال "إنما أهلك من كان قبلكم أنم إذا سرق فيهم الشريف تركوه وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد (2) وعندما غضب لأنه وجد عمر ممسكا ببعض من صحف التوراة جعل كتاب الله هو الكتاب الناسخ لغيره من الكتب السماوية فقال " إنما آتيتكم با بيضاء نقية فلا تتهوكوا " (3) وعندما غضب لحمزة أوحى الله إليه بالعدل في القصاص ، وعندما سب أبو ذر بلالا وضع ميثاق حقوق الإنسان والمساواة فقال " الناس سواسية كأسنان المشط "(4) وقـال " لا فضل لعربي على أعجمي ولا لأبيض على أسود كلكم لآدم وآدم من تراب" (5) كان صبرهم تعبدا وتنفيذا لأوامر إلهية لا يعصونا ونواه يجتنبونا لذا كان أحد أنواع صبرهم الصبر على الطاعة في الوقت الذي كانت الطاعة هي قرة عينه صلى الله عليه وسلم وراحة قلبه ولذة فؤاده ونور بصيرته ومنيته وسعادته ، لذا كان أمر الله له في مجال العبادة بقوله واصطبر أي ادعوهم إلى الصبر عليها نحو قوله (فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيّاً)(6) (وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصلاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا لا نَسْأَلُكَ رِزْقاً نَحْنُ نَرْزُقُكَ وَالْعَاقِبَةُ لِلتقْوَى)(7) وكان النوع الثاني هو الصبر على المعصية : وهل وردت على قلبه معصية وهل كتب التاريخ أنه هم بمعصية ؟ خاصة إذا علمنا أن المعصية شرعا هي عدم تنفيذ أمرا إلهيا أو نبويا ، ففيم الصبر إذن والمعصية بالنسبة له محض علم نظري لم يخضع للتجربة ؟ فهم يجتهدون في دفع المعصية لذا يصبرون أما هو فلـم يكـن جهاده لدفع المعصية عن نفسه إنما لدفعها عنهم ، وكان النوع الثالث هو الصبر على البلاء وقد توارد العلم على أن أشد الناس إبتلاءا الأنبياء ثم الأولياء ، فإذا كان ذلك وكان هو النبي دون المسلمين جميعا فقد كان هو الأشد بلاءا والأعظـم صبرا ، وهذه هي ثاني درجات الصبر عنده بعد أن كانت الأولى هي الصبر على إبلاغ الدعوة ، وكان صـبره فطريـا وجزءا من ذاته وبضعة منه أو بعض منه ، بينما كان صبرهم مكتسبا ، جديدا عليهم دخيلا على عاداتم الجاهلية ، لـذا غضب بعض الصحابة الكبار وكان غضبهم في بعض الأحيان لأنفسهم ولدنياهم

----

(1) روى الحاكم في المستدرك 4723 عن علي رضي الله عنه قال أخبرني رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم أن أول من يدخل الجنـة أنا وفاطمة والحسن والحسين قلت يارسول الله فمحبونا قال من ورائكم " ثم عقب صحيح الإسناد ولم يخرجاه (2) سنن الترمذي 1430

(3)صححه بن تيميه في الإقتضاء الجزء الأول (4) رواه النسائي وغيره وفي السيرة النبوية لابن هشام الجزء الثاني
(5) مسند الإمام أحمد 23536 (6) مريم65 (7) طـه:132

تواضعه :

ثم هذا تواضعه : تواضع يحار أمامه ذوي العقول والألباب وأصحاب الفكر والرؤى . فكيف لم يصبه بعض من غرور وهو الذي كان لابد ووفقا للمعايير الإنسانية والفطر البشرية والسنن الإلهية أن يصيبه بعضا منه ، فإن سما وتحامل علـى نفسه وقاوم كبرياء النفس البشرية المفطورة على شيء من الكبر شأن شتى أنواع الشر المولود با البشر بتفاوت بينـهم ، فسوف يطوي هذا الكبرياء بين جوانحه ويقهره ولكنه حتما كان سيظهر ولو في فلتات اللسان أو في نظرات الأعين أو في أي قولة أو فعلة أو سكنة أو حركة .

كما ظهر عند الفاروق عمر عندما رآه عروة بن الزبير يحمل على عاتقه قربة ماء فقال له ما هذا يا أمـير المـؤمنين ؟ فقال لما أتاني الوفود سامعين طائعين دخلت نفسي نخوة فأردت أن أقهرها ، وكما شاهدوا عبد الله بن سلام سيد اليهود وشريفها خارج من حائط له بحزمة حطب يحملها فلما أبصره الناس قالوا يا أبا يوسف قد كان يغني ولدك وعبيدك مـا يكفيك قال أردت أن أعرف هل ينكر قلبي شيء من ذلك ، وهكذا كان يفعل معظم الصحابة الكرام كأبي هريرة رضي الله عنه الذي كان يحمل الحطب على كتفيه ويخرج إلى السوق يبيع ويشتري ويقول وسعوا لأميركـم ، وبـلالا إذ رأى رسول الله في عينيه إعجابا بصوته فقال له " لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر " (1)

ولكن شيئا من ذلك قليلا أو كثيرا دقيقا أو عظيما لم يظهر ولم يعرف عنه صلى الله عليه وسلم ، وأقصد بهذا الشيء مجاهدة الكبر وكبح جماحه : لماذا ؟ الأنه لم يولد به ؟ كلا فبذور الخير والشر مولود با كل البشر حتى الأنبياء ، أم لأنه لم يكن يملك موجبات هذا الكبر أو الغرور ؟ كلا فكل أسبابه ومبرراته موجودة وأقلها أنه سيد ولد آدم بكل زهو وفخر لنا ، أم لأنه تعلم من سادات قريش وعظمائها التواضع وعدم الغرور ؟ ولا ذاك أيضا لأن الفخر والكبرياء والزهو سمات عربية أصيلة ، لا لهذا كله إلا لأنه لم يطوي غرورا بين جوانحه ولم يجاهد كبرياء سكن في أضلعه ولكنه طوى التواضـع ذاته وجاهد التواضع نفسه ، فلم يستطع أي منهما – التواضع أو نقيضه – أن يظهر ، فهو إذن لم يكن متواضـعا لأن التواضع كان عنده طبيعيا فطريا نقيا سليما ، ولم يكن أيضا مغرورا لأنه لم يجرب الغرور أو الكبر ولم يعرفهما

----

(1) صحيح مسلم 91 دون الإشارة إلى بلالا

وبذه السليقة والفطرة كان يمر على الصبيان ويسلم عليهم ، وكان في بيته في خدمة أهله ، وكان يخصف نعله ويرقع ثوبه ويحلب الشاة ويعلف البعير ويركب الحمار ويأكل مع الخادم ويجالس المسكين ويمشي مع الأمـة ويقـضي لليتـيم والأرملة ويبدأ من لقيه بالسلام ولا يدع يده من يده حتى يكون الآخر هو الذي يخلعها ، يجيب دعوة العبد ويحمل حاجته وينام على الحصير ويربط الحجر على بطنه ويمشي بين الناس كأحدهم ، إذا رآه من يجهله بين أصحابه لا يعرفه إلا بالنور والبهاء في وجهه وكان يجلس حيث انتهى به المجلس ولا يمل من جواب سائله ويأتي مراعاة الضيف ولا يـرد صـاحب حاجة ولا يرد الهدية ولا يرد الإساءة بالإساءة ، " لا يأكل متئكا ولا على خوان ، منديله باطن قدميه ، لم يشبع مـن خبز بر ثلاثا تباعا حتى لقي الله تعالى إيثارا على نفسه زهدا وليس بخلا ، يحلب الوليمة ويعود المرضى ويشهد الجنـائز ، يمشي وحده بين أعدائه بغير حارس ، أشد الناس تواضعا ، وأسكتهم في غير كبر ، وأبلغهم في غير تطويل ، وأحـسنهم بشرا ، لا يهوله شيء من أمور الدنيا ، ويلبس ما وجد ، فمرة شملة ومرة برد حبرة يمانيا ، ومرة جبة صوف ، ما وجـد من المباح يردف خلفه عبد أو غيره ، يركب ما أمكنه ، مرة فرسا ومرة بعيرا ومرة حمارا ومرة بغلة شهباء ومرة راجلا بلا رداء وبلا عمامة ولا قلنسوة ، يصل ذوي رحمه ، لا يجفو على أحد ، يقبل معذرة المعتذر ، يمزح بحق يضحك في قهقهة ويرى اللعب المباح فلا ينكره ويسابق أهله ... " (1) كان طلقا مبتسما مبشرا غير منفرا رفيقا رحيما خافض الجناح لين الجانب .. وبذه الفطرة والسليقة النقية الطاهرة قال " ألا أدلكم على من تحرم النار ؟ على كل قريب هين لين سهل "(2) و " لا يزال الرجل يذهب بنفسه حتى يكتب في ديوان الجبارين فيصيبه ما أصابهم " (3) ووصف المؤمنين بقوله " الموطئون أكنافا الذين يألفون ويألفون "(4)

وبذه الفطرة والسليقة النقية الطاهرة المبرأة من كل عيب ودنس أوحى الله إليه أن يأمر الناس بالتواضع فقال صلى الله عليه وسلم " ألا إنه أوحي إلى عباد الله أن تواضعوا كي لا يبغي أحد على أحد ولا يطغى أحد على أحد " (5)، فالوحي هنا لهم وليس له والأمر لهم وليس له لأنه لم يكن متكبرا ليتواضع .ولم يكن التواضع عنده مجاهدة أو تكلفا ولكنه كـان فطرة وطبيعة ، روى البيهقي عن أنس قوله دخل رسول الله مكة يوم الفتح وذقنه على راحلته متخشعا وقال بن اسـحق عن عبد الله بن أبي بكر أن رسول الله ليضع رأسه تواضعا لله حين رأى ما أكرمه الله يوم الفتح حتى أن عثنونه (6) ليكاد يمس واسطة الرحل

----

(1)جوامع السيرة النبوية لابن حزم الأندلسي (2) الجزء الثاني مـن حـديث يحـي بـن معـين تحقيـق خالـد السبت الريـاض
(3) التواضع والخمول لعبد الله القرشي (4) أورده الجرجاني في الكامل في الضعفاء وضعفه العراقي في تخريج الإحياء
(5)صحيح مسلم 2865 (6) حياة الصحابة للكاندهلوي الجزء الثاني والعشنون هو اللحية

حياؤه :

وُصِف صلى الله عليه وسلم بأنه كان في حياءه كالعذراء في خدرها (1) ولأنني لا أعرف سمات حياء العـذراء في خدرها حيث نفتقد في زماننا هذا الحياء برمته حتى لم نعد نعرف العذراء من الثيب ومن هي في خدرها وحرمها ممن هي بلا حرمة أو خدر ، لذا سنعيد قراءة الحياء من جديد لعله يكون بعثا نظريا له بعد موت ، ثم نرى كيف كـان حيـاؤه صلى الله عليه وسلم ، فقال عليه الصلاة والسلام " الإيمان بضع وسبعون شعبة أعلاها لا إله إلا الله وأدناها إماطة الأذى من الطريق والحياء شعبة من الإيمان " (2) وقال " الحياء حفظ الرأس وما وعى والبطن وما حوى وذكر الموت والبلى . ومن أراد الآخرة ترك زينة الدنيا فمن فعل ذلك فقد استحيا من الله حق الحياء " (3)، وقال " الحياء لا يأتي إلا بخير "(4) وقال " أربع من سنن المرسلين الحياء ، التعطر ، النكاح ، السواك " (5) وقال " الحياء والإيمان قرنا جميعا فإذا رفع أحدهما رفعا جميعا "(6) وقال " ما كان الفحش في شيء إلا شانه وما كان الحياء في شيء إلا زانه (7)
وقال " لا إيمان لمن لا حياء له . وإنما يدرك الخير بالعقل ولا دين لمن لا عقل له " (8) وقال " لكل دين خلـق وخلـق الإسلام الحياء " (9) وقال " مما أدرك الناس من كلام النبوة الأولى إذا لم تستح فافعل ما شئت " (10) وقال " من ألقى جلباب الحياء فلا غيبة له "(11) وقالت أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها رأس مكارم الأخلاق الحياء
وقال عمر بن الخطاب من استحيا استخفى ومن استخفى اتقى ومن اتقى وقى . وقال أيضا " من قل حياؤه قل ورعه . ومن قل ورعه مات قلبه " قال وهب بن منبه " الإيمان عريان ولباسه التقوى وزينته الحياء وماله العفة "
وقال الحسن : الحياء والكرم خلتان من خصال الخير لا يكونا في عبد إلا رفعه الله بهما ، وقال آخر : إذا أراد الله بعبـد هلاكا نزع منه الحياء فأذا نزع منه الحياء لم تجده إلا مقيتا ، ويقول بن القيم : الحياء هو مادة الحياة للقلب وهو أصل كل خير وذهاب كل خير بأجمعه . وقال من لا حياء فيه ميت في الدنيا شقي في الآخرة .

أما عن حياؤه صلى الله عليه وسلم فيكفي فيه أن نعلم أن جميع هذه الحكم التي قالها وقيلت من قبله وقالها غيره من بعده عن الحياء كان متصف هو بها . فإذا كان الحياء رأس مكارم الأخلاق فقد كان الحياء عنده رأس مكارم أخلاقه التي وصفها الله تعالى بقوله " وإنك لعلى خلق عظيم " وإذا كان الحياء زينة الإيمان فقد تزين صلى الله عليه وسلم به وتحلـى وتجمل ، وإذا كان الحياء هو مادة القلب وذهاب كل خير بأجمعه ، وأن من قل حياؤه قل ورعه ومن قل ورعه مات قلبه فإن قلبه كان حيا وسليما وطاهرا ونقيا وبالتالي كان حياؤه حيا طاهرا نقيا سليما . كان حياؤه صلى الله عليه وسلم خلة أصيلة شأن جميع خصاله وصفاته المعبرة عن معدنه وأصالته ، وكانت تعاليم الحياء التي قال بها بمثابة النور الـذي أحيـا ظلمات قلوب الناس إلى الحد الذي جعله الدين كله ، في وقت كان الحياء عند الناس ضعف وذل ووقار

----

(1) المنتقى شرح موطأ مالك وفتح الباري في البخاري (2) صحيح البخاري 3369 (2) مسلم 35 (4) البخاري 5766
(5) المعجم الكبير للطبراني (6) المستدرك على الصحيحين (7) بن حبان 550 والترمذي 2974 (8) موطأ مالك 1610
(9) مجلس إملاء في رؤية الله للأصبهاني (10) البخاري 3296 (11) مكارم الأخلاق لأبن أبي الدنيا للقرشي

خوفه وخشيته .

نفى الله تعالى الخوف والحزن في الدنيا عن أوليائه فقال سبحانه : (أَلا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ) (1) ، وقال أيضا (وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلا يَخَافُ ظُلْماً وَلا هَضْماً) (2) كما نفى عنهم خوف الآخرة فقال (مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا وَهُمْ مِنْ فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ آمِنُونَ)(3) وما ذاك إلا لأنهم اطمأنوا بالله وبإيمانهم به وذكرهم له قال الله (الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ) (4) ويقول الإمام أبي حامد الغزالي " اعلم أن الخوف عبارة عن تألم القلب واحتراقه بسبب توقع مكروه في المستقبل ، ومن أنس بالله وملك الحق قلبه وصار ابن وقته مشاهدا لجمال الحق على الدوام لم يبق له التفات إلى المستقبل ، فلم يكن له خوف ولا رجاء بل صار حاله أعلى من الخوف والرجاء ، فأنهما زمانان يمنعان النفس عن الخروج إلى رعوناتها ، وإلى هذا أشار الواسطي حيث قال " الخوف حجاب بين الله تعالى وبين العبد ". وقال أيضا "إذا ظهر الحق على السرائر لا يبقى فيها فضلة لرجاء ولا خوف " وبالجملة فالمحب إن كان شغل قلبه عن مشاهدة المحبوب بخوف الفراق كان ذلك نقصا في الشهود " (5)

ويقول بن تيمية " قال أبو العباس " الخوف هو الانخلاع من طمأنينة الأمن والتيقظ لنداء الوعيد والحذر من سطوة العقاب وهو من منازل العوام وليس من منازل الخواص خوف(6) ، الأمر الذي نستدل به على أن الخوف في الدنيا أو الآخرة سمة العصاة والمذنبين . لذا قال تعالى آمرا نبيه بالقول (قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ) (7)، وهي سمة ليست مشينة بل هو شعبة من شعب الإيمان ، وكان مما وصف الله تعالى به عباده المؤمنين الخوف ، شريطة أن يكون الخوف منه وحده سبحانه وتعالى ومن سطوته وعذابه . فقال تعالى (وَالَّذِينَ هُمْ مِنْ عَذَابِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ)(8)،وقال (يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ) (9) وقال (إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ) (10) وفي ذلك يقول بن تيميه " أصل كل خير في الدنيا والآخرة الخوف من الله ويدل على ذلك قوله (وَلَمَّا سَكَتَ عَنْ مُوسَى الْغَضَبُ أَخَذَ الْأَلْوَاحَ وَفِي نُسْخَتِهَا هُدىً وَرَحْمَةٌ لِلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ)(11) فأخبر أن الهدى والرحمة للذين يرهبون الله . (12) ولكن مما كان خوفه صلى الله عليه وسلم أكان يخاف من سوء يحدث له في الدنيا ؟ كلا لأنه أول من علم وآمن وتيقن بأنه لن يصيبه إلا ما كتب الله له أو عليه وقد أمره الله بإبلاغ الناس ذلك فقال له : (قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلانَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ) (13) وهو الذي علم المسلمين ذلك فقال صلى الله عليه وسلم"يا بني إذا استعنت فاستعن بالله وإذا سألت فاسأل الله وأعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء لم يكتبه الله لك لن ينفعوك ولو اجتمعت على أن يضروك بشيء لم يكتبه الله عليك لن يضروك ، رفعت الأقلام وجفت الصحف (14) أم كان يخاف سطوة البشر وجبروتهم ؟ كلا وهو المعصوم من قبل

ربه (يَا أَيهَا الرسُولُ بَلغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللهُ يَعْصِمُكَ مِنَ الناسِ إِن اللهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ) (15)

----

(1) يونس 62 (2) طه 112 (3) النمل 89 (4) الرعد 82 (5) إحياء علوم الدين الجزء الرابع
(6) بن تيمية طريق الهجرتين (7) الأنعام 15 (8) المعارج 27 (9) النحل 50 (10) آل عمران 175
(11) الأعراف 154 (12) مجموعة الفتاوي ج 7 (13) التوبة 51 (14) المعجم الكبير 12988 للطبراني (15) المائـدة 67

وقوله تعالى (الذِينَ قَالَ لَهُمُ الناسُ إِن الناسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَاناً وَقَالُوا حَسْبُنَا اللهُ وَنِعْمَ الْوَكِيـلُ فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِنَ اللهِ وَفَضْلٍ لَمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ وَاتبَعُوا رِضْوَانَ اللهِ وَاللهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ (1) ، فهل كان يخاف عقـاب الله وعذابه في الآخرة ؟ ولا هذا أيضا لأن الله هو الذي أخبره أنه أول من يدخل الجنة وأول من يقرع بابا وأنـه مـن الآمنين من فزع يومئذ .لذا قال الله تعالى لنبيه موسى ومعه سائر الأنبياء (إِني لا يَخَافُ لَدَي الْمُرْسَلُونَ)(2) إنما كـان خوفه صلى الله عليه وسلم على أمته وعلى المصير الذي ينتظرهم في الدنيا والآخرة كان يخاف فرقتهم وتشرذمهم وتعلقهم بالدنيا وأمالها وزهرتا وكان يخاف عليهم عرصات يوم القيامة وأهوالها والنار وعذابا ومن ذلك قولـه صـلوات ربي وسلامه عليه " أخوف ما أخاف عليكم الهوى وطول الأمل أما الهوى فيصد عن الحق . وأما طول الأمل فينسي الآخرة (3) وقوله "أخوف ما أخاف على أمتي ثلاث زلة عالم وجدال منافق بالقرآن ودنيا تفتح عليكم (4) وقولـه " لا الفقـر أخشى عليكم ولكن أخشى أن تبسط كما بسطت على من كان قبلكم عليكم الدنيا فتنافسوها كما تنافسها من قبلكم فتهللكم كما أهلكتهم "(5) وقال "لو رأيتم ما رأيت لضحكتم قليلا ولبكيتم كثيرا (6) كما كان خوفه صلى الله عليـه وسلم إجلالا وتعظيما ومهابة لله سبحانه وتعالى . وهذا أعلى قدر وسمو يمكن أن يصل إليه بشر ، إذ على الرغم من قربه بربه الدائم وصلته به المتواصلة وعبادته التي لا تنقطع والوحي المتصل بينهما ، وعلى الرغم من علمه ويقينه بحب الله لـه ورضاه عنه واعداد مستقره ومقامه في أعلى عليين ، فلم يطمئن وهو من المطمئنين ، ولم يأمن وهو مـن الآمـنين ، ولم يركن إلى أمانه واطمئنانه ، ولكن ظل على خوفه وخشيته ومهابته وجلاله لله رب العالمين ، يروي الفضيل بن العبـاس فيقول " جاءني رسول الله فخرجت إليه فوجدته موعوكا قد عصب رأسه فقال خذ بيدي يا فضل فأخذته بيـده حـتى انتهى إلى المنبر فجلس عليه ثم قال صح في الناس فصحت فيهم ، فاجتمع ناس فحمد الله ثم اثنى عليه ثم قال يا أيها الناس ألا إنه قد دنا مني حقوق من بين أظهركم فمن كنت جلدت له ظهرا فهذا ظهري فليستقد منه . ومن كنت شتمت لـه عرضا فهذا عرضي فليستقد منه ، ومن كنت أخذت منه مالا فهذا مالي فليستقد منه . ألا لا يقولن رجل أخشى الشحناء من قبل رسول الله فأن الشحناء ليست من طبعي ولا من شأني ألا وإن أحبكم إلي من أخذ حقا إن كان لـه وحللـني فلقيت الله وأنا طيب النفس . فيقول الفضيل فـ ل رسول الله فصلى الظهر ثم عاد فقال من كان عنده شيء فلـيرده ولا يقول فضوح الدنيا أيسر من فضوح الآخرة ، فلم يزل رسول الله كذلك حتى قام رجل فقال يا رسول الله إن لي عنـدك ثلاثة دراهم ، فقال صلى الله عليه وسلم ألا إنا لا نكذب قائلا ولا نستحلفه فبما صارت لك عندي ؟ قال تذكر يوم مر

بك مسكين فأمرتني أن أدفعها إليه فقال رسول الله أدفعها له يا فضل " (7) ، قال ذلك وهو يعلم أنه ما جلد ظلما وما شتم عرضا سبا وما أخذ مالا غدرا ، ولكنها الخشية ، خشية المهابة والإجلال والتوقير ، خشية العلماء القائل فيهم سبحانه الذِينَ قَالَ لَهُمُ الناسُ إن الناسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَاناً وَقَالُوا حَسْبُنَا اللهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ "(8) ومن هنا قال صلى الله عليه وسلم " إني لأرجو أن أكون أخشاكم لله وأعلمكم بحدوده(9)

----

(1) آل عمران 173 : 174 (2) النمل من الآية 10 (3) ذكره الجرجاني في الكامل في الضعفاء (4) المعجم الكبير للطبراني
(5) مسلم 2961 (6) صحيح مسلم 426 (7) الأحاديث الطوال ج 1 الطبراني (8) آل عمران 173 (9) صحيح مسلم 111

زهده

كان زهده صلى الله عليه وسلم هو مفتاح شخصيته وعنوان جوهره وحقيقة معدنه ، فقد أتته الدنيا راغمة وفتحت له أبوابا طائعة فلم يتردد في ردها ولم يطمع في زخارفها ، وخير بين البقاء فيها نبيا ملكا ، عزيزا مرجوا ، مشمولا بمعية الله وعصمته ومنصورا بولاية الملائكة والأبرار وسائر أمته على مر الزمان والدهور ، بما لا يناله فيها هم ولا حزن ولا نصب ولا تعب ، وأنه لن يجوع فيها ولا يظمأ ولن يعرى فيها ولا يضحى وبين الموت وموارة التراب فاختار الأخيرة ، وكان من الممكن أن يستثنى من الموت والقبر أو يكون موته لحظة مبعثه من مرقده بطلبه ذلك من ربه ، ولكن كان اختياره لأنه قرر منذ أن أوحى إليه وربما قبل ذلك ألا يهنأ فيها بشربة ماء وألا ينعم فيها بنسمة هواء ، إلا كعابر سبيل استظل بظل شجرة فتركها ورحل ، ومن هنا كانت تعاليمه وكانت وصاياه بالزهد فيها ، ومن هنا نفذت هذه التعاليم إلى قلوب أتباعه وفهموا مغزاها فعلموها وعملوا به فنقلوها إلى من يليهم ثم الذين يلونهم حتى اندثرت وتلاشت فلم نعد نعرف عنها إلا أحاديث سجلتها كتب السيرة فتلقيناها بقلوب صدأة ومشاعر متحجرة فلم تعد تجدي فينا أثرا أو تحرك لنا ساكنا أوتخشع لها روحا ،

يقول البغدادي " فهذه كانت حاله من الدنيا لم يعبأ بها ولم يزدد فيها إلا زهدا وإيثارا لأمر الآخرة حتى لقي الله عز وجل ولم يتخذ سترا ولا فرشا ولا آنية ولا زينة من زينة الدنيا إنما هو ما يبلغ كما قال لأصحابه ليكن بلاغ أحدكم من الدنيا كزاد الراكب وقد فتح الله عليه ووسع وهو على الزهد في الدنيا والرفض لها فأعتق كل عبد له وأمة في حياته صلى الله عليه وسلم وأزلف مقامه لديه " (1)
عن موسى بن علي قال سمعت أبي يقول سمعت عمر يخطب الناس بمصر يقول ما أبعد هديكم من هدي نبيكم أما هو فكان أزهد الناس في الدنيا وأنتم فأرغب الناس فيها ، وعن أبي سعيد الخدري قال بينما رسول الله صلى الله عليه وسلم يخطب إذ قال " إن مما أتخوف عليكم إذا فتحت عليكم زهرة الدنيا وزينتها " فقام إليه رجل أعرابي فقال إي يا رسول الله أو يأتي الخير بالشر فسكت رسول الله صلى الله عليه وسلم ساعة حتى ظننا أنه أوحي إليه ثم قال وهو يمسح الرحضاء عن جبينه أين السائل ثم قال إن الخير لا يأتي إلا بالخير وإن مما ينبت الربيع يقتل حبطا إلا آكلة الخضر تأكل حتى إذا انتفخت خاصرتاها استقبلت عين الشمس فثلطت (2) وبالت فنعم صاحب المال لمن أعطى المسكين والفقير وذوي الحاجة(3) وعن عائشة قالت جلست أبكي عند رسول الله صلى الله عليه وسلم

فقال ما يبكيك إن كنت تريدين اللحوق بي فليكفك من الدنيا مثـل زاد الراكـب ولا تخـالطن الأغنيـاء (1) وعن زيد بن أسلم عن ابن عمر قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " الدنيا سجن المؤمن والقبر حصنه وإلى الجنة مصيره والدنيا جنة الكافر والقبر سجنه وإلى النار مصيره "(2)

----

(1)تركة النبي لحماد بن إسحاق البغدادي (2) ثلط البعير إذا ألقت بعرها رقيقا (مختار الصحاح)

(3)الزهد لابن حنبل (1) سنن أبي داود وغيره (2) قريب منه صحيح مسلم باب الزهد والرقائق 2957

وعن مطرف بن عبد الله ابن الشخير عن أبيه أن رجلا انتهى إلى النبي صلى الله عليه وسلم وهو يقرأ ألهـاكم التكاثر حتى زرتم المقابر التكاثر ثم قال " ليس لك من مالك إلا ما تصدقت فأمضيت أو لبست فأبليت أو أكلت فأنيت " (1) ، وروي عن أبي الدرداء رضي الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " تفرغوا من همـوم الدنيا ما استطعتم فإنه من كانت الدنيا أكبر همه أفشى الله ضيعته وجعل فقره بين عينيه ومن كانت الآخرة أكـبر همه جمع الله عز وجل له أموره وجعل غناه في قلبه وما أقبل عبد بقلبه إلى الله عز وجل إلا جعل الله قلو**ب** المؤمنين تفد إليه بالود والرحمة وكان الله عز وجل إليه بكل خير أسرع " (2) ، وعقد البيهقي فصلا في زهده صـلى الله عليه وسلم وصبره على شدائد الدنيا فقال " وذلك لأن الله تعالى كان قد اختار له ذلك ووصاه به فقال تعالى ولا تمدن عينيك إلى ما متعنا به أزواجا منهم زهرة الحياة الدنيا لنفتنهم فيه ورزق ربك خير وأبقى الآية وذكر جملة من أحاديثه وأخباره في هذا الصدد ما يعجب لها الحليم وما يبكي من أجله عمر من ذلك ما يلي : أخبرنا ،،، عبد الله بن عباس حدثني عمر بن الخطاب قال لما اعتزل النبي صلى الله عليه وسلم نسائه فـذكر الحـديث إلى أن قـال فدخلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو مضطجع على حصير فجلست فأدنى عليه إزاره وليس عليـه غيره وإذا الحصير قد أثر في جنبه فنظرت ببصري في خزانة رسول الله صلى الله عليه وسلم فإذا أنا بقبضة من شعير نحو الصاع ومثلها قرظا في ناحية الغرفة وإذا إهاب معلق قال فابتدرت عيناي فقال ما يبكيك يا ابن الخطاب قلت يا نبي الله ومالي لا أبكي وهذا الحصير قد أثر في جنبك وهذا خزانتك لا أرى فيهـا إلا مـا أرى وذاك قيـصر وكسرى في الثمار والأنار وأنت رسول الله وصفوته وهذه خزانتك فقال يا ابن الخطاب أما ترضى أن تكون لنا الآخرة ولهم الدنيا قلت بلى رواه مسلم في الصحيح عن زهير بن حرب (3) وقال البيهقي أيـضا وكـان مـن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم قال " أصاب يوما النبي صلى الله عليه وسلم الجوع فوضع علـى بطنـه حجرا ثم قال " ألا يارب نفس طاعمة ناعمه في الدنيا جائعة عارية يوم القيامة ألا يا رب نفس جائعة عاريـة في الدنيا طاعمة ناعمة يوم القيامة ألا يا رب مكرم لنفسه وهو لها مهين ألا يارب مهين لنفسه وهو لها مكرم ألا يـا رب متخوض ومتنعم فيما أفاء الله على رسوله ما له عند الله من خلاق ألا وإن عمل الجنة حزن بربـوة ألا وإن عمل النار سهلة بسهوة ألا يا رب شهوة ساعة أورثت حزنا طويلا (4) وتحت عنوان باب في زهده وتواضعه وما

عرض عليه صلى الله عليه وسلم قال صاحب موارد الظمآن عن جابر بن عبد الله قال قال رسول الله صـلى الله عليه وسلم " أوتيت مقاليد الدنيا على فرس أبلق عليه قطيفة من سندس(5) ،

----

(1) رواه الطبراني في الكبير والأوسط والبيهقي في الزهد (2) الترغيب والترهيب 4787
(3) شعب البيهقي ج2 1499 ، 1450 (4) الشعب للبيهقي الجزء الرابع
(5)قال به بن حبان تحت عنوان ذكر وصف مفاتيح خزائن الأرض حتى أتى النبي صلى الله عليه وسلم في نومه

وعنده عن أبي أمامة بن سهل بن حنيف قال دخلت أنا وعروة بن الزبير على عائشة فقالت لو رأيتما نـبي الله صلى الله عليه وسلم ذات يوم في مرض له فكانت له عندي ستة دنانير أو سبعة فأمرني أن أفرقها فشغلني وجـع رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى عافاه الله قالت ثم سألني عنها فقلت لا والله قد كان شغلني وجعك قالـت فدعا بها فوضعها في كفه ثم قال ما ظن نبي الله لو لقي الله وهذه عنده (1)

وقسم الشيباني درجات الزهد فقال ومن الزهد أيضا الزهد في الرئاسة والمحاسنة والمحادثة والمعاشرة وأول الزهد الزهد في الحرام ثم الزهد في المباح وأعلى مراتب الزهد أن تزهد في الفضول والفضول كل ما لك عنه غنى فكأنك تزهد في كل شيء إلا فيما أمرك الله أو فيما ندبك إليه مما يقربك إليه أو ما لا بد منه وكل ما كان سوى ذلـك فهو من الفضول وهو ترك ما لا يعني ، ودلل على جماع ذلك بزهده صلى الله عليه وسلم (2)

وقس على ذلك كل صفاته صلى الله عليه وسلم بلا استثناء ، وأقول صفاته فقط دون أن أضيف إليها كلمـة الحسنة لأن صفاته كلها وأفعاله حسنة ، وأقول بلا استثناء لأنه لم يثبت اتصافه بأي صفة سيئة حتى ولو كانـت دقيقة أو مجهولة ، لأن دقتها لم يكن ليمنع من العلم بها ولأن جهل الناس بها محال باعتبار أن كل تصرفاته صـلى الله عليه وسلم كانت معلومة حتى الشديد الخصوصية فيها ، وكلها كانت طبيعية دون تكلـف ، فطريـة دون اكتساب ، جبلية دون تعلم ، متفردة دون مشاركة ، أصقلها العلم الإلهي ، ونقاها الأدب الرباني ، ونظمهـا كتاب الله ، وارتقت بها النبوة إلى الملأ الأعلى ، بل إلى سدرة المنتهى ،حيث ينتهي هناك الورى وليس وراء ذلك وراء وليس دون ذلك إلا الحجاب ، فصار بذلك هو وهو فقط الإنسان الذي لم يصل إلى مرتبة الكمـال فقـط ولكن تخطى هذه المرتبة ، ولم يتفوق على البشر فقط ولكن خرج عن إطار المقارنة والمنافسة معهـم ، ولم ينـل رضاء الله تعالى فحسب ولكن سما إلى مراده ، بلا نقيصة وبلا خطيئة وبلا شائبة وبلا شائنة .

اكتملت أخلاقه التي بعث لإتمامها فأكمل بها أخلاق أمته ، واكتمل علمه الذي ما يحتمله بشر سواه فعلم منه أمته ، واحتوى قلبه حلم الأمة كلها وصبرها فنهلوا من نبع حلمه وصبره ، واحتوى نـواقص أمتـه وأخطائهـا فخلصهم منها ليكون بذلك هو المخلص على وجه الحقيقة واليقين لا غيره ، وليكون مثلا وأسوة في كل شـيء

وأي شيء ، في اليتم والترمل ، والوحدة والعزلة ، والحزن والبكاء ، والأذى والجوع ، والزهد والألم ، والمـرض والجهاد ، ومثلا في الورع والتقوى والطهر ، والجود والكرم ، والعدل والصدق والأمانـة والـصمت والوقـار والسكينة والخشوع ، والشفقة والرحمة والرأفة والمودة ، والخشية والتواضع والحياء ، والألفة والمزاح والـضحك والتبسم ، والقوة والشجاعة ، ومثلا في القيام والجلوس والمشي والجري والسلام والكلام والنوم والأكل والشرب والجماع وقضاء الحاجة والنظر والسمع والتفكر والتدبر . وصار مثلا لكل البشر للحاكم والمحكـوم ، والإمـام والمأموم ، والغني والفقير ، والرئيس والمرؤوس ، والعالم والمتعلم ، والمحارب والمسالم ...

----

(3) موارد الظمآن للهيثمي وبن حبان ج 14 (4) الذهد للشيباني

-

الباب الثالث

التفاضل

الفصل الأول
أسس التفاضل

أولا : ت يه الأنبياء عن تسفيه الأغبياء

من العلوم التي تاون فيها كثير من الناس ، العلم بمقام الأنبياء وجلاله الأسمى عند الله تعالى ، ولو تذكروا وجعلوا في ذاكرتم أبدا أن هؤلاء الأنبياء هم الصفوة المتباة من لدنه سبحانه وتعالى لتلقي الوحي وليكونوا الواسطة بينه وبين خلقه ، وأنم من ثم كانوا على صلة دائمة به جلا وعلا وبالملائكة ، لتحرزوا في الحديث عنهم واتخذوا في سبيل ذلك كل الوسائل الممكنة ، ولكنهم تاونوا وتجرءوا فلم يجدوا رادعا من أنفسهم يحول بينهم وبين هذا التهاون وهذه الجرأة ، فكان لزاما أن نذكر بذلك كبداية لازمة لشرح رأينا في التفاضل بينهم وبين نبينا صلوات الله عليه وسلم . ومن هذه الجهالات بمقام الأنبياء ما يضربه القاضي عياض من أمثلة لمقالة بعض الناس عنهم ليستدل با على جهلهم وتطاولهم عليهم ، فيقول : - كأن يقول القائل : " إن قيل في السوء فقد قيل في النبي ، وإن أوذيت فقد أوذي الأنبياء وإن كذبت فقد كذبوا ، أو آأنا أسلم من ألسنة الناس ولم يسلم منها الأنبياء ؟ أو صبرت كما صبر أولي العزم من الرسل . وكقول المتنبي : أنا في أمة قد تداركها الله ،، غريب كصالح في ثمود وكقول المعري (1) كنت موسى وافته بنت شعيب ،، غير أن ليس فيكما من فقير

وقوله : لولا انقطاع الوحي بعد محمد ،، قلنا محمد من أبيه بديل

هو مثله في الفضل إلا أنه ، لم يأته برسالة جبريل

وقول آخر كأن أبا بكر أبو بكر الرضا ،، وحسان حسان وأنت محمد

وقول أبي نواس فإن يك باقي سحر فرعون فيكم ، فأن عصا موسى بكف خصيب (2)

ويروي في النوادر أن رجلا عير رجلا بالفقر فقال له أتعيرني بالفقر وقد رعى رسول الله الغنم .

وقيل : أتى عمر بن عبد العزيز بكاتب يخط بين يديه وكان مسلما وأبوه كافرا ، فقال عمر للذي جاء به لو كنت جئت به من أبناء المهاجرين ؟فقال الرجل وما ضر رسول الله وكان أبوه كافرا ؟ فقال له عمر أو قد جعلته مثلا؟ والله لا تكتب بين يدي . وكره - نقلا عن السخاوي - أن يصلى على النبي عند التعجب ، أو أن يقال لرجل قبيح كأن وجهه وجه منكر ونكير ، أو كأنه وجه مالك الغضبان ، وأمثلة كثيرة من هذا القبيل تكشف عن الجهل بمقام الأنبياء والوقوع فيهم قصدا أو بغير عمد . ثم يرد القاضي على ذلك فيفرق بين حالتين

الأولى : أن لا يقصد القائل نقصا ، ولا يذكر عيبا ولكنه ي ع إلى ذكر بعض الأوصاف أو يستشهد ببعض الأحوال على طريق ضرب المثل والحجة لنفسه أو لغيره أو على التشبه أو عند هضيمة نالته وما شابه ذلك ، فحال هذا القائل التعزير والتأديب ولو كان بالسوط أو السجن ومثله أن يقال لرجل أنك أمي فيقول أولم يكن رسول الله صلى الله عليه وسلم أميا ؟ وذكر عياض مسألة استفتى فيها بعض قضاة الأندلس القاضي أبا محمد بن منصور في رجل تنقصه آخر فقال له إنما تريد نقصي بقولك وأنا بشر وجميع الأنبياء يلحقهم النقص حتى النبي صلى الله عليه وسلم فأفتاه بإطالة سجنه وإيجاع أدبه إذا لم يقصد السب وأفتى بعض فقهاء الأندلس بقتله

----

(1) يقصد أحد شعراء الأندلس وليس أبو العلاء الشاعر المعاصر (2) يقصد قدرته على مواجهة أعدائه

والثانية : أن يقصد الإساءة فيستتاب أو يقتل ، مع التعزير والتأديب الأشد إذا تاب

وبعقب جلال الدين السيوطي على ما تقدم فيقول : هذه المواضع كلها صريحة في تخطئة المستدل في مثل هذا المقام ووجوب تأديبه ، والمستدل تارة يكون في مقام التدريس والإفتاء والتصنيف وتقرير العلم وهذا لا إنكار عليـه ، وتارة يكون في الخصام والتبري من معرة أو نقص وهذه هو محل الإنكار والتأديب لا سيما إذا كان بحضرة السوقة والعوام وفي التعارض بالسب والقذف . (1) وسئل شهاب الدين بن حجر عن بعض المجالس التي يـروى فيهـا قصص الأنبياء وقول بعضهم في هذه المجالس على سبيل المثال : أن المراضع حضرن ولم يأخذنه صـلى الله عليـه وسلم لعدم ماله إلا حليمة رغبت في رضاعه شفقة به ، وقولهم : أن النبي كان يرعى غنما ، أو إنشادهم :

بأغنامه سار الحبيب إلى المرعى ،، فيحبذا راع فؤادي له يرعى ، فأجاب بما نصه ينبغي لمن يكون فطنا أن يحذف من الخبر ما يوهم به المخبر عنه نقصا ، ولا يضره ذلك بل يجب .

وسئل عن الأحاديث التي يرويها القصاص مما ظاهره إشكال فقال واجب ألا يذكر منها شيء لعدم صحتها أو لعدم صحة معانيها ولا ينبغي أن يتحدث بها راوية ، لأنها إما كذب فيحرم نقله إلا لبيان كذبه ولا يتكلف حينئذ الكلام بعد نقلها على معانيها ، وإما أنها ضعيفة فالأصوب طرحها وترك الشغل بها إلا أن تـذكر علـى وجـه التعريف والتبيين لمن لا يعرف أنها ضعيفة واهية الإسناد ، بمعنى أنه فرض المسألة في رواية الحديث والعلـم وقيـد ذلك عن غير العلماء وطلاب العلم (2) وقال بعض أهل العلم حكم الحديث عن الأنبياء حكم المتشابه في القرآن مما لا يخوض فيه إلا العلماء والمتخصصة ممن يفترض فيهم العدل والتقوى . وقال السهيلي في الروض الآنف بعـد أن أورد حديث " إن أبي وأباك في النار "(3) وليس لنا أن نقول نحن هذا في أبويه صلى الله عليه وسلم لقوله صلى الله عليه وسلم " لا تؤذوا الأحياء بسب الأموات "(4) ما يعني أن سبهما إيذاء له وقد نهى الله تعالى عن ذلك فقال (إِن الذِينَ يُؤْذُونَ اللهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللهُ فِي الدنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأَعَد لَهُمْ عَذَاباً مُهيناً) (5) وسئل أحد القضاة عن حاكم حلف إلا يرجع لقول أحد ولو قام الجناب العالي عليه الصلاة والسلام من قبره فهل يكفر بذلك ؟ فأجاب بأن له حالات ثلاث ، إما أن يكون ما صدر منه سبق لسان فيتوب ويستغفر ويبالغ في ذلك ويكثر من الـصدقة والعتق والتقرب ، وإما أن يكون قوله على وجه المبالغة لعلمه باستحالة ذلك فهو لا يكفر ولكن يعزل من الحكم ويعزر تعزيرا لائقا به من غير قتل ، وإما أن يكون على وجه الاعتقاد فيقتل بذلك لكفره

----

(1) تنزيه الأنبياء عن تسفيه الأغبياء لجلال الدين السيوطي إعداد أ/ علي عبد العال الطهطاوي عن مكتبة الصفا .

(2) المصدر السابق (3) صحيح مسلم 203 (4) أصل الحديث : عن ابان بن عثمان وغيره قال لما توجه النبي صـلى الله عليه وسلم إلى الطائف رأى على العقبة قبرا فقال يا أبا بكر ما هذا القبر فقال هذا قبر أبي أحيحة لعنـه الله فإنـه كـان شـديد التكذيب بآيات الله تعالى شديد الرد على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال أبان بن سعيد بل لعن الله أبا قحافة إنـه كـان لا

يدفع الضيم ولا يقري الضيف فقال النبي صلى الله عليه وسلم لا تؤذوا الأحياء بسب الأموات (أخبار مكة للفـاكهي 1915)
(5) الأحزاب:57

ثانيا : معنى التفاضل وأساسه

مفاضلة الأنبياء بعضهم على بعض أمر موكول إلى الله سبحانه وتعالى وإلى رسوله صلى الله عليه وسلم فقـط دون غيره من البشر جميعا ، وهذا معنى قوله تعالى : (تلْكَ الرسُلُ فَضلْنا َبعْضَهُمْ عَلَى َبعْضٍ)(1)
وقوله(وَربكَ َيخْلُقُ مَا َيشَاءُ وََيخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الْخَِيَرةُ سُبْحَانَ اللهِ وََتعَالَى عَما ُيشْرِكُونَ)(2)
وقوله (اللهُ َيصْطَفِي مِنَ الْمَلاِئكَةِ رُسُلاً وَمِنَ الناسِ إِن اللهَ سَمِيعٌ َبصِيرٌ) (3)
وقوله صلى الله عليه وسلم " لاينبغى لأحد أن يقول أنا خير من يونس بن متى "(4) وقوله أيضا " لا تفاضلوا بين الأنبياء " (5) وعلى ذلك ينبغي استنباط أسس التفاضل من الكتاب والسنة ومن هذه الأسس ما يلي :-

1- المراد بالنهي الوارد في هذا الباب ، هو النهي عن إطلاق ألسنة البشر فيه فيتناولوه بآرائهم وأفكارهم فيقعوا في أنبياء الله كما وقع أهل الكتاب فيهم فنسبوا إلي بعضهم ما لا يليق بم كالكذب والسكر والزنا بالنسبة لإبراهيم ونوح ولوط وداود ورفعوا بعضهم إلى مرتبة الألوهية كالعزير و عيسى بن مريم عليهم جميعا السلام

2- يقول الله تعالى (آمَنَ الرسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُل آمَنَ بِاللهِ وَمَلاِئكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُـلِهِ لا ُنفَرقُ َبيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ)(6) أي أن علامة المؤمنين من المسلمين وصفاتم هو الإيمان بجميع رسـله دون تفرقـة بينهم ، واعترض الله سياق الآية بالتأكيد على عدم التفرقة بقوله (لا ُنفَرقُ َبيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ) بما يفهم منه أن عدم التفرقة بينهم لا يكون في مقتضيات الإيمان فحسب وإنما في شتى المناحي ومنها المفاضلة بينهم . وأكد الله هذا المعنى في قوله :(قُولُوا آمَنا بِاللهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وََيعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَـا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَمَا أُوتِيَ النبِيونَ مِنْ رَبهِمْ لا ُنفَرقُ َبيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وََنحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ)(7)

3 -وكالة أمر التفاضل بين الرسل لله سبحانه وتعالى ولرسوله صلى الله عليه وسلم ، هو ما يتفق مع منهجه جلا وعلا في هذا الشأن حيث أنه سبحانه وتعالى هو الذي فاضل بين مخلوقاته بعضها ببعض ولم يترك ذلك لأي من خلقه لقصورهم في هذا المنحى وجهلهم به .كتفضيل ليلة القدر على سائر الليالي لـ ول القرآن الكريم فيها لقوله تعالى : (إِنا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ) (8) وتفضيل يوم النحر على سائر أيام العام لقوله صلى الله عليه وسلم : " أفضل الأيام عند الله يوم النحر ثم يوم النفر "(9) وتفضيل شهر رمضان على سائر الشهور لصيامه لقوله تعالى : (فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشهْرَ فَلْيَصُمْهُ)(10) ، وما اجتهاد العلماء في هذا الصدد إلا بغرض استخراج الحكمة من هذا التفاضل بما لا يحيد عن الكتاب والسنة أيضا ، إلا إنم وإن جاز لهم القول بالرأي في أفضلية مخلوق على مخلوق فلا يجوز لهم ذلك بالنسبة للأنبياء ، لأن الأنبياء هم الصفوة المنتقاة والمجتباة والمختارة من قبل الله تعالى ، فكان لزاما أن يكون اختياره سبحانه وتعالى الاختيار الأفضل والأعظم والأجل ، ولأنم الواسطة بينه وبين العباد ، كما أنه هو سبحانه الذي حدد على وجه قاطع بأنه هو الذي فضل

----

(1) البقرة من الآية 253 (2) القصص 68 (3) الحج 75 (4) مسلم 2376 (5) البخاري 2281 (6) البقرة مـن 285 (7) البقرة 136 (8) القدر 1ما بعدها (9) بن حبان 2811 (10) البقرة من الآية

فقال سبحانه : (تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ) (1) ومما يؤكد هذا المعنى قول بن القيم تعليقا على قوله تعالى : (وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ (2)" أن الاختيار داخل في قوله ما يشاء ، فإن المشيئة هي الاختيار ، وأنه سبحانه كما هو منفرد بالخلق فهو المنفرد بالاختيار منهم ،وأنه سبحانه هو الذي يقسم الفضل بين أهل الفضل على حسب علمه بمواقع الاختيار ،ومن يصلح له ممن لا يصلح ،وأن الاختيار راجع إلى علمه وحكمته تعالى" (3)

4-ومن سياق الآية السابقة - تلك الرسل – يفهم باعتبار أن الخطاب فيها موجه إلى رسول الله أنه صلى الله عليه وسلم خارج نطاق هذا التفاضل . إذ يقول له ربه هؤلاء الرسل الذين قصصناهم عليك والذين لم نقصصهم عليك رفعنا بعضهم فوق بعض درجات ، ومما يؤكد ذلك قوله في ذات الآية : (وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلَ الَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَلَكِنِ اخْتَلَفُوا فَمِنْهُمْ مَنْ آمَنَ وَمِنْهُمْ مَنْ كَفَرَ)(4)" وهؤلاء الذين جاءوا مـن بعدهم واختلفوا – أي من بعد الأنبياء وآخرهم عيس بن مريم – هم أهل الكتاب اليهود والنصارى ، الأمر الذي يعني خروجه صلى الله عليه وسلم عن نطاق هذه المفاضلة ، وما ذاك إلا إمعانا وتأكيدا على أفضليته وسموه ورفعته إلى الحد الذي لا يقاس بغيره ولا يقاس به غيره ولو كانوا الأنبياء عليهم السلام .

5- ومن سياق ذات الآية يتبين لنا أيضا أن الله سبحانه وتعالى حدد معايير هذا التفاضل على أسس موضوعية هي المتعلقة بالنبوة والرسالة ، فضرب مثلا لذلك بتكليمه لموسى عليه السلام وتأييده لعيسى بن مريم عليه السلام بالروح القدس . بما يفهم منه وجوب أن يكون التفاضل على هذه الأسس .فمن الرسل من هم أولوا العزم كنوح وإبراهيم وموسى وعيسى ففضل هؤلاء على غيرهم من الأنبياء لما لاقوه واحتملوه مع أقوامهم ، ومنهم من أنزل عليهم كتاب كموسى وعيسى ففضلا على من لم ينـ ل عليهم كتب ، ومن الرسل من يفضل في وجه على رسول ويفضل الأخير عليه من وجه مغاير ، فداود عليه السلام فضل على سليمان عليه السلام بالزبور ، وفضل سليمان عليه وعلى كثير من الأنبياء بأن آتاه الله ملكا ما آتاه أحد من العالمين .

6- وبالتالي لا يجوز تفضيل الأنبياء بعضهم على بعض لشخوصهم أو لأحوالهم الخاصة ، كتفضيل أي نبي على نوح أو لوط عليهما السلام لأن زوجة كل منهما خانتهما- على المعنى المقصود بذه الخيانة والمبين بالتفاسـير - أو لأن أبو إبراهيم عليه السلام كان عابدا للأصنام

7- ولا يجوز التفاضل على أسس أخلاقية أو خلقية ، كتفضيل أي نبي على موسى عليه السلام لقتله المـصري قبل بعثته ، أو لأن القوم استضعفوا هارون عليه السلام فعبدوا العجل

8 – وبالتالي أيضا لا يجوز تفضيل رسول الله صلى الله عليه وسلم على يونس بن متى عليه السلام لأن الأخير خرج مغاضبا وظن أن الله لن يقدر عليه ، أو على نوح عليه السلام لأنه دعا على قومه فأهلكهم ، أو علـى آدم عليه السلام لأنه عصى ربه فغوى ، أو على سليمان عليه السلام لأنه سأل الله ملكا لا ينبغي لأحد من العالمين.

----

(1) البقرة 253 (2) القصص من الآية 68 (3) زاد الميعاد (4) البقرة من الآية 253

خاصة وأن التفاضل من هذه الوجوه سيكون ضعيفا إذا أخضعناه للأسباب والمبررات ، إذ سنجد حينئـذ أن تصرف كل نبي كان له ما يبرره وكان له سنده الشرعي، خاصة أيضا إذا أخذنا في الاعتبار الظـروف والأزمنـة والأمكنة التي جابته وواجهته بما فيها القوم الذين أرسل إليهم ، فنوح عليه السلام لم يدع على قومه إلا بعد ألف سنة إلا خمسون ظل فيها يدعوهم إلى الله فلم يؤمن معه إلا قليل حتى قال الله تعالى له (أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلا مَنْ قَدْ آمَنَ فَلا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ)(1) ودله سبحانه وتعالى على طريق النجاة بعـد أن اقتـرب الأجـل المضروب لهلاكهم (وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ) (2) ، وكان مبرر دعائه عليه السلام على قومه هو(إِنَّكَ إِنْ تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلا يَلِدُوا إِلا فَاجِراً كَفَّاراً) (3) ، أما رسـول الله صلى الله عليه وسلم فكان في مستهل دعوته فما كان من المناسب وقتئذ أن يدعو على قومـه بإبـادتم وهـو المبعوث رحمة للعالمين وإلا ما كتب لهذا الدين السمح الحنيف الانتشار والتمكين في الأرض . إضافة إلى أنه ثبت أنه دعا صلى الله عليه وسلم على بعض قومه في حالات نذكر منها ما أخرجه البزار والطبراني عن عبـد الله بـن مسعود رضي الله عنه قال " بينا رسول الله صلى الله عليه في المسجد وأبو جهل وشيبة وعتبة بنا ربيعه وعقبة بـن أبى معيط وأمية بن خلف ورجلان آخران وكانوا سبعة وهم بالحجر ورسول الله صلى الله عليه وسلم قائم يصلي إذ قال أبو جهل أيكم يأتيني بجزور بني فلان فليأتيني بروثها فنكفؤه على محمد، فانطلق أشقاهم عقبة بن أبي معيط فأتى به فألقاه على كتفي رسول الله صلى الله عليه وهو ساجد يصلي ، قال بن مسعود وأنا قائم لا أسـتطيع أن أتكلم ليس عندي منعة تمنعني ، فأقبلت فاطمة حتى ألقت ذلك عن عاتقه ثم استقبلت قريشا تسبهم ، فلما قـضى رسول الله صلى الله عليه وسلم صلاته قال " اللهم عليك بقريش - ثلاثا_ اللهم عليك بعتبة ، اللهم عليك بعقبة . اللهم عليك بأبي جهل وشيبة " (4) ، وعندما غدرت قبيلة بني سليم ببعض الصحابة القراء الذين أرسلهم صـلى الله عليه وسلم لتعليمهم القرآن فقتلوهم دعا عليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم وصلى صلاة خاصـة لهـذا الغرض ، كما دعا على مضر وقال " اللهم واشدد وطأتك على مضر واجعلها عليهم سنين كسنى يوسف "فقطع اللهم عنهم المطر حتى مات الشجر وأجدبت الأرض إلى أن تابوا "(5) أما أن يسأل سليمان عليه السلام ربـه أن يهبه ملكا لا ينبغي لأحد من العالمين وأن يسأل رسول الله صلى الله عليه وسلم ربه أن يحييه مسكينا ويمته مسكينا ويحشره مع المساكين ، فما انتقص ذلك من قدر الأول وإن زاد في قدر رسول الله وتواضعه وسمو خلقـه ، ومـا تعارض ذلك مع سمو النبوة وأخلاقها وترفعها عن الدنيا ودنوها فقد كان داود عليه السلام ملكا ،قـال تعـالى

(وَقَتَلَ دَاوُدُ جَالُوتَ وَآتَاهُ اللهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ (6) وكذا يوسف عليه السلام لقوله تعالى (رَب قَدْ آتَيْتَنِـي مِـنَ الْمُلْكِ وَعَلَمْتَنِي مِنْ تَأْوِيل الأحاديث)(7)

----

(1) هود من الآية 36 (2) هود 37 (3) نوح 27 (4) حياة الصحابة (5) أعلام النبوة

(6) البقرة من الآية 252 (7) يوسف 101

9- كما تخرج أيضا الصفات التي ذكرها الله تعالى عن بعض أنبيائه عن نطاق المفاضلة كقولـه تعـالى عـن إبراهيم عليه السلام (إن إبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ)(1)"وعن إسماعيل عليه السلام " وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ)(2)وعن محمد صلى الله عليه وسلم (وَإِنكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ) (3) لتعلق هذه الصفات بـشخص الرسول وإن كان لها التأثير الأعظم في استحقاقه النبوة ، لأننا إذا أدخلنا هذه الصفات فى هذا النطاق لأخرجناها عن غيرهم وهو ما لا يصح ، وكانت كل صفات الأنبياء التي ذكر الله تعالى طرفا منها تتفق وتتحد في حـسنها وسموها ونبلها ، بغير أن يمنع ذلك بلوغها الحد الأقصى الذي يمكن أن يبلغه بشر بالنسبة لرسول الله صلى الله عليه وسلم عن غيره من الأنبياء ، وبغير أن يمنع ذلك أيضا من احتساب قوله تعالى له صلى الله عليه وسـلم " وإنـك لعلى خلق عظيم " فضيلة له تميزه عن غيره ، إلا أن ذلك ليس من مقتضياته المقارنة بالأنبياء ..

10-وأحسب أني في حل من إيضاح أن ما أقوله لا علاقة له بما قاله بن القيم عن بعض المتكلمين الذين قـالوا بأن { التفضيل يكون بأمور خارجة عن الذات والصفات القائمة با وأدى ذلك إلى مساواتم ذوات المخلوقـات بعضها ببعض وما اختلفت هذه الذوات إلا بذه الأمور الخارجة عنها ، فساووا من ثم بين ذات نبى الله موسـى وذات فرعون وساووا بين ذات الحجر الأسود وحجارة الأرض }(4) لأن القول بوجوب التفاضل على أسـس موضوعية تخص النبوة والرسالة دون شخص النبي أو حاله أو خلقه أو خلقته لا يعني انفصال هذه الأسس عـن ذات النبي إذ ما استحق النبي النبوة إلا لتوافر شروطها فيه وما وهبهم الله تعالى النبوة إلا لجدارتم بـا فالواهـب لايهب موهوبا إلا إذا كان الموهوب له جديرا بالهبة.

12- أما عن القول باستقاء معايير التفاضل من السنة ، فلأنه صلى الله عليه وسلم عدد لنفسه بعض وجوه الفضل التى لم تكن لغيره من الأنبياء ، كقوله عن جابر رضي الله عنه " أعطيت خمسا لم يعطهن نبي قبلي نصرت بالرعب مسيرة شهر ، وجعلت لي الأرض مسجدا وطهورا فأيما رجل من أمتي أدركته الصلاة فليصلي ، وأحلت لي الغنائم ولم تحل لأحد قبلي وأعطيت الشفاعة وكان النبي يبعث إلى قومه خاصة وبعثت إلى الناس عامة ."(5)وقوله عـن أبى موسى الأشعري " أعطيت فواتح الكلم وجوامعه وخواتمه " (6) وفي صحيح الجامع قوله صلى الله عليه وسلم " أنا سيد ولد آدم ولا فخر وبيدي لواء الحمد ولا فخر وما من نبي آدم فمن سواه إلا تحت لوائي ولا فخر . وأنا أول شافع وأول مشفع ولا فخر "_(7) وقوله أيضا في ذات الصحيح " أنا سيد ولد آدم يوم القيامة و أول مـن ينشق عنه القبر و أول شافع و أول مشفع " (8)وقال عليه الصلاة والسلام " أنا أكثر الأنبياء تبعا يوم القيامة و أنا

أول من يقرع باب الجنة " (9) وقال أيضا صلى الله عليه وسلم " أنا أول شفيع في الجنة ، لم يصدق نـبي مـن الأنبياء ما صدقت و إن من الأنبياء نبيا ما يصدقه من أمته إلا رجل واحد (10)

----

(1) التوبة من الآية 114 (2) مريم: من الآية54 (3) ن 4 (4) زاد الميعاد ابن القيم
(5) الصحيحين مسلم 521 والبخاري 328 (6) المستدرك على الصحيحين الجزء الثالث (7) صحيح الجامع 1468
(8) 1476 صحيح الجامع للألباني (9) 1450 المصدر السابق (10) 1558 الجامع

ثالثا : رأي في بعض ما قيل في التفاضل .(1)

بعض أمور التفضيل التي نقلت إلينا فيها نظر ومن ذلك مثالا وليس حصرا :
" ناداه الله تعالى بيأيها النبي بينما نادى باقى الأنبياء بأسمائهم "و " سمى إبراهيم خليلا وكناه حبيبا " .
و " قدمه فى الذكر على من هم أقدم منه فى البعث " و " أقسم بحياته ولم يقسم بحياة نبي غيره " .
و "مدحه بقوله وإنك لعلى خلق عظيم ولم يقل ذلك في غيره " .
وغير ذلك من أمور لم تزد في قدره صلى الله عليه وسلم بل أنقصت من قدر الأنبياء وذلك وفقا لما يلي :

يا أيها النبي

1- أما عن القول بأن الله ناداه بيأيها النبي ونادى باقي الأنبياء بأسمائهم ، فما ذاك إلا لكونه صلى الله عليـه وسلم هو المخاطب بالقرآن ، فكان من التناسب والتناسق أن يناديه الله سبحانه وتعالى بصفته كـنبي ورسـول تأكيدا لهذه النبوة والرسالة فى مواجهة قومه وأهل الكتاب المنكرين لنبوته ورسالته ، بل حتى فى المرات القليلة التي ذكر الله سبحانه وتعالى اسم رسوله مجردا من الصفة كان ذلك بقصد التأكيد على النبوة والرسالة أيضا فقال تعالى في بعض ذلك : (مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللهِ وَالذِينَ مَعَهُ)(2) وقال (وَمَا مُحَمَّدٌ إِلا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرسُلُ)(3)

أما ندائه سبحانه وتعالى لباقي الأنبياء بأسمائهم فما ذلك إلا لأن الأمر كله فى معرض الرواية والحكاية عنهم ، فكان من التناسق اللغوي والملائمة ، والتناسب بين نداء الله لرسوله المخاطب بالقرآن بيأيها النبي ونـداء بـاقي الأنبياء أن يكون ندائهم بأسمائهم فقال تعالى (وَإِذْ قَالَ اللهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنتَ قُلْتَ لِلناسِ اتخِذُونِي وَأُمِيَ إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللهِ (4) وقال (قَالَ يَا آدَمُ أَنبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِم)(5) .فما كان لائقا القول " وإذ قال الله يا أيها النبي عيسى " أو " قال يا أيها الرسول آدم " وما كان لائقا أيضا ندائهما بصفتهما فقط دون أسمائهما كـي لا يختـل المعنى ولا يختلط ، خاصة وأن ندائهم عليهم السلام بأسمائهم لم يخلع عنهم صفة النبوة أو الرسالة

خاصة أيضا وأن من صفات القران الكريم أنه يعرض الواقعة بأسلوبه الفريد المعجز دون أن تكـون الأقاويـل الواردة به هي ذاتها التي نطق بها قائلها وإلا كان كل من ذكرهم القرآن يتحدثون العربية ويتقنونها أيما إتقان بما في ذلك إبليس والجن والحيوانات والطيور ، ومن ثم فلا مانع أن يكون الله سبحانه وتعالى نادى أنبيائه بـصفاتهم فى حياتهم وأن يعرض علينا فى قرآنه ندائه لهم بأسمائهم . وأجزم بأن الله لو كان نادى نبيه محمد صـلى الله عليـه وسلم باسمه دون الصفة ، ونادى باقي الأنبياء بصفاتهم . لعدوا ذلك مفخرة ولقالوا ناداه باسمه كناية عـن المحبـة

والود والقرب . إلا أن ذلك لا يمنع الأخذ بذه الفضيلة من وجه آخر ، وهو اعتبارها فضيلة له صـلى الله عليـه وسلم من الله تعالى دون حاجة إلى مقارنته با بسائر الأنبياء والمرسلين

----

(1)تعمدت فيما سيأتي عدم ذكر أسماء السادة العلماء الذين قالوا بذه الفضائل اجلالا لهم وتقديرا عن أن ينتقد ما قالوا به في هذا الشأن مثلي (2) الفتح من الآية 29 (3) آل عمران من الآية 144 (4)المائدة من الآية 116 (5) البقرة من الآية 33

الحبيب والخليل

2 - أما القول بأنه سمى إبراهيم خليلا وكناه صلى الله عليه وسلم حبيبا فهو قول ظاهر فيه الضعف ، إذ الخليل يشمل الحبيب وليس العكس ، فقد وصف الله تعالى خلق كثير بالحب ولم يصف إلا إبراهيم عليه السلام بالخلـة فقال تعالى : (إِن اللهَ يُحِب الْمُحْسِنِينَ)(1) وقال (إِن اللهَ يُحِب التوابِينَ وَيُحِب الْمُتَطَهرِينَ)(2) فيما قال عـن إبراهيم عليه السلام : (وَاتخَذَ اللهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلاً)(3) فلو كان معيار التفاضل على النحو المنتقد لكـان إبـراهيم أفضل ، أولم يكن أبو بكر رضى الله عنه أحب الناس الى رسول الله ، ورغم ذلك ما اتخذه خليلا وقال " لو كنت متخذا خليلا لاتخذت أبا بكر خليلا " .(4) أما الحديث الوارد فى هذا الشأن عن بن عباس رضى الله عنـهما أن النبي صلى الله عليه وسلم سمع أناسا من أصحابه يتذاكرون فى تفاضل الأنبياء فقال " قد سمعت كلامكم وعجبكم وأن إبراهيم خليل الله وهو كذلك ، وآدم اصطفاه الله وهو كذلك وموسى نجي – أو كليم – الله وهو كذلك ، آلا وأنى حبيب الله ولا فخر .. (الحديث) فقد أخرجه الترمذي وقال حديث غريب (5) كما ذكره الكامـل في الضعفاء (6) والذي هو أقرب إلى الحق هو أن رسول الله خليل الرحمن وحبيبه ، كما أن إبراهيم عليـه الـسلام خليله ، بغير حاجة إلى نص يدل على ذلك ، لكثرة الدلالات النقلية والعقلية ، ومن ذلك ماجاء في صحيح مسلم قوله صلى الله عليه وسلم عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه (ألا إني أبرأ إلى كل خل من خله ، ولو كنـت متخذاً خليلاً لاتخذت أبا بكر خليلا، إن صاحبكم خليل الله) (7)..

تقديمه في الذكر

3- وقيل قدم صلى الله عليه وسلم فى الذكر على من هم أقدم منه فى البعث إشارة إلى قوله تعالى : (إِنا أَوْحَيْنا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنا إِلَى نُوحٍ وَالنبِيينَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَعِيسَى وَأَيوبَ وَيُونُسَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ وَآتَيْنا دَاوُدَ زَبُوراً) (8) ولست أجد في هذه التقدمة من فضل إلا بيان من الله تعالى وتأكيدا لصفة نبيه . خاصة وأن الآية بربطها لما قبلها وما بعدها تدور حول نبوته وما أنزل إليه صلى الله عليه وسلم فأما التي قبلها فيقول الله تعالى فيها : (لَكِنِ الراسِخُونَ فِي الْعِلْمِ مِنْهُمْ وَالْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَالْمُقِيمِينَ الصلاةَ وَالْمُؤْتُونَ الزكَاةَ وَالْمُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أُولَئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ أَجْراً

عَظِيماً) (9) وأما التي بعدها فقوله تعالى (وَرُسُلاً قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَرُسُلاً لَمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيماً) (10)

----

(1) البقرة من الآية 195 (2) البقرة من الآية 222 (3) النساء من الآية 12 (4) مسلم

(5) الحديث الغريب : هو ما انفرد واحد بروايته أو براويه زيادة فيه وينقسم إلى غريب صحيح كالأفراد المخرجـة في الـصحيح وهو الغالب على الغرائب وغريب متنا وإسنادا وغريب إسنادا لا متنا ، وعن بن حنبل لا تكتبوا هذه الأحاديث الغرائـب فإنـها مناكير وعامتها عن الضعفاء (المنهل الروي لابن جماعة) (6)الكامل في ضعفاء الرجال للجرجاني 789

(7) صحيح مسلم 2383 (8) النساء 163 (9) النساء 162 (10) النساء 164

والأخذ بهذا المعيار يعني أن أبا بكر رضي الله عنه قدم في الذكر على رسول الله في قوله تعالى (ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ)(1) ويعني أن الله سبحانه وتعالى رابع الثلاثة وسادس الخمسة في قوله تعالى (أَلَمْ تَرَ أن اللهَ يَعْلَمُ مَا فِي السمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلاثَةٍ إِلا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلا خَمْسَةٍ إِلا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلا أَدْنَى مِنْ ذَلِكَ وَلا أَكْثَرَ إِلا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ثُم يُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِن اللهَ بِكُل شَيْءٍ عَلِيمٌ)(2) وهو ما لا يقوله عاقـل ، فمحور هذه الآيات جميعا إذن عن نبوته صلى الله عليه وسلم وعن الوحي وما أنزل إليه ، إذ يخبره ربه تثبيتا له وتأييدا أن ما أوحي إليه وما أنزل إليه ما هو إلا كوحي الأنبياء وما أنزل إليهم من قبله ، كما يعني الأخذ بهذه الخاصية تفضيل سائر الأنبياء عليه صلى الله عليه وسلم في مجال الوعيد الإلهي لهم حيث يقول سبحانه (وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَن عَمَلُكَ وَلَتَكُونَن مِنَ الْخَاسِرِينَ)(3) فقد قدمه سبحانه وتعالى على من قبله من الأنبياء ، ولكن كان البيان في الآية تهديدا ووعيدا ، فهل يمكن الأخذ بهذه الآية سندا لتقديمه صلى الله عليه وسلم في الذكر على الأنبياء ؟

ومن ناحية أخرى فإن ترتيب ذكر الأنبياء في القرآن الكريم حسب تاريخ بعثتهم أمر غير مأخوذ به من قبل الله تعالى لغير جدواه ، أو لحكمة قد يعلمها من بحث فيها ، أو هي من علوم الله وبعض حكمته التي استأثر بها عنده ، وذلك في الآية الواحدة أو في الآيات المتعاقبة ، فأما الآية الواحدة فمثالها الآية التي بدأنا بها هذا البند والمستشهد بها كمثال على أفضليته صلى الله عليه وسلم ، إذ الثابت بها أن الله تعالى ذكر عيسى عقب إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط وقبل أيوب ويونس وهارون وسليمان – عليهم السلام - بينما هو آخر هؤلاء الأنبياء ، وذكر هارون قبل سليمان رغم أن الأخير أسبق .

فأما المتعاقب من الآيات فقوله سبحانه (وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَـشَاءُ إِن رَبكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلّاً هَدَيْنَا وَنُوحاً هَدَيْنَا مِنْ قَبْلُ وَمِنْ ذُرِّيتِهِ دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيـوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَى وَهَارُونَ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ وَزَكَرِيا وَيَحْيَى وَعِيسَى وَإِلْيَـاسَ كُـل مِـنَ الـصالِحِينَ وَإِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطاً وَكُلّاً فَضلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ) (4) وفيها ذكر عيسى أيضا قبل إسماعيل وغيره وذكر لوطا في الآخيرين بينما هو مع إبراهيم – عليهم السلام - وكذلك الحال في الآيات المتعاقبة في سورة مريم

(الآيات 51 وما بعدها) وفيها ذكر إدريس عليه السلام مثلا في أخر الآيات حال كونه من أوائلهم .
فما لذكره صلى الله عليه وسلم في أولية الترتيب فضيلة إلا من حيث اعتبار ذلك تأييدا من الله تعالى له صلى الله عليه وسلم وتثبيتا كمثل قوله " (فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ) (5)

----

(1) التوبة من الآية 40 (2)المادلة 7 (3) الزمر 65 (4) الأنعام 83 وما بعدها (5) آل عمران 18

الصفات الشخصية

4- وأما قوله (وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ)(1) فالصفات الشخصية بين الأنبياء ينبغي أن تخرج عن إطار المفاضلة وإلا جاز القول بأفضلية إبراهيم عليه السلام على من سواه من الأنبياء لأن الله قال عنه (إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُنِيبٌ) (2)ولم يقل ذلك فى غيره ، وقال عن إسماعيل عليه السلام : (وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولاً نَبِيّاً) (3) ولم يقل ذلك فى غيره ،
لأن التفاضل بهذا المعنى يخلع عن باقي الأنبياء الصفة الموصوف بها النبي دونهم ، ولا يمنع ذلك استحقاقه صلى الله عليه وسلم الخلق العظيم بأكمله ، وسموه على الخلق الكامل فعلا وحقيقة وتفصيلا وإجمالا .. ولا يصح كذلك القول باشتقاق هذه الصفات له صلى الله عليه وسلم من صفات الله واسمائه ، لأن صفات الله تعالى وأسمائه هي ذاته سبحانه وتعالى ، كما أن كل ذات – غير ذات الله تعالى - وصفت بوصف معين فهي بحسب طبيعتها المخلوقة بها وحسب سعتها لهذا الوصف الذي وصفت به ،
فقد وصف الله تعالى الكبش الذي فدى به إسماعيل عليه السلام من الذبح بالعظمة ، وذلك في قوله تعالى (وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ) (4) والعظيم اسم وصفة لله تعالى ، فهل يعني ذلك أن الله تعالى اشتق للكبش اسم من أسمائه أو صفة من صفاته ؟ الإجابة قطعا لا ، لأن الله تعالى عظيم بالقدر الذي يليق بذاته بغير تكييف أو تعطيل أو تشبيه ، أما الكبش فهو عظيم بوصفه حيوان كل سعته من هذه العظمة هي حجمه الذي يزيد به عن أمثاله من الكباش
وكذا الحال بالنسبة للأنبياء عليهم السلام ، فإبراهيم وصف بأنه حليم أواه منيب في قوله تعالى :
(إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ)(5) وقوله تعالى (إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُنِيبٌ) (6) فهو كذلك عليه السلام بقدر سعته لهذا الحلم وهذه الإنابة بوصفة نبي من البشر ، بغير أن يقتضي المقام القول بأن الله تعالى اشتق له هذه الصفات من صفاته جلا وعلا ، ورسول الله صلى الله عليه وسلم رحيما ورؤوفا بالمؤمنين بالقدر الذي يتناسب معه صلى الله عليه وسلم وبحسب سعته لهذه الرحمة والرأفة ، وكم هي سعة عظيمة تفوق المسلمين جميعا ، ولكنها في النهاية لنبي من البشر حتى ولو كان محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم ، بغير اشتقاق من أسماء الله وصفاته .

القسم بحياته

5- وعن القول بأن الله سبحانه وتعالى أقسم بحياته ولم يقسم بحياة غيره فيقصدون قوله تعالى : (لَعَمْرُكَ إِنهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ) (7) فتفسير فيه نظر لكونه يسلب فضلا لنبي من أنبياء الله هو لوط عليه السلام . الذي أراد أن يضحى ببناته إكراما لضيفة المكرمين فى واقعة لم تروى فى تاريخ الإنسانية إلا عنه عليه السلام ، وذلك على النحو الأتي :-

----

(1) ن 4 (2) هود 75 (3) مريم 54 (4) الصافات:107
(5) التوبة: من الآية114 (6) هود:75 (7) لحجر72

أولا:- لو كان المقسوم بحياته هو رسول الله صلى الله عليه وسلم لعنى ذلك أن السكرة لم تزل واقعا حيا مستمرا ما بقي كتاب الله ، أو على أقل تقدير استمرارها طيلة حياة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، حيث جاءت (يعمهون) كفعل مضارع يعني الاستمرارية ، وهو ما لا يتفق القول به مع ما علم نقلا وعقلا من أن الأقوام السابقين ممن قضى الله تعالى عليهم بالإبادة لتكذيبهم أنبيائهم انقضت أثارهم وأصبحوا خبرا وقصة تروى لرسول الله صلى الله عليه وسلم . قال تعالى (فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنا دَمرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوا إِن فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ) (1)

ثانيا:- لو كان المقسوم بحياته رسول الله صلى الله عليه وسلم لكانت الآية بمثابة جملة اعتراضيه لا يخل سلخها من مكانا بسياق الآيات أو تسلسلها ، لأن الجملة الاعتراضية هي التي تتعرض الكلام بحيث إذا ما حذفت لا يختل المعنى الأصلي للكلام ، والظاهر خلاف ذلك لأن الآية جاءت ضمن تسلسل متسق ومنظم من الآيات إذ يقول تعالى : (فَلَما جَاءَ آلَ لُوطٍ الْمُرْسَلُونَ قَالَ إِنكُمْ قَوْمٌ مُنكَرُونَ قَالُوا بَلْ جِئْنَاكَ بِمَا كَانُوا فِيهِ يَمْتَرُونَ وَأَتَيْنَاكَ بِالْحَق وَإِنا لَصَادِقُونَ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَيْلِ وَاتبِعْ أَدْبَارَهُمْ وَلا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ وَامْضُوا حَيْثُ تُؤْمَرُون وَقَضَيْنَا إِلَيْهِ ذَلِكَ الْأَمْرَ أَن دَابِرَ هَؤُلاءِ مَقْطُوعٌ مُصْبِحِينَ وَجَاءَ أَهْلُ الْمَدِينَةِ يَسْتَبْشِرُونَ قَالَ إِن هَؤُلاءِ ضَيْفِي فَلا تَفْضَحُون وَاتقُوا اللهَ وَلا تُخْزُون قَالُوا أَوَلَمْ نَنْهَكَ عَنِ الْعَالَمِينَ قَالَ هَؤُلاءِ بَنَاتِي إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ لَعَمْرُكَ إِنهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ فَأَخَذَتْهُمُ الصيْحَةُ مُشْرِقِينَ فَجَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ سِجيلٍ) (2) فعندما جاء أهل المدينة يستبشرون بضيف لوط عليه السلام عرض عليهم بناته بديلا عنهم ، وعرضه هذا ليس معناه استباحتهن لهم ولكنه تذكيرا بجرمهم وتعظيما له ربما يكون في ذلك رادعا لهم أو مبررا لتركه وضيفه المكرمين ، فعندئذ تدخل ضيفه المكرمين في الحوار، وكشفوا عن هويتهم فقالوا للنبي الذي جاءوا من أجله ومقسمين بحياته لكرامته عندهم " لَعَمْرُكَ إِنهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ ".طمأنه لفؤاده وسكينة لقلبه وتدئة لروعه ، فلو اعتبرنا أن القسم عائد على رسول الله صلى الله عليه وسلم لكان من الجائز بتر الآية من مكانا بوصفها اعتراض لأصل الكلام الذي هو عن لوط وقومه والملائكة المرسلين إليهم ، وعندئذ سيختل المعنى وسيكون على هذا النحو " قَالَ هَؤُلاءِ بَنَاتِي إِنْ كُنْتُمْ

قَاعِلِينَ ، فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ فَجَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ سِجِيلٍ ، واختلاله سـيكون بعدم اتفاق هذه الآيات مع الآيات التي تحدثت عن نفس الواقعة ، والتي جاء با أن لوط عليه السلام عندما عرض بناته على قومه ردت عليه الملائكة بالطمأنينة ثم أخبرته أن موعد مهلكهم الصبح ، أي هو مؤجل للصبح ،

----

(1) النمل:52 (2) الحجر:61 وما بعدها

فمن ذلك قوله تعالى : (وَجَاءَهُ قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِنْ قَبْلُ كَانُوا يَعْمَلُونَ السيئَاتِ قَالَ يَا قَوْمِ هَؤُلاءِ بَنَـاتِي هُن أَطْهَرُ لَكُمْ فَاتقُوا اللهَ وَلا تُخْزُونِ فِي ضَيْفِي أَلَيْسَ مِنْكُمْ رَجُلٌ رَشِيدٌ قَالُوا لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَق وَإِنكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ قَالَ لَوْ أَن لِي بِكُمْ قُوةً أَوْ آوِي إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ قَالُوا يَا لُوطُ إِنا رُسُلُ رَبكَ لَنْ يَصِلُوا إِلَيْـكَ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ وَلا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ إِلا امْرَأَتَكَ إِنهُ مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ إِن مَوْعِدَهُمُ الصبْحُ أَلَـيْسَ الصبْحُ بِقَرِيبٍ فَلَما جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِنْ سِجيلٍ مَنْضُودٍ) (1) ،

بينما حذف الآية – إذا ما أعتبرت اعتراضية – يعني أن الصيحة أخذتم مباشرة عقب قول لوط عليه الـسلام لهم (هؤلاء بناتي) ولم يكن ثمة تأجيل للصبح . خاصة وأن (فاء) فأخذتم الصيحة هـي (فـاء) المباشـرة والتعقيب ، ثم تأمل قول الملائكة ردفا لقول لوط (هؤلاء بناتي) (يَا لُوطُ إِنا رُسُلُ رَبكَ لَنْ يَصِلُوا إِلَيْكَ) تجـده يحمل نفس معاني الطمأنة والأمان له عليه السلام ، وهو ذات المعنى الذي تحمله آية (لَعَمْرُكَ)

ثالثا:- ولتقريب المعنى المقصود في الآية نقول أن أغلب آيات القرآن الكريم خطاب من الله سـبحانه وتعـالى لرسوله صلى الله عليه وسلم – على ما سيرد في ذلك بعض تفصيل – ومن بين وسائل هذا الخطاب ما تنتهي بـه الكلمة بكاف المخاطب ، كقوله تعالى (وربك) أو (إن ربك) أو (لعلك) وما شابه ذلك ، بيد أن ذلـك لا يعد قاعدة ثابتة ، حيث جاءت بعض الآيات منتهية بذه الكاف بما فيها "ربك" لتخص نبيا آخـر هـو محـور الموضوع الذي تتحدث عنه الآية ، فمثلا قوله تعالى " إن ربك "جاءت في ست وعشرين آية كلها لرسـول الله صلى الله عليه وسلم حتى وهي في معرض الحديث عن بعض الأنبياء مثل قوله تعالى (وَلَقَدْ بَوأْنَا بَنِي إِسْرائيلَ مُبَوأَ صِدْقٍ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطيبَاتِ فَمَا اخْتَلَفُوا حَتى جَاءَهُمُ الْعِلْمُ إِن رَبكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَـانُوا فِيـهِ يَخْتَلِفُونَ)(2) فهذه الآية ومثيلاتا تتحدث عن بني إسرائيل وعن نبي الله موسى عليهما السلام ، ومدار الآيـات قبلها وبعدها يدل على ذلك ، ولكن المخاطب فيها هو رسول الله صلى اله عليه وسلم لذا انتهت الآية بقوله

إن رَبكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ " ، بينما ورد الاستثناء في آية واحدة فقط المقصود فيها يوسف عليه السلام وهي قوله تعالى (وَكَذَلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبكَ وَيُعَلمُكَ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَيُتِم نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَعَلَى آلِ يَعْقُوبَ كَمَا أَتَمهَا عَلَى أَبَوَيْكَ مِنْ قَبْلُ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ إِن رَبكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ) (3) وتدخل الآية التي نحن بصددها في مثل هذه الاستثناءات فيكون المقصود بقوله تعالى "لعمرك "هو نبي الله لوط عليه السلام ،

رابعا:_ لم يقدم المفسرون تبريرا واحدا للقسم برسول الله صلى الله عليه وسلم في هذا الموضع فحسب أو جدواه ، خاصة وأن العذاب الذي ألحقه الله تعالى بالأمم السابقة لتكذيبهم أنبيائهم ثابت في أكثر من موضع بكتاب الله ، ولم يقسم سبحانه وتعالى بحياة نبيه صلى الله عليه وسلم أبدا في أي موضع من هذه المواضع بثبوت هذا العذاب ،ومن ثم يكون القسم بلوط عليه السلام في هذا الموضع الفريد هو تكرمة لموقفه مع الملائكة ضد قومه واستعداده للتضحية ببناته من أجلهم .

----

(1) هود 78وما بعدها (2) يونس:93 (3) يوسف 6

أقول كل ذلك على الرغم من الإجماع الذي وجدته في أمهات الكتب وعند أساطين العلم ورواده الأوائل والأخيرين بأن المقصود بالقسم هو رسول الله صلى الله عليه وسلم نقلا عن المصدر الوحيد لهم عن أبي الجوزاء عن بن عباس قوله : " ما خلق الله وما ذرأ نفسا اكرم عليه من محمد صلى الله عليه وسلم وما سمعت الله تبارك وتعالى اقسم بحياة أحد إلا بحياته فقال " الآية " وكل ما جاء عن هذا القول هو أن اسناده جيد فقط ،(1)

والصحيح أن الله سبحانه وتعالى أقسم بكلام رسوله وقوله ، وذلك عندما قال : (وَقِيلِهِ يَا رَب إِن هَؤُلاءِ قَوْمٌ لا يُؤْمِنُونَ فَاصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلامٌ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ) (2) وأقسم بوجوده بمكة فقال (لا أُقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ وَأَنتَ حِل بِهَذَا الْبَلَدِ) (3) ، بل إنك تلمح في قسمه سبحانه وتعالى بذاته لرسول الله عندما يقول له " وربك " كأنه يقسم به هو صلى الله عليه وسلم لما في هذا القسم من قربة وحب . كمثل أب يقول لابنه " وأبيك " أي وقدر أبيك الذي أنت عنده غاليا عزيزا وهو عندك كذلك لأفعلن كذا ، بما يدخله هذا القسم عليه من طمأنة وسكينة . قال تعالى : (فَلا وَرَبكَ لا يُؤْمِنُونَ حَتى يُحَكمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ)(4) وقال (فَوَرَبكَ لَنَحْشُرَنهُمْ وَالشيَاطِينُ) (5)

وصفه بالنور

6 - وقيل فيما قيل أيضا سماه الله تعالى بالنور في قوله (يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَين لَكُمْ كَثِيراً مِما كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ) (6) وهو تحامل لا مبرر له حيث أن صفة النور تخص القرآن الكريم الذي وصفه الله تعالى في هذه الآية بصفتين هما النور والكتاب المبين ، والدليل على ذلك أن الآية التالية لها هي (يَهْدِي بِهِ اللهُ مَنِ اتبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السلامِ وَيُخْرِجُهُمْ مِنَ الظلُمَاتِ إِلَى النورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ)(7) ولو كان المراد بالنور رسول الله لقال سبحانه (يهدي بهما) ،، كما يقول سبحانه : (وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحاً مِنْ أَمْرِنَا مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلا الْإِيمَانُ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُوراً

نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ) (8) فالنور هنا منصرف إلى الكتاب وبه يهـدي صلى الله عليه وسلم إلى صراط مستقيم ، فضلا عن أن الموصوف بإخراجه الناس من الظلمات إلى النور هو كتاب الله في كل الأديان كقوله سبحانه" (الر كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ الناسَ مِنَ الظلُمَاتِ إِلَى النورِ بِإِذْنِ رَبهِمْ إِلَـى صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ) (9) وقوله عن التوراة (قُلْ مَنْ أَنزَلَ الْكِتَابَ الذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى نُوراً وَهُـدىً لِلنـاسِ تَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ)(10) كما أن لفظة " النور " أطلقت في كتاب الله كله على عدة معـاني أخـرى ، منـها الإسلام ككل لقوله (يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ اللهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللهُ إِلا أَنْ يُتِم نُورَهُ وَلَوْ كَـرِهَ الْكَـافِرُونَ)(11) ووصف سبحانه نفسه بالنور في قوله (اللهُ نُورُ السمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ)(12)

----

(1) مجمع الزوائد للهيثمي في سورة الحجر والأوسط للطبراني 2380 (2) الزخرف 89 (3) البلد:2 (4) المائدة 16
(5) مريم 68 (6) المائدة 15 (7) المائدة 16 (8) الشورى 52 (9) إبراهيم 1، 2 (10) الأنعام من الآية 91
(11) التوبة 32 (12) النور من الآية 35

ولكن وصف نبيه صلى الله عليه وسلم بأنه سراج وهاج فذلك قوله تعالى : (يَا أَيهَا النبِي إِنا أَرْسَـلْنَاكَ شَـاهِداً وَمُبَشراً وَنَذِيراً وَدَاعِياً إِلَى اللهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجاً مُنِيراً) (1) ويماثل ذلك قولهم في قوله تعالى " اللهُ نُـورُ الـسمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ مَثَلُ نُورِه كَمِشْكَاة فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزجَاجَةُ كَأَنهَا كَوْكَبٌ دُري يُوقَدُ مِـنْ شَـجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لا شَرْقِيةٍ وَلا غَرْبِيةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُورٌ عَلَى نُورٍ يَهْدِي اللهُ لِنُورِهِ مَنْ يَـشَاءُ وَيَضْرِبُ اللهُ الْأَمْثَالَ لِلناسِ وَاللهُ بِكُل شَيْءٍ عَلِيمٌ)(2) أن المراد بالنور الثاني هنا محمد عليه الصلاة والسلام ، أي أن المقصود بمثل نوره هو نور رسول الله صلى الله عليه و سلم . ويفسر ذلك أحدهم بقوله " الله هادي أهل السموات و الأرض ومثل نور محمد إذ كان مستودعاً في الأصلاب كمشكاة صفتها كذا ، وأراد بالمصباح قلبه ، والزجاجة صدره ، أي كأنه كوكب دري لما فيه من الإيمان والحكمة "يوقد من شجرة مباركة " أي مـن نـور إبـراهيم . وضرب المثل بالشجرة المباركة ، و قوله " يكاد زيتها يضيء " أي تكاد نبوة محمد صلى الله عليه وسلم تبين للناس قبـــــــــــل كلامـــــــــه كهـــــــــــــذا الزيـــــــــــــت

في **حروف القرآن الكريم**

7- ومثلما قالوا أن يس و طه هما اسمين من أسمائه صلى الله عليه وسلم وأقسم الله بهذين الاسمين في قولـه تعالى (يس وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ) (3)وقوله (طه مَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى) (4) "رواية عن النبي صلى الله عليه و سلم أنه قال : لي عند ربي عشرة أسماء " ذكر منها طه و يس اسمان له .وحكى عن بعضهم أنه سبحانه وتعالى أراد القول " يا سيد " ونقلوا عن ابن عباس قوله "يس " أي يا إنسان أراد محمداً صلى الله عليه و سلم .. ومـا هو بجميع ذلك إنما هما حرفان من حروف القرآن المقطعة البادئة با بعض السور أقسم الله ببعضها لمحمد صلى الله

عليه وسلم بأنه نبي أنزل عليه القرآن تشابه مع قوله تعالى : (لا أُقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ وَأَنتَ حِلٌ بِهَـذَا الْبَلَـدِ) (5) أي لا أقسم به إذا لم تكن فيه بعد خروجك منه ، أو كما قال آخرون " نحلف لك بهذا البلد الـذي شـرفته بمكانك فيه حياً وببركتك ميتاً يعني المدينة ، " كم حكي في قوله تعالى " طه " أن معناه يا رجل أويـا إنـسان . وقيل أراد يا طاهر و يا هادي . وقيل : هو أمر من الوطء والهاء كناية عن الأرض ، أي اعتمـد علـى الأرض بقدميك ولا تتعب نفسك بالاعتماد على قدم واحد فتشقى لقوله تعالى " ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى " استنادا إلى أن الآية نزلت فيما كان النبي صلى الله عليه وسلم يتكلفه من السهر والتعب وقيام الليل. حيث نقل أن النبي صلى الله عليه وسلم كان إذا صلى قام على رجل ورفع الأخرى ، فأنزل الله تعالى " طه " يعني طأ الأرض " ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى إلا تذكرة لمن يخشى تـ يلا ممن خلق الأرض والسماوات العلا "

----

(1) الأحزاب 46 (2) النور 35 (3) يـس: 2 (4) طـه:2 (5) البلد:2

وأسرفوا في تفسير بعض الآيات القرآنية ، فقالوا في قوله تعالى : (ذَلِـكَ الْكِتَـابُ لا رَيْـبَ فِيـهِ هُـدىً لِلْمُتقِينَ)(1) أن الألف هو الله تعالى واللام جبريل و الميم محمد صلى الله عليه و سلم . وقال آخـرون في قولـه تعالى : (ق وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ) (2)أقسم بقوة قلب حبيبه محمد صلى الله عليه وسلم حيث حمل الخطاب والمشاهدة ولم يؤثر ذلك فيه لعلو حاله . وقالوا في تفسير قوله تعالى (وَالنجْمِ إِذَا هَوَى) (3) " إنه محمد صلى الله عليه و سلم أي النجم وقيل النجم قلب محمد صلى الله عليه وسلم انشرح من الأنوار ، وفي قوله تعالى : (وَالْفَجْرِ وَلَيَالٍ عَشْرٍ) (4) قالوا الفجر هو محمد صلى الله عليه و سلم لأنه منه تفجر الإيمان .

لا تتبع الهوى

8 – وقيل أن الله خاطب داود عليه السلام بأن لا يتبع الهوى في قوله تعالى : (يَا دَاوُدُ إِنا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُمْ بَيْنَ الناسِ بِالْحَق وَلا تَتبِعِ الْهَوَى فَيُضِلكَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ إِن الذِينَ يَضِلونَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ) (5) " بينما أقسم الله تعالى بمساقط النجوم وطوالعها بأنه صلى الله عليه وسلم لا ينطق عن الهوى في قوله تعالى (وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى) (6) ، وشتان بين قوله تعالى لداود عليه السلام لا تتبع الهوى وبين قوله تعالى لمحمد عليه الصلاة والسلام وما ينطق عن الهوى إذ الأولى من نظير الأوامر والنواهي الـتي يوصي الله تعالى بها أنبيائه حفاظا على دينه ومنهجه وإرشادا لهم وعناية بهم وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم ذاته هو أكثر من أرشده ربه بمثل هذه الأوامر والنواهي ومن ذلك قوله تعالى لنوح عليه السلام : (قَالَ يَا نُوحُ إِنهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلا تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِني أَعِظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ) (7) ، وقوله لموسى "(يَا مُوسَى لا تَخَفْ إِني لا يَخَافُ لَدَي الْمُرْسَلُونَ)(8)" وقوله أيضا لرسوله صلى الله عليه وسلم (فَاحْكُمْ

بَيْنَهُمْ بِمَا أَنزَلَ اللهُ وَلا تَتبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَما جَاءَكَ مِنَ الْحَق)(9)" وقوله تعالى " (وَلَوْ شَاءَ اللهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَى فَلا تَكُونَن مِنَ الْجَاهِلِينَ)(10) وقوله له (وَلا تَجْعَلْ مَعَ اللهِ إِلَهاً آخَرَ فَتُلْقَى فِي جَهَنمَ مَلُوماً مَدْحُوراً)(11)

أما قوله تعالى (وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَى) فتبرئة له صلى الله عليه وسلم وتأييدا له من ادعاء قومه بالتقول بالقرآن الكريم أو تعلمه من معلم ، فلم يكن إذن قوله تعالى لداود عليه السلام لا تتبع الهوى مظنة وقوعه في الهوى ولم يكن قوله تعالى لموسى عليه السلام لا تخف مظنة جبنة ولم يكن قوله لنوح عليه السلام لا تسألني ما ليس به علم معناه تجرأه على ربه بالسؤال . وإلا عد قوله تعالى لرسول الله (يَا أَيهَا النبِي اتقِ اللهَ)دلالة على عدم تقواه أو قوله (وَلا تَتبِعْ أَهْوَاءَهُمْ)دلالة على رغبته صلى الله عليه وسلم في اتباع هواهم أو قوله (فَلا تَكُونَن مِنَ الْجَاهِلِينَ) دلالة على جهله . علما بأن النهي عن اتباع هوى الغير أشد وطأة من اتباع هوى النفس ، لأن النفس قد تتبع بفطرتا هواها فيكون لها بعض العذر ولكن من غير المتصور أن تتبع هوى الغير خاصة بالنسبة للأنبياء فلا يقبل عذرها .

----

(1) البقرة:2 (2) قّ:1 (3) النجم:1 (4) الفجر:2 (5) ص26 (6) النجم 3 (7) هود 46
(8) النمل من الآية 10 (9) المائدة من الآية 48 (10) الأنعام من الآية 35 (11) الإسراء من الآية 139

غفران ذنبه

9- وقيل أن من فضائله صلى الله عليه وسلم أن كل نبي ذكر الله تعالى حاله وغفرانه له ما كان مضى منه فقال تعالى في موسى عليه السلام (قَالَ رَب إِني قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْساً فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُون) (1)وقال (قَالَ رَب إِني ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ إِنهُ هُوَ الْغَفُورُ الرحِيمُ) (2) فنص على ذنبه وسأل ربه المغفرة . وأخبر عن داود إذ تسور عليه الملكان فقالا (إِن هَذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِيَ نَعْجَةٌ وَاحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزنِي فِي الْخِطَابِ) (3) فذكر الظلم والبغي فقال (قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَى نِعَاجِهِ)(4) ثم قال تعالى (وَظَن دَاوُدُ أَنمَا فَتَناهُ فَاسْتَغْفَرَ رَبهُ وَخَر رَاكِعاً وَأَنَابَ) (5)"

فيقول نص الله على زللهم وخطاياهم وأخبر عن غفرانه نبيه على الصلاة والسلام ولم ينص على شيء من زلله إكراما وتشريفا له فقال (لِيَغْفِرَ لَكَ اللهُ مَا تَقَدمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخرَ) (6) " فهذا غاية الفضل والشرف . والحق خلاف ما قيل إذ أن ما ذكر وأمثاله إنما كان على سبيل القصص النبوي الذي يقصه الله تعالى على نبيه المصطفى تثبيتا لفؤاده وتسرية عنه مصداقا لقوله سبحانه (وَكُلاّ نَقُص عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرسُلِ مَا نُثَبتُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَق وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ) (7) فكان من مقتضيات هذا القصص ذكر بعض أخطاء الأنبياء وذكر رحمة ربهم بهم كآية على رحمته بغيرهم من البشر وبيان واضح منه سبحانه وتعالى لرسوله ولعباده على كيفية قبوله توبة العبد بعد زلته وخطأه ، فيقول سبحانه وتعالى مثلا عن يونس عليه السلام (وَذَا النونِ إِذْ ذَهَبَ مُغَاضِباً فَظَن أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَى فِي الظلُمَاتِ أَنْ لا إِلَهَ إِلا أَنتَ سُبْحَانَكَ إِني كُنتُ مِنَ الظالِمِينَ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجيْنَاهُ مِنَ الْغَم وَكَذَلِكَ نُنجِي الْمُؤْمِنِينَ) (8) أي بإياب المخطئين من المؤمنين وتسبيحهم ينجيهم ربهم كما نجى يونس عليه

السلام ،والقول بغير ذلك يعني أن الله تعالى يكشف بعض معايب أنبيائه ورسله وبعض أخطائهم بينما يستر أخطاء رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهو ما لا يصح

كما أنه ومن ناحية أخرى فإن الله تعالى ذكر بعض ذنوب نبيه التي غفرها له ، منها على سبيل المثال " (عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذِنْتَ لَهُمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ الْكَاذِبِينَ) (9) وقوله (مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يُثْخِنَ فِي الْأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ) (10) ، إذن ما كان ذكر الله تعالى لبعض أخطاء أنبيائه وقوله تعالى لنبيه محمد (لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ)(11) محل للمقارنة وكان الأولى النظر إلى الأثر المترتب على هذه الأخطاء بتوبة هؤلاء النبيين السابقين وقبول الله تعالى لتوبتهم واجتبائه لهم قال تعالى (وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَى)(12)

----

(1) القصص 33 (2) القصص 16 (3) ص 23 (4) ص من الآية 24
(5) ص 24 (6) الفتح من الآية2 (7) هود 120 (8) الأنبياء 88
(6) التوبة 43 (7) الأنفال 67 (8) الفتح من الآية 2 (9) طه 122

مقارنة غير محمودة

10- وقارن بغير داع أو حاجة معجزات الأنبياء السابقين بمعجزات رسول الله صلى الله عليه وسلم على الرغم من الاختلاف الجوهري بينهما ، فقارن بين عصا موسى وناقة صالح وتسخير الجبال لداود وملك سليمان وجمال يوسف وإبراء الأكمه والأبرص وإحياء الموتى عند عيسى وبين معجزات النبي صلى الله عليه وسلم المسماة عند العلماء بالمعجزات الحسية ، فقيل مثلا ..

وإن قيل أن الله جعل عصا موسى ثعبانا فلقد أؤتي محمد نظيرها وأعجب منها وهو خوار الجزع وإجابة الأشجار له واجتماعهن لدعوته ، وإن قيل أن صالح أعطي الناقة فقد شهد لمحمد البعير الناد شاكيا إليه ما هم به صاحبه من نحره ، وإن قيل تسخير الجبال لداود فقد سبح الحصى في يديه ، وتسخير الجان لسليمان فنظيره تصريف الجن لمحمد لسماعه واتباعه ، وإن كان موسى انفلق له البحر فجازه لما ضربه بالعصى فإن محمد أوتي نظيره بعض أمته لأنه لم يحوج إلى اجتياز البحر وهو العلاء الحضرمي لما كان بالبحرين وعبر البحر هو وأصحابه ماشيا على الماء ، فمزج القائل بين معجزة الأنبياء وكرامات الأولياء وساوى بين كرامة هذا الولي وبين معجزة واحد من آكابر الأنبياء ، وبرر ذلك بعدم حاجة رسول الله صلى الله عليه وسلم لعبور البحر ، وهو تبرير واه لأن رسول الله لم يكن بحاجة إلى معجزة يعبر بها البحر فعلا وهو أيضا لم يكن بحاجة إلى ناقة كناقة صالح ولم يكن بحاجة ليبرأ الأكمه أو الأبرص ولم يكن بحاجة إلى ملك كملك سليمان أو تسبيح كتسبيح الجبال ، لأن معه المعجزة الأجل والأعظم التي ساوى الله بها سائر معجزات الأنبياء والرسل كلهم ألا وهى القرآن ، فقال سبحانه

(وَقَالُوا لَوْلا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَاتٌ مِنْ رَبِهِ قُلْ إِنَمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللهِ وَإِنَمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ إِن فِي ذَلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَى لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ)(1) فكان العدل إذن أن تقارن هذه المعجزات مجتمعة أو كل واحدة على حده بمعجزة رسول الله الأصلية وسيبين عندئذ الفضل الذي فضل الله تعالى به نبيه على كل الأنبياء والرسل الكرام قال تعالى (وَأَنْزَلَ اللهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللهِ عَلَيْكَ عَظِيماً)(2) أما المقارنة على النحو المذكور مقارنة غير عادلة فضلا عن أنا ليست في صالح رسولنا الكريم صلى الله عليه وسلم . لأن معجزات الأنبياء هي أداتم لاثبات منهجهم والدليل على دعواهم والحجة في مواجهة أقوامهم ولولاها ما كتب لدينهم الظهور وما استطاعوا إعلاء كلمة ربم الأعلى ،

ومن هذا المنطلق تكون عصا موسى أجل وأعظم من خوار الجزع ، وناقة صالح أقوى من شكوى البعير الناد أو شهادة الضب ، وتسخير الجان والريح لسليمان أشد من سماع الجن لرسول الله صلى الله عليه وسلم ... وذلك كله بالنظر إلى الهدف الأصلي والغاية التي حققتها هذه المعجزات وبالنظر إلى مدى احتياج الأنبياء إليها . وهو ما يقتضى منا التفرقة بين هذه المعجزات جميعا ومعجزات نبينا صلى الله عليه وسلم على النحو الأتي

----

(1) العنكبوت 50 وما بعده   (2) النساء من الآية 113

الفرق بين معجزات الأنبياء ومعجزات رسول الله المادية

الأصل في المعجزة هو كونا دعما جوهريا رئيسيا لإثبات نبوة النبي أو صدق الرسول في دعوته وبدونا يختل موقفه ويضعف ، وبذا الأصل كانت جماع معجزات الأنبياء السابقين ، أما بالنسبة لمعجزات رسول الله صلى الله عليه وسلم الحسية فلم يكن لها هذا الغرض ، ولم تكن إثباتا لنبوته أو معيارا لصدقه في نبوته . وذلك اكتفاء بمعجزة القرآن الخالدة ، قال تعالى : (أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ إِن فِي ذَلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَى لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ) (1) والدليل نورده فيما يلي ..

أولا : معظم هذه المعجزات كانت وقتية وانتهت بمجرد حدوثها رآها من رآها ولم يرها الكثيرون ، وربما رآها شخص واحد أو شخصان ، مثل معجزة الظبية التي تكلمت ، أو الضب الذي تكلم وشهد لرسول الله بالنبوة أو الشجرة التي آتته تسعى ، أو المصارع الذي صرعه رسول الله صلى الله عليه وسلم - ركانة بن عبد يزيد - مصارع مكة القوي وأشدها ، الذي خلا يوما برسول الله في بعض شعاب مكة فقال له صلى الله عليه وسلم " ياركانة ألا تتقي وتعلم أن ما أقول حقا "فقال له ركانة لو أني أعلم ما تقوله حقا لاتبعتك فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم " افرأيت إن صرعتك أتعلم أن ما أقوله حقا ؟ " قال نعم ، ففعل رسول الله صلى الله عليه وسلم وهزمه مرتين ، فتعجب الرجل وقال له إن لأمرك عجب أتصرعني ؟ . فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم " بل أعجب من ذلك أربكه إن اتقيت واتبعت أمري " فقال له وما هو قال " هذه الشجرة " فدعاها

رسول الله فأقبلت ووقفت بين يديه ثم أمرها فرجعت وعادت إلى مكانها " ففر الرجل إلى قومه فقال يابني عبد مناف ساحروا بصاحبكم أهل الأرض فوالله ما رأيت أسحر منه (2) .

ثانيا : معظم الذين رأوا هذه المعجزات ممن دخلوا في الإسلام واستقر الإيمان في قلوبهم وقدروا معجزة القرآن واستشعروها جيدا ، فلم يكونوا بحاجة إلى معجزة تثبت نبوة نبيهم الذي آمنوا به وصدقوه وعزروه ، كمعجزة تسبيح الحصى بين يديه أو نبع الماء من بين أصابعه أو بركته الطعام التي كفت جيشا بأكمله ، أو برؤه لبعض الجروح بالتفل فيها . ففي البخاري عن جابر بن عبد الله قال عطش الناس يوم الحديبية والنبي بين يديه ركوة فتوضأ فجهش الناس نحوه فقال مالكم ؟ قالوا ليس عندنا ماء نتوضأ ولا نشرب إلا الذي بين يديك . فوضع يده في الركوة التي كانت معه فجعل الماء يفور من بين أصابعه كأمثال العيون فشربنا وتوضئنا .. (3) وعن أبي ذر قال كنت رجل اتبع خطوات رسول الله صلى الله عليه وسلم فرأيته يوما جالسا ومعه أبو بكر وعمر وعثمان وبين يديه تسع حصوات فأخذهم في كفه فسمعت لهم حنينا كحنين النخل ثم وضعهن فخرسن ، ثم أخذهن فأعطاهن أبو بكر فسبحن ثم عمر ثم عثمان ثم وضعهن فخرسن .(4)

----

(1) العنكبوت 51 (2) سيرة بن هشام والحديث مجملا عند الحاكم في المستدرك بعنوان مناقب ركانة بن عبد يزيد 5903
(3) صحيح البخاري 3383 ، 3921 (4) الحديث بتمامه في المعجم الأوسط للطبراني 4097

ثالثا : معظم هذه المعجزات لم تكن بناء على طلب سواء من المشركين أو من المسلمين إنما جاءت دون طلب وبلا مقدمات ، كحنين جذع الشجرة التي كان يخطب رسول الله صلى الله عليه وسلم عندها فتركها واتخذ منبرا ، وتظليل الشجرتين له عند قضاء حاجته . فعن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما أن امرأة من الأنصار قالت يا رسول الله ألا أجعل لك شيء تقعد عليه فأن لي غلام نجار . قال " إن شئت " فعملت له المنبر فلما كان يوم الجمعة قعد النبي على المنبر فصاحت النخلة حتى كادت أن تنشق فـ ل النبي وأخذها بين يديه فضمها إليه فجعلت تئن أنين الصبي الذي يسكت حتى استقرت " (1)

رابعا : إن المعجزات التي طلب مشركو مكة إياها إثباتا لنبوته صلى الله عليه وسلم وبرهانا على صدق دعوته ، لم يستجب بشأنها الله تعالى لهم ، ولم يؤتم إياها ، قال تعالى (وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتى تَفْجُرَ لَنا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبوعاً أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجرَ الْأَنهَارَ خِلالَهَا تَفْجِيرا أَوْ تُسْقِطَ السمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنا كِسَفاً أَوْ تَأْتِيَ بِاللهِ وَالْمَلائِكَةِ قَبِيلاً أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِنْ زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَى فِي السمَاءِ وَلَنْ نُؤْمِنَ لِرُقِيكَ حَتى تُنَزلَ عَلَيْنا كِتَاباً نَقْرَأُهُ قُلْ سُبْحَانَ رَبي هَلْ كُنْتُ إِلا بَشَراً رَسُولاً) (2) وقال (وَقَالُوا مَالِ هَذَا الرسُولِ يَأْكُلُ الطعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ لَوْلا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيراً أَوْ يُلْقَى إِلَيْهِ كَنْزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا وَقَالَ الظالِمُونَ إِنْ تَتبِعُونَ إِلا رَجُلاً مَسْحُوراً) (3) فيرد سبحانه عليهم فيقول (انْظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ فَضَلوا فَلا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلاً تَبَارَكَ الذِي إِنْ شَاءَ جَعَلَ لَكَ خَيْراً مِنْ ذَلِكَ جَناتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنهَارُ وَيَجْعَلْ لَكَ قُصُوراً) (4) أي

في الدنيا ، وقال (وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلا أَنْ كَذبَ بِهَا الْأَولُونَ)(5) وقال (وَأَقْسَمُوا بِاللهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ جَاءَتْهُمْ آيَةٌ لَيُؤْمِنُن بِهَا قُلْ إِنمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللهِ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنهَا إِذَا جَاءَتْ لا يُؤْمِنُونَ)(6) وقال (يَسْأَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَنْ تُنزلَ عَلَيْهِمْ كِتَاباً مِنَ السمَاءِ فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَى أَكْبَرَ مِنْ ذَلِكَ فَقَالُوا أَرِنَا اللهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ الصاعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ)(7) ثم شدد الله على نبيه فقال (وَإِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنِ اسْتَطَعْتَ أَنْ تَبْتَغِيَ نَفَقاً فِي الْأَرْضِ أَوْ سُلماً فِي السمَاءِ فَتَأْتِيَهُمْ بِآيَةٍ وَلَوْ شَاءَ اللهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَى فَلا تَكُونَن مِنَ الْجَاهِلِينَ) (8) ، إلا مرة واحدة استجاب فيها الله سبحانه وتعالى لهم تأييدا لرسوله صلى الله عليه وسلم وإثباتا لعدم إيمانهم وعنادهم حتى إذا رأوا الآيات ، وهي معجزة انشقاق القمر ، روى البخاري عن أنس بن مالك قال " إن أهل مكة سألوا رسول الله أن يريهم آية فأراهم القمر شقين حتى رأوا ما بينهما " فذلك قوله تعالى (اقْتَرَبَتِ الساعَةُ وَانْشَق الْقَمَرُ وَإِنْ يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُسْتَمِر) (9)

----

(1) صحيح البخاري 1988 باب النجار (2) الإسراء 9 وما بعدها (3) الفرقان 8 (4) الفرقان 10
(5) الإسراء من الآية 59 (6) الأنعام 109 (7) النساء من الآية 153
(8) الأنعام 35 (9) القمر 1 وما بعدها

الإسراء والمعراج

خامسا : وخير مثال وأعظمه يؤيد ما نقوله من أن هذه المعجزات كانت كرامة للنبي فقط ولشخصه العزيز عند الله سبحانه وتعالى هو معجزة الإسراء والمعراج ، فقد أسري به صلى الله عليه وسلم إلى المسجد الأقصى ثم عرج به إلى السماوات العلا حتى وصل إلى سدرة المنتهى ، فرأى من آيات ربه الكبرى ما رأى ، ورغم ذلك لم تك هذه المعجزة على عظمها وكبرها هي الآية الدالة على رسالته صلى الله عليه وسلم ، لا ينال من ذلك أن يحدث رسول الله صلى الله عليه وسلم الناس بها أو بما رأى وبما سمع ، إذ ليس ثمة ما يمنع أن يتخذ عليه الصلاة والسلام من آيات الله ، وبما من به عليه من كرامات ومعجزات ما يؤيده ويكون برهانا له على صدقه ، ولا ينال من ذلك أيضا أن يتحدث بذلك الله سبحانه وتعالى في كتابه الكريم كآية من آياته ومعجزة من معجزاته ، كقوله تعالى (سُبْحَانَ الذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنهُ هُوَ السمِيعُ الْبَصِيرُ)(1)والآيات التي جاءت في سورة النجم أيضا ، إذ لا تخلو هذه الآيات من الحديث عن بعض نعم الله تعالى التي يمتن بها على عبده ورسوله المصطفى ، إضافة إلى الحديث عنها كآية من آيات الله وقدراته

نظير ذلك قوله تعالى لإبراهيم عليه السلام عندما طلب منه أن يريه كيف يحيى الموتى (وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَب أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِنْ قَالَ بَلَى وَلَكِنْ لِيَطْمَئِن قَلْبِي قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِنَ الطيْرِ فَصُرْهُن إِلَيْكَ ثُم اجْعَلْ عَلَى كُل جَبَلٍ مِنْهُن جُزْءاً ثُم ادْعُهُن يَأْتِينَكَ سَعْياً وَاعْلَمْ أَن اللهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ)(2) فهذه المعجزة امتن الله بها

وأراها نبيه إبراهيم وحده ولم يرها غيره ، ورغم ذلك تحدث با سبحانه وتعالى كآية من آياته ومعجزة من معجزاته ، ولكنها لم تكن إحدى معجزات إبراهيم عليه السلام المدعمة لنبوته والمؤيدة لرسالته . فالآية التي هي المؤيدة للمنهج يلزم فيها رؤيتها أو معاينتها ، ويكفي فيهما قدرة الرائي أو المعاين على نقل ما رأى وتقييمه ، وهكذا كانت كل المعجزات ، فلو لم ير الناس عصى موسى عليه السلام بأعينهم ورأوا ما تستطيعه هذه العصا ، ما كانوا ليؤمنوا له مهما حاول إقناعهم با وبقدراتا .

أما معجزات رسول الله صلى الله عليه وسلم محل القول فلم يكن يشترط فيها الرؤية أو المعاينة وخاصة المعجزة التي نحن بصددها فلم يرها أحد ولم يعاينها بشر وإنما علم با من علم بحديثه صلى الله عليه وسلم عنها ،وهو ما يعني من وجه آخر أن الفتنة التي تحدث الله عنها في قوله (وَمَا جَعَلْنَا الرؤْيا الِتي أَرْيْنَاكَ ِإلا ِفْتنَةً ِللناسِ)(3)هي فتنة تصديقه صلى الله عليه وسلم في إسرائه و معراجه أو تكذيبه فيما رأى بفؤاده أو بصره ، أي أن مناط الفتنة التي ابتلى الله تعالى با الناس هي مكرمة أيضا لرسوله صلى الله عليه وسلم لينجلي الصادق من الكاذب وليس مناطها المعجزة في حد ذاتا ، قال بن تيميه في النبوات "وهو نفسه -أي رسول الله- لم يحتج بالمسرى على نبوته إنما جعله مما يؤمن به فأخبرهم به ليؤمنوا بالغيب الذي رآه "وقال حسين هيكل فى حياة محمد لم يرد فى كتاب الله ذكر لمعجزة أراد الله با أن يؤمن الناس كافة على اختلاف عصورهم برسالة محمد إلا القرآن

----

(1) الإسراء 1 (2) البقرة من الآية 60 (3) الإسراء 60

النحر والوتر والضحى

11- وقالوا من فضائله النحر والوتر والضحى والسواك لقوله صلى الله عليه وسلم " ثلاث هن علي فرائض ولكم تطوع النحر والوتر وركعتا الضحى " (1) ، وأيضا ما روي عن عائشة أو بن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله قال " ثلاث هن علي فرائض وهن لكم سنة الوتر والسواك وقيام الليل " (2) فضعفهما بعض العلماء فقال فقال بن حجر " حديث بن عباس بلفظ " ثلاث هن علي فرائض ولكم تطوع النحر والوتر وركعتا الضحى " لفظ أحمد وفي رواية للدارقطني " وركعتا الفجر " بدل وركعتا الضحى وفي رواية لابن عدي " الوتر والضحى وركعتا الفجر " فمداره على أبي جناب عن عكرمة ، وأبو جناب هذا ضعيف ومدلس أيضا وقد عنعنه وأطلق الأئمة على هذا الحديث الضعف كأحمد والبيهقي وابن الصلاح وابن الجوزي والنووي وغيرهم عدا الحاكم فأخرجه في مستدركه لكن لم يتفرد به أبو جناب بل تابعه أضعف منه وهو جابر الجعفي ، وفي موضع آخر قال بن حجر أيضا رواه بن حبان في الضعفاء وابن شاهين في ناسخه (3)، وقال الهيثمي في الزوائد رواه كله أحمد بأسانيد والبزار بنحوه باختصار والطبراني في الكبير والأوسط وفي إسناد ثلاث هن فرائض أبو جناب وهو مدلس وبقية رجالها عند أحمد رجال الصحيح وفي بقية أسانيدها جابر الجعفي وهو ضعيف (4) وقال صاحب تحفة الأحوذي وأما حديث ابن عباس فأخرجه أحمد والدارقطني والحاكم والبيهقي مرفوعا بلفظ أحمد وهو حديث ضعيف كما بينه الحافظ في التلخيص (5) فيما قال بن كثير هذا الحديث لم يروه أحد من أهل الكنب الستة وإنما

رواه احمد في مسنده (6) وقيل غير ذلك كثير ، وبالجملة قال صاحب (غاية السول في خصائص الرسول) ما موجزه " أن مدار هذا الحديث على أبي جناب الكلبي وأبو جناب هذا ضعيف مدلس وقد عنعن وإن وثقه بعضهم واختلف كلام ابن حبان فيه فذكره في ثقاته وضعفائه ، بل وقال الإمام أحمد أحاديثه مناكير على الرغم من تخريجه الحديث ، وقال البيهقي في خلافياته أبو جناب هذا ليس بالقوي وقال في سننه ضعيف ، وقال ابن الصلاح هذا حديث غير ثابت ضعفه البيهقي في خلافياته ورواه البزار وجابر ضعيف ، وضعفه ابن الجوزي في علله فقال هذا حديث لا يصح وقال في الأعلام أيضا إنه حديث لا يثبت ، فتلخص ضعف الحديث من جميع طرقه وحينئذ ففي ثبوت خصوصية هذه الثلاثة به نظر ، وهو حديث ضعيف حسبما قال البيهقي في سننه " أ هـ .

----

(1) رواه الإمام أحمد في مسنده والبيهقي في سننه وكذلك الدارقطني وعنده وركعتا الفجر بدل الـضحى وأيـضا الحـاكم في المستدرك (2) ذكره الحاكم في المستدرك 1119 (3) تلخيص الحبير 530 ، 1473 (4) الزوائد ج8 باب مـا جـاء في خصائص النبي (5) تحفة الأحوذي المباركفوري ج 2 باب الوتر ليس بحتم (6) تحفة الطالب لابن كثير ج1 رقم 8 ، 188

القتل في الحرم

12- وقيل في فضائله (القتل في الحرم) لكونه قتل ابن خطل وهو متعلق بأستار الكعبة ، وقيل إنه خص به من بين سائر الأنبياء ، فقال بعض العلماء " في هذه الخصوصية نظر لأن ابن خطل صاحب جرم والحرم لا يعيـذ عاصيا ولا فارا بدم ولا فارا بخربة كما ثبت في الصحيح

وقد قيل إن ابن خطل كان قد بعثه رسول الله في وجه مع رجل من الأنصار أمر عليه فلما كـان في بعـض الطريق وثب على أميره الأنصاري فقتله " وعند بن حجر تفصيل في هذا أوجزه في قوله " كان بن خطل يهجـو رسول الله صلى الله عليه وسلم بالشعر فقتل أخرجه بن عائذ وصححه بن حبان واختلف في قاتله وقد جزم بـن إسحاق بأن سعيد بن حريث وأبا برزة الأسلمي اشتركا في قتله ، وحكى الواقدي فيه اقوالا منها أن قاتله شريك بن عبدة العجلاني ورجح أنه أبو برزة ، واستدل بقتل بن خطل وهو متعلق بأستار الكعبة على أن الكعبة لا تعيذ من وجب عليه القتل وأنه يجوز قتل من وجب عليه القتل في الحرم ، وفي الاستدلال بذلك نظـر لأن المخـالفين تمسكوا بأن ذلك إنما وقع في الساعة التي أحل للنبي صلى الله عليه وسلم فيها القتال بمكة وقد صرح بأن حرمتـها عادت كما كانت والساعة المذكورة استمرت من صبيحة يوم الفتح إلى العصر ، وأخرج عمر بن شبة في كتاب

مكة من حديث السائب بن يزيد قال رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم أستخرج من تحت أستار الكعبة عبد الله بن خطل فضربت عنقه صبرا بين زمزم ومقام إبراهيم وقال لا يقتلن قرشي بعد هذا صبرا ورجاله ثقات إلا أن في أبي معشر مقالا " (1)

لا يكره فتواه في الغضب

13-وقيل أن من فضائله أيضا لا يكره في حقه الفتوى والحكم في حال الغضب لأنه لا يخاف عليه ما يخاف علينا ذكره النووي في شرحه لمسلم في كتاب اللقطة ، إلا أن مما يضعف ذلك قوله صلى الله عليه وسلم لخصمين اختصما لديه " إنكم تختصمون إلي ولعل بعضكم أن يكون ألحن بحجته من بعض فأقضي له على نحو مما أسمع منه فمن قطعت له من حق أخيه شيئا فلا يأخذه فإنما أقطع له به قطعة من النار "(2)

مناغاة القمر

14- وقيل أن من فضائله مناغاته القمر وهو في مهده ، أخرج البيهقي والصابوني في المأتين والخطيب وابن عساكر في تاريخيهما عن العباس بن عبد المطلب قال قلت يا رسول الله دعاني إلى الدخول في دينك إمارة لنبوتك رأيتك في المهد تناغي القمر وتشير إليه باصبعك فحيث أشرت إليه مال قال إني كنت أحدثه ويحدثني ويلهيني عن البكاء واسمع وجبته حين يسجد تحت العرش (3)

----

(1) بن حجر في فتح الباري 4035 (2) صحيح مسلم 1713

(3) قال البيهقي تفرد به أحمد بن إبراهيم الجيلي وهو مجهول وقال الصابوني هذا حديث غريب الإسناد والمتن

الجمع بين النساء

15- وقيل أن من فضائله الجمع بين النساء وقال البعض أحل الله لنبينا عليه الصلاة والسلام تسع وتـسعين امرأة ، وقيل خص بذلك لأنه حبب إليه من الدنيا الطيب والنساء وجعلت قرة عينه في الصلاة كما رواه النسائي من حديث أنس وصححه الحاكم على شرط مسلم (1)، وقال الماوردي " واختلف أهل العلم في تحبيب النـساء إليه على قولين : أحدهما أنه زيادة في الابتلاء والتكليف حتى لا يلهو بما حبب إليه من النساء عما كلف به مـن أداء الرسالة ولا يعجز عن تحمل أثقال النبوة فيكون تلك أكثر لمشاقه وأعظم لأجره ، والثاني ليكون مـع مـن يشاهدها من نسائه فيزول عنه ما يرميه المشركون من أنه ساحر أو شاعر فيكون تحبيبه لهن على هذا القول للطف به ، ويحتمل قولا ثالثا وهو الحث لأمته عليه لما فيه من النسل الذي تحصل به المباهاة يوم القيامة ، ورابعا هـو أن قبائل العرب تتشرف به ، وقد قيل إنه له بكل قبيلة منها اتصالا بمصاهرة وغيرها سوى تيم وتغلب ، وخامسا هو كثرة العشائر من جهة نسائه رجالا ونساء فيكونون عونا على أعدائه " (2)

وهي اجتهادات كلها واهية ، فضلا عما يؤديه ذلك إلى تأكيد مزاعم المبطلين من ولعه بالنساء وشهوته إياهن حتى تزوج منهن العدد الكثير ، وما يكذب ذلك هو طبيعة زوجاته التي تزوج بن وظروف ومبررات كل زيجة منهن ، لكون أغلبهن ثيبات مسنات ولم تكن فيهن بكر إلا عائشة ، وما سيق من مبررات فمتعلقه ما خص به من تعدد زواجاته عما شرع لغيره وليس لحبه النساء ، وسيأتي في فضائله وخصوصياته الجمع بين أكثر من أربعة

انعقاد نكاحه بلا ولي

16- وقيل من فضائله انعقاد نكاحه بلا ولي ولا شهود وقالوا في ذلك لعموم قوله صلى الله عليه وسلم " لا نكاح إلا بولي وشاهدي عدل "(3) لأن اعتبار الولي المحافظة على الكفاءة والذي لا شك فيه أنه فوق الأكفـاء ، واعتبار الشهود لأمن الجحود ، وهو عليه الصلاة السلام لا يجحد وإن جحدت هي ، وهذا القـول وإن كـان صحيحا إلا أنه ثبت أنه تزوج خديجة بولاية أعمامها وتزوج عائشة بولاية أبيها وتزوج سودة بولاية أبيها أيـضا وتزوج أم سلمة بولاية ولدها عمر بن أمية بن المغيرة .. وقيل كان يحل له نكاح المعتدة من غيره على وجه حكاه البغوي في تفسيره ، وقال العلماء هو غلط لم يذكره الجمهور وغلطوا من ذكره ، وقال الإمام أبي حامد الغـزالي في مصدر لا أذكره هو غلط منكر وددت محوه ، وما ذلك إلا لأن الله عز وجل " حرم نكاح المعتدة جملة حـتى تتم عدتا " (4)

----

(1) المستدرك 2676 (2) أعلام النبوة للماوردي (3) صحيح البخاري باب من قال لا نكاح إلا بولي رقم 37

(4) أنظر المحلى لابن حزم ج 10 مسألة وإن حملت المرأة من زنى أو نكاح فاسد 1877

17- وأمور أخرى رأيت فيها شبهة المبالغة وقيامها على غير دليل ، وأكثر بن كثير من ذكرها في كتابه فصول من السيرة إلا أنه ضعف أكثرها وجعله في المناكير . فقد قيل أنه كان يحق له دون غيره الجلوس بالمسجد جنب ، وقيل أنه كان ير الثريا اثنا عشر نجما ويراها غيره تسعة ، وقيل أن جميع ما في الكون خلق لأجله ، وقيل أنه أرسل للحيوان والجماد كما أرسل للإنس والجن ، وقيل أن له ألف أو أربعة ألف اسما ، وقيل اشتق له من أسماء الله سبعون ، وقيل أنه إذا وقع شعره في النار لا يحترق ، وأن الذباب لا يطأه والقمل لا يأخذ من دمه والبعوض لا يمتصه ، وقيل لا تبول دابته ولا تورث- أي لا تغوط – إذا وطئها ، وقيل أنه أوتي قوة أربعين رجل من أهل الجنة في الجماع وقوة الرجل الواحد منهم تعدل ألف رجل من رجال أهل الدنيا فتكون قوته صلى الله عليه وسلم قوة أربعين ألف رجل ، وقيل أنه كان يجامع نساءه جميعا في ليلة واحدة بغسل واحد ، أو كان يدور على نسائه في الساعة الواحدة من الليل والنهار وهن إحدى عشرة ، وقيل كان يحل له الجمع بين المرأة وعمتها

أو خالتها ، وقيل كان إذا جلس أعلى من جميع الجلوس ، وإذا مشى بين الناس ينسب إلى الطول ولم يكن أحد من الناس يماشيه إلا طاله ، وقيل في صوته وبلوغه ما لا يبلغه صوت غيره ، وقيل إذا وقع بصره على امرأة وجب على زوجها طلاقها وحل له نكاحها

رابعا : منظومة الفضائل عند الماوردي

فإذا كانت الفضائل المشار إليها فيما سلف هي أدنى ما كتب في هذا الشأن فأن أفضل ما كتب هو ماجاء بأعلام النبوة للماوردي في منظومة رائعة أنقل عنها بعض فضائل رسول الله صلى الله عليه وسلم بلا تـصرف إلا بقـدر

ضئيل في الإيجاز في النقل وما ذاك إلا لحلاوة الكلام ودسامته وصدقه وعقلانيته حتى أنني أردت أن أوزع كلامه على موضوع البحث كله فأبيت إلا وضعه منفردا في مكانه اللائق ، فيقول عن رسول الله: المهيأ لأشرف الأخلاق و أجمل الأفعال ، المؤهل لأعلى المنازل و أفضل الأعمال ، لأنا أصول تقود إلى ما ناسبها ووافقها ، وتنفرد مما باينها وخالفها ، ولا منزلة في العالم أعلى من النبوة التي هي سفارة بين الله تعالى وعباده تبعث على مصالح الخلق وطاعة الخلق ، فكان أفضل الخلق بها أخص ، وأكملهم بشروطها أحق بها وأمس ولم يكن في عصر الرسول وما دانى طرفيه من قاربه في فضله ، ولا داناه في كماله خلقاً وخلقاً وقولاً و فعلاً.

فإذا وضح هذا فالكمال المعتبر في البشر يكون من أربعة أوجه :

أحدها كمال الخلق ، والثاني كمال الخلق ، والثالث فضائل الأقوال ،فضائل الأعمال ..

الوجه الأول كمال خَلقه صلى الله عليه وسلم

فأما الوجه الأول في كمال خلقه بعد اعتدال صورته فيكون بأربعة أوصاف :

أحدها : السكينة الباعثة على الهيبة و التعظيم الداعية إلى التقديم و التسليم وكان صلى الله عليه وسلم أعظم مهيب في النفوس حتى ارتاعت رسل كسرى من هيبته حين أتوه مع ارتياضهم بصولة الأكاسرة ومكاثرة الملوك الجبابرة فكان في نفوسهم أهيب وفي أعينهم أعظم وإن لم يتعاظم بأهبة ولم يتطاول بسطوة بل كان بالتواضع موصوفاً وبالوطاء معروفا ،

والثاني : الطلاقة الموجبة للإخلاص والمحبة الباعثة على المصافاة والمودة و قد كان محبوباً ، ولقد استحكمت محبة طلاقته في النفوس حتى لم يقله مصاحب ولم يتباعد منه مقارب وكان أحب إلى أصحابه من الآباء والأبناء وشرب البارد على الظمأ

والثالث :حسن القبول الجالب لممائلة القلوب حتى تسرع إلى طاعته وذعن بموافقته وقد كان قبول منظره مستولياً على القلوب ولذلك استحكمت مصاحبته في النفوس حتى لم ينفر منه معاند ولا استوحش منه مباعد إلا من ساقه الحسد إلى شقوته وقاده الحرمان إلى مخالفته .

و الرابع : ميل النفوس إلى متابعته و انقيادها لموافقته و ثباته على شدائده ومصابرته ، فما شذ عنه معها من أخلص ، و لا ند عنه فيها من تخصص .

وهذه الأربعة من دواعي السعادة وقوانين الرسالة وقد تكاملت فيه

الوجه الثاني كمال أخلاق النبي صلى الله عليه و سلم :

وأما الوجه الثاني في كمال أخلاقه فيكون بست خصال :

إحداهن رجاحة عقله وصحة وهمه ، وصدق فراسته ، وقد دل على وفور ذلك فيه صحة رأيه وصواب تدبيره ، وحسن تألفه ، وأنه ما استفعل في مكيدة ،ولا استعجز في شديدة ، بل كان يلحظ الإعجاز في المبادي فيكشف عيوبها ، و يحل خطوبها وهذا لا ينتظم إلا بأصدق وهم وأوضح جزم .

والخصلة الثانية ثباته في الشدائد وهو مطلوب ، وصبره على البأساء و الضراء وهو مكروب ومحروب ، ونفسه في اختلاف الأحوال ساكنة ، لا يجوز في شديدة ، ولا يستكين لعظيمة أو كبيرة ، ويقدر على الخـلاص ، وهـو بالشر لا يزداد إلا اشتداداً وصبراً ، وقد لقي بمكة من قريش ما يشيب النواصي ، ويهد الصياصي وهـو مـن الضعف يصابر صبر المستعلي ، ويثبت ثبات المستولي .

و الخصلة الثالثة زهده في الدنيا وإعراضه عنها وقناعته بالبلاغ منها فلم يمل إلى نضارتها ولم يله لحلاوته هذا وقد ملك من أقصى الحجاز إلى عذار العراق ، ومن أقصى اليمن إلى شجر عمان ، وهو أزهد النـاس فيمـا يقـتني ويدخر ، وأعراضهم عما يستفاد و يحتكر ، لم يخلف عيناً ولاديناً ، ولا حفر نهراً ، ولاشد قصراً ، ولم يـورث ولده وأهله متاعاً ولا مالاً ليصرفهم عن الرغبة في الدنيا كما صرف نفسه عنها فيكونوا على مثل حاله في الزهد

والخصلة الرابعة تواضعه للناس وهم اتباع ، وخفض جناحه لهم وهو مطاع يمشي في الأسواق ويجلس على التراب و يمتزج بأصحابه وجلسائه فلا يتميز عنهم إلا بإطراقه وحيائه فصار بالتواضع متميزاً ، وبالتذلل متعززاً

والخصلة الخامسة حلمه ووقاره عن طيش يهزه أو خرق يستفزه ، فقد كان أحلم في النفار من كل حليم ، وأسلم في الخصام من كل سليم ، وقد مني بجفوة الأعراب فلم يوجد منه نادرة ، ولم يحفز عليه بادرة ، ولا حليم غيره إلا ذو عسرة ، ولاوقور سواه إلا ذو هفوة ، فإن الله تعالى عصمه من نزع الهوى وطيش القدرة بفوة أو عثرة ليكون بأمته رؤوفاً وعلى الخلق عطوفاً ، قد تناولته قريش بكل كبيرة ، وقصدته بكل جريرة ، وهو صبور عليهم ، ومعرض عنهم حتى قهر فعفا ، وقدر فغفر ،

والخصلة السادسة حفظه للعهد ووفاؤه بالوعد ، فإنه ما نقض لمحافظ عهداً ، ولا أخلف لمراقب وعداً ، يرى الغدر مـن كبار الذنوب والإخلاف من مساوئ الشيم ، فيلتزم فيها الأغلظ ، ويرتكب فيهما الأصعب ، حفظاً لعهده ووفاء بوعده حتى يبتدئ معاهدوه بنقضه فيجعل الله تعالى له مخرجاً ،فهذه سـت خصال تكاملت في خلقه ففضله الله تعالى بها على خلقه .

فضائل أقوال النبي عليه السلام :

وأما الوجه الثالث في فضائل أقواله فمعتبر بثماني خصال :

إحداهن : ما أتى من الحكمة البالغة و أعطي من العلوم الجمة الباهرة ، وهو أمي من أمة أمية لم يقـرأ كتاباً ولا درس علماً ولا صحب عالماً ولا معلماً ، فأتى بما بر العقول وأذهل الفطن من اتقان ما أبان وإحكام ما أظهر ، فلم يعثر فيه بزلل في قول أو عمل ،وجعل مدار شرعه على أربعة أحاديث أوجز بها المراد وأحكم بها الاجتهاد .

أحدها : قوله : " إنما الأعمال بالنيات و إنما لكل امرئ ما نوى " .

و الثاني قوله : " الحلال بين و الحرام بين و بين ذلك أمور مشتبهات و من يحم حول الحمى يوشك أن يقع فيه "

والثالث قوله : " من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه " .

والرابع قوله : " دع ما يريبك إلى ما لا يريبك " .

وقد شرع من تقدم من حكماء الفلاسفة سنناً حملوا الناس على التدين بها حين علموا أنه لا صـلاح للعـالم إلا بدين ينقادون له ، ويعملون به ، فما راق لها أثر ولا فاق لها خبر ، وهم ينبوع الحكم وأعيان الأمم ، وما هـذه الفطرة في الرسول إلا من صفاء جوهره وخلوص مخبره

والخصلة الثانية : حفظه لما أطلعه الله تعالى عليه من قصص الأنبياء مع الأمم وأخبار العالم في الزمن الأقدم حتى لم يعزب عنه منها قليل ولا كثير وهو لا يضبطها بكتاب يدرسه ، ولا يحفظها بعين تحرسه وما ذاك إلا من ذهـن صحيح ،وصدر فسيح ، وقلب شريح و هذه الثلاثة آلة ما استودع من الرسالة ، وحمل من أعباء النبوة ، فجدير أن يكون بها مبعوثاً ، وعلى القيام بها محثوثاً .

و الخصلة الثالثة : إحكامه لما شرع بأظهر دليل و بيانه بأوضح تعليل حتى لم يخرج منه ما يوجبه معقول ولادخل فيه ما تدفعه العقول لأنه نبه بالقليل على الكثير فكف عن الإطالة وكشف عن الجهالة وما تيسر ذلك إلا وهـو عليه معان وإليه مفاد

والخصلة الرابعة ما أمر به من محاسن الأخلاق ، ودعا إليه من مستحسن الأدب ، وحث عليه من صلة الأرحام وندب إليه من التعطف على الضعفاء و الأيتام ، ثم ما نهى عنه من التباغض و التحاسد ، وكف عنه من التباعد ، فقال : " لا تقاطعوا ولا تدابروا ولا تباغضوا وكونوا عباد الله إخواناً " لتكون الفضائل فيهم أكثر ، ومحاسن الأخلاق بينهم أنشر ومستحسن الآداب عليهم أظهر وتكون إلى الخير أسرع ومن الشر أمنع

و الخصلة الخامسة : وضوح جوابه إذا سئل وظهور حجاجه إذا جودل لا يحصره عـي ولا يقطعـه عجـز لا يعارضه خصم في جدال إلا كان جوابه أوضح ، وحجاجه أقوى

والخصلة السادسة أنه محفوظ اللسان من تحريف في قول واسترسال في خبر يكون إلى الكذب منسوباً ، وللصدق مجانباً فإنه لم يزل مشهوراً بالصدق في خبره فاشياً وكثيراً حتى صار بالصدق مرقوماً ، وبالأمانة مرسوماً وكانت قريش بأسرها تتيقن صدقه قبل الإسلام ، فجهروا بتكذيبه في استدعائهم إليه ، فمنهم من كذبه حسداً ، ومنهم من كذبه عناداً ، ومنهم من كذبه استبعاداً أن يكون نبياً أو رسولا ، و لو حفظوا عليه كذبه نـادرة في غـير الرسالة لجعلوها دليلاً على تكذيبه في الرسالة ، ومن لزم الصدق في صغره كان له في الكبر ألزم ، و من عـصم منه في حق نفسه كان في حقوق الله تعالى أعصم وحسبك بذا دفعاً لجاحد

والخصلة السابعة : تحرير كلامه في التوخي به إبان حاجته و الاقتصار منه على قدر كفايته فلا يـسترسل فيـه هذراً ، ولا يحجم عنه حصراً وهو فيما عدا حالتي الحاجة والكفاية أجمل الناس صمتاً ، وأحسنهم سمتاً ، ولذلك حفظ كلامه حتى لم يختل وظهر رونقه حتى لم يعتل ، واستعذبته الأفواه حتى بقي محفوظا في القلوب ، مدوناً في الكتب ، فلن يسلم الإكثار من ذلل ، ولا الهذر من ملل .

والخصلة الثامنة : أنه أفصح الناس لساناً وأوضحهم بياناً وأوجزهم كلاماً وأجزلهم ألفاظاً وأصحهم معاني ، لا يظهر فيه هجنة التكلف ، و لا يتخلله فيهقة التعسف

الوجه الرابع في **فضائل أفعاله فمختبر بثماني خصال :**

إحداهن حسن سيرته وصحة سياسته في دين ابتكر شرعه حتى استقر ، وتدبير أحسن وضعه حتى استمر .نقل به الأمة عن مألوف وصرفهم به عن معروف فاذعنت به النفوس طوعاً ، وانقادت خوفاً وطمعاً وشديد عادة منترعة إلا لمن كان مع التأييد الإلهي معاناً بحزم صائب وعزم ثاقب . ولئن كان مأمور بما شرع فهي الحجة القاهرة ، ولئن كان مجتهداً فيها فهي الآية الباهرة ، و حسبك بما استقرت قواعده على الأبد حتى انتقل عن سلف إلى خلف ، يزاد فيهم حلاوته ، و يشتد فيهم جدته ، ويرونه نظاماً لإعصار تنقلب صروفها و يختلف مألوفها ، أن يكون لمن قام به برهاناً ، و لمن ارتاب به بياناً،

و الخصلة الثانية أن جمع بين رغبة من استمال ورهبة من استطاع حتى اجتمع الفريقان على نصرته ، وقاموا بحقوق دعوته رغباً في عاجل وآجل ورهباً من زائل ونازل ، لاختلاف الشيم و الطباع في الانقياد الذي لا ينتظم بأحدهما ويستديم إلا بـهما ، فلذلك صار الدين بـهما مستقراً و الصلاح بـهما مستمراً

الخصلة الثالثة انه عدل فيما شرعه من الدين عن غلو النصارى في التشديد و عن تقدير اليهود في التقصير إلى التوسط بينهما [وخير الأمور أوساطها] لأنه العدل بين طرفي سرف وتقصير ، فليس لما جاوز العدل حظ من رشد ، ولانصيب من سداد ، وقد قال صلى الله تعالى عليه وسلم " إن هذا الدين متين فأوغلوا فيه برفق ، فشر السير الحقحقة ، وإن المنبت لا أرضاً قطع ولاظهراً أبقى

الخصلة الرابعة أنه لم يمل بأصحابه إلى الدنيا كما رغبت اليهود ولا في رفضها كما ترهبت النصارى وأمرهم فيها بالاعتدال أن يطلبوا منها قدر الكفاية ، و يعدلوا عن احتجان و استزادة ، و قال لأصحابه " خيركم من لم يترك دنياه لآخرته و لا آخرته لدنياه ، و لكن خيركم من أخذ من هذه و هذه "

وهذا صحيح لأن الانقطاع إلى أحدهما اختلال ، و الجمع بينهما اعتدال ، وقال صلى الله تعالى عليه وسلم "نعم المطية الدنيا فارتحلوها تبلغكم الآخرة "وإنما كان كذلك لأن منها يتزود لآخرته ، ويستكثر فيها من طاعته ، ولأنه لا يخلو تاركها من أن يكون محروماً مضاعفاً ، أو مرحوماً مراعى ، وهو في الأول كل ، وفي الثاني مستذل

الخصلة الخامسة تصديه لمعالم الدين ونوازل الأحكام حتى أوضح للأمة ما كلفوه من العبادات ، وبين لهم ما يحل و ما يحرم من مباحات ومحظورات ، وفصل لهم ما يجوز ويمتنع من عقود ومناكح ومعاملات ، حتى احتاج اليهود في كثير من معاملاتم و مواريثهم لشرعه ، و لم يحتج شرعه إلى شرع غيره ، ثم مهد لشرعـه أصولاً تدل على الحوادث المغفلة ، و يستنبط لها الأحكام المعللة ، فأغنى عن نص بعد ارتفاعه ، و عن التباس بعد إغفاله ،

ثم أمـ ـر الـ ـشاهد أن يبلـ ـغ الغائـ ـب ليعلـ ـ ـ ـم بإنـ ـذاره ، ويحـ ـتج بإظهـ ـاره ،

الخصلة السادسة انتصابه لجهاد الأعداء وقد أحاطوا بجهاته وأحدقوا بجنـ ـباته ، وهو في قطب مهجور وعدد محقور ، فزاد به من قل و عز به من ذل ، وصار بإثخانه في الأعداء محذوراً ، وبالرعب منه منصوراً فجمع بين التصدي لشـ ـرع الدين حتى ظهر و انتشر ، وبين الانتصاب لجهاد العدو حتى قهر وانتصـ ـر ،
الخصلة السابعة ماخص به من الشجاعة في حروبه و النجدة في مصابرة عـ ـدو فإنه لم يشهد حرباً في فزاع إلا صابراً حتى انجلت عن ظفر أو دفاع ، وهـ ـو في موقفه لم يزل عنه هرباً ، ولاحاز فيه رغباً ، بل ثبت بقلب آمن ، وجأش ساكن ، قد ولى عنه أصحابه يوم حنين حتى بقي بإزاء جمع كثير ، وجم غفير ، في تسعة من أهل بيته وأصحابه على بغلة مسبوقة إن طلبت غير مستعدة لهرب ولاطلب ، وهو ينادي أصحابه ، ويظهر نفسه ، ويقول "إلي عباد الله أنا النبي لاكذب ، أنا ابن عبد المطلب " ، فعادوا أشذاذاً وأرسالاً ، وهوازن تراه وتحجم عنه فما هاب حرب من كاثره ، و لا انكفأ عن مصاولة من صابره
الخصلة الثامنة ما منح من السخاء والجود حتى جاد بكل موجود وآثر بكل مطلوب ومحلول ، ومـ ـات ودرعـ ـه مرهونة عند يهودي على آصع من شعير لطعام أهله وقد ملك جزيرة العرب ، وكان فيها ملوك وأقبـ ـال لهـ ـم خزائن وأموال يقتنونا زخراً ويتباهون با فخراً ويستمتعون با أشراً ، أوبطراً . وقد حاز ملك جميعهم ، فمـ ـا اقتنى ديناراً ولادرهماً ، لايأكل إلا الخشن و لايلبس إلا الخشن ، ويعطي الجزل الخطير ، ويصل الجـ ـم الغفـ ـير ، ويتجرع مرارة الإقلال وصبر على سغب الاختلال ، وقد حاز غنائم هوازن ، و هي من السبي ستة آلاف رأس ، ومن الإبل أربعة وعشرون ألف بعير ، ومن الغنم أربعون ألف شاة ، ومن الفضة أربعة آلاف أوقية ، فجاد بجميع حقه وعاد خلواً فعن عمرو بن مرة " عن سويد بن الحارث عن أبي ذر قال : قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم : ما يسرني أن لي أحد ذهباً أنفقه في سبيل الله أموت يوم أموت وعندي منه دينار إلا أن أعده لغـ ـريم " . وكان عليه الصلاة والسلام إذا سئل وهو معدم وعد ولم يرد وانتظر ما يفتح الله .. عن أبي هريرة عن النبي صلى الله تعالى عليه و سلم أنه قال : أنا أولى بالمؤمنين من أنفسهم ، فمن ترك ديناً فعلي ومن ترك مالاً فلورثته " فهل مثل هذا الكرم و الجود كرماً وجوداً أم هل لمثل هذا الإعراض و الزهادة إعراضاً و زهدا هيهات ، هل يـ ـدرك شأو من هذه شذور من فضائله و يسير من محاسنه التي لا يحصى لها عدد ، ولا يدرك لها أمد ، لم تكمل في غيره فيساويه و لا كذب با ضد يناويه ولقد جهد كل منافق ومعاند، وكل زنديق وملحد ، أن يزري عليه قـ ـول أو فعل أو يظهر بفوة في جدل أو هزل ، فلم يجد إليه سبيلاً ، وقد جهد جهده وجمع كيده ، فأي فضل أعظم من فضل تشاهده الحسدة و الأعداء ، فلم يجدوا فيه مغمزاً لثالب أوقادح ولامطعناً لجارح أو فاضح وحقيق لمن بلغ في الفضائل غايتها ، واستكمل لغايات الأمور آلتها ، أن يكون لزعامة العالم مؤهلاً ، وللقيام بمـ ـصالح الخـ ـق

موكلاً ، ولاغاية بعد النبوة أن يعم به صلاح ، أو ينحسم به فساد ، فاقتضى أن يكون لها أهلاً ، وللقيـام بـها مؤهلاً ،

خامسا : -خصائص وفضائل أخرى له صلى الله عليه وسلم

وتتسم هذه الخصائص والفضائل بتميزه بها صلى الله عليه وسلم على صحابته وسائر الذين عاصروه ،وهي من ثم تضاف إلى سائر الفضائل التي تميز بها عليهم كما أن بعضها يشترك فيها مع الأنبياء ، أما ما أختص به وحده دون الأنبياء فسنفرد له فصلا خاصا :

1-حسنه وبهائه

لم يصف الناس إنسان على وجه الأرض في الأولين والآخرين مثلما وصفوا محمدا ، وكان مما وصفوه به جمالـه وحسنه الباهر الذي ميزه عنهم جميعا : ومن ذلك ما جاء في صحيح البخاري عن أبي إسحاق قوله كـان الـنبي صلى الله عليه وسلم أحسن الناس وجها ، وأحسنهم خلقا، ليس بالطويل البائن، ولا بالقصير ، (1) وفي صحيح البخاري أيضا سئل البراء أكان وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم مثل السيف؟قال لا بل مثل القمر وسئل جابر بن عبد الله نفس السؤال فقال لا بل مثل الشمس والقمر (2) وفي دلائل النبوة" تحت باب من كان يتبرك بوجـه النبي صلى الله عليه وسلم ونسبه المبارك : عن الحارث بن عمرو قال: أتيت رسول الله صلى الله وسلم وهو بمنى أو بعرفات وقد أطاف به الناس به وتجيء الأعراب، فإذا رأوا وجهه قالوا هذا وجه مبارك : ويقول أبي الطفيل " كان صلى الله عليه وسلم أبيض مليح الوجه ، وقال أنس: كان أزهر اللون وقالت الربيع بنت معوذ: لو رأيته لقلـت الشمس طالعة .

2- طيب رائحته

وأما نظافة جسمه وطيب ريحه وعرقه ونزاهته عن الأقذار وعورات الجسد فقد خصه الله في ذلك بخـصائص لم توجد في غيره ، ثم تممها بنظافة الشرع وخصال الفطرة العشر ، عن جابر بن سمرة قال كان صلى الله عليه وسلم مسح خده فوجدت ليده برداً وريحاً كأنما أخرجها من جونة عطار (3)" وقال غيره مسها بطيـب أولم يمـسها يصافح المصافح فيظل يومه يجد ريحها ، ويضع يده على رأس الصبي فيعرف من بين الـصبيان بريحهـا ، وذكـر البخاري في تاريخه الكبير عن جابر لم يكن النبي صلى الله عليه وسلم يمر في طريق فيتبعه أحد إلا عرف أنه سلكه من طيبه"(4) وجاء في الخبر الصحيح أن رائحة عرقه صلى الله عليه وسلم كانت كالمسك ومن ذلك ما رواه أنس رضي الله عنه قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم أزهر اللون أبيض مستدير كأن عرقه اللؤلؤ إذا مـشى تكفأ ولا مسستُ ديباجة ولا حريرة ألين من كف رسول الله ، ولا شممتُ مسكة ولا عنبرة أطيب من رائحتة(5)

----

(1)صحيح البخاري 3356 (2)انظر البخاري باب صفة النبي صـلى الله عليـه وسـلم بـرقم 20 (3) المعجـم الكـبير للطـ ـ ـ ـبراني1944 (4) الـ ـ ـ ـشفاء للقاضـ ـ ـ ـي عيـ ـ ـ ـاض (5)صـ ـ ـ ـحيح مـ ـ ـ ـسلم 2330

وكانت أم سُليم رضي الله عنها تجمع عَرَقه فيما رواه أنس فقال دخل علينا النبي صلى الله عليه وسلم فقال -أي نام نومة القيلولة- عندنا ، فعرق وجاءت أمي بقارورة، فجعلت تسلت -تجمع- العرق فيها، فاستيقظ النبي صلى الله عليه وسلم،فقال يا أم سليم ما هذا الذي تصنعين؟ قالت هذا عرقك نجعله في طيبنا، وهو من أطيب الطيب(1) وكان بصاقه طيباً طاهراً، فعن عبد الجبار بن وائل قال حدثني أهلي عن أبي قال أُتي النبي صلى الله عليه وسلم بدلو من ماء، فشرب منه، ثم مجّ في الدلو، ثم صُبّ، في البئر، أو شرب من الدلو، ثم مج في البئر، ففاح منها مثل ريح المسك)(2) وروي عن علي رضي الله عنه قوله غسلت النبي صلى الله عليه و سلم فذهبت أنظر ما يكون مـن الميت فلم أجد شيئاً فقلت طبت حياً وميتاً (3) كما روي أن مالك بن سنان شرب دمه صلى الله عليه وسلم يوم أحد ومصه إياه وسوغ صلى الله عليه وسلم ذلك له وقال لن تصيبه النار (4) ومثله ما روي أن شرب عبد الله بن الزبير دم حجامته فقال له عليه الصلاة السلام "ويل لك من الناس وويل لك منك (5)ولم ينكر عليه

3- نشاطه وحيويته

لم يكن صلى الله عليه وسلم كسولا أو خاملا أو نؤوما أو واهنا أو ما شابه ذلك من صفات البلادة والضعف والسلبية حتى أن أحدا لم يره متثائبا أو مسترخيا أو فاقد التركيز أو مشتت الذهن ، إلى الحد الذي جعل التثاؤب من الشيطان فنهى عنه فقال في الحديث الذي رواه أبو هريره " إن الله يحب العطاس ويكره التثاؤب فإذا عطس أحدكم وحمد الله كان حقا على كل مسلم سمعه أن يقول له يرحمك الله وأما التثاؤب فإنما هو من الشيطان فإذا تثاءب أحدكم فليرده ما استطاع فإن أحدكم إذا تثاءب ضحك منه الشيطان " (6). وفسر أحد العلماء التثاؤب الشديد بأنه التنفس الذي ينفتح منه الفم لدفع البخار المختنق في عضلات الفم الشديد الذي يشوه صورة الإنسان وكذا العطسة الشديدة وجعلهما من الشيطان ومن ثم عدوا من خصائص الأنبياء أنهم ما تثاءب أحد منهم قط ولا احتلم (7) وعن الاحتلام قال السيوطي من خصائص الأنبياء أنهم لا يحتلمون لأنه من الشيطان فلم يسلطه عليهم وكذا لا يسلط على أزواجه تكريما (8)

----

(1) صحيح مسلم 2331 باب طيب عرق رسول الله (2) رواه أحمد في مسنده (3) صحيح البخاري 4467 نسبة إلى أبي بكر (4) وفي المستدرك قوله صلى الله عليه وسلم من سره أن ينظر إلى من خالط دمي دمه فلينظر إلى مالك بن سنان (5) الأحاديث المختارة للمقدسي(6) البخاري 5872 (7) فيض القدير ج3 رؤوف المناوي

(8) شرح الزرقاني ليوسف الزرقاني الجزء الأول

4- لا يأخذ الصدقة ويقبل الهدية

وقصة سلمان الفارسي هي الأشهر في هذا الخصوص وفي بعضها أن سلمان حين جاء المدينة قدم لرسـول الله صلى الله عليه وسلم مائدة عليها رطب فوضعها بين يدي رسول الله فقال يا سلمان ما هذه قال صـدقة عليـك وعلى أصحابك فقال ارفعها إنا لا نأكل الصدقة فرفعها فجاء الغد بمثله فوضعه بين يدي رسول الله فقال ما هذه يا سلمان قال هذه هدية لك فقال رسول الله لاصحابه ابسطوا (1) وقال في ذلك ابن كثير "كان يقبل الهديـة و يثيب عليها ، ثبت ذلك في الصحيح عن عائشة رضي الله عنها ، و ما ذاك إلا لما يرجو من تأليف قلـب مـن يهدي إليه ، بخلاف غيره من الأمراء ، فإنه قد صح الحديث أن هدايا العمال غلول ، لأنا في حقهـم كالرشـى لوجود التهمة (2)

5- لا يورث وما تركه صدقة

وهو أنه صلى الله عليه و سلم لا يورث ، و أن ما تركه صدقة ، كما أخرجاه في الصحيحين" عن أبي بكر رضي الله عنه أن فاطمة رضي الله عنها سألته ميراثها من أبيها فقال سمعت رسول الله صلى الله عليه و سلم يقول لا نورث ما تركنا صدقة وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله قال :

لا يقسم ورثتي ديناراً ما تركت بعد نفقه نسائي و مؤنة عاملي فهو صدقة " (3) وروى الترمذي بإسناد جيد في غير الجامع "عن أبي بكر رضي الله عنه أنه صلى الله عليه و سلم قال : نحن معشر الأنبياء لا نورث "(4) وتلحق هذه الفضيلة فضيلة أخرى هي عدم آخذ الزكاة فإنها حرام عليه وشاركه في ذلك ذوو القربى بسببه أيضا فالخاصية عائدة إليه فإنها أوساخ الناس(5) كما أخرجه مسلم ومنصبه مـ ه عن ذلك وهي أيضا تعطى على سبيل التـرحم المنبئ عن ذل الآخذ فأبدلوا عنها بالغنيمة المأخوذة بطريق العز والشرف المنبئ عن عز الآخذ وذل المأخوذ منه (6)

---

(1) مجمع الزوائد وقال فيه الهيثمي رواه أحمد والطراني في الكبير (2) السيرة لابـن كـثير (3) صـحيح مـسلم 1760 (4) مسند الربيع للربيع الأزدي دار نشر بسلطة عمان (5) الوَسَخ: ما يعلو الثوب والـجلد مـن الـدرَن وقلـة التعهـد بالـماءِ؛ (لسان العرب)والحديث بصحيح مسلم برقم 1072 وفي المستدرك قول الحاكم " 6048 عن حكيم بن حزام قـال ثم سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم فأعطاني وألحفت عليه فقال ما أنكر مسألتك يا حكيم إنما هذا المال خضرة حلوة وإنمـا هو ذلك أوساخ أيدي الناس ويد الله فوق يد المعطي ويد المعطي فوق يد السائل ويد السائل أسفل الأيدي " ثم عقـب وهـذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه" وفي معاني الآثار لأبي جعفر الطحاوي تفسير معنى الأوساخ بحديث آخر رواه عن علي رضي

والحكمة في كون الأنبياء عليهم الصلاة والسلام لا يورثون فيه أوجه أحدها : لئلا يتمنى قريبهم موتم فيهلك بذلك ، ثانيها : لئلا ينفر الناس عنهم ويظنوا فيهم الرغبة في الدنيا وجمعها لوراثهم بم ، ثالثها: لئلا يفتن بعـض الذين أسلموا وتابعوهم بظنهم فيهم الرغبة والجمع لوراثهم .. وقيل أن ذلك يخالف قوله تعالى عن زكريا " فهب لي من لدنك وليا يرثني ويرث من آل يعقوب "وقوله تعالى "وورث سليمان داود " فقالوا المراد الوراثة في النبـوة والعلم والدين لا في المال.

6- عدم جواز التكني بكنيته

يجوز التسمي باسمه بلا خلاف ، ولكن لا يجوز التكني بكنيته وخاصة كنية أبي القاسم وللعلماء فيها ثلاثة أقوال : أحدها المنع مطلقاً وهو مذهب الشافعي لقوله صلى الله عليه وسلم " تسموا باسمي و لا تكنوا بكنيتي " ، والثاني وهو مذهب مالك واختيار النووي إباحته مطلقاً لأن ذلك كان لمعنى في حال حياته زال بموته ، الثالث : يجـوز لمن ليس اسمه محمداً ولا يجوز لمن اسمه محمد لئلا يكون قد جمع بين اسمه وكنيته ، قال بن كثير وهذا اختيـار أبي القاسم عبد الكريم الرافعي

7- أولى بالمؤمنين من أنفسهم :

ومن فضائله أنه أولى بالمؤمنين من أنفسهم، قال تعالى: { النِبِي أَوْلَى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ }(1) قال الشوكاني في تفسيره (2) "فإذا دعاهم النبي صلى الله عليه وسلم لشيء، ودعتهم أنفسهم إلى غيره، وجب عليهم أن يقدموا ما دعاهم إليه، ويؤخروا ما دعتهم أنفسهم إليه ، ويجب عليهم أن يطيعوه فوق طاعتهم لأنفسهم، ويقدموا طاعته على ما تميل إليه أنفسهم، وتطلبه خواطرهم".وفي الصحيح روى معاذ بن جبل قال " بعثني رسول الله صـلى الله تعالى عليه و سلم إلى اليمن فخرج معي يوصيني ، فلما فرغ قال : يا معاذ ، إنك عسى أن لا تلقاني بعد هـذا ، ولعلك تمر بمسجدي ومنبري ،(3) فبكى معاذ ثم التفت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأقبل بوجهه نحو المدينة وقال إن أهل بيتي هؤلاء يرون أنفسهم أولى الناس بي وليس كذلك ،إن أولى الناس بي المتقون من كانوا أو حيث كانوا اللهم إني لا أحل لهم فساد ما أصلحت " (4) ولحق بذلك فضيلة أخرى قالها العلماء وهي أنه كان يجـب عليه قضاء دين من مات من المسلمين معسرا عند اتساع المال ففي الصحيحين من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله كان يؤتى بالرجل المتوفى عليه الدين فيسأل هل ترك لدينه من قضاء فإن حدث أنه ترك وفاء صلى

عليه وإلا قال للمسلمين صلوا على صاحبكم فلما فتح الله عليه الفتوح قام فقال أنا أولى بالمؤمنين من أنفـسهم فمن توفي من المؤمنين فترك دينا فعلي قضاؤه ومن ترك مالا فلورثته وقال النووي في شرح مسلم كان يقضيه من مال المصالح وقيل من خالص ماله

----

(1) الأحزاب 6 (2) الشوكاني فتح القدير (3) رواه الطبراني في مسند الشاميين برقم 991 (4)سنن الدارمي

8- جواز خلوته بنساء أمته : أ

ذهب كثير من أهل العلم إلى أن من خصائصه صلى الله عليه وسلم جواز خلوته بنساء أمتـه ونظـر إلـيهن وإركابن خلفه على الدابة قال ذلك الحطاب المالكي والدماميني في حاشيته على البخاري في أول كتاب الجهاد في دخوله صلى الله عليه وسلم على أم حرام بنت ملحان والشيخ جلال الدين السيوطي في المباحات(1)وقال غيرهم : أما هو – صلى الله عليه وسلم- فقد اختص بإباحة النظر إلى الأجنبيات والخلوة بن وإردافهن على الدابة خلفـه لأنه مأمون لعصمته ، وهذا هو الجواب الصحيح عن قصة أم حرام في دخوله عليها ونومه عندها وتفليتها رأسه ولم يكن بينهما محرمية ولا زوجية ، وأما الجواب بأنا كانت محرمة من رضاع فلم يثبت ، وقال الحافظ بن حجـر : والذي وضح لنا بالأدلة القوية أن من خصائص النبي صلى الله عليه وسلم جواز الخلوة بالأجنبية والنظر إليهـا (2) وقال مثل ذلك النووي في مطالب أولي النهى ، وليست هذه المسألة من المسائل التي أجمع عليها العلماء ، بـل في كلام بعضهم تصريح بخلاف ذلك ، قال العراقي في شأن دخول النبي صلى الله عليه وسلم على ضباعة بنت الزبير: (دخوله عليه الصلاة والسلام على ضباعة أو عيادة زيارة وصلة فإنا قريبته كما تقدم وفيه بيان تواضعه وصـلته وتفقده صلى الله عليه وسلم ، وهو محمول على أن الخلوة هناك كانت منتفية فإنه عليه الصلاة والسلام لم يكـن يخلو بالأجنبيات ولا يصافحهن وإن كان لو فعل ذلك لم يلزم منه مفسدة لعصمته ، لكنهم لم يعدوا ذلـك مـن خصائصه فهو في ذلك كغيره في التحريم

9- إنـــــــــصافه للمتــــــــأخرين مـــــــــن أمتــــــــه

أنصف المتأخرين من بعده وخصهم بأجر لم يكن للأول ممن كانوا معه ففي سنن أبي داود عن قوله تعالى " عليكم بأنفسكم " قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " بل ائتمروا بالمعروف وتناهوا عن المنكر حتى إذا رأيت شـحا مطاعا وهوى متبعا ودنيا مؤثرة وإعجاب كل ذي رأي برأيه فعليك بنفسك ودع عنك العوام فإن من ورائكم أيام الصبر الصبر فيه مثل قبض على جمر للعامل فيه مثل أجر خمسين رجلا يعملون مثل عمله قال يارسـول الله أجـر خمسين منهم قال " أجر خمسين منكم "(3) ، يقول ابن تيميه وقد يكون لهم – أي للمتأخرين - من الحسنات ما يكون للعامل منهم – أي من الصحابة - أجر خمسين رجلاً يعملها في ذلك الزمان ؛ لأنم كانوا يجـدون مـن يعينهم على ذلك ، وهؤلاء المتأخرون لم يجدوا مَن يعينهم على ذلك ولكن تضعيف الأجر لهم في أمور لم يضعف

للصحابة لا يلزم أن يكونوا أفضل من الصحابة ولا يكون فاضلهم كفاضل الصحابة فإن الذي سبق إليه الـصحابة من الإيمان والجهاد ومعاداة أهل الأرض في موالاة الرسول وتصديقه وطاعته أمر ما بقي يحصل مثله لأحد (4)

----

(1) مواهب الجليل 402/3 (2) حاشية البجيرمي 3/3 **(3)** بن حبان385 (4) مجموعة الفتاوي ج13

10-مكتوب على قوائم العرش

عن عمر بن الخطاب قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لما اقترف آدم الخطيئة قال يارب أسائلك بحق محمد أن غفرت لي فقال له الله فكيف عرفت محمدا ولم أخلقه بعد ؟ فقال يا رب لأنك لما خلقتني بيدك ونفخت في من روحك رفعت رأسي فوجدت مكتوب على قوائم العرش لا إله إلا الله محمدا رسول الله فعلمت أنك لم تضف إلى اسمك إلا أحب الخلق إلي فقال صدقت يا آدم إنه لأحب الخلق إلي وإ سألتني بحقه فقد غفرت لـك (1) وقـال السيوطي أخرج أبو يعلي عن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم عرج بي إلى السماء فما مررت بسماء إلى وجدت فيها اسمي محمد رسول الله (2) ووجد العلماء في إنجيل برنابا ما نصه " فاحتجب الله وطردهما الملك ميخائيل من الفردوس، فلما التفت آدم رأى مكتوباً فوق الباب لا إله إلا الـه محمـد رسـول الـه (3)

11-لست كهيئتكم ولست كأحدكم

ومن خصائصه الوصال في الصيام ولهذا نهى أمته عن الوصال وقال لهم "لست كهيئتكم ، إني أبيت عنـد ربي يطعمني و يسقيني (4) وقد اختلف العلماء هل هما حسيان أو معنويان على قولين قال بن كثير عنهما الـصحيح أنهما معنويان وإلا لما حصل الوصال . ويبدو أنهما حسيان ومعنويان لتحقق الغاية والقدرة ، ولحق بهذه الفضيلة فضيلة اخرى هي تطوعه بالصلاة قاعدا كتطوعه قائما وإن لم يكن عذر ، وتطوع غيره على النصف قاله صاحب التلخيص في الخصائص وغيره وذلك من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص قال أتيت رسول الله يصلي جالـسا فقلت حدثت يا رسول الله أنك قلت صلاة الرجل قاعدا على نصف الصلاة وأنت تصلي قاعدا قال أجل ولكني لست كأحد منكم (5)

12- الكذب عليه ليس كالكذب على غيره :

فقد تواترت عنه صلوات الله وسلامه عليه " أن من كذب عليه متعمداً فليتبوأ مقعده من النار "(6)قال بن كـثير روي هذا الحديث من طريق نيف وثمانين صحابياً فهو في الصحيحين من حديث علي و أنس وأبي هريرة وغيرهم ، وعند البخاري من رواية الزبير بن العوام بلفظ "بلغوا عني ولو آية ، وحدثوا عن بني إسرائيل ولاحرج ، ومـن

كذب علي متعمداً فليتبوأ مقعده من النار "وأيضا في مسند أحمد والترمذي ورواه ابن ماجه عن جابر وأبي قتادة . وقد صنف فيه جماعة من الحفاظ كالطبراني وغيره من المتقدمين وابن الجوزي و يوسف بن خليل من المتـأخرين . وصرح بتواتره ابن الصلاح والنووي وغيرهما من حفاظ الحديث فلهذا أجمع العلماء على كفر من كـذب عليـه متعمداً مستجيزاً لذلك إلا أنم اختلفوا في المتعمد فقط ، فقال البعض يكفر وخالف ذلك البعض

----

(1) ذكره بن كثير في البداية والنهاية في الجزأين 1 ، 2 وعقب بقوله قال البيهقي تفرد به عبد الرحمن بن زيد وهو ضعيف يقصد عبد الرحمن (2) تاريخ الخلفاء (3) الإصحاح الواحد والأربعين (4) تفسير القرطبي لسورة البقرة وقال رواه أحمد
(5) صحيح مسلم 735 (6) صحيح مسلم 3

13- إيذاءه يوجب العذاب من الله :

أوجب الله تعالى العذاب في الدنيا والآخرة على من يؤذي رسول الله بالقول أو بالفعل فقال سبحانه (وَمِـنْهُمُ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِلَّذِينَ آمَنُـوا مِـنْكُمْ وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ(1) وقال أيضا (إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللَّـهُ فِـي الـدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَاباً مُهِيناً) (2) يقول بن حزم في المحلى نقلا عن آخر "وهذه الآية ليس فيها دليل على كفـر من قال حينئذ إن رسول الله صلى الله عليه وسلم أذن وإنما يكون كافرا من قال ذلك وآذى رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد نزول النهي عن ذلك ونزول القرآن بأن من فعل ذلك فهو كافر وأن من حاد الله تعالى ورسـوله صلى الله عليه وسلم فله نار جهنم خالدا فيها (3) ، حال كان إيذاء غيره من المسلمين بتانا وإثما مبينا قوله تعالى (وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بِغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا فَقَدِ احْتَمَلُوا بُهْتَاناً وَإِثْماً مُبِيناً)(4)

14- من سبه قتل ومن يسبه هو غنم

وجب على من سبه القتل رجلاً كان أو امرأة ، والأحاديث في ذلك كثيرة منها حديث ابن عباس في الأعمى الذي قتل أمة عنده لها منها ابنان مثل اللؤلؤتان لما وقعت في النبي صلى الله عليه وسلم وذكر ذلك للنبي صلى الله عليه وسلم فقال " ألا اشهدوا أن دمها هدر "(5) وروي أن رجلاً سب أبا بكر ، فقال الراوي لأبـو بكـر ألا ضربت عنقه ؟ فقال أبو بكر رضي الله عنه ما كانت لأحد بعد النبي صلى الله عليه و سلم (6) وعن أبي هريـرة رضي الله عنه قال لا يقتل أحدكم بسب أحد إلا بسب النبي صلى الله عليه وسلم ،ويلحق بذلك خاصـية مـن خصائصه وهي أنه إذا سب مؤمنا جعل ذلك كفارة عنه ، والدليل على ذلك ما أخرجه الشيخين في الـصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه قال قال رسول الله " اللهم إني اتخذت عندك عهداً لن تخلفه إنما أنا بشر فأي المؤمنين آذيته أو شتمته أو جلدته أو لعنته فاجعلها له صلاة وزكاة وقربة تقربه بها إليك يوم القيامة (7)

15- كلامه هو فقط الموصوف بالحديث ،

الحَدِيثُ هو الخبر قليله وكثيره ، إلا أن كلامه صلى الله عليه وسلم فقط هو الذي اتصف " بالحديث " تمييزا عن غيره من الكلام أيا كان قائله ،لذا أطلق على أقواله الواردة عنه حديث وعرفت بذلك وربما يكون مصدر ذلـك

قوله تعالى (يأَيهَا الذِينَ آمَنُوا لا تَدْخُلُوا بُيوتَ النِبيِ إِلا أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَى طَعَامٍ غَيْرَ نَاظِرِينَ إِنَاهُ وَلَكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانْتَشِرُوا وَلا مُسْتَأْنِسِينَ لِحَدِيثٍ)(8) كما أنه صلى الله عليه وسلم سمى كلامه حديثا فقال "إذا سمعتم الحديث عني تعرفه قلوبكم وتلين له أشعاركم وأبشاركم وترون أنه منكم قريب فأنا أولاكم به وإذا سمعتم الحديث عني تنكره قلوبكم وتنفر منه أشعاركم وأبشاركم وترون أنه منكم بعيد فأنا أبعدكم منه". (9)

----

(1) التوبة 61 (2) الأحزاب 57 (3) المحلى لابن حزم ج11 تعليقه على الآية (4) الأحزاب 58
(5) القرطبي في تفسير قتال أئمة الكفر (6) رواه النسائي والبيهقي (7) فصول في السيرة ابن كثير
(8)الأحزاب: من الآية53 (9) بن حبان 63

16- تنام عيناه ولا ينام قلبه

خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى البطحاء ومعه بن مسعود فأقعده وخط عليه خطا ثم قال لا تبرحن فإنه سينتهي إليك رجال فلا تكلمهم فإنهم لن يكلموك فمضى رسول الله صلى الله عليه وسلم حيث أراد ثم جعلوا ينتهون إلى الخط لا يجاوزونه ثم يصدرون إلى النبي صلى الله عليه وسلم حتى إذا كان من آخر الليل جاء إلي فتوسد فخذي وكان إذا نام نفخ في النوم نفخا فبينا رسول الله صلى الله عليه وسلم متوسد فخذي راقد إذ أتاني رجال كأنهم الجمال عليهم ثياب وعثمان الله أعلم ما بهم من الجمال حتى قعد طائفة منهم ثم رأسه وطائفة منهم ثم رجليه فقالوا بينهم ما رأينا عبدا أوتي مثل ما أوتي هذا النبي عيناه لتنامان وان قلبه ليقظان اضربوا له مثلا سيد بنى قصرا ثم جعل مأدبة فدعى الناس إلى طعامه وشرابه ثم ارتفعوا واستيقظ رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم ذلك فقال أتدري من هؤلاء قلت الله ورسوله أعلم قال هم الملائكة قال وهل تدري ما المثل الذي ضربوه قلت الله ورسوله أعلم قال الرحمن بنى الجنة فدعا إليها عباده فمن أجابه دخل جنته ومن لم يجب عاقبه وعذبه (1)

وقد تقرر عند عائشة أن النوم ناقص وسندها قوله صلى الله عليه وسلم إن عيني تنامان ولا ينام قلبي قال النووي في شرح مسلم هذا من خصائص الأنبياء صلوات الله عليهم وسلامه وقال الحافظ في التلخيص لا ينتقض وضوؤه صلى الله عليه وسلم بالنوم يدل عليه ما في الصحيحين عن عائشة أن عيني تنامان ولا ينام قلبي وعن ابن عباس أنه صلى الله عليه وسلم نام حتى نفخ ثم قام فصلى ولم يتوضأ وفي البخاري في حديث الاسراء من طريق شريك عن أنس وكذلك الأنبياء تنام أعينهم ولا تنام قلوبهم (2) وما ذاك إلا لاتصال قلبه صلى الله عليه وسلم وروحه دائما بالملأ الأعلى

17- في مسجده روضة والصلاة بألف ولا تشد الرحال إلا إليه

عن أبي هريرة قال قال عليه الصلاة والسلام (ما بين بيتي ومنبري روضة من رياض الجنة) (3)
وفي رواية (ومنبري على حوضي) أو (ومنبري على ترعة من ترع الجنة) (4)

وقال (وصلاة في مسجدي هذا خير من ألف صلاة فيما سواه إلا المسجد الحرام) (5)
وقال (لا تشد الرحال إلا لثلاث مسجدي هذا والمسجد الحرام ومسجد الأقصى) (6).

----

(1) سنن الترمزي 2861 (2) تحفة الأحوذي الجزء الثاني
(3) البخاري:1196 ، ومسلم:1391. (4) موطأ الإمام مالك
(5) أحمد 398/2 والطحاوي في المشكل 69/4 (6) صحيح مسلم 1397

18- المخير من قبل ربه :

ثبت ذلك في أكثر من موضع فقد أرسل الله تعالى إليه الملائكة تخيره بين الإجهاز على أهل مكة أو الإبقاء عليهم عندما بالغوا في إيذاءه ، فعن عروة بن الزبير أن عائشة زوج النبي صلى الله عليه وسلم حدثته أنها قالت لرسول الله صلى الله عليه وسلم يا رسول الله هل أتى عليك يوم كان أشد من يوم أحد فقال لقد لقيت من قومك وكان أشد ما لقيت منهم يوم العقبة إذ عرضت نفسي على بن عبد يا ليل بن عبد كلال فلم يجبني إلى ما أردت فانطلقت وأنا مهموم على وجهي فلم أستفق إلا بقرن الثعالب فرفعت رأسي فإذا أنا بسحابة قد أظلتني فنظرت فإذا فيها جبريل فناداني فقال إن الله عز وجل قد سمع قول قومك لك وما ردوا عليك وقد بعث إليك ملك الجبال لتأمره بما شئت فيهم قال فناداني ملك الجبال وسلم علي ثم قال يا محمد إن الله قد سمع قول قومك لك وأنا ملك الجبال وقد بعثني ربك إليك لتأمرني بأمرك فما شئت إن شئت أن أطبق عليهم الأخشبين فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم بل أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يعبد الله وحده لا يشرك به شيئا، وخير بين أن يكون ملكا أو لا فاختار أن يكون عبدا نبيا (1) وقال الله تعالى جاعلا لنبيه الخيار في الإذن لمن شاء والاستغفار له : قال تعالى "إِنَمَا الْمُؤْمِنُونَ الذِينَ آمَنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ وَإِذَا كَانُوا مَعَهُ عَلَى أَمْرٍ جَامِعٍ لَمْ يَذْهَبُوا حَتى يَسْتَأْذِنُوهُ إِن الذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ أُولَئِكَ الذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَرَسُولِهِ فَإِذَا اسْتَأْذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَنْ لِمَنْ شِئْتَ مِنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمُ اللهَ إِن اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ) (2) وقال ابن مبارك قال حدثنا عبد الله بن سالم الحمصي عن الزبيدي قال أخبرنا الزهري عن محمد بن عبد الله ابن عباس إن ابن عباس كان يحدث ان الله قد أرسل الى النبي صلى الله عليه ومسلم ملكا من الملائكة معه جبرائيل فقال الملك يا رسول الله إن الله تعالى يخيرك بين أن تكون عبد نبيا وبين أن تكون

ملكا نبيا فالتفت النبي الى جبرائيل كالمستشير له فأشار جبرائيل الى رسول الله صلى الله عليه بيده أن تواضع فقال النبي صلى الله عليه وسلم لا بل اكون عبد نبيا فما أكل بعد تلك الكلمة طعاما متكئا حتى لقي الله (3))

وخير بين الخلود في الدنيا وبين الموت فاختار الموت وقال " لا يقبض نبي حتى يخير بين البقاء في الدنيا وبـين الموت (4) وفي صحيح مسلم أيضا أن عروة بن الزبير في رجال من أهل العلم قال ان عائشة زوج النبي صلى الله عليه وسلم قالت كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول وهو صحيح انه لم يقبض نبي قط حتى يرى مقعده في الجنة ثم يخير قالت عائشة فلما نزل برسول الله صلى الله عليه وسلم ورأسه على فخذي غشي عليه سـاعة ثم أفاق فاشخص بصره إلى السقف ثم قال اللهم الرفيـق الأعلـى قالـت عائـشة قلـت إذا لا يختارنـا (5)،

----

(1) صحيح مسلم 1795 (2) النور:62 (3) الزهد لابن المبارك وقال أخرجه النسائي في الكبدي
(4) فتح الباري لابن حجر ج 1 (5) وأخرجه البخاري أيضا برقم 4172 ، 4173

19 – يدفن حيث قبض

أخرج الترمزي مرفوعا عن أبي بكر " ما قبض الله تعالى نبيا إلا في الموضع الذي يحب أن يدفن فيه " وأخرجه ابن ماجه عنه بلفظ " ما مات نبي إلا دفن حيث قبض " ولذا سأل موسى ربه عند موته أن يدنيـه مـن الأرض المقدسة لأنه لا يمكن نقله إليها بعد موته بخلاف غير الأنبياء فينقلون من بيوتم التي ماتوا فيها إلى المدائن فالأفضل في حق من عداهم الدفن في المقبرة فهذا من خصائص الأنبياء كما ذكره غير واحد (3) وقال بعـضهم ضـعيف ومنهم المناوي وضعفه لضعف أحد رواته وهو بن أبي مليكة وقال الحافظ في التقريب ضعيف وقـال الترمـذي يضعف من قبل حفظه (4)

20- لا يدخل بيتا مزوقا

ليس لنبي أن يدخل بيتا مزوقا أي مزينا منقوشا قال الزمخشري التزويق التزيين والنقش لأن النقش لايكون إلا بالزواق وهو الزئبق عند أهل المدينة وعد البعض من خصائص الأنبياء منع الدخول إلى بيت مزوق وأصل هذا كما هو مبين عند أبي داود وغيره أن رجلا ضاف عليا فصنع له طعاما فقالت فاطمة لو دعونا رسول الله فأكل معنـا فجاء – أي رسول الله صلى الله عليه وسلم فرفع يده على عضادتي الباب فرأى القرام قد ضرب في ناحية البيـت فرجع فقال ليس لي أو ليس لنبي أن يدخل بيتا مزوقا (5)

21 - ما كان لنبي أن يغل

قال تعالى (وَمَا كَانَ لِنَبِي أَنْ يَغُل وَمَنْ يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَل يَوْمَ الْقِيَامَةِ ثُم تُوَفى كُل نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ) (1) ماكان لنبي أن يغل بضم الياء وفتح الغين وهي قراءة قراء أهل المدينة والكوفة واختلف قارئو ذلك

في تأويله فقال بعضهم معناه ما كان لنبي أن يغله أصحابه ثم أسقط الأصحاب فبقي الفعل غير مسمى فاعله وتأويله وما كان لنبي أن يخان وقالوا نزلت هذه الآية على النبي يوم بدر وقد غل طوائف من أصحابه ، وقال آخرون منهم معنى ذلك وما كان لنبي أن يتهم بالغلول فيخون ويسرق أي ما كان ليس الغلول من صفات الأنبياء ولا يكون نبيا من غل لأن ذلك جرم عظيم والأنبياء لا تأتي مثله خاصة وأن الله عز وجل توعد أهل الغلول فقال ومن يغلل يأت بما غل يوم القيامة الآية والتي بعدها

22- دخوله مكة بغير احرام

ومن فضائله دخول مكة بغير إحرام والدليل حديث جابر رضي الله عنه أن رسول الله دخل يوم فتح مكة وعليه عمامة سوداء من غير إحرام (2) واستدل العلماء بذلك بأنه عليه الصلاة والسلام دخل مكة عام الفتح وعلى رأسه المغفر ولو كان محرما لم يلبسه وقد كان متحسبا غدر الكفار وعدم قبولهم الصلح الواقع بينه وبين أبي سفيان

----

(3) مسند الزرقاني ج 2 (4) تحفة الأحوذي الجزء الرابع (5) فيض القدير الجزء الخامس

(1) آل عمران:161 (2) صحيح مسلم 1358

23 : تخصيصه بأكثر من أربع زوجات

(وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَى فَانْكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مَثْنَى وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ذَلِكَ أَدْنَى أَلَّا تَعُولُوا) (3) قوله تعالى "مثنى وثلاث ورباع" أي انكحوا من شئتم من النساء سواهن إن شاء أحدكم ثنتين وإن شاء ثلاثا وإن شاء أربعا. وعن خصوصية الجمع بين أكثر من ذلك قال الشافعي وقد دلت سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم المبينة عن الله أنه لا يجوز لأحد غير رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يجمع بين أكثر من أربع نسوة ، وفي موضع آخر يقول ودلت سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم المبينة عن الله أن انتهاءه إلى أربع تحريما منه لأن يجمع أحد غير النبي صلى الله عليه وسلم بين أكثر من أربع(4)

قال القرطبي وهذا الذي قاله الشافعي مجمع عليه بين العلماء وقد روينا عن أنس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم تزوج بخمس عشرة امرأة ودخل منهن بثلاث عشرة واجتمع عنده إحدى عشرة ومات عن تسع وهذا عند العلماء من خصائصه دون غيره من الأمة " (1) وعن قتادة قال تزوج رسول الله صلى الله عليه وسلم خمس عشرة امرأة منهن ست من قريش وواحدة من نساء وسبع من سائر العرب وواحدة من بني إسرائيل ولم يتزوج في الجاهلية منهن غيرها(2)

وللمزيد نقول أن أفضليته صلى الله عليه وسلم تنقسم إلى قسمين الأول : في الدنيا . والثاني : في الآخرة

ومصدر هذه الأفضلية من مصدرين هما الكتاب والسنة ، مع ملاحظة أن هذه الفضائل التي أنعم الله تعالى بها على نبيه إنما مردها ذات الأسباب التي فضل بها صلى الله عليه وسلم على سائر الناس من حوله بمعـنى أن اسـتقلاليته وسموه على الكمال وأنه الإنسان كما أراده الله ، وأن أمانته وصدقه وعظمة خلقه ونقاء ضميره وسـلامة قلبـه وسلامة عقله وتوفيق الله تعالى له وقوة تحمله وعبوديته الحقة والكاملة لله وأسباب النبوة التي رشحته لهـا وكافـة الخصائص الأخرى التي لم تكن لغيره والتي أصقلتها النبوة وأثقلتها وزادت منها ولم تنقص ، كل هـذه العوامـل وغيرها هي أفضليته وهي مبرر أفضليته على الأنبياء وعلى سائر الخلق ومبرر اختياره صلى الله عليه وسلم إماما لهم . ومن أراد أن يعدد فضائله فليعدد كل سطر من سطور هذا البحث سيجدها فضائل ، وخلاف ما ذكرنا كثير إلا أن جهد البحث أرهقني ولم أك أتصور أن ذلك مجهدا . فيا لعظمته ويا لفضائله صلى الله عليه وسلم .

----

(3) النساء:3 (4) سنن البيهقي الكبرى ج 7 (1) تفسير القرطبي النساء (2) تفسير الطبري ج4 بتصرف

الفصل الثاني
أفضليته في الدنيا

أولا :- البشارة به

رسول الله صلى الله عليه وسلم هو الرسول والنبي الأوحد الذي بشرت به الأنبـ ـ ـ ـ ـ ـ ـ ـ ـياء والكتب السماوية السابقة قال تعالى " الذِينَ يَتبِعُونَ الرسُول النبِيّ الْأميّ الذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدهمْ فِي التوْرَاة وَالْإِنجِيل " (1) وقال "وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْن مَرْيم يَا بَنِي إِسْرَائِيل إني رَسُول الله إِلَيْكُمْ مُصَدقًا لِمَا بَيْن يَدَي هِـ ـنْ التوْرَاة وَمُبَشرًا بِرَسُولٍ يَأْتي مِنْ بَعْدِي اسْمه أَحْمَد " (2) ، بل أوجب سبحانه وتعالى على جميع الرسل والأنبيـ ـاء

الإيمان به ونصرته ، وأخذ عليهم العهد والميثاق وأقروا بذلك وشهدوا وشهد هو أيضا معهم بذلك . فذلك قوله تعالى " وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَى ذَلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ " (3) وكيفية الإيمان به ونصرته هي إخبار قومهم عنه وعن اسمه وصفاته وزمانه ومكانه وعن أمته وشريعته وثبتت البشارة به صلى الله عليه وسلم في جميع الكتب السماوية ففي الزبور مثلا " إن الله أظهر من صهيون إكليلا محمودا ".. والإكليل مثلا للرئاسة والإمامة ، والمحمود فى معنى محمد وأيضا " إن ربنا عظم محمد " وفى مزمور آخر " إلهنا قدوس ومحمد قد عم الأرض فرحا ".وفى بعض نبوءات أشعياء النبي " إنى جعلت أمرك يا محمد بالحمد يا قدوس الرب اسمك موجود من الأبد"وأيضا "إنا سمعنا من أطراف الأرض صوت محمد " (4)..

وأنبياء كثيرون أغلبهم من بنى إسرائيل مثل حبقوق وحزقيال ودانيال مما ذكرهم صاحب دلائل النبوة تفصيلا وذكر أقوالهم تكلموا وأفاضوا فى ذلك (5) وفى بعض التوراة : " أقيم لهم نبيا من وسط إخوتهم مثلك وأجعل كلامي في فمه " أما بشارة المسيح عليه السلام فهي فوق كل البشارات لما كان من قرب بينه وبين رسول الله صلى الله عليه وسلم وليس بينهما نبي (6) ، بل إن الترجمة المعروفة للإنجيل هي " البشارة " ويعنون بها بشارته بمحمد وإنجيل برنابا هو أشهر الأناجيل التي بشرت به ، وإن كانوا بعض النصارى يكذبون هذا الإنجيل برمته (7) وعند طائفة أخرى منهم يعنون به بالسريانية المعزي أي النائب عن المسيح .

وقال صلى الله عليه وسلم " أخذ الله منى الميثاق كما أخذ من النبيين وإني عند الله في أم الكتاب خاتم النبيين وآدم مجندل في طينته " (8) وسئل عليه الصلاة والسلام متى جعلت نبيا قال " بين خلق آدم ونفخ الروح فيه " وفى رواية " وآدم بين الروح والجسد " وقال " أنا دعوة أبي إبراهيم وبشارة عيسى ورأت أمي في منامها أنه خرج من بين رجليها نور أضاء له قصور الشام "(9)

----

(1) الأعراف من الآية 157 (2) الصف من الآية 6 (3) آل عمران 81 (4) هداية الحيارى بن القيم (5) دلائل النبوة (6) بن القيم زاد الميعاد وهداية الحيارى (7) مؤخرا مقالة بجريدة الوفد للقمص مرقس عزيز خليل 2004/10/10
(8) المعجم الكبير للطبراني 835 وقال الضحاك الشيباني في كتاب السنة لأبي عاصم ضعيف إذ فيه حجر بن حجر وهو شبه مجهول وجاء أيضا في الدر المنثور للسيوطي وزاد المسير لابن الجوزي وبن سعد في الطبقات (9) بن حبان 6406 وقال الحاكم صحيح الإسناد ولم يخرجه الشيخان .

وهذه الروايات هي أقرب القول إلى الحق والحقيقة وأغلب ما قيل غير ذلك ضرب من اللامعقول ، كقولهم فيما نسبوه إليه صلى الله عليه وسلم كنت أول النبيين في الخلق وأخرهم في البعث (1)لما يخالف ذلك ماهو معلوم بالكتاب والسنة وبالضرورة أن آدم عليه السلام هو أول الخلق . أما قوله صلى الله عليه وسلم أنه بعث بين خلق

آدم ونفخ الروح فيه أو وهو مجندل في طينته ، فهو تفسير منه صلى الله عليه وسلم للعلم الإلهي والمشيئة وما سطر في اللوح المحفوظ الذي احتوى كل ما هو كائن وما سيكون ، وشأنه في ذلك كسائر الأنبياء الذين جمعهم الله فى صعيد واحد فأخذ عليهم العهد والميثاق بتبليغ رسالته إلى الأمم دون إفراط أو تفريط فأقروا بذلك وشهدوا وكان عليه الصلاة والسلام أول من أقر وشهد ، وفي لطائف المعارف يقول عبد الرحمن أحمد بن رجب الحنبلي مجيبا على سؤال هام وهو هل كان النبي نبيا قبل أن يبعث صلى الله عليه وسلم ؟ فقال " نبوته كانت مذكورة ومعروفة من قبل أن يخلقه الله ويخرجه إلى دار الدنيا حياً وأن ذلك كان مكتوباً في أم الكتاب من قبل نفخ الروح في آدم عليه السلام ، وفسر أم الكتاب باللوح المحفوظ وبالذكر في قوله تعالى " يمحو الله ما يشاء و يثبت وعنده أم الكتاب " وفي صحيح مسلم عن عبد الله بن عمرو بن العاص عن النبي صلى الله عليه و سلم قال " إن الله كتب مقادير الخلائق قبل أن يخلق السموات و الأرض بخمسين ألف سنة ، و كان عرشه على الماء ومن جملة ما كتبه في هذا الذكر والكتاب أن محمداً خاتم النبيين " (2)، ومن حينئذ انتقلت المخلوقات من مرتبة العلم إلى مرتبة الكتابة وهو نوع من أنواع الوجود الخارجي . وقوله صلى الله عليه و سلم في هذا " إني عبد الله في أم الكتاب لخاتم النبيين وإن آدم لمنجدل في طينته " ليس المراد به و الله أعلم أنه حينئذ كتب في أم الكتاب ختمه للنبيين ، وإنما المراد الإخبار عن كون ذلك مكتوباً في أم الكتاب في تلك الحال قبل نفخ الروح في آدم ، وهو أول ما خلق من النوع الإنساني . وجاء في أحاديث أخر أنه في تلك الحال وجبت له النبوة ، و هذه مرتبة ثالثة و هي انتقاله من مرتبة العلم و الكتابة إلى مرتبة الوجود العيني الخارجي فإنه صلى الله عليه وسلم استخرج حينئذ من ظهر آدم و نبئ فصارت نبوته موجودة في الخارج بعد كونها كانت مكتوبة مقدرة في أم الكتاب ، ففي " حديث ميسرة قال قلت يا رسول الله متى كنت نبياً ؟ قال "وآدم بين الروح و الجسد"(3، 4) ،

علما بأن الله تعالى إذ اختص رسول الله بالبشارة و أخبر به الأنبياء وجعل ذلك على ألسنتهم وبكتبهم وعهد عليهم وميثاق ،إنما ذلك ليكون حجة على العالمين اتفاقا مع عالمية رسالته ودينه المهيمن على الأديان السابقة وكتابه الناسخ لما قبله من كتب فمن ثم اقتضت مشيئة الله تعالى أن يبشر به فى هذه الكتب جماعا وعلى لسان كل الأنبياء قبله حتى إذا ما نسخ كل ماكان قبله كان ذلك مقبولا وحجة على الكافة

----

(1) ذكره الجرجاني في الكامل في الضعفاء من الرجال وجاء في مجمع الزوائد للهيثمي ج 2

(2) قال بن رجب ذلك أيضا في جامع العلوم والحكم كما ذكره الحاكم برقم 5

(3) أخرجه أحمد والحاكم وقال الأخير صحيح الأسناد ولم يخرجاه 4209 (4) كتاب علامات النبوة الورداني

ثانيا : - إرهاصات النبوة :

ولم يقتصر الأمر على البشارة به فحسب بل كان رسول الله صلى الله عليه وسلم هو النبي الوحيد أيضا الذي قدم الله تعالى له إرهاصات ومقدمات كونية تدل على مبعثه ورد بعضها في القرآن مثل ما جاء عن الجن في قولـه تعالى "وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَنْ يَسْتَمِعِ الْآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَابًا رَصَدًا "(1)

وإذا كانت هذه الآية الكريمة جاءت عقب قوله تعالى حكاية عن الجن أيضا " إنا سمعنا قرآن عجبـا " - أي بعد سماعهم القرآن ومبعث رسول الله - بما لا تصلح معه دليلا على مقدمه صلى الله عليه وسلم أو إرهاصا لمبعثه ، فإن ذلك لا يحول دون هذا الاعتبار بحسباننا تفسيرا لما واجهه الجن قبيل بعثته عليه الصلاة والسلام وقبيل علمهم بأمر نبوته وسماعهم القرآن ، حيث كانوا يسترقون السمع ففوجئوا بشهب رصدا تحول بينهم وبين ذلـك فلمـا سمعوا القرآن أدركوا حقيقة هذه الشهب وأنها مقدمة لأمر جلل ومن بعض هذه الإرهاصات ما روي عن حسان بن ثابت قوله : والله إني لغلام يفعة ابن سبع سنين أو ثمان أعقل كل ما أسمع إذا سمعت يهوديًا يصرخ على أطمة بيثرب يا معشر يهود حتى إذا اجتمعوا قالوا ويلك مالك قال طلع الليلة نجم أحمد الذى ولد به (2)

وعن بن عباس رضى الله عنه قال " قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لنفر من النصارى " ما كنتم تقولون في هذا النجم الذي يرمى به ، قالوا كنا نقول حين يرمى به ملك ملك أو مولود ولد أو مات عظيم فقال رسول الله " ليس ذلك كذلك ، ولكن الله تبارك وتعالى كان إذا قضى أمرا سمعه حملة العرش فسبحوا فيسبح من تحتـهم ، فيسبح لتسبيحهم من تحت ذلك وهكذا حتى تسبح ملائكة السماء الدنيا ، فيقول بعضهم لبعض مـما سـبحتم فيقولوا سبحنا لتسبيح من فوقنا فيستمر التساؤل حتى يصل إلى حملة العرش ، فيقال لهم مما سبحتم فيقال قـضى بكذا وكذا فيهبط الخبر من سماء إلى سماء حتى السماء الأولى فيتحدثوا به فيسترقه الشياطين بالسمع على تـوهم واختلاف ، ثم يأتوا به الكهان من أهل الأرض فيحدثوهم به فيتحدث به الكهان فيخطـئ بعـضهم ويـصيب بعضهم ، وبعد مولدي حجب الله الشياطين بهذه النجوم التي يقذفون بها فانقطعت الكهانة " (3)

والجزء الأخير من الحديث هو الشاهد الذي يعد علامة من علامات مبعثه صلى الله عليه وسلم . ويقول بن خلدون في تاريخه " ما منع به الشياطين هو من نوع واحد فقط هو إخبار السماء بخبر البعثة "

وهناك أخبار أخرى كثيرة أوردتها كتب السير عن الجن والكهان فى هذا الشأن ، ومن الإرهاصات أيضا جفاف بحيرة ساوه وانطفاء نيران كسرى ، وتخرج عن الإرهاصات حادثة الفيل للأسباب التي ذكرناها في حديثنا عن الوحي ، وتخرج أيضا بعض الروايات التي لا تستند إلى دليل مثل ما قيل أن كل دابة نطقت يوم ميلاده صلى الله عليه وسلم ، وأن وحوش الشرق فرت إلى وحوش الغرب وبالعكس ، وبشر أهل البحار بعضهم ببعض ، وأنه ولد صلى الله عليه وسلم ساجدا رافعا سبابته إلى السماء وأن سحابة بيضاء غشيته وغيبته لحظة ميلاده .

----

(1) الجن 9 (2) الاكتفاء في المغازي (3) سيرة بن إسحاق

سؤال الملائكة والأنبياء

وقبل أن ننتقل إلى الفضيلة الثالثة ننوه إلى درسا يمكن أن نستخلصه من الحديث المشار إليه سلفا ، وهو إمكانية السؤال عما يريد أن يستفسر عنه المرء حتى ولو تعلق ذلك بأمر من أمور العبادات فرائض كانت أم نوافل ، إيمانا منا بأن لكل شيء حكمة ولكل أمر أو نهي غاية ، ولكل عبادة مقصد ، وشأن الله سبحانه وتعالى وتدبيره لملكه قائم على هذه الحكمة والغاية والمقصد ، ومهما خفيت هذه الأهداف عن عقول البشر وأفهامهم إلا أن ذلـك لا يمنع من قيام هذه الشئون كلها على الحكمة والغاية والهدف والمقصد ، ولا يمنع ذلك أيضا من الـسؤال عنـها والبحث . فهاهي ذي الملائكة عباد الرحمن المفطورين على العبادة وتنفيذ أوامره سبحانه وتعالى وعدم عـصيانه فيما أمرهم صغيرا كان أو كبيرا ، تساءلوا ملك عن ملك وسماء عن سماء عن هذه التسابيح ، وسؤالهم هذا وإن لم يكن الغرض منه معرفة العلة قبل تنفيذ الأمر وإنما معرفتها بعد تنفيذه ، إلا أنه لا يخرج عن كونه سؤال بحثا عن الحكمة والغاية ، وقد سبحوا قبل أن يسألوا ، وسبحوا بعد أن سألوا ، وسبحوا كذلك بعد أن عرفوا الإجابة على سؤالهم ، وكان التسبيح سيستمر في كل الأحوال ، إلا أنهم سألوا ووجدوا الإجابة على أسئلتهم ، كما سألوه جلا وعلا من قبل في قوله تعالى :" وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَـا مَـنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُـونَ " (1) ، فأجـابهم الله تعالى بنفسه على سؤالهم وبطريقة عملية تأكيدا منه سبحانه وتعالى على حسن اختياره لاسـتخلاف بـني آدم الأرض فقال "وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَـالَ أَنْبِئُـونِي بِأَسْـمَاءِ هَؤُلَـاءِ إِنْ كُنْـتُمْ صَادِقِينَ(2وأيا كان تفسير العلماء لسؤال الملائكة لربهم جلا وعلا ، إلا أنه سؤال وجواب ، كما أن الأنبياء أيضا تسائلوا وهم الأعلم بالله سبحانه وتعالى والأقرب إليه والأكثر خشية . فقال إبراهيم عليه الـسلام " أرني كيـف تحيي الموتى " فأجابه الله على سؤاله وأراه كيف يحيي الموتى فقال سبحانه "قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِنَ الطَّيْـرِ فَـصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَى كُلِّ جَبَلٍ مِنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَـكَ سَـعْيًا وَاعْلَـمْ أَنَّ اللَّـهَ عَزِيـزٌ حَكِـيم " (3) وتسائل العزير عليه السلام حسب المشهور عند العلماء فقال تعالى : أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَـى عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّى يُحْيِي هَذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالَ بَلْ لَبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ "(4) فلما إذن لا يتساءل من هو دونهم ، خاصة إذا كان السؤال بغرض استجلاء مبهم أو استبيان غامض أو الكشف عن علة وحكمة ؟ ، وفي هذا الصدد يقول د/ زكي نجيب محمود " إن أمور العبـادة واجبة الأداء سواء عرفنا سرها أم لم نعرف لكن محاولة المعرفة إلزام خلقي على الإنسان ، فقد فرضت هذه العبادة على بشر ولم تفرض على حجر أصم " (5) يضاف إلى ذلك أنها أيضا إلزام عقائدي وتعبدي ، فأما عن كونهـا التزام عقائدي فلأن من لزوم معرفة الله سبحانه وتعالى ومعرفة نبيه صلى الله عليه وسلم أن نعرف حكمـة مـا شرعوا لنا ، وأما عن كونها التزام تعبدي فلكي تورث فينا هذه المعرفة حسن العبادة وإتقانها "

----

(1) البقرة 30 (2) البقرة من الآية 31 (3) البقرة من الآية 260 (4) البقرة من الآية 259 (5) زكي نجيب محمود قيم تراثية وثقافية

ثالثا - خاتم الأنبياء والمرسلين .

تفضيله صلى الله عليه وسلام بختام الأنبياء أجل وأعظم ، لأن المؤخر يستخلص خبرات من قبلـه ويحتـوى تجاربهم وعبرهم لذا قص الله تعالى عليه قصصهم لتكون عبرة له ونبراسا ، فقال تعالى (لَقَدْ كَانَ فِـي قَصَـصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَـوْمٍ يُؤْمِنُونَ" (1) ، وقال سبحانه : نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ " (2) ويحيطه الله ببعض تجاربهم فيقول له : (فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَ رُسُلٌ مِـنْ قَبْلِـكَ جَـاءُوا بِالْبَيِّنَـاتِ وَالزُّبُـرِ وَالْكِتَـابِ الْمُـنِيرِ" (3) ويقول له " فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ " (4)

هذه واحدة ، والثانية اعتباره صلوات ربى وسلامه عليه بختامه للمرسلين مكملا لمنظومة الكمال التي أفردنا لها فصلا أشرت فيه إلى حديثه صلى الله عليه والسلام " مثلى ومثل الأنبياء من قبلي كمثل رجل بنى بيتـا فحـسنه وجمله إلا موضع لبنة فجعل الناس يقولون ما أحسنه ما أجمله لولا موضع هذه اللبنة فأنا اللبنة وأنا خاتم النبيين(5)

وكان مبعثه وختامه للنبوة هو العلامة الكبرى لقيام الساعة ، وبموته انقطع الوحي عن الأرض ،

وجعله صلى الله عليه وسلم أخر الأنبياء إنما يأتي ذلك تناسقا مع تسلسل الأنبياء والرسل على مراد الله ومشيئته إذ كان كل نبي يصلح للقوم الذين أرسل عليهم والفترة الزمنية التي أرسل فيها وبما يتناسب مع إقليمية وخصوص رسالته ، فكان صلى الله عليه وسلم هو الأصلح لختم الرسل وبما يتفق مع شمول منهجه وعمومية رسالته وشريعته التي أرسل بها والأمة التي بعث فيها ، فكانت اللبنة التي أكمل بها البناء هي اللبنة التي لم تكن تصلح لبنة غيرهـا . بمعنى أن استكمال البناء لم يكن مجرد تتمة له فحسب ، إنما كان المراد لبنة من طينة خاصة وطبيعة خاصة تختلـف عن سائر اللبنات .

----

(1) يوسف 111 (2) يوسف 3 (3) آل عمران 184 (4) الأحقاف 35 (5) صحيح مسلم 2286

رابعا وخامسا وسادسا : عالمية الرسالة وبعثه للجن وكثرة الأتباع

أرسل كل نبي ورسول إلى قوم هو منهم ولهم فقط دون غيرهم ، بحيث يسقط عنه عبء الالتـزام بـدعوة غيرهم حتى ولو أتيح له ذلك . فقد جاءت امرأة من غير بني إسرائيل إلى عيسى عليه السلام تسأله فأعرض عنها وقال قولته المشهورة " إنما أرسلت إلى خراف بني إسرائيل الضالة "(1) . ومن المعلوم أن الأنبياء سيـسألون عـن رسالتهم التي أرسلهم الله تعالى بها لقوله جلا وعلا " فَلَنَسْأَلَن الذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْأَلَن الْمُرْسَلِينَ " (2) أي أن الرسول مسئول عن أمته فقط داخل إطار الحدود الجغرافية لهذه الأمة وخارج هذه الحدود فهو غـير مكلـف بالدعوة وغير مسئول عن عدم التبليغ بها ، فقد خرج نوح وهود وصالح ولوط وشعيب عليهم السلام عن دائـرة قومهم بعد نفاذ أمر الله فيهم بالهلاك ونجاتهم هم ولم يرد عنهم ذكر بعد ذلك ولم يؤمروا بدعوة غيرهم . قـال تعالى "وَلَما جَاءَ أَمْرُنَا نَجيْنَا هُودًا وَالذِينَ آَمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنا وَنَجيْنَاهُمْ مِنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ إِن رَبكَ هُـوَ الْقَـوِي الْعَزِيزُ "(3) وقال "فَلَما جَاءَ أَمْرُنَا نَجيْنَا صَالِحًا وَالذِينَ آَمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنا وَمِنْ خِزْيِ يَوْمِئِذ(4) وقال"قَالُوا يَـا لُوطُ إِنا رُسُلُ رَبكَ لَنْ يَصِلُوا إِلَيْكَ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ الليْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ إِلا امْرَأَتَكَ إِنهُ مُصِيبُهَا مَـا أَصَابَهُمْ إِن مَوْعِدَهُمُ الصبْحُ "(5)

ولإقليمية الدعوة كانت مشيئة الله تعالى القضاء على الأمة التي لم تتبع رسولها ، إذ بتحقق الغاية من النبوة ومن إرسال الرسول ينتهي دوره ودورهم ، حتى قوم يونس الذين آمنوا جميعا واتبعوا نبيهم بإيمانهم انتهى دوره وتحقق المراد فقال فيهم سبحانه و تعالى :- (فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ آَمَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلا قَوْمَ يُونُسَ لَما آَمَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدنْيَا وَمَتعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ " (6) بينما أرسل صلى الله عليه وسلم إلى الناس كافة لقوله تعالى : - (وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلا كَافةً لِلناسِ بَشِيراً وَنَذِيراً وَلَكِن أَكْثَرَ الناسِ لا يَعْلَمُونَ) (7)
وقوله تعالى: (وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ) (8) لذا تعدت رسالته صلى الله عليه وسلم الحدود الجغرافية لمكة فقال تعالى(وَلِتُنْذِرَ أُم الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا (9) وأرسل رسله صلى الله عليه وسلم ورسائله إلى جميع بقـاع الأرض يدعوهم إلى الإسلام ، وحمل من بعده الصحابة والتابعين لهم ميراث النبوة وواصلوا نشر الإسلام في شتى بقـاع الأرض ، ولم يكتب على أمته الهلاك لاستمرارية دعوتها إلى جميع الأمم حتى تقوم الساعة .

----

(1) النبوات للرازي في مقدمة المحقق (2) الأعراف 6 (3) هود 58 (4) هود 66
(5) هود من الآية 81 (6) يونس 98 (7) سبأ 28 (8) الأنبياء 107 (9) الأنعام 92

الجن :

كما كان من أوجه الفضل لرسول الله أيضا إرساله إلى الجن له واستماعهم إليه وإسلامهم عقب ذلك ، فيقول تعالى " قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا "(1)
وقال "وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنْصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَى قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ " (2)،وقد أجمع المسلمون بغير خلاف من فئة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم بعث إلى الجن كما بعث إلى الأنس ، يقول فخر الدين الرازي . أطبق الكل على أن الجن مكلفون ومأمورون ومنهيون وأنه أرسل إليهم " (3) وقال القاضي عبد الجبار من شيوخ المعتزلة " لا نعلم خلافا بين أهل النظر أن الجن مكلفون إلا ما نقل عن الحشوية (4) ، وقال شيخ الإسلام بن تيميه " أرسل رسول الله إلى جميع الثقلين وأوجب عليهم الإيمان بما جاء به وهو أصل متفق عليه بين الصحابة والتابعين وأئمة المسلمين وسائر طوائف أهل السنة والجماعة . وأنهم مكلفون بفروع شرائعنا بإجماع معلوم من الدين بالضرورة يكفر جاحده لكننا لا ندري تفاصيل تكليفهم " (5)

كثرة الأتباع :

ولعالمية رسالته وإرساله إلى الناس كافة كثر اتباعه والمؤمنين به كثرة لم يبلغها نبي من الأنبياء ، خاصة إذا وضعنا نصب أعيننا حقيقة مؤكدة وهي أن أكثر اليهود والنصارى-حاليا - ليسوا هم أتباع الأنبياء الذين أرسلوا إليهم وأخرهم عيسى عليه السلام ومن قبله موسى عليه السلام ، إنما هم أتباع ديانات محرفة ، أدى بها التحريف إلى الشرك والوثنية . أما المسلمون اليوم في شتى بقاع الأرض هم أتباع محمد وحملة القرآن الذي لم يناله التحريف ولم يأتيه الباطل أبدا . ومع إيماننا المطلق بأن جميع الأنبياء والرسل السابقين أخلصوا في دعوتهم إلى الله وأدوا الأمانة وبلغوا الرسالة كاملة غير منقوصة ، ولم يفرطوا ولم يقصروا ، إلا أن أتباع رسول الله والذين آمنوا به أكثر ممن آمنوا لهم جميعا ، وذلك من جهتين ، الأولى هي التي أثناء حياته ، والثانية بعد مماته . أما التي قبل حياته صلى الله عليه وسلم فقد آمن به خلق كثير يكاد يشمل الجزيرة العربية كلها خاصة بعد فتح مكة ، وقد عبر الله سبحانه وتعالى عن ذلك بقوله (إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللهِ وَالْفَتْحُ وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللهِ أَفْوَاجاً فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّاباً (6)وبعد موته فتحت المدائن والقرى والبلاد والأمصار وبلغ الإسلام ما بلغ .
قال صلى الله عليه وسلم " أنا أكثر الأنبياء تبعا يوم القيامة " (7)

----

(1) الجن 1 (2) الأحقاف 29 (3) النبوات للرازي (4) النبوات بن تيميه
(5) المصدر السابق (6) النصر (7) صحيح مسلم 196

سابعا : جعل القرآن شريعته .

ما هو معلوم بيقين أن القرآن الكريم هو خير الكتب السماوية وأفضلها وهو آخرها وأكملها وأشملها والمهيمن عليها والمصدق لما بين يديه منها ، وأوجه الفضل لا تحصى منها ما قاله الفيروز ابادى " اعلم أن كثرة الأسماء تدل على شرف المسمى أو كماله أما ترى أن كثرة أسماء الأسد دلت على كمال قوته وكثرة أسماء القيامة دلت على كمال شدتا ، وكثرة أسماء الداهية دلت على شدة نكايتها ، وكذلك كثرة أسماء الله تعالى دلت على كمال جلال عظمته ، وكثرة أسماء النبي صلى الله عليه وسلم دلت على علو رتبته وسمو درجته ، وكذلك كثرة أسماء القرآن دلت على شرفه وأفضليته(1)

وساق أكثر من مائة اسم من القرآن ذاته ومن السنة منها " العظيم ، العزيز ، العلي ، المجيد ، المهيمن ، النور ، الحق ، الحكيم ، الكريم ، المبين ، المنير ، الهدى ، المبشر ، المنذر ، الشفاء ، الرحمة ، الفرقان ، البرهان ، المفصل ، المصدق ، الحكم ، القيم ، الحق ، العروة الوثقى ، المسطور المرشد ، المأدبة " ، وقال صلى الله عليه وسلم فيما صح عنه " فضل كلام الله عز وجل على سائر الكلام كفضل الله على خلقه " (2) ، ومن حيث ذلك وحيث اختص الله سبحانه وتعالى رسول الله صلى الله عليه وسلم بذا القرآن وجعله شريعته ومنهجه المكلف بتبليغه إلى الناس كافة فهو فضل إن لم يكن هو الفضل كله ، إذ لا يحمله إلا إذا كان هو أهل لحمله لعظمته وثقله ومكانته عند الله . وقد بينا فيما سبق أن منهجه سبحانه وتعالى هو الأعز عنده والأكرم بين مخلوقاته جميعا حتى أنه حذر رسوله مرارا وتكرارا من أن يهم مجرد الهم في تغيير أية واحدة من كتابه حتى ولو كان ذلك في سبيل الدعوة أو في سبيل إسلام علية القوم وأشرافهم قال تعالى : (قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبدلَّهُ مِنْ تِلْقَاءِ نَفْسِي إِنْ أَتبِعُ إِلا مَا يُوحَى إِلَيَّ إِني أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ)(3)

لذا " جاء به الله من غيب الغيب بعالم من العلم وصل إلى القول ومن القول إلى القلم ومن القلم إلى صفحة الوحي ومن الوحي إلى سفارة الروح الأمين ومنه إلى حضرة النبوة العظمى (4)

بينما كان الأنبياء السابقين أكثرهم بلا كتاب سماوي وبعضهم أنزلت عليه صحف كصحف موسى وإبراهيم وأنزل على داود زبورا وعلى موسى التوراة وأنزلت على عيسى عليهم السلام الإنجيل ، إلا أن هـذه الـصحف والكتب لم تكن بمـ لة القرآن .

----

(1) بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز للفيروزابادي إعداد د/ علي عبد الباسط مزيد
(2) سنن الدارمي ج2 3356 (3) يونس: من الآية15 (4) المصدر الأسبق

عن أبى ذر قال قلت يا رسول الله ما كانت صحف إبراهيم . قال "كانت أمثالا كلها . أيها الملك المـسلط المبتلى المغرور إني لم ابعثك لتجمع لي الدنيا بعضها على بعض ، ولكني بعثتك لترد عني دعـوة المظلـوم وإني لا أردها ولو كانت من كافر ، وعلى العاقل مالم يكن مغلوبا على عقله أن تكون له ساعات ، فساعة يناجي فيهـا ربه وساعة يحاسب فيها نفسه وساعة يتفكر فيها فى صنع الله ، وساعة يخلون فيها إلى حاجته لمطعم أو مشرب ، وعلى العاقل ألا يكون ظاعنا إلا لثلاث تزود لمعاد أو مرمة لمعاش أو لذة في غير محرم ، وعلى العاقل أن يكـون بصيرا بزمانه مقبلا على شانه حافظا للسانه ، ومن حسب كلامه من عمله قل كلامه إلا فيما يعنيه . قلـت يـا رسول الله فما كانت صحف موسى عليه السلام ؟ قال كانت عبرا كلها ، عجبت لمن أيقن بالموت ثم هو يفرح ، عجبت لمن أيقن بالنار ثم هو يضحك ، عجبت لمن أيقن بالقدر ثم هو ينصب ، عجبت لمن رأى الدنيا وتقلبـها بأهلها ثم اطمأن إليها ، عجبت لمن أيقن بالحساب غدا ثم لا يعمل له . "(1)

وكذا كان الزبور حكم ومواعظ . يقول القرطبي معقبا على قوله تعالى " َ(آتَيْنَا دَاوُدَ زَبُوراً)(2) الزبور كتاب داود وكان مائة وخمسين سورة ليس فيها حكم ولا حلال ولا حرام وإنما حكم ومواعظ والزبر الكتابة والزبـور بمعنى المزبور أي المكتوب كالرسول والركوب والحلوب .(3).

وكانت التوراة هي الشريعة التي بدأت تحمل بعض الأحكام والأوامر والنواهي مثل تحريم القتل والزنا والسرقة وتحريم الميتة والدم ولحم الخـ ير والمذبوح للأوثان والجمل والأرنب والنسر وابن عرس وكل دبيب يـدب علـى الأرض (4) ، أما الإنجيل فلم يأتى بشريعة جديدة وهو أيضا لم يك إلا مواعظ وزواجر والأحكام فيه قليلـه وفى تفسير الكشاف أن قول الله تعالى وليحكم أهل الإنجيل بما أنزل فيه "يراد به الإحالة إلى أحكام التـوراة ، يؤيـد ذلك ماجاء في إنجيل متى " لا تظنوا أنى جئت لأنقض الناموس أو الأنبياء ما جئت إلا لأكمل فأني الحق أقول لكم إلى أن تزول السماء والأرض لا يزول حرف واحد أو نقطة من الناموس حتى يكون الكل " (5)

----

(1) بن حبان 361 و تفسير القرطبي ج 20 (2) النساء: من الآية163
(3) تفسير القرطبي لسورة المائدة (4) ذات المصدر (5)

ثامنا : شهادة التوحيد

قال صلى الله عليه وسلم " بني الإسلام على خمس شهادة أن لاإله إلا الله وأن محمدا رسول الله وإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة وصوم رمضان وحج البيت لمن استطاع إليه سبيلا. (1) وعن عمر بن الخطاب رضى الله عنه أن رجلا شديد بياض الثياب شديد سواد الشعر لا تبدو عليه أثار سفر ، جاء إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وأسند ركبتيه إلى ركبتي رسول الله وسأله عن الإسلام فقال له صلى الله عليه وسلم " الإسلام أن تشهد أن لاإله إلا الله وأن محمد رسول الله {وذكر له باقي الأركان} فقال له صدقت فعجب الصحابة كيف يسأله فيصدقه ، ثم سأله عن الإيمان فقال له صلى الله عليه وسلم الإيمان أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الأخر والقضاء والقدر شره وخيره فقال له صدقت فعجب الصحابة كعجبهم أول مرة ، وسأله أسئلة أخرى فأجابه عنها وفي كل مرة يسأله فيصدقه "ولما أنصرف سألهم رسول الله أتدرون من هذا ؟ قالوا الله ورسوله أعلم ، قال هذا جبريل جاء يعلمكم أمور دينكم . (2) وعلى هذا المدار تدور أحاديث كثيرة تحدد أركان الإسلام فتجعل أوله " لاإله إلا الله وأن محمد رسول الله " وتحدد أركان الإيمان فتجعل من بينه الإيمان برسله .

وبالبناء على ذلك لا يكون المسلم مسلما إلا إذا أيقن بهذه الأركان مجتمعة بغير تجزئة فلا ينفع إسلامه إذا أنكر فريضة من فرائض الإسلام المشار إليها - كالزكاة مثلا - وآمن بباقي الفرائض ، وهذا ما حارب عليه أبو بكر رضى الله عنه المرتدين ، وبالتالي لا يصلح إسلامه إلا إذا شهد أن لاإله إلا الله وأن محمد رسول الله بغير تجزئة بينهما وبغير تقسيم . ويعد والحال هكذا كافرا أو مرتدا -إن كان قبل مسلما- من أيقن أو قال أو عمل بجزء

من الشهادتين دون الأخرى . وهذا هو الإسلام الخالص الذي عليه المسلمين والذي جاهد فى سبيله رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى أرسى دعائمه ووطد بنيانه ، فقال صلى الله عليه وسلم " أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لاإله إلا الله وأن محمد رسول الله فإن قالوها عصموا مني دمائهم وأموالهم إلا بحق الإسلام وحسابهم على الله " وفى رواية وأقاموا الصلاة "(3)

إذن فمناط التوحيد والركن الركين من أركان الإسلام الأول هو " شهادة أن لا إله إلا الله محمد رسول الله " وفي مناط الإيمان لا يكون المؤمن كامل الإيمان إذا أنكر نبوة نبي أو رسول ممن جاء ذكرهم فى القرآن الكـريم ، ويدخل رسول الله صلى الله عليه وسلم فى زمرة الرسل والأنبياء الواجب الإيمان بهم بغير تفرقة ، قال تعـالى " إن الذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَنْ يُفَرقُوا بَيْنَ اللهِ وَرُسُلِهِ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيـدُونَ أَنْ يَتخِذُوا بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا " (4)

----

(1)صحيح مسلم باب أركان الإسلام (2) صحيح مسلم باب الإيمان

(3) نفس المصدر باب الشهادتين (4) النساء 150

أي أن لرسول الله عليه الصلاة عند المسلم كامل الإسلام والإيمان درجات كثيرة أذكر منها هاهنا ثلاث فقط الأولى : الشهادة به كرسول من عند الله سبحانه وتعالى مقترنة هذه الشهادة بشهادة أن لاإله إلا الله . ويكـون ذلك هو التوحيد الخالص . الثانية : الإيمان به صلى الله عليه وسلم كواحد من المرسلين ، وكلاهما – أي شهادة أن محمد رسول الله مقترنة بشهادة أن لاإله لا الله كعلامة على التوحيد ، والإيمان به صـلى الله عليـه وسـلم كواحد من الرسل المرسلين - قرينان لا ينفصمان ولا يتصور وجود أحدهما دون الأخر ، فمن شهد أن لاإله إلا الله وأن محمد رسول الله أستتبع ذلك بالضرورة الإيمان به ، ومن ثم يعد فى كلا الحالين كافرا من لم يدخل شهادة أن محمدا رسول الله مع شهادة أن لاإله إلا الله كشهادة واحدة هي أصل الإسلام وأساسه . ومن لم يؤمن بـالله تعالى واحدا أحد لاشريك له ومحمد واحد من رسله الكرام بغير تفرقة بينهم فى كونهم مبعوثين من عند الله .

واعتباره صلى الله عليه وسلم جزء من شهادة التوحيد لا يتعارض مع أن الله تعالى هو الإله الواحـد الأحـد الذي تـ ه عن الشريك والولد والشبيه والمثيل ، ولا يتعارض مع إفراده سبحانه وتعالى بالعبودية إفرادا كـاملا ولا يتعارض أيضا مع التوحيد بنوعيه الربوبية و الإلوهية وتوحيده في أسمائه وصفاته ، ولا يعد ذلك إطراء لرسول الله صلى الله عليه وسلم أو إشراكا به مع الله سبحانه وتعالى لأن صلى الله عليه وسلم ما هو إلا رسول من قبـل الله كسائر الرُسل قبله (وَمَا مُحَمدٌ إِلا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرسُل) (1) ، كما أن الأحاديث التي تحث على قول

" لاإله إلا الله " كقوله صلى الله عليه وسلم عن جابر بن عبد الله " أفضل الذكر لاإله إلا الله وأفضل الدعاء الحمد لله "(2) وقوله "جددوا إيمانكم بقول لاإله إلا الله "(3) هي أحاديث موجهة إلى مسلم شهد بداءة أن لاإله إلا الله وأن محمدا رسول الله ودخل فى زمرتم وأصبح منهم ورقت عقيدته إلى مرحلة الإيمان ، كما أنه يقصد بها إفراد الله سبحانه وتعالى بالوحدانية المطلقة وإفراده بالعبودية المطلقة وإفراده بالذكر المطلق . فيكون الفـارق إذن هـو تفضيل الله سبحانه وتعالى نبيه صلى الله عليه وسلم بأن قرن اسمه باسمه وجعل ذلك علامة على التوحيد الخالص ، وجعل من لا يشهد باسمه ونبوته حتى ولو آمن به وحده سبحانه وتعالى إيمانه غير مكتمل لا يعتد بـه فى الـدنيا والآخرة . يقول بن تيميه التوحيد المنجي شهادة أن لاإله إلا الله وأن محمدا رسول الله بحيث يقـر أن شـهادة أن لاإله إلا الله وأن محمد رسول الله " وقال أيضا " سئل العباس بن سريج ما لتوحيد قال توحيد أهل العلم وجماعـة المسلمين أن لا إله إلا الله محمدا رسول الله "

ثم تأتي الدرجة الثالثة التي لرسول الله صلى الله عليه وسلم عند المسلمين الموحدين المؤمنين وهـي الاتبـاع ، اتباعه صلى الله عليه وسلم فى عبادة الله سبحانه وتعالى على طريقته بحيث تصير العبادة بغير هذه الطريقة باطلـة كقوله صلى الله عليه وسلم" صلوا كما رأيتموني أصلى"(4) وقوله "من أحدث في ديننا فهو رد "(5)

----

(1) آل عمران 144 (2) مسند بن حبان 846 (3) قال صاحب المستدرك صحيح 7657 (4)صحيح البخاري 605

(5) قال بن حنبل أصول الإسلام على ثلاثة أحاديث حديث عمر إنما الأعمال بالنيات وحديث عائشة من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد وحديث النعمان بن بشير الحلال بين والحرام بين (هكذا في جامع العلوم والحكم لابن رجب)

ومن ثم فأن القول باعتبار شهادة أن محمد رسول الله هى شهادة تبعية قول فيه نظر ، لأن التبعية لرسـول الله صلى الله عليه وسلم وعبادة الله سبحانه وتعالى على منهجه وطريقته هى مرحلة لاحقة تأتي بعد شهادة أن لاإلـه إلا الله وأن محمد رسول الله ، وجعل الله التبعية لرسوله علامة الحب والانقياد ، فقال جلا وعلا (قُلْ إِنْ كُنْـتُمْ تُحِبونَ اللَهَ فَاتبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ) (1)

والحب والانقياد لا يأتيان إلا بعد كلمة التوحيد " شهادة أن لاإله إلا الله وأن محمدا رسول الله " والدليل على ذلك يعتد بإسلام المرء بمجرد دخوله الإسلام بالشهادة حتى ولو لم يأتي بأي ركن من أركان الإسلام شـريطة ألا يكون عدم إتيانه هذا الركن راجعا إلى إنكار أو جحود ..ومما يروى فى هذا الصدد أن رجلا اشترط على عمر بن الخطاب أن يصرح له بالزنا مقابل إسلامه فقال له عمر أسلم أولا فنطق الرجل بالشهادة فعندئذ قال له عمر الأن أسلمت فإذا زنيت أقمنا عليك حد الزنا وإذا ارتددت أقمنا عليك حد الردة .

وإذا كان النطق بشهادة التوحيد هو المدخل الرئيسي للإسلام فأنها بصفتها الركن الأول من أركانه لا تقـال مرة واحدة وكفى ، إنما هي عبودية لازمة وفرض من الفرائض شأنها شأن باقي أركان الإسلام كـأداء الـصلاة والزكاة والصوم والحج ، بل أن هذه الأركان مرتبطة بمواعيد زمانية ومكانية محددة لا تؤدى إلا خلالها وبها ، أما شهادة أن لاإله إلا الله محمدا رسول الله فهي غير مرتبطة بموعد أو مكان ولا يشترط لقولهـا أي شـرط أخـر

كالوضوء مثلا أو الطهارة أو سعة المال أو استقبال القبلة ، ومن ثم فهي تقال فى أي وقت وفي أي مكان وعلى أية حال وإن كان قائلها جنبا وحتى حال المعصية ولو كانت كبيرة من الكبائر وإن انتفى عنه بعض الإيمان لقوله صلى الله عليه وسلم " لايزني المؤمن وهو مؤمن " (2) ، ولم يكن ذلك لنبي قبل من الأنبياء أي لم يكن الإيمان بهم علامة على التوحيد بل لم يكن إيمان المسلم بهم أو بأحدهم علامة على التوحيد بقدر ما هو إحدى درجات الإيمان وهو ما يحتاج إلى إيضاح على بندين : - الأول : إيمان القوم بنبيهم ، والثاني : إيمان المسلمين بأنبيائهم

أولا:- إيمان القوم بنبيهم :

كان الرسول مكلف من قبل ربه بتبليغ منهجه أو رسالته بكتاب أو بغير كتاب إلى قومه بالدعوة إلى وحدانية الله تعالى وتفريده بالعبودية وبالتالي خلع ما سواه من معبودات أخرى والإيمان بالبعث بعد الموت

قال تعالى إنا أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ أَنْ أَنذِرْ قَوْمَكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (3)

وقال " وَإِلَى عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تتقون (4)

وقال " وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ (5)

وقال وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ (6)

----

(1) آل عمران 31 (2)مسند الحميدي ومسند الحارث وزوائد الهيثمي (3) نوح 1 (4) الأعراف 65
(5) الأعراف من الآية 73 (6) الأعراف من الآية 85

وكان غاية مرام النبي أو الرسول من بعثته هو أن يقر المرء بوحدانية الله تعالى دون أن تكون الشهادة به – أي بالنبي - جزء من هذا التوحيد ، وأن يؤمن ويصدق بأنه مكلف من قبل ربه وأن يتبعه على المنهج الذي جاء به أو على شريعته وطاعته ، بما في ذلك الإيمان باليوم الأخر والبعث بعد الممات والجنة والنار ، دون اقتضاء الشهادة به كعلامة على التوحيد أو دون أن يكون ذلك ركن من أركان التوحيد . بمعنى أن الشرط الوحيد لإسلام المـرء مع نبيه هو القول والعمل بلا إله إلا الله وإتباع هذا النبي وعبودية الله تعالى على المنهج الذي جاء به ،

قال تعالى " قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِمَنْ آمَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَالِحًا مُرْسَلٌ مِنْ رَبِّهِ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ " (1)

وقال تعالى على لسان قوم فرعون لموسى وهارون عليهما (قَالُوا أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَما وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَـا وَتَكُـونَ لَكُمَا الْكِبْرِيَاءُ فِي الْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ "(2) وقال أيضا فَمَا آمَنَ لِمُوسَى إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِنْ قَوْمِه "(3) فتلمح من هذه الآيات أن الحديث عن الإيمان ينصرف إلى الإيمان بالله تعالى كعنوان على التوحيد فقط والآثار الضرورية والطبيعية المترتبة على ذلك كالإيمان بيوم القيامة والبعث والحساب .

ثانيا :- إيمان المسلمين بهم :

الإيمان بالرسل السابقين هو إحدى درجات الإيمان الكامل ولكنه ليس جزء من التوحيد وليس ركن من أركان الإسلام قال تعالى : (آمن الرسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُل آمَنَ بِاللهِ وَمَلائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُله لا نفَرقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ) (4) وفرق الله تعالى بين الإسلام والإيمان فى قوله تعالى (قالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَما يَدْخُل الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ "(5) والمعنى أسلموا بالشهادة وآتوا بباقي أركان الإسلام إلا أن الإيمان الكامل لما يدخل فى قلوبهم ، وبالنسبة للرسل الكرام فأن من المقرر على المسلم الإيمان بهم ، وهي درجة تلي الإسلام ، بمعنى أن عدم إيمان المسلم برسول من الرسل السابقين لا يخرجه عن الملة ولا يعد معه مرتدا مادام قائما على الإسلام عاملا بأركانه وأولها الشهادة ، بينما يخرج عن الملة ويعد مرتدا لو لم يؤمن برسول الله ،كما أن إيمان رسول الله والمسلمين معه بالرسل السابقين وكذا الكتب السماوية والملائكة هو إحدى مشتملات الإيمان الكامل الموجودة في دين الإسلام فقط ، ولم يكن ذلك في الأديان السابقة ، بمعنى أنه لم يكن من مشتملات الإيمان في الأديان السابقة إيمان الرسول أو المرسل إليهم بالرسل السابقين عنه أو اللاحقين عليه ، باستثناء إيمان هؤلاء الرسل برسول آخر الزمان محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم .

----

(1) الأعراف 75 (2) يونس 78 (3) يونس 83 (4) البقرة 285 (5) الحجرات 14

تاسعا وعاشرا :- ورفعنا لك ذكرك : وبعض الفضائل القرآنية

قال تعالى (وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ)(1)ورفع الله تعالى ذكر نبيه له عدة وجوه نذكر منها وجهين :-

الوجه الأول. هو المتعلق بالبشارات في الكتب والصحف السماوية السابقة وقد سبق الحديث عنه

الوجه الثاني : هو ذكره صلى الله عليه وسلم في كتابه الخالد القرآن الكريم وهو ما نذكره هنا

أولا : ذكره في القرآن الكريم

ورد ذكره صلى الله عليه وسلم في هذا الكتاب ذكرا ما ناله أحدا من العالمين حتى لا تكاد تقرأ سورة من سوره الطوال أم الصغار إلا وجدت له صلى الله عليه وسلم ذكرا بصور متعددة ومختلفة إلا فيما ندر مثل :

أولا : - نصف آي القرآن الكريم تقريبا يزيد على ذلك أو ينقص قليلا هي خطاب أو كلام موجه مـن الله سبحانه وتعالى إلى رسوله صلى الله عليه وسلم ، ويتخذ هذا الخطاب صور متعددة :-

1- فمثلا وردت " ألم تر " في حوالي واحد وثلاثين آيه . في السور { البقرة . آل عمران . النساء . إبراهيم . مريم . الحج . النور . الفرقان . الشعراء . لقمان . فاطر . الزمر . غافر . المجادلة . الحشر . الفجر . الفيل .} مثل قوله تعالى (أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ " (2)
وقوله " أَلَمْ تَرَ أن اللهَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ"(3)

2- ومثلها" أرأيت وأفرأيت " جاءتا في حوالي عشر آيات في سور { الفرقان . العلق . الماعون . مريم . الزمر . الجاثية } مثل قوله " أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا" (4)و (أَفَرَأَيْتَ إِنْ مَتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ) (5)

3- وورد " ألم تعلم " في نحو أربع آيات في السور { البقرة . المائدة . الحج } كقوله تعالى (أَلَمْ تَعْلَمْ أن اللهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ "(6)

4- وورد النداء" بيأيها الرسول " فى آيتان في سورة المائدة هما قوله تعالى : -
(ياأيها الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ " (7) ، "قوله تعالى (يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ لَا يَحْزُنْكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ مِنَ الَّذِينَ قَالُوا آمَنَّا بِأَفْوَاهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِنْ قُلُوبُهُمْ " (8)

5- و"انظر"جاءت في حوالي سبعة عشر آية في سور { النساء . المائدة . الأنعام . الأعراف . الإسراء . يونس . الفرقان .النمل . القصص . الروم . الصافات . الزخرف . } مثل قوله تعالى " مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ انْظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ الْآيَاتِ ثُمَّ انْظُرْ أَنَّى يُؤْفَكُونَ " (9)

----

(1) الانشراح 4 (2) إبراهيم 24 (3) إبراهيم 19 (4) الفرقان 43
(5) الشعراء:205 (6) البقرة 107 (7) المائدة 67 (8) المائدة من الآية : 41 (9) المائدة 75

6- وور النداء " بيأيها النبي " في نحو ثلاثة عشر آية في السور { الأنفال . التوبة . الأحزاب . الممتحنة . الطلاق . التحريم . } قوله (يا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضَاةَ أَزْوَاجِكَ وَاللهُ غَفُورٌ " (1)
وقوله تعالى (يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِداً وَمُبَشِّراً وَنَذِيراً) (2)

7- ووردت " يسألونك " أربعة عشر مرة في السور { البقرة . المائدة . الأعراف . الأنفال . الإسراء . الكهف . طه . النازعات . " مثل يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنفَالِ قُلِ الْأَنفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ فَاتَّقُوا اللهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا اللهَ وَرَسُولَهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ " (3)، وقوله تعالى "وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي "(4)

8-و"يستفتونك " فى آيتين في سورة{النساء}هما :-"يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلَالَةِ "(5) وقوله تعالى (وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي النِّسَاءِ قُلِ اللهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ (6)

9- و"إذا سألك ويسألك ويستنبئونك وسلهم وسل وأسألهم " كل واحدة في آية مستقلة

10- والقول " يوحى و يوحي " لرسول الله صلى الله عليه وسلم جاءت فى نحو أربعة عشر مرة في السور الآتية { الأنعام . الأعراف . يونس . الكهف . الأنبياء . سبأ . الشورى . الأحـزاب . محمـد . ص . فـصلت . الأحقاف . النجم } مثل قوله تعالى "قُلْ إِنَمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَي أَنمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ)(7)
وقوله (قُلْ إِنْ ضَلَلْتُ فَإِنمَا أَضِل عَلَى نَفْسِي وَإِن اهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِي إِلَي رَبي) (8)
11- و " أوحينا " له صلى الله عليه وسلم جاءت إحدى عشر مرة في السور
{ النساء ، يونس ، يوسف ، الرعد ، النحل ، الإسراء ، فاطر ، الشورى }
مثل قوله تعالى ثُم أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَن اتبِعْ مِلةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِين (9)
12 -و" أوحى "وردت مرتين في { الإسراء . النجم } وهما قوله تعالى (فَأَوْحَى إِلَى عَبْدِهِ مَا أَوْحَى)(10)
وقوله ذَلِكَ مِما أَوْحَى إِلَيْكَ رَبكَ مِنَ الْحِكْمَةِ " (11)
13- و " نوحيه " ورد مرتين أيضا في سورتي آل عمران ويوسف وهما (ذَلِكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَامَهُمْ أَيهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ "(12) و"ذَلِكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ " (13)
14- ووردت كلمة " قل ، فقل " فيما يزيد على ثلاثمائة مرة وتتضمن أمرا من الله لرسوله أو نبيا مثل قوله تعالى " قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَق وَلَا تَتبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلوا مِنْ قَبْلُ (14)
وقوله " وَإِنْ كَذبُوكَ فَقُلْ لِي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنْتُمْ بَرِيئُونَ مِما أَعْمَلُ وَأَنَا بَرِيءٌ مِما تَعْمَلُونَ(15)

----

(1) التحريم 1 (2) الأحزاب 45 (3) الأنفال 1 (4) الإسراء 85 (5) النساء 176 (6) النساء 127
(7) الكهف من الآية 110 (8) سبأ من الآية 50 (9) النحل 123 (10) النجم 10 (11) الإسراء 39
(12) آل عمران 44 (13) يوسف 102 (14) المائدة 77 (15) يونس 41

15- والسؤال " هل أتاك " في آيات ست في السور { طه . ص ، الذاريات ، النازعات ، البروج ، الغاشية } مثل قوله تعالى (هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ) (1)
16- وكلمة "جاءك "مابين إذا جاءك ومن بعد ما جاءك ستة عشر مرة في السور البقرة . آل عمران . النساء . المائدة . الأنعام . التوبة . يونس . هود . الرعد .عبس} مثل قوله تعالى "إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنكَ لَرَسُولُ اللهِ " (2) وقوله تعالى "يا أَيهَا الناسُ قَدْ جَاءَكُمُ الرسُولُ بِالْحَق مِنْ رَبكُمْ " (3)

17 - وجاءت كلمة " إن ربك " التي تعنيه صلى الله عليه وسلم في نحو سبع وثلاثين مرة فى السور { الأنعام . الأعراف . يونس . الرعد . الحجر . النحل . الإسراء . الشعراء النمل . السجدة . النجم . القلم . المزمل . –الفجر } مثل قوله تعالى "نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ إن رَبكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ " (4)

18- و " نرينك " وردت أربع مرات في السور{ يونس ، الرعد ، غافر ، الزخرف }
مثل قوله تعالى (وَإما نُرِيَنكَ بَعْضَ الذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَينكَ فَإِلَيْنا مَرْجِعُهُمْ ثُم اللهُ شَهِيدٌ عَلَى مَا يَفْعَلُونَ"(5)

19-و " أنزلنا إليك " وردت سبع مرات في السور { البقرة ، النساء ، المائدة ، يونس ، النحل ، العنكبوت ، الزمر } مثل (إنا أَنزَلْنا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَق لِتَحْكُمَ بَيْنَ الناسِ بِمَا أَرَاكَ اللهُ " (6)

20- و" أنزل الله عليك " في آيه واحد في سورة النساء هي قوله تعالى(وَأَنزَلَ اللهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا"(7)

21- و "نزلنا عليك "خمس مرات فى { الأنعام . النحل . العنكبوت . الإنسان } "وَلَوْ نَزلْنا عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ الذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلا سِحْرٌ مُبِينٌ "(8)

22 - و" أنزلنا عليك "وردت في أربع سور { النحل . طه . العنكبوت . الزمر } مثل "إنا أَنزَلْنا عَلَيْكَ الْكِتَابَ لِلناسِ بِالْحَق فَمَنِ اهْتَدَى فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَل فَإِنمَا يَضِل عَلَيْهَا وَمَا أَنتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ(9)

23 - و" أرسلناك " ثلاثة عشر مرة " في{ البقرة . النساء . الرعد . الإسراء الأنبياء . الفرقان . الأحزاب . سبأ . فاطر . الشورى . الفتح .} مثل قوله تعالى " وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلا كَافةً لِلناسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا " (10)

----

(1) الغاشية 1 (2) المنافقون 1 (3) النساء 170 (4) الأنعام 83 (5) غافر 77
(6) النساء 105 (7) النساء من الآية 113 (8) الأنعام 7 (9) الزمر 41 (10) سبأ 28

24 - ووردت كلمة " الرسول أو رسول أو رسوله أو رسولكم أو رسولنا أو غير ذلك مما يقصد به رسول الله حوالي مائة وخمسة وخمسون مرة ليس من بينها يا أيها الرسول المذكورة سابقا وذلك في السور الآتية

{ البقرة . آل عمران . النساء . المائدة . الأعراف . الأنفال . التوبة . الإسراء . الحج . النور . الفرقان . القصص . العنكبوت الأحزاب . محمد . الفتح . الحجرات . المجادلة . الحشر . الممتحنة . الصف . الجمعة . التغابن . الحاقة . التكوير } مثل قوله تعالى (أَمْ تُرِيدُونَ أَنْ تَسْأَلُوا رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَى مِنْ قَبْلُ "(1) وقوله تعالى قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ " (2) وقوله تعالى " بَرَاءَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ " (3)

25- وجاء ذكر محمد أربع مرات في سور { آل عمران . الأحزاب . محمد . الفتح مثل قوله تعالى "مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ وَلَكِنْ رَسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا"(4)

26- وردت كلمة واذكر خمسة عشر مرة في السور (الأعراف ، الكهف ، مريم ، ص ، الأحقاف ، المزمل ، والإنسان) كقوله تعالى "(وَاذْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعاً وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ)(5)

27- جاءت كلمة "فسبح ست مرات في السور (الحجر ، طه ، الواقعة ، الحاقة ، النصر مثل قوله (فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ) (6) وقوله (فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّاباً) (7)

28- جاءت "واصبر " ست مرات في السور (يونس ، هود ، النحل ، الكهف ، الطور ، المزمل) ومثلها " فاصبر " وردت إحدى عشر مرة في السور (هود ، طه ، الروم ، غافر ، الأحقاف ، ق ، المعارج ، المدثر ، الإنسان) مثل قوله تعالى (وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ)(8) وقوله (فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ) (9)

29- ووردت " وما أدراك " ثلاثة عشر مرة في عشر سور هي { الحاقة ، المدثر ، المرسلات ، الأنفطار ، المطففين ، الطارق ، البلد ، القدر ، القارعة ، الهمزة } مثل قوله تعالى "وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحُطَمَةُ) (10)

30- ووردت " وما يدريك " ثلاث مرات في السور { الأحزاب ، الشورى ، عبس } مثل قوله تعالى : (وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّى) (11)

وصيغ كثيرة من هذا القبيل مثل : " إذ قال ربك "و" نقصه عليك "و" نتلوه عليك و "ذكر " و " سبح " و " لا تقل " و " لا تعجل " و " إنك " و " لعلك "

----

(1) البقرة 108 (2) آل عمران 32 (3) التوبة من الآية (4) الأحزاب 40 (5) الأعراف 205
(6) الحجر 98 (7) النصر 3 (8) النحل:127 (9) الروم:60 (10) الهمزة 5 (11) عبس:3

ثانيا : أمة وحده

ليس ذلك فحسب بل تلمح في بعض الآيات أن الله تعالى يخاطب محمدا كما لو كان هو الأمة الإسلامية بأسرها وكما لو كان هو أمة وحده ، والمثال عل ذلك نجده في سورة الإسراء :حيث يخاطبه سبحانه وتعالى في هذه سورة بعد أن يثبت معجزة الإسراء والحديث عن بني إسرائيل وما كان منهم وتسليط بعض الأمم عليهم ومصير من أراد العاجلة ومن أراد الآخرة فيقول له (لَا تَجْعَلْ مَعَ اللهِ إِلَهاً آخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُوماً مَخْذُولاً) (1)في الوقت الذي يعلـم فيه سبحانه وتعالى أنه صلى الله عليه وسلم لن يتخذ من دونه إلها آخر لأنه لم يسبق له أن اتخذ إلها قبل البعثـة ، وقد ثبت الله قلبه على اليقين الذي يحول بينه وبين عبودية غيره تعالى بعد البعثة ، ولكنه ينهاه ويتوعده عن مغبـة الشرك بوصفه الأمة الإسلامية كلها وبوصفه المكلفين جميعا ، ثم يؤكد سبحانه وتعالى هذا المعنى بقوله له عقـب هذه الآية بقوله (وَقَضَى رَبكَ أَلا تَعْبُدُوا إِلا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً إِما يَبْلُغَن عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلاهُمَا فَـلا تَقُلْ لَهُمَا أُف وَلا تَنْهَرْهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلاً كَرِيماً وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذل مِنَ الرحْمَةِ وَقُلْ رَب ارْحَمْهُمَا كَمَـا رَبَّيَانِي صَغِيراً)(2) ، على الرغم من أنه لا أب له صلى الله عليه وسلم ولا أم ، ثم تتابع الآيات ليختلط الخطـاب الإلهي بمحمد صلى اله عليه وسلم كأمة وحده بالمسلمين جميعا ، فيصر هو وهم سواء في الأمر أو النهي وسواء في التكليف جميعا فقال تعالى على سبيل الجمع " (وَلا تَقْتُلُوا أَوْلادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِياكُمْ إِن قَـتْلَهُمْ كَانَ خِطْئاً كَبِيراً) (3) ، إلى قوله سبحانه " (وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً) (4) ثم قال تعالى على سبيل الفردية "وَلا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِن السمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُل أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْؤُولاً) (5) إلى قوله (وَلا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحاً إِنكَ لَنْ تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَنْ تَبْلُغَ الْجِبَـالَ طُـولاً) (6)ليخبره بعد ذلك أن جماع هذه الأوامر سواء كانت فردية أو جماعية هي مما أوحى إليه من الحكمـة فقـال سبحانه : (ذَلِكَ مِما أَوْحَى إِلَيْكَ رَبكَ مِنَ الْحِكْمَةِ وَلا تَجْعَلْ مَعَ اللهِ إِلَهاً آخَرَ فَتُلْقَى فِي جَهَنمَ مَلُوماً مَدْحُوراً) (7) ويتأكد ذلك ثانية وفي ذات السورة عندما يأمره الله تعالى بأداء الصلاة وقراءة القرآن . لأن الصلاة لم تكن له فقط صلى الله عليه وسلم ولكنها كانت فرضا على المسلمين جميعا ، خاصة وأن الصلاة لدلوك الشمس إلى غسق الليل هي الصلوات المكتوبة (8) فقال سبحانه (أَقِمِ الصلاةَ لِدُلُوكِ الشمْسِ إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِن قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُوداً) (9) وفي موضع آخر قال تعالى (يَا أَيهَا النبِي إِذَا طَلَّقْتُمُ النسَاءَ فَطَلِّقُوهُن لِعِدَّتِهِن وَأَحْـصُوا الْعِدةَ وَاتقُوا اللهَ رَبكُمْ.. الآية)(10)فبدأ الخطاب إليه وحده ثم عمم الأمر مباشرة كما لو النداء لجميع المـسلمين

----

(1) الإسراء 22 (2) الإسراء 23 (3) الإسراء 31 (4) الإسراء 35 (5) الإسراء 36
(6) الإسراء 37 (7) الإسراء 39 (8) تفسير القرطبي (9) الإسراء 78، (10) الطلاق:1

ثالثا :- هو محور أكثر الآيات والرابط بينها

وهكذا كان القرآن الكريم في معظم آياته ، مع ملاحظة أن الأمر لا يقتصر على ذكر هذا العدد من المرات في بعض الآيات وإنما استتبع ذلك ربط هذه الآيات بالآيات السابقة لها واللاحقة عليها لتجد رسول الله صلى الله عليه وسلم هو المحور والرابط بين آيات القرآن جميعا ، فمثلا تبدأ سورة مريم بقوله تعالى :" كهيعص . ذكر رحمة ربك عبده زكريا (1) فالمخاطب هنا ببداية السورة هو رسول الله صلى الله عليه وسلم فيقص الله سبحانه وتعالى عليه نبأ عبده زكريا عليه السلام ثم مريم عليها السلام (وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ)(2) ثم قبسا من ذكر بعض الأنبياء حتى يصل سبحانه وتعالى إلى قوله (أُولَئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ مِنْ ذُرِّيَّةِ آدَمَ)(3)وإذ لا يزال الحوار موجها إليه صلى الله عليه وسلم يخبره الله تعالى عن نبأ الخلف الذين جاءوا من بعدهم فأضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات ونبأ من تاب منهم ومصير كل منهما ، ثم يقول تعالى (وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَاخَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَلِكَ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيّاً) (4) وإحكاما للترابط ووصلا بما سبق يقول الله تعالى (قُلْ مَنْ كَانَ فِي الضَّلالَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمَنُ مَدّاً)(5) إلى أن يقول (أَلَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزّاً) (6) ثم يختتم الله تعالى السورة بقوله (فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَتُنْذِرَ بِهِ قَوْماً لُدّاً) (7)

وكذا سورة يوسف تبدأ مقدمتها بقوله تعالى (نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ)(8) فيسرد عليه قصة يوسف عليه السلام إلى أن تصل السورة إلى ختامها فيقول تعالى " ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ(9) وأيضا سورتي يونس وهود وسور أخرى كثيرة ، ليس ذلك فحسب بل هناك سور كاملة الحديث فيها لرسول الله فقط مثل سور{ المدثر . المزمل . الضحى . الانشراح . القلم .} وتجد سور كاملة تبدأ وتكاد تنتهي بخطاب مباشر للمكلفين عموما ثم تفاجأ بالآية الأخيرة منها بخطاب لرسول الله . مثل سورتي { الرحمن والواقعة } ونجد ذات الترابط إذا ربطنا السور القرآنية بعضها ببعض خاصة وأن القرآن الكريم كله قائم على الوصل .

ومحال قطعا القول على الله تعالى بأنه ليس في الإمكان أفضل مما كان إذ ضرب الله مثلا لبعض الآيات تبدأ بالمباشرة . إي بالخطاب المباشر إلى المكلفين أو المرسل إليهم كقوله تعالى " يأيها الناس ، يأيها الذين آمنوا ، يأيها الإنسان ، يابني آدم " ، وقد تأخذ المباشرة صورة أخرى مثل قوله تعالى (بَرَاءَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ) (10) وقوله (سُورَةٌ أَنْزَلْنَاهَا وَفَرَضْنَاهَا وَأَنْزَلْنَا فِيهَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ)(11) ومثل سور { المؤمنون . القيامة . المرسلات . الإنسان . المطففين } وهناك سور لم يرد فيها ذكر لرسول الله صلى الله عليه وسلم مثل{ المرسلات ، الشمس . الليل . العاديات . القارعة }

----

(1) مريم 1 (2) مريم من الآية 16 (3) مريم من الآية 58 (4) مريم 64 (5) مريم من الآية 75
(6) مريم 83 (7) مريم 97 (8) يوسف 2 (9) يوسف 10 (10) التوبة 1 (11) النور 1

رابعا : بعض الفضائل القرآنية

ولم يقتصر الأمر على ذلك إنما جعل الله بعض آيات القرآن وأكثرها عنه وله عليه الصلاة والسلام

1- كتأديب الناس من حوله وفي حضرته وتذيبا لأخلاقهم معه

ومن ذلك قوله تعالى (لا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرسُول بَيْنكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضا)(1) وقوله تعالى (يَا أَيهَا الذِينَ آمَنُوا لا تُقَدمُوا بَيْنَ يَدَي اللهِ وَرَسُولِهِ وَاتقُوا اللهَ إِن اللهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ يا أيها الذِينَ آمَنُوا لا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النبِي وَلا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْل كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَنْ تَحْبطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنْتمْ لا تَشْعُرُونَ) (2)

2- وجعل الله شقاقه سبيلا إلى التهلكة فقال (وَمَنْ يُشَاقِقِ الرسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبينَ لَهُ الْهُدَى وَيَتبِعْ غَيْرَ سَبِيل الْمُؤْمِنِينَ نُوَلهِ مَا تَوَلى وَنُصْلِهِ جَهَنمَ وَسَاءَتْ مَصِيراً) (3)

3- وجعل طاعته سبيلا إلى الجنة فقال (وَمَنْ يُطِعِ اللهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَناتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ)(4)

4- وجعل عصيانه سبيلا إلى النار فقال (ومن يَعْصِ اللهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَد حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَاراً خَالِداً فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُهِينٌ) (5)

5- وجعله الله منة على المؤمنين ونعمة في قوله (لَقَدْ مَن اللهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكيهِمْ وَيُعَلمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلالٍ مُبِينٍ)(6)

6- ونفى الإيمان عمن لا يحتكم إليه فقال تعالى (فَلا وَرَبكَ لا يُؤْمِنُونَ حَتى يُحَكمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُم لا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجاً مِما قَضَيْتَ وَيُسَلمُوا تَسْلِيماً) (7)

7 - وآيات كان الله يخفف فيها عبء الدعوة عنه صلى الله عليه وسلم منها

(لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَكِن اللهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ)(8)

وقوله (وَلا يَحْزُنْكَ قَوْلُهُمْ إِن الْعِزةَ لِلهِ جَمِيعاً هُوَ السمِيعُ الْعَلِيمُ) (9)

و (إِنكَ لا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِن اللهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ) (10)

8- وآيات العتاب (عَبَسَ وَتَوَلى أَنْ جَاءَهُ الْأَعْمَى) (11) وقوله (مَا كَانَ لِنَبِي أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتى يُثْخِنَ فِي الْأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَضَ الدنْيَا وَاللهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ وَاللهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ) (12)

9-وجعله الله سراجا منيرا "إنا أرسلناك شاهدا ومبشرا ونذيرا وداعيا إلى الله بإذنه وسراجا منيرا(13)

10-وطلب من المؤمنين تعزيره وتوقيره (لِتُؤْمِنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ وَتُعَزرُوهُ وَتُوَقرُوهُ (14)

----

(1) النور من الآية 63 (2) الحجرات 2 (3) النساء 115 (4) النساء من الآية 13
(5) النساء 14 (6) آل عمران 164 (7) النساء 65 (8) البقرة من الآية 272 (9) يونس 65
(10) القصص 56 (11) عبس 1وما بعدها (12) الأنفال 67 (13) الأحزاب 46 (14) الفتح 9

11-وجعل بعثته من موجبات ذكره وشكره جلا وعلا كما وصف كلامة بالحكمة فقال (كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولاً مِنْكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِيكُمْ وَيُعَلِمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِمُكُمْ مَا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ) (1)

12-وجعله بالمؤمنين رؤوف رحيم فقال (لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُوفٌ رَحِيمٌ) (2) وقال (فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظاًّ غَلِيظَ الْقَلْبِ لانفَضوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكلْ عَلَى اللهِ إِن اللهَ يُحِب الْمُتَوَكِلِينَ) (3)

13-ووضع به عن أهل الكتاب الإصر والأغلال (الذِينَ يَتبِعُونَ الرسُولَ النبِي الأُمي الذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوباً عِنْدَهُمْ فِي التوْرَاةِ والإنجيل يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِل لَهُمُ الطيبَاتِ وَيُحَرمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالأَغْلالَ التِي كَانَتْ عَلَيْهِم) (4)

14 - ووصفه بالخلق العظيم فقال (وَإِنكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ) (5)

15 -ذكر وزكى معظم أعضائه وجوارحه مثل القلب(مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى)(6) الصدر (أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ)(7) العين(مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى) (8) اللسان(وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَى)(9) والعقل "ما أنت بنعمة ربك بمجنون"(10) الظهر (الذِي أَنقَضَ ظَهْرَكَ) (11) الأذن (أُذُنُ خَيْرٍ لَكُمْ يُؤْمِنُ بِاللهِ)(12)

16- ووصفه بالكرم .فقال (إِنهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ) (13)

17- امتن الله عليه ببعض نعمه : فقال (أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ وَوَضَعْنَا عَنْكَ وِزْرَكَ الذِي أَنقَضَ ظَهْرَكَ)(14) (إِنا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحاً مُبِيناً لِيَغْفِرَ لَكَ اللهُ مَا تَقَدمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخرَ وَيُتِم نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَاطاً مُسْتَقِيماً)(14)

18-جعل الاستجابة له حياة فقال (يَا أَيهَا الذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلهِ وَلِلرسُولِ إِذَا دَعَاكُم (15)

19- أوجب لمن يريد الحديث معه انفرادا تقديم صدقة فقال(يَا أَيهَا الذِينَ آمَنُوا إِذَا نَاجَيْتُمُ الرسُولَ فَقَدمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَةً ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ وَأَطْهَرُ فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا فَإِن اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ) (16)

20-ووعد من يؤمن به بكفلين من رحمته ونورا يمشي به فقال سبحانه

(يَا أَيهَا الذِينَ آمَنُوا اتقُوا اللهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيَجْعَلْ لَكُمْ نُوراً تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ) (17)

21- وأخبره جلا شأنه أنه على الحق المبين والصراط المستقيم فقال(فَتَوَكلْ عَلَى اللهِ إِنكَ عَلَى الْحَق الْمُبِينِ)(18) (فَاسْتَمْسِكْ بِالذِي أُوحِيَ إِلَيْكَ إِنكَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ) (19)

----

(1) البقرة 151 (2) التوبة 128 (3) آل عمران (4) الأعراف من الآية 157 (5) القلم 4 (6) النجم 11
(7) الشرح 1 (8) النجم 17 (9) النجم 3 (10) ن 3 (11) الشرح 3 (12) التوبة من الآية 16
(13) الحاقة 40 (14) الشرح 1 وما بعدها (15) الأنفال 24 (16) الادلة 12 (17) الحديد 28
(18) النمل 79 (19) الزخرف 43

22- سورة الضحى :

قال تعالى (وَالضحَى وَاللَيْلِ إِذَا سَجَى مَا وَدعَكَ رَبكَ وَمَا قَلَى وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لكَ مِنَ الْأُولَى وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبكَ فَتَرْضَى أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآَوَى وَوَجَدَكَ ضَالًا فَهَدَى وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَى فَأَما الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ وَأَما السائِلَ فَلَا تَنْهَرْ وَأَما بِنِعْمَةِ رَبكَ فَحَدثْ)(1)

من الفضائل القرآنية التي من الله تعالى بها على رسوله صلى الله عليه وسلم وعنها قال صاحب كتاب"الشفا " " وهو من كتب السيرة القيمة : اختلف في سبب نزول هذه السورة والأشهر أنها نزلت عند فتور الوحي، فقال القاضي الإمام أبو الفضل : تضمنت هذه السورة من كرامة الله تعلى لنبيه وتنويهه به وتعظيمه إياه ستة وجوه : الأول : القسم له عما أخبره به من حاله بقوله تعالى " والضحى والليل إذا سجى " أي ورب الضحى وهذا من أعظم درجات المبرة . الثاني : بيان مكانته عنده وحظوته لديه بقوله تعالى "ما ودعك ربك وما قلى " أي ما تركك وما أبغضك وقيل ما أهملك بعد أن اصطفاك. الثالث : قوله تعالى " وللآخرة خير لك من الأولى" قال بن إسحاق " أي مالك في مرجعك عند الله أعظم مما أعطاك من كرامة الدنيا . وقال سهل : أي ما ما ذخرت لك من الشفاعة و المقام المحمود خير لك مما أعطيتك في الدنيا الرابع : قوله تعالى "ولسوف يعطيك ربك فترضى وهذه آيه جامعة لوجوه الكرامة ، وأنواع السعادة ، وشتات الإنعام في الدارين والزيادة .

قال ابن إسحاق : يرضيه بالفلج في الدنيا والثواب في الآخرة وروي عن بعض آل النبي صلى الله عليه و سلم أنه قال ليس آية في القرآن أرجى منها ، ولا يرضى رسول صلى الله عليه و سلم أن يدخل أحد من أمته النار ، الخامس : ما عدده تعالى عليه من نعمه ، وقرره من آلائه قبله في بقية السورة ،من هدايته إلى ما هداه له أو هداية الناس به على اختلاف التفاسير ولا مال له فأغناه بما آتاه أو بما جعله في قلبه من القناعة والغنى ، ويتيماً فحدب عليه عمه و آواه إليه وقيل : آواه إلى الله . وقيل : يتيماً : لا مثال لك ، فآواك إليه ،

وقيل المعنى : ألم يجدك فهدى بك ضالاً ، وأغنى بك عائلاً ، وآوى بك يتيماً : ذكره بهذه المنن ، وأنه على المعلوم من التفسير لم يهمله في حال صغره وعيلته ويتمه وقبل معرفته به ، ولا ودعه ولا قلاه ، فكيف بعد

اختصاصه واصطفائه السادس : أمره بإظهار نعمته عليه و شكر ما شرفه بنشره و اشادة ذكره بقوله تعالى " وأما بنعمة ربك فحدث " فإن من شكر النعمة الحديث با وهذا خاص له عام لأمته . وحسبه صلى الله عليه وسلم أنا السورة التي نزلت عقب حزنه وضيقه عندما انقطع الوحي عنه حتى قيل أنه فكر في إلقاء نفسه من شاهق (2)

----

(1) الضحى 1 ومابعدها

(2) القرطبي تفسير ووضعنا عنك وزرك

23- السبع المثاني والقرآن العظيم

قال تعالى (بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ الْحَمْدُ للَّهِ رَب الْعَالَمِينَ الرحْمـنِ الرحِيمِ مَـالِكِ يَوْمِ الدينِ إِياكَ نَعْبُدُ وإِياكَ نَسْتَعِينُ اهدِنَـــــا الصرَاطَ المُستَقِيمَ صِرَاطَ الذِينَ أَنعَمتَ عَلَيهِمْ غَيرِ المَغضُوبِ عَلَـيهِمْ وَلاَ الـضالينَ) تحت باب ولقد آتيناك سبعا من المثاني والقرآن العظيم قال البخاري عن حفص بن عاصم عن أبي سعيد بن المعلى قال ثم مر بي النبي صلى الله عليه وسلم وأنا أصلي فدعاني فلم آته حتى صليت ثم أتيت فقال " ما منعك أن تأتي " فقلت كنت أصلي فقال " ألم يقل الله يا أيها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم ثم قـال ألا أعلمك أعظم سورة في القرآن قبل أن أخرج من المسجد فذهب النبي صلى الله عليه وسلم ليخرج من المـسجد فذكرته فقال الحمد لله رب العالمين هي السبع المثاني والقرآن العظيم الذي أوتيته (1)

وعن سعيد بن جبير أنه سأل ابن عباس عن السبع المثاني فقال أم القرآن قال سعيد قرأها وقرأ فيها بـسم الله الرحمن الرحيم كما قرأها ابن عباس فقلت لابن عباس فما المثاني قال هي أم القرآن استثناها الله لأمة محمد فرفعها في أم الكتاب فدخرها لهم حتى أخرجها ولم يعطها أحدا قبله (2)

24- خواتيم سورة البقرة

قال تعالى (للهِ ما فِي السمَاواتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَإِن تُبْدُواْ مَا فِي أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ اللّهُ فَيَغْفِـرُ لِمَن يَشَاء وَيُعَذبُ مَن يَشَاء وَاللّهُ عَلَى كُل شَيْءٍ قَدِيرٌ آمَنَ الرسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن ربهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُل آمَنَ بِاللّهِ وَمَلآئِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لاَ نُفَرقُ بَيْنَ أَحَدٍ من رسُلِهِ وَقَالُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ لاَ يُكَلفُ اللّهُ نَفْسًا إِلا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ رَبنَا لاَ تُؤَاخِذْنَا إِن نسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبنَا وَلاَ تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الذِينَ مِن قَبْلِنَا رَبنَا وَلاَ تُحَملْنَا مَا لاَ طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَـآ أَنـتَ مَوْلاَنَـا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ)(3)

أخرج مسلم في صحيحه من حديث أبي مالك الأشجعي عن ربعي بن حراش عن حذيفة رضـي الله عنـه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال " أعطيـت خـواتيم سـورة البقـرة مـن كـ تحـت العـرش " (4)

----

(1) صحيح البخاري 4426ورقم الباب 149 (2)الأحاديث المختارة للمقدسي 239

(3) البقرة من 284: 286 (4) المستدرك 2067والبيهقي في الكبرى 8203

خامسا :- السيرة النبوية .

ليس ذلك كله فحسب بل إنه سبحانه وتعالى قص أحداث السيرة النبوية كلها تقريبا بأسلوبه المعجز جلا وعلا ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم هو الشخصية المحورية فيها ،

- **فهذه هي دعوة إبراهيم وبشارة عيسى عليهما السلام** : (رَبَنا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِيهِمْ إِنكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ)(1) و (وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرائيلَ إِني رَسُولُ اللهِ إِلَيْكُمْ مُصَدقاً لِمَا بَيْنَ يَدَي مِنَ التَوْرَاةِ وَمُبَشراً بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ فَلَما جَاءَهُمْ بِالْبَيِنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ) (2)

- **وهذا حادث الفيل وميلاده صلى الله عليه وسلم** (أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْراً أَبَابِيلَ تَرْمِيهِمْ بِحِجَارَةٍ مِنْ سِجيلٍ) (3)

- ثم **بدء الدعوة بالوحي**(وَالضحَى وَاللَيْلِ إِذَا سَجَى مَا وَدعَكَ رَبكَ وَمَا قَلَى وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَكَ مِنَ الْأُولَى وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبكَ فَتَرْضَى) (4) - **وأول ما أنزل عليه**(اقْرَأْ بِاسْمِ رَبكَ الذِي خَلَقَ خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ اقْرَأْ وَرَبكَ الْأَكْرَمُ الذِي عَلَمَ بالقلم(6) - **والأمر بإنذار الأقربين** (وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ) (5)

- ثم **الناس كافة** (وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلا كَافةً لِلناسِ بَشِيراً وَنَذِيراً وَلَكِن أَكْثَرَ الناسِ لا يَعْلَمُونَ) (6)

- **وبيعة العقبة وعهد الشجرة** (لَقَدْ رَضِيَ اللهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ السكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحاً قَرِيباً) (7)

- **وهذه بعض مقالات المشركين وموافقهم معه صلى الله عليه وسلم** (وَقَالُوا لَوْلا نُزلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ) (8) و (وَضَرَبَ لَنَا مَثَلاً وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ قُلْ يُحْيِيهَا الذِي أَنشَأَهَا أَولَ مَرةٍ وَهُوَ بِكُل خَلْقٍ عَلِيمٌ) (9) و (وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا قَالُوا قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا إِنْ هَذَا إِلا أَسَاطِيرُ الْأَولِينَ)(10) و (وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعاً أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجرَ الْأَنهَارَ خِلالَهَا تَفْجِيراً أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِنْ زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَى فِي السمَاءِ وَلَنْ نُؤْمِنَ لِرُقِيكَ حَتى تُنَزلَ عَلَيْنَا كِتَاباً نَقْرَأُهُ قُلْ سُبْحَانَ رَبي هَلْ كُنتُ إِلا بَشَراً رَسُولاً) (11) و (وَقَالُوا يَا أَيهَا الذِي نُزلَ عَلَيْهِ الذكْرُ إِنكَ لَمَجْنُونٌ) (12)

- **والإسراء والمعراج** (سُبْحَانَ الذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنهُ هُوَ السمِيعُ الْبَصِيرُ) (13)و(وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى عِنْدَهَا جَنةُ الْمَأْوَى(14)

----

(1) البقرة 129 (2) الصف 6 (3) الفيل 1 وما بعدها (4) الضحى 1 وما بعدها (5) العلق 1 وما بعدها
(6) الشعراء 214 (7) الفتح 18 (8) الأنفال 31 (9) يس 79 (10) الزخرف 31 (11) الإسراء 90 وما بعدها (12) الحجر 6 (13) الإسراء 1 (14) النجم 13 وما بعدها

- **واستماع الجن له** (قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآناً عَجَباً)(1)

- **وتحويل القبلة (**قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ) (2)

- **والهجرة "** (إِلَّا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ) (3)

- **والإذن بالقتال** " (أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ) (4)

- **والغزوات والحروب** (وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ) (5) (لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئاً وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُمْ مُدْبِرِينَ) (6) (إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنْكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا وَلَقَدْ عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ) (7)

- **ومسجد ضرار** " (وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِداً ضِرَاراً وَكُفْراً وَتَفْرِيقاً بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَاداً لِمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِنْ قَبْلُ) (8)

- **وحادثة الإفك** (لَوْلا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنْفُسِهِمْ خَيْراً وَقَالُوا هَذَا إِفْكٌ مُبِينٌ)(9)

- **واليهود والنصارى** (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ) (10) و (وَلَنْ تَرْضَى عَنْكَ الْيَهُودُ وَلا النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَى وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلا نَصِيرٍ)(11و (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِنْ دُونِكُمْ لا يَأْلُونَكُمْ خَبَالاً وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ) (12) - **والأعراب** (الْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْراً وَنِفَاقاً وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ) (13**)** - **والمنافقين** (أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَداً أَبَداً وَإِنْ قُوتِلْتُمْ لَنَنْصُرَنَّكُمْ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ)(14) - **والصحابة** (وَالَّذِينَ تَبَوَّأُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ) (15)

----

(1) الجن 1 (1) البقرة 144 (3) التوبة 40 (4) الحج 39 (5) آل عمران 123 (6) التوبة 25

(7) آل عمران 155 (8) التوبة من الآية 107 (9) النور 12 (10) المائدة 51 (11) البقرة 120

(12) آل عمران 118 (13) التوبة 97 (14) الحشر 11 (15) الحشر 9

- **والفتح** المبين (إنا فَتَحْنا لَكَ فَتْحاً مُبِيناً لِيَغْفِرَ لَكَ اللهُ مَا تَقَدمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخرَ وَيُتِم نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَاطاً مُسْتَقِيماً) (1)

- **والحج الأكبر** (الْيَوْمَ يَئِسَ الذِينَ كَفَرُوا مِنْ دِينِكُمْ فَلا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلامَ دِيناً)(2)

- **وموته** (وَمَا مُحَمدٌ إِلا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقِبَيْهِ فَلَنْ يَضُر اللهَ شَيْئاً وَسَيَجْزِي اللهُ الشاكِرِينَ) (3) - وغير ذلك كثير وكثير

سادسا : قرن اسمه باسمه جلا وعلا :

تلمح ذلك من معظم الآيات التي سبق ذكرها ، حيث اقترن اسمه صلى الله عليه وسلم وصفته باسم الله تعالى الأجل كقوله : (قُلْ أَطِيعُوا اللهَ وَالرسُولَ فَإِنْ تَوَلوْا فَإِن اللهَ لا يُحِب الْكَافِرِينَ) (4)

(فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِنَ اللهِ وَرَسُولِهِ وَإِنْ تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُؤُوسُ أَمْوَالِكُمْ لا تَظْلِمُونَ وَلا تُظْلَمُونَ)(5)

وقوله تعال (وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِراً إِلَى اللهِ وَرَسُولِهِ ثُم يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللهِ وَكَانَ اللهُ غَفُوراً رَحِيماً)(6) و (آمِنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ النبِي الْأُمي الذِي يُؤْمِنُ بِاللهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتبِعُوهُ لَعَلكُمْ تَهْتَدُونَ)(7)

و (بَرَاءَةٌ مِنَ اللهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ) (8)

و (وَأَذَانٌ مِنَ اللهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الناسِ يَوْمَ الْحَج الْأَكْبَرِ أَن اللهَ بَرِيءٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ (9)

و (وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُن إِنمَا كُنا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ) (10)

و (وَإِذْ تَقُولُ لِلذِي أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ)(11)

وذكر الله تعالى أنبيائه في القرآن ولولا هذا الذكر لانطمس ذكرهم في التاريخ وما علم المسلمون عنهم إلا الأكاذيب والوقائع التي امتلأت بها الكتب المحرفة ، إلا أن هذا الذكر لم يكن بهذه الدرجة وبهذا الحد الذي اختص الله سبحانه وتعالى به محمدا ، فبعض الأنبيـ ـاء والرسل لم يذكر إلا في موضع واحد أو موضعين أو أكثر من ذلك قليلا كطالوت وذي الكفل وآل ياسين وإدريس ويونس وأيوب وداود وبعضهم ذكر في مواضع كثيرة ولكن عن غرض واحد وموضوع واحد يتناول دعوتهم لقومهم ورفض قومهم اتباعهم ، وأكـثرهم ذكرا آدم ونوح وإبراهيم وموسى وعيسى عليهم جميعا السلام .

----

(1) الفتح2 (2) المائدة 3 (3) آل عمران 144 (4) آل عمران 32 (5) البقرة 279
(6) النساء من الآية 100 (7) الأعراف من الآية 158 (8) التوبة 1
(9) التوبة من الآية 3 (10) التوبة 65 (11) الأحزاب من الآية 37

حادي عشر : الصلاة والسلام عليه

ثم سما الله بذكر نبيه صلى الله عليه وسلم درجة أخرى لا تقل في سموها عن سوابقها وذلك بوجوب الصلاة والسلام عليه كلما ذكر اسمه وجعل الله ذلك ذكرا ينال قائله الثواب والأجر كالثواب الذي يناله على ذكره هو جلا وعلا . قال تعالى (إِن اللهَ وَمَلاِئكَتَهُ يُصَلونَ عَلَى النِبِي يَا أَيهَا الذِينَ آمَنُوا صَلوا عَلَيْهِ وَسَلمُوا تَسْلِيماً)(1)

بدأت هذه الآية بمقدمة من الله سبحانه وتعالى يرغب فيها المسلمين ويحثهم على الصلاة والسلام عليه بأنه هو الله جلا جلاله ومعه الملأ الأعلى يصلى على نبيه فأولى بكم أيها الذين آمنوا أن تصلوا عليه وتسلموا تسليما ، ويأتي هذا الترغيب والحث كمثل ماحث الله به عباده على ذكره وجعل على ذلك الثواب والأجر والأثر العظيم ، كقوله سبحانه وتعالى (يَا أَيهَا الذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللهَ كَثِيراً لَعَلكُمْ تُفْلِحُونَ) (2) ، وله في الحديث القدسي " من ذكرني فى نفسه ذكرته فى نفسي ومن ذكرني فى ملأ ذكرته فى ملأ خير من ملأه (3) بما يعني أن الصلاة والسلام عليه ذكر والذكر عبادة وللعبادة ثواب وعقاب ، لذا قال عليه الصلاة والسلام " من صلى علي صلاة صلى الله عليه بها عشرا ومن صلى علي عشرا صلى الله عليه بها مائة " (4) ، وقال الأمام أحمد فى مسنده عن أبي طلحة الأنصاري قال" أصبح رسول الله يوما طيب النفس يرى في وجهه البشر فقالوا يا رسول الله أصبحت اليوم طيب النفس يرى في وجهك البشر قال أجل أتاني آت من الله عز وجل فقال لي من صلى عليك من أمتك صلاة كتب الله له بها عشر حسنات ومحا عنه عشر سيئات ورفع له عشر درجات ورد عه مثلها " (5)

وإذا توقفت عند طيب نفسه وبشره صلى الله عليه وسلم فستعلم أنه لم يكن بسبب تردد ذكره بين الناس وفي الأفاق ، إنما كان ذلك بسبب الأثر المترتب على هذه الصلاة والتسليمات عليه بزيادة الحسنات ومحو السيئات ورفعة الدرجات . هذا وقد عدد بن القيم واحد وأربعين موطنا يذكر فيه صلى الله عليه وسلم من بينها الصلاة والسلام عليه في التشهدين بالصلاة وفي أخر القنوت وفي صلاة الجنازة وفي الخطب كالجمعة والعيدين وفي الاستسقاء وفي إجابة المؤذن وعند الإقامة وعند الدعاء كقوله صلى الله عليه وسلم " كل دعاء محجوب حتى يصلى على النبي"(6)وعند دخول المسجد وفي الخروج منه وفي مناسك الحج كالدعاء عند الصفا والمروة وعند استلام الحجر وعقيب ختم القرآن وعند الهم والشدائد : مثل ماروي عن أبي بن كعب قال قال رجل يا رسول الله أرايت إن جعلت صلاتي كلها صلاة عليك فقال إذن يكفيك الله ما أهمك في الدنيا والآخرة (7) وعقب الذنب كقوله صلى الله عليه وسلم " صلوا علي فأن صلاتكم علي كفارة لكم " (8) وفي رواية " زكاة لكم "

----

(1) الأحزاب 56 (2) الأنفال 45 (3) قال بن كثير حديث صحيح عن البخاري 7405 تفسير البقرة
(4) قال به القرطبي وهو بصدد تفسير صلوا عليه كما أنه في صحيح مسلم (5) الترغيب والترهيب للمنذري أبو محمد 2567
(6) رواه بن مخلد في المنتقى وهو حسن بشواهده (7) سنن الترمزي 2457

(8) قال السخاوي أخرجه الطبراني في الكبير وحسنه الهيثمي

وعند خطبة الرجل المرأة أو عند النكاح وعند دخول الم ل أو الخروج منه وعند الفراغ من الوضوء وعند النسيان وعقب الصلوات ، بل وعند طنين الأذن كقوله : " إذا طنت إذن أحدكم فليصل علي وليقل ذكر الله بخير من ذكرني "(1) وأيضا عند كتابة اسمه صلى الله عليه وسلم لقوله عليه الصلاة والسلام " من صلى علي في كتاب لم تزل الملائكة تستغفر له مادام اسمي في ذلك الكتاب " (2) وفي رواية " لم تزل الصلاة جارية له مادام اسمي في ذلك الكتاب "(3)صلى الله عليه وسلم . كما ذكر بن القيم أيضا أكثر من أربعين ثمرة وفائدة للصلاة عليه منها موافقته سبحانه وتعالى وموافقة ملائكته في الصلاة والسلام عليه ، ومنها أنا سبب الشفاعة وسبب غفران الذنوب كقوله صلى الله عليه وسلم " إن لله سيارة من الملائكة إذا مروا بحلق الذكر قال بعضهم لبعض اقعدوا فإذا دعا القوم أمنوا على دعائهم فإذا صلوا على النبي صلوا معهم حتى يفرغوا ثم يقول بعضهم لبعض طوبى لهؤلاء يرجعون مغفورا لهم " (4) وقوله " يا أبا كهل من صلى علي كل يوم ثلاث مرات وكل ليلة ثلاث مرات حبا وشوقا إلي كان حقا على الله أن يغفر له ذنوب تلك الليلة وذلك اليوم " (5)وسبب لقرب العبد من ربه وسبب لقضاء الحوائج وزكاة للمصلي وطهرة له وسبب للنجاة من أهوال يوم القيامة مثل قوله " من ذكرت عنده فلم يصلي عليك فمات دخل النار فأبعده الله قل آمين فقلت آمين " (6) وسبب لطيب ا ل الس ونفي الفقر ونفي اسم البخل كقوله عليه الصلاة والسلام " بحسب المؤمن من البخل أن أذكر عنده ولم يصلي علي " (7) وترمي بصاحبها إلى الجنة وتنجي من نتن ا ل الس وسبب لوفور نور العبد على الصراط ويخرج با العبد عن الجفاء وسبب لنيل رحمة الله وسبب لدوام محبته للرسول وزياداتا وتضاعفاتا فأن الذكر دليل على الحب وسبب لهداية العبادة وحياة قلبه(8) والأحاديث في ذلك كثيرة جدا وبعضها ضعيف ، أما سائر الأنبياء والرسل فيقال عليهم السلام فقط تكريما لهم وإجلالا دون أن يكون ثمة موطن أو أثر للسلام عليهم ، حيث أن السلام عليهم لم يرد على سبيل الوجوب كما هو الحال لرسول الله إنما جاء على سبيل الرواية والخبر عنهم ، قال تعالى (سَلامٌ عَلَى نُوحٍ فِي الْعَالَمِينَ) (9)وقال(سَلامٌ عَلَى إِبْرَاهِيمَ)(10) وقال "(سَلامٌ عَلَى مُوسَى وَهَارُونَ) (11) وقال (سَلامٌ عَلَى إِلْ يَاسِينَ)(12) فكما أنزل الله عليهم سلامه فقد التزم بذلك المسلمون ، كما أن الصلاة والسلام عليهم لم يلزم با قومهم ولم يستدل من ثمة أثر أو مصدر بتكليف المرسل إليهم بذلك . ولم يكن من مقتضيات الإيمان بالله أو برسله الصلاة والتسليم على هؤلاء الرسل الكرام ،

----

(1) نقله بن القيم في الجلاء عن أنس بن مالك (2) الترغيب والترهيب للمنذري 157 (3) ضعفه بن كثير في تفسيره ج3
(4) نقله بن القيم عن بن عباس ورواه المنذري في الترغيب والترهيب عن آنس 2322 (5)قال بن القيم رواه مسلم عن أبي هريرة (6) موارد الظمآن للهيثمي 2387 (7) متفق عليه (8) جلاء الأفهام في الصلاة على خير الأنام ابن القيم
(9) الصافات 79 (10) الصافات 109 (11) الصافات120 (12) الصافات 130

ومن أسمى دلائل خصوصية وفضيلة ذكره صلى الله عليه وسلم هو اختصاصه بركن هام وأساسي في الصلاة التي هي عماد الدين والركن الثاني والأصيل في الإسلام ، هذا الركن هو التشهد (1)

فمن المعلوم أن هيئات الصلاة الأساسية وأركانا الشكلية هي القيام والركوع والسجود والتشهد بخلاف التكبيرات ، وباقي الهيئات تمثل التنقل بين هذه الأركان الرئيسية ، كالرفع من الركوع أو جلسة الاستراحة أو التسليم .فكلها تمثل الانتقال من حال إلى حال ، أما هذه الهيئات الأربع فلا تصح الصلاة إلا با ، فأما القيام فلقرأة الفاتحة والقرآن ، وأما الركوع فلتعظيم الله وثناؤه ، وأما السجود فللذكر والدعاء ، بينما التشهد فلرسول الله وذكره والصلاة عليه والتسليم ، وفي هذا الصدد جاء في شرح صحيح مسلم للنووي ما يلي " بقي واجبات مجمع عليها ومختلف فيها فمن المجمع عليه النية والقعود في التشهد الأخير وترتيب أركان الصلاة ومن المختلف فيه التشهد الأخير والصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم فيه والسلام وهذه الثلاثة واجبه عند الشافعي رحمه الله تعالى وقال بوجوب السلام الجمهور وأوجب التشهد كثيرون وأوجب الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم مع الشافعي الشعبي وأحمد بن حنبل وأصحابهما وأوجب جماعة من أصحاب الشافعي نية الخروج من الصلاة وأوجب أحمد رحمه الله تعالى التشهد "(2)

وفي تفسير القرطبي للآيات الأخر من سورة البقرة ما يفيد أن التحيات فرضت في المعراج عندما أشار جبريل عليه السلام إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم بأن سلم على ربك فقال النبي صلى الله عليه وسلم " التحيات لله والصلوات والطيبات قال الله تعالى السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته فأراد النبي صلى الله عليه وسلم أن يكون لأمته حظ في السلام فقال السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين فقال جبريل وأهل السماوات كلهم أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمدا عبده ورسوله (اهـ)

ومن ثم يسري ذكره في جميع الصلوات الفرائض والنوافل ، كما خص له ذكرا في صلاة الجنازة والغائب عقب التكبيرة الثانية وقبل الدعاء للميت أو للنفس وعموم الناس ، أما بالنسبة لسيدنا إبراهيم فقد استثنى من ذلك وكان النبي صلى الله عليه وسلم أرشدنا إلى الصلاة والسلام عليه في التشهدين ، باعتبار أن صلاة المسلمين الفريضة هي الصلاة التي كان يصلى با إبراهيم عليه السلام الحنيف (3)

----

(1) يقول بن عبد البر في التمهيد : الجلسة الآخرة من أركان الصلاة وليست بفرض قياسا على الجلسة الوسطى

(2) شرح النووي على صحيح مسلم دار نشر بيروت

(3) قال القرطبي في تفسير قوله تعالى سيقول السفهاء البقرة 142 نقلا عن من يدعى شخرون أول ما افترضت الصلاة عليه صلى الله عليه وسلم الى الكعبة ولم يزل يصلي أليها طول مقامه بمكة على ما كانت عليه صلاة إبراهيم وإسماعيل فلما قدم المدينة صلى الى بيت المقدس ستة عشر شهرا أو سبعة عشر شهرا على الخلاف ثم صرفه الله الى الكعبة

كما تبين من صيغة التشهد أن الله سبحانه وتعالى صلى وسلم على إبراهيم في الأولين . إلا أنا ليس لها أيضا نفس الآثار والفضائل المترتبة على الصلاة والسلام على رسول الله ، كما أن مواطنها لا تكاد تزيد على موطنين هما التشهدين وفي صلاة الجنازة . أما التسليم على آل النبي وأزواجه أمهات المؤمنين وصحابته فما ذلك إلا تبعية للصلاة والسلام على رسول الله صلى الله عليه وسلم وفي حالات محدودة كتكبيرات العيدين ، ومن هذه التبعية يفهم أنا تكريم له صلى الله عليه وسلم ، كما يفهم منها عدم جواز الصلاة أو السلام عليهم استقلالا دون رسول الله صلى الله عليه وسلم ، يقول بن تيميه " وأما الصلاة عليه - يقصد علي بن أبي طالب - منفردا فهذا ينبني على أنه هل يصلى على غير النبي ، صلى الله عليه وسلم على وجه الانفراد منفردا مثل أن يقول : اللهم صل على عمر أو علي وقد تنازع العلماء في ذلك فذهب مالك والشافعي وطائفة من الحنابلة إلى أنه لا يصلى على غير النبي صلى الله عليه وسلـ ـم منفردا ، كما روي عن ابن عباس أنه قال : " لا أعلم الصلاة تنبغي على أحد إلا على النبي صلى الله عليه وسلم "، وذهب الإمام أحمد وأكثر أصحابه إلى أنه لا بأس بذلك ، لأن علي بن أبي طالب قال لعمر بن الخطاب : صلى الله عليك ، وهذا القول أصح وأولى ، ولكن إفراد واحد من الصحابة والقرابة كعلي أو غيره بالصلاة عليه دون غيره مضاهاة للنبي صلى الله عليه وسلم بحيث يجعل ذلك شعاراً معروفاً باسمه ، هذا هو البدعة " (1) وما أراه هو عدم الجواز أو الصلاحية للصلاة أو التسليم على غير النبي محمد عليه الصلاة والسلام باللفظين معا أو انفراد أحدهما

----

(1) الفتاوى الكبرى " (1 / 56).

ثاني عشر وثالث عشر : شهادة الله له والدفاع عنه :

قال تعالى (قُلْ أي شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً قُل اللهُ شَهيدٌ بيني وَبَيْنَكُمْ)(1) وقال (لَكِنِ اللهُ يَشْهَدُ بِمَا أَنزَلَ إِلَيْكَ أَنزَلَهُ بِعِلْمِهِ وَالْمَلائِكَةُ يَشْهَدُونَ وَكَفَى بِاللهِ شَهيداً)(2) وقال " (وَيَقُولُ الذِينَ كَفَرُوا لَسْتَ مُرْسَلاً قُلْ كَفَى بِاللهِ شَهيداً بيني وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ) (3) وقال " (وَإِذْ أَخَذَ اللهُ مِيثَاقَ النبِيينَ لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُم جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُن بِهِ وَلَتَنْصُرُنهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَى ذَلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشاهِدِينَ) (4) ، وهكذا تبين هذه الآيات وغيرها أجل وأعظم صور المعية الإلهية لنبي من أنبيائه ، ألا وهي الشهادة له وبما أنزل معه ، وما في ذلك من تأييد له ولدعوته وتثبيتا لفؤاده وتقوية لعزيمته وإرضاء له ورضاء عنه ، فأي شيء أكبر شهادة من الله ؟ ، وأي شيء بعد شهادة الله ؟ . وأي معين ومساعد ومؤيد له دون الله ؟ ، نعم أن الرسل السابقون يشهدون له ، وأخذ الله تعالى عليهم العهد والميثاق بذلك وكان ذلك يكفي له صلى الله عليه وسلم ، وكتبهم الم لة معهم من لدن حكيم خبير تشهد ، وقد بشرت هذه الكتب به وسطرت في صفحاتا اسمه ونعته وصفته وكان ذلك يكفي ، والملائكة تشهد بما فيهم كبيرهم وأمينهم على الوحي جبرائيل عليه السلام وكان ذلك يكفي والمرسل إليهم يشهدون وعلى رأسهم أبر البشر واتقاهم وأفضلهم الصحابة رضوان الله تعالى عنهم وكان ذلك يكفي ، وأهل الكتاب وعلمائهم يشهدون وكان ذلك أيضا يكفي ، وإن لم يكفي واحد من هؤلاء فكلهم مجتمعون يشهدون ، ولكن الله معهم وفوقهم شاهدا له وشهيدا عليه وكفى به شهيدا " ، ليس ذلك فحسب بل عندما واجه رسول الله صلى الله عليه وسلم قومه فكذبه بعضهم انزل عليه ما يهدئ روعه ويدخل السرور على قلبه ويثبت فؤاده ويقوي قناته ويؤيد جهاده بشهادته سبحانه بأنم كاذبون ، فقال تعالى (أَلَمْ تَرَ إِلَى الذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَن مَعَكُمْ وَلا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَداً أَبداً وَإِنْ قُوتِلْتُم لَنَنصُرَنكُمْ وَاللهُ يَشْهَدُ إِنهُمْ لَكَاذِبُونَ)(5) ، ولم يكن ذلك لنبي من أنبياء الله من قبل ، على قدر ما واجهوه من قومهم وعلى قدر عزمهم وجهادهم في سبيل الدعوة وفي سبيل الله ، ولكن بما

لا يعني تخلي الله تعالى عنهم ، وبما لا يعني عدم تأييده لهم و معيته ، إذ ليس ذلك ما يمكن استنتاجه فمعية الله لأنبيائه ثابتة بما لا يدع مجالا للشك ، وتأخذ هذه المعية صور عديدة ، منها قوله تعالى لنوح عليه السلام (وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا)(6) ويقول لموسى وهارون عليهما السلام (قَالَ لا تَخَافَا إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى) (2) وقال " (وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُمْ مِنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ) (7) ، ولكن وجه واحد من أوجه المعية الإلهية انفرد به رسول الله صلى الله عليه وسلم عن سائر الأنبياء وهو هذه الشهادة ، إذ يشهد له ربه سبحانه وتعالى يوم القيامة ، بينما يشهد للأنبياء أعمالهم والمؤمنين من قومهم ومن يرتضي لهم الله تعالى ، أما عن قول هود عليه السلام ردا على قومه الذين كذبوه وادعوا عليه الجنون ومس الشياطين (إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ)(1)

----

(1) الأنعام من 19 (2) النساء 166 (3) الرعد 43 (4) آل عمران 81 (5) الحشر 11 (6) هود من الآية 37 (7) طه 46 (8) هود 54

ليس معناه شهادة الله له ولكنه دعاء وأمنية من هود عليه السلام وتبرئة لذمته بأن يشهد الله سبحانه وتعالى له ، وأما شهادته سبحانه وتعالى لداود وسليمان في قوله(وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ)(1)، فهي شهادة علم وإحاطة نظير قوله تعالى (وَلا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُوداً)(2) كما دافع الله تعالى عنه صلى الله تعالى عليه وسلم ، وكان الأنبياء قبله يدافعون عن أنفسهم .فهذا هود عليه السلام يقول (قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ) (3)ويقول نوح عليه السلام (يا قَوْمِ لَيْسَ بِي ضَلالَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ)(4)ويقول عن لوط (قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ آوِي إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ) (5) بينما دافع عن رسوله صلى الله عليه وسلم فنفى عنه الشعر والكهانة فقال (وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُبِينٌ) (6) وقال (وَلا بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلاً مَا تَذَكَّرُونَ) (7) وأقسم بالقلم بسلامة عقله فقال (نْ وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ مَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ) (8) ونفى عنه الغواية والضلال فقال (مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَى) (9) وأقسم بحروف قرآنه أنه ما أنزل عليه القرآن شقاء له وتعبا وأنه من المرسلين فقال: (طه مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى) (10) و (يس وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ) (11) وهون عليه فقال له (قُلِ اللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ)(12)

استثناؤه من السؤال

ومن هذه الشهادة نستنتج ما يفيد استثناؤه صلى الله عليه وسلم من السؤال يوم القيامة عن أداءه للأمانة وبلاغه للرسالة ، فالله سبحانه وتعالى يقول (فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ) (13) وقوله سبحانه (يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَا أُجِبْتُمْ قَالُوا لا عِلْمَ لَنَا إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ) (14) وسؤال المرسلين ليس سؤال حساب ولكنه سؤال بيان وحجة على الكاذبين ، كسؤاله لعيسى بن مريم يوم القيامة عما ادعاه قومه من أنه ابن الله فيقول تعالى (وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالَ

سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَق : الآية)(15) ولاحظ أنه عليه السلام نسب الشهادة في حياته لنفسه ، وقوله وأنت على كل شيء شهيد أي شهادة علم وإحاطة ، فهو سبحانه الحكم والمحاسب يوم القيامة ، سيحكم بين جميع الخلائق بما فيهم الرسل والأنبياء ، ولأنه سبحانه وتعالى هو الشهيد على رسوله محمد شهادة تأكيد له وتأييد والمصدق له فقد أعفاه من السؤال ، والدليل على ذلك أن الآية (وَلَنَسْأَلَن الْمُرْسَلِينَ) (16) أتت في معرض الحكاية عن الأمم السابقة في قوله تعالى في الآية التي تسبقها (فَمَا كَانَ دَعْوَاهُمْ إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا إِلا أَنْ قَالُوا إِنا كُنا ظَالِمِينَ) (17)

----

(1) الأنبياء من الآية 78 (2) يونس من الآية 61 (3) الأعراف 67 (4) الأعراف 61 (5) هود 80
(6) يس 69 (7) الحاقة 42 (8) ن 2,1 (9) النجم 2 (10) طه 2,1 (11) يس 2,1 (12) الأنعام من الآية 91
(13) الأعراف 6 (14) المائدة 109 (15) المائدة 117 (16) الأعراف 6 (17) الأعراف 5

رابع عشر وخامس عشر : - إكرامه بمعجزات خاصة ورؤية ربه .

قدمنا أن المعجزة شرط من شروط النبوة يمنحها الله تعالى لنبيه ، تدعمة وتأييدا له وعونا في مواجهة قومه ، وهي تتفاوت بتفاوت الدور المنوط به النبي أو الرسول والقوم المرسل إليهم ، فقد كان المناسب لقوم ثمود مثلا الناقة بوصفهم قوم بدو وصحاري وكانوا يتخذون من الجبال بيوتا ، وأعطى الله عيس عليه السلام بعض الآيات على الرغم من أنه لم يأتي بتشريع جديد وإنما كان تشريعه مكملا للتوراة ، وذلك لطبيعة هؤلاء المرسل إليهم الذين طغت عليهم المادية واصبحوا لا يؤمنون إلا بكل ما هو مادي وقد بين القرآن الكريم بعض المعجزات لبعض الأنبياء .كموسى عليه السلام أيده الله تعالى بتسع آيات مفصلات أشهرها العصا ، وعيسى عليه السلام أيده سبحانه بعدة آيات مفصلات أيضا أشهرها إحياء الموتى وإبراء الأكمه والأبرص ، وأيد الله تعالى صالح عليه السلام بالناقة ، وأيد سليمان بملك لم يكن لأحد من العالمين من بينه تسخير الريح والجن ومعرفة لغة الحيوان ، وأيد داود عليه السلام بتليين الحديد له وتأويب الجبال والطير معه . ويوسف عليه السلام أشار الله تعالى إلى بعض معجزاته في إخباره صاحبيه في السجن بما يأكلون وما يدخرون في بيوتم .. وأنبياء آخرون لم يبين لنا الله سبحانه وتعالى معجزاتم صراحة ، إلا أن ذلك ليس معناه عدم تأييدهم بمعجزة ، أو كرامة على أقل تقدير تعيينهم على أداء مهمتهم .

وكانت معجزة رسول الله صلى الله عليه وسلم هي القرآن ، وهو بذه المعجزة لم يختلف عن غيره من الرسل في شرط هام من شروط النبوة ، وإن كان القرآن أشرف المعجزات وأفضلها وأعظمها إلا أن أهم ما ميز الله سبحانه وتعالى به نبيه صلى الله عليه وسلم في هذا الصدد هو إعطائه معجزات خاصة إكراما لشخصه وذاته ، دون أن يكون الغرض منها تأييده في دعوته أو عونا له في مواجهة قومه ، إذ الأصل في المعجزة هو كونا دعما

جوهريا رئيسيا لإثبات نبوة النبي أو صدق الرسول في دعوته وبدونا يختل موقفه ويضعف ، أما بالنسبة لمعجزات رسول الله صلى الله عليه وسلم الحسية فلم يكن لها هذا الغرض ، ولم تكن إثباتا لنبوته أو معيارا لصدقه في نبوته . وذلك اكتفاء بمعجزة القرآن الخالدة . قال تعالى (أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنا أَنْزَلْنا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ إِن فِي ذَلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَى لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ)(1) وقال (وَلَوْ أَن قُرْآناً سُيِرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِعَتْ بِهِ الْأَرْضُ أَوْ كُلِمَ بِهِ الْمَوْتَى بَلْ لِلِهِ الْأَمْرُ جَمِيعاً)(2) والتدليل على ذلك قدمناه في الباب السابق (3)

----

(1) العنكبوت 51 (2) الرعد من الآية 31 (3) انظر الفصل السابق

إعجاز بصره

ومن معجزاته صلى الله عليه وسلم بصره فعن أبي هريرة قال صلى بنا رسول الله صلى الله عليه وسلم يوما ثم انصرف فقال " يا فلان ألا تحسن صلاتك ألا ينظر المصلي إذا صلى كيف يصلي فإنما يصلي لنفسه إني والله لأبصر من ورائي كما أبصر من بين يدي " (1) وعن أبي هريرة أيضا قال قال رسول الله صلى الله علي وسلم هل ترون قبلتي ههنا فوالله ما يخفى علي ركوعكم و لا سجودكم إني لأراكم وراء ظهري (2) وعن أنس قال صلى بنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات يوم فلما قضى الصلاة أقبل علينا بوجهه فقال أيها الناس إني أمامكم فلا تسبقوني بالركوع والسجود ولا بالقيام فإني أراكم أمامي ومن خلفي .. (3) وعن معنى ذلك : جاء في فتح الباري " اختلف في معنى ذلك فقيل المراد به العلم إما أن يوحى إليه أو أن يلهم وفيه نظر لأن العلم لو كان مرادا لم يقيده بقوله من وراء ظهري وقيل المراد أنه يرى عن يمينه ومن عن يساره ممن تدركه عينه مع التفاف يسير في النادر ويوصف من هو هناك بأنه وراء ظهره وهذا ظاهر التكلف وفيه عدول عن الظاهر بلا موجب والصواب المختار أنه محمول على ظاهره وأن هذا الإبصار إدراك حقيقي خاص به صلى الله عليه وسلم انخرقت له فيه العادة " ونقل عن الإمام أحمد وغيره أن هذا الإدراك يجوز برؤية عينه انخرقت له العادة فكان يرى بها من غير مقابلة لأن الحق عند أهل السنة أن الرؤية لا يشترط لها عقلا عضو مخصوص ولا مقابلة ولا قرب وإنما تلك أمور عادية ولذلك حكموا بجواز رؤية الله تعالى في الدار الآخرة خلافا لأهل البدع لوقوفهم مع العادة " وقيل كانت عينه

خلف ظهره يرى بـا من وراءه دائما وقيل كان بين كتفيه عينان كسم الخياط يرى بهما لاتحول دونهما الثيـاب أو الأشياء ، وقيل كانت تنطبع صورة المحسوسات التي خلفه على الحوائط قبالته فيراها كما تنطبع صور الأشياء على المرآة فيشاهد أفعالهم (4) وفي شرح النووي على صحيح مسلم باب تحسين الصلاة واتمامها قول النووي رحمه الله قال العلماء " معناه أن الله تعالى خرق له صلى الله عليه وسلم إدراكا في قفاه يبصر به من ورائه وقد انخرقت له العادة صلى الله عليه وسلم بأكثر من ذلك وليس يمنع من هذا عقل ولا شرع بل ورد الشرع بظـاهره فوجـب الأخـذ بـه قـال القاضـي قـال أحمـد بـن حنبـل وجمهـور العلمـاء بـهذا "

----

(1) صحيح مسلم 423 ، 424 ، 426 (2) البخاري 408 وذات المصدر السابق عند مسلم

(3)مسلم 426 وابن خزيمة وغيرهما (4) فتح الباري لابن حجر

رؤية الله . والآراء المقولة في هذا الصدد ثلاث .

الأول . يقول بنفي الرؤية ، في صحيح مسلم عن مسروق قوله " كنت عند عائشة فقالت يا أبا عائش ثلاث من تكلم بواحدة منهن فقد أعظم على الله الفرية ، قلت وما هن ؟ قالت من زعم أم محمدا رأى ربه فقد أعظم الفرية قال وكنت متكئا فاعتدلت فقلت يا أم المؤمنين انظريني ولا تعجليني أولم يقل ربنا (وَلَقَدْ رَآهُ بِالْأُفُقِ الْمُبِينِ) (1) وقال (وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى) (2) قالت أنا أول الأمة سأل رسول الله عن ذلك فقال إنما هو جبريل لم أره على حقيقته إلا هاتين المرتين . رأيته منهبطا من السماء سادا عظم خلقه ما بين السماء والأرض فقالت أولم تسمع (لا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللطِيفُ الْخَبِيرُ)(3) أو لم تسمع (وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللهُ إِلا وَحْياً أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولاً فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلِي حَكِيمٌ) (4) (5) ، ومن يؤيد ذلك مالك بن أنس حيث قال " إنه لم ير في الدنيا لأنه باق ولا يرى الباقي بالفاني ولكنه يرى في الآخرة "

ونفى بعض علماء الكلام وأشهرهم في هذا الـال المعتزلة الرؤية مطلقا في الدنيا أو الآخرة لقولهم إذا انتفت الجسمية انتفت الجهة .وإذا انتفت الجهة انتفت الرؤية ، إذ كل مرئي في جهة من الرائي ولا بد للرؤية من شروط منها الضوء واللون ، وذلك كله محال في جنب الله ، وسند أصحاب هذا الرأي قوله تعالى (لَيسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ)(6) وقوله (لا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَار)(7) وقوله تعالى لموسى عليه السلام " لن تراني " كما يستدلون بقوله

صلى الله عليه وسلم في الصحيحين مرفوعا عن أبي موسى الأشعري "إن الله لا ينام ولا ينبغي له أن ينام يخفض القسط ويرفعه ، يرفع إليه عمل النهار قبل الليل وعمل الليل قبل النهار حجابه النور لو كشفه لأحرقت سبوحات وجهه ما انتهى إليه بصره " (8) . وعن أبي العالية قال سئل رسول الله هل رأيت ربك ؟ فقال رأيت نرا ورأيت وراء النهر حجاب ورأيت وراء الحجاب نور لم أرى غيره ،(9)

الثاني :- يثبت الرؤية : فعن بن عباس قوله " إنه رآه بعينيه "ذكر القرطبي عن عبد الله بن حارث قال اجتمع بن عباس وكعب الأحبار فقال بن عباس أما نحن بنو هاشم فنقول أن محمدا رأى ربه مرتين " وفي الأربعين في دلائل التوحيد عن بن عباس في تفسير قوله تعالى (وَمَا جَعَلْنَا الرؤْيا الِتي أَرَيْنَاكَ ِإلا ِفتْنَةً ِللناس)(10)رؤية محمد لربه ليلة الإسراء والمعراج رؤية عين ،وعن عكرمة رضي الله عنه أن رجلا سأل بن عباس أيضا عن قوله تعالى (وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى)(11) فقال برؤية النبي لربه ، فقيل له أو ليس الله يقول " لا ُتدْرِكُهُ الْأَبصَارُ " قال بن عباس رضي الله عنه أليس تر السماء ؟ قال بلى قال فكلها ترى ؟

----

(1) الإسراء من الآية 60 (2) التكوير 23 (3) النجم 13 (4) الأنعام 103 (5) صحيح مسلم 177 وبقية الحديث :" ومن زعم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كتم شيئا من كتاب الله فقد أعظم على الله الفرية والله يقول يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك وإن لم تفعل فما بلغت رسالته قالت ، ومن زعم أنه يخبر بما يكون في غد فقد أعظم على الله الفرية والله يقول قل لا يعلم من في السماوات والأرض الغيب إلا الله (6) الشورى 51 (7) الشورى من الآية 11

(8) الأنعام من الآية 103 (9) صحيح مسلم 179 (10) الإسراء من الآية 60 (11) النجم 13

وعن عكرمة أيضا قول بن عباس إن الله اصطفى إبراهيم بالخلة ، واصطفى موسى بالكلام ، واصطفى محمد بالرؤية ، فكبر كعب حتى جاوبته الجبال ثم قال إن الله قسم الكلام والرؤية بينه وبين موسى فجل الكلام لموسى ولمحمد الرؤية (1) ، وروى أن الحسن كان يحلف بالله لقد رأى محمدا ربه رأى جلاله وعظمته ورداؤه ، وسأل أبو هريرة هل رأى محمدا ربه فقال نعم ، وعن أحمد بن حنبل أنه قال " أنا أقول بحديث بن عباس بعينه رآه رآه (2) ، وقال القاضي عياض " ليس فيه دليل على الاستحالة إلا من حيث ضعف القدرة فإذا قوى الله من شاء من عباده وأقدره على حمل أعباء الرؤية لم يمتنع في حقه ، وعن عباد بن منصور قال سألت عكرمة عن قوله تعالى ´ما كذب الفؤاد ما رأى فقال تريد أن أقول لك أن محمدا رأى ربه ،فقد رآه فقد رآه (3) وفي تفسير القرطبي نقلا عن بعض العلماء عن قوله تعالى" لا تدركه الأبصار " قال “ لا تدركه الأبصار المخلوقة في الدنيا لكن يخلق لمن يريد كرامته بصرا وإدراكا يراه به كمحمد رسول الله " إذ رؤيته سبحانه وتعالى جائزة في الدنيا وليست مستحيلة وإلا ما سألها موسى ، حيث من المحال أن يسأل موسى ما يجهله ، فقد سأل جائزا ولم يسأل مستحيلا .

الرأي الثالث . يرى أن محمدا رأى ربه في المعراج بفؤاده ، وذلك ما ذكره القرطبي عن محمد بن كعب عن بعض أصحاب النبي قال ، قلنا يا رسول الله هل رأيت ربك ؟ قال لم أره بعيني ورأيته بفؤادي مرتين ، ثم تلا قوله تعالى (ثُم دَنَا فَتَدَلى فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى) (4)

وإزاء هذه الاختلافات قال صاحب السنة (5) " وبالجملة فتفسير الآية عن بن عباس برؤية الله تبارك وتعالى ثابتة عنه . ولكن الأخذ بالتفسير الذي ذكر عن النبي مرفوعا (6)أولى منه والأخذ به واجب ، لاسيما وقد أضطرب الرواة عنه في هذه الرؤية فمنهم من أطلقها ومنهم من قيدها بالفؤاد ".. ويقصد الأخذ بالرأي القائل بعدم الرؤية ، وهذا هو مذهب أهل السنة والجماعة . كما عند اللاكائي في كتابه (معتقد أهل السنة والجماعة) . وصرفوا الآيات الواردة بسورتي النجم و التكوير إلى رؤيته لجبريل عليه السلام .

الرؤية بالفؤاد هو الأقرب للصحة وفقا لما يلي :

أولا : رؤيته سبحانه وتعالى مستحيلة في الدنيا وغير جائزة أيضا والدليل على ذلك أنه مضى زمن من بإمكانه أو من كان يحق له طلب الرؤية ، وما بقي من زمن ليس فيه من يمكنه أو يحق له طلبها ، فإذ لم يتحقق ذلك ولن يتحقق فدل ذلك على الاستحالة وعدم الجواز ، لا يقدح في ذلك سؤال موسى عليه السلام الرؤية ،إذ كان طلبه ذلك شوقا ومحبة لرؤية ربه بعد أن كلمه وسمع صوته ، وهو ما لا يفهم منه جهل موسى باستحالة الرؤية لكونها من نظير الطلبات التي طلبها بعض الأنبياء من ربهم ، مثل طلب إبراهيم عليه السلام أن يريه ربه كيف يحي الموتى

----

(1) أورده القرطبي عن عبد الله بن الحارث (2) مسند عبد الرزاق (3) تفسير القرطبي (4) النجم 9 (5) السنة للطبري

(6) الحديث المرفوع هو ما أضيف إلى النبي صلى الله عليه وسلم قولا أو فعلا عنه أو تقرير أو صفة سواء كان متصلا أو منقطعا أو مرسلا ، ، كأن يقول الصحابي أو غيره قال رسول الله أو فعل أو قبل أو أختار .. ثم يذكر الرواية (شرح علل الحديث لمصطفى العدوي ، مفاتيح علوم الحديث لمحمد عثمان الخشت

.. وحتى إذا ما فرض أن موسى عليه السلام كان يجهل هذه الاستحالة فما كان ذلك ليعيبه ، فقد سأل نوح عليه السلام ربه أن يعفو عن ابنه ولم يكن يدري وقتها أنه ليس من أهله الموعودين بالنجاة في قوله تعالى (حَتى إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التنورُ قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِنْ كُل زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ آمَنَ وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلا قَلِيلٌ) (1)فقال تعالى(وَنَادَى نُوحٌ رَبهُ فَقَالَ رَب إِن ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِن وَعْدَكَ الْحَق وَأَنتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ)(2)

فلم يمهله الله تعالى حتى أخبره بحسم أنه ليس من أهله وأن سؤاله هذا جهل منه فقال سبحانه :

(قَالَ يَا نُوحُ إِنهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلا تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِني أَعِظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ) (3) وخرج يونس عليه السلام مغاضبا جهلا منه أن الله لن يقدر عليه وما عابه ذلك وما شانه ، فقال سبحانه (وَذَا النونِ إِذْ ذَهَبَ مُغَاضِباً فَظَن أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَى فِي الظلُمَاتِ أَنْ لا إِلَهَ إِلا أَنتَ سُبْحَانَكَ إِني كُنتُ مِنَ الظالِمِينَ) (4) يقول بن حزم " إن نوح عليه السلام ظن أن ابنه من أهله وأن المراد أهل القربة فلما علم

أن هذا ليس مراد الله ندم وقال (قَالَ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُنْ مِنَ الْخَاسِرِينَ) (5) فمنحه الله تعالى السلام والبركة فقال (قِيلَ يَا نُوحُ اهْبِطْ بِسَلَامٍ مِنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ) (6) ،

ويونس غاضب قومه ولم يوافق مراد الله فعوقب بذلك وإن كان ظانا أن هذا ليس عليه فيه شيء ، وأما إخبار الله تعالى بأنه استحق اللوم والذم لولا النعمة التي تداركه بها للبث معاقبا في بطن الحوت ، فهذا هو ما تقرر آنفا من أن الأنبياء يؤاخذون في الدنيا على ما فعلوه مما يظنونه خيرا إذ لم يوافق مراد الله (7) ومن هذا المنطلق سأل موسى ربه الرؤية ، ومن هذا المنطلق أيضا قال له سبحانه وتعالى لن تراني . ومن هذا المنطلق ثالثا قال عليه السلام لما أفاق (سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ)(8)، فأي عار في أن يجهل موسى استحالة الرؤية أو عدم جوازها ، خاصة وأن الأمر يتعلق بذات الله تعالى التي لم يحط بها جميعا بشر حتى الأنبياء . بل مما يحتسب لموسى عليه السلام أنه أول من أثبت استحالة هذه الرؤية بسؤاله لها وإجابة الله تعالى عليه ، إذ لولا هذا السؤال ولولا هذه الإجابة لما علمت هذه الإستحالة ، فيعد له ذلك فضلا وشرفا لم يسبقه إليه غيره

ثانيا : رؤيته سبحانه وتعالى في الآخرة حقيقة لا ينكرها إلا جاحد منكر للآيات والأحاديث المؤكدة لذلك . وأكتفي هنا بتعليق عظيم للالكائي حيث يقول تعقيبا على قوله تعالى (وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ)(9) النظر لا يخلو من وجوه إما أن يكون عني به الاعتبار كقوله تعالى (أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ)(10)وإما أن يعنى به الانتظار كقوله (مَا يَنْظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ) (11) أو قوله (قَالَ أَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ) (11) وإما أن يعنى به التعطف والرحمة لقوله تعالى (وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ)(13) وإما الرؤية كقوله (يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَأَوْلَى لَهُمْ)(14)

----

(1) هود 40 (2) هود 45 (3) هود 46 (4) الأنبياء 87 (5) هود 47 (6) هود 48 (7) عصمة الأنبياء لمحمود ماضي (8) الأعراف من الآية 143 (9) القيامة 23 (10) الغاشية 17 (11) يس 49 (12) الأعراف 14 (13) آل عمران من الآية 77 (14) محمد 20

والثلاثة الأول فاسدة إذ لا يمكن أن يكون نظر المؤمنين في الآخرة إلى ربهم نظر اعتبار لأن الدار الآخرة ليست دار استدلال وإنما هي دار اضطرار ، وليس انتظار لأنه ليس من مظاهر الجنة انتظار ، لأن الانتظار نغص وكدر والآية خرجت مخرج البشارة ، وأيضا ليس المقصود نظر التعطف والرحمة إذ من غير المتصور أن يتعطف الخلق على خالقهم بالنظر إليه ، فلم يبقى إذن إلا الاعتبار الأخير وهو أن يكون المقصود بالنظر في الآية الرؤية (1)

ثالثا :- رسول الله صلى الله عليه وسلم لم ير ربه في الدنيا لاستحالة ذلك وعدم جوازه ، ولم يره في الآخرة لعدم حصوله بعد ، ولا نعلم هل يراه الآن في عالم الغيب بعد أن انتقل عليه الصلاة والسلام إلى الرفيق الأعلى أم لا ؟ لكون ذلك غيب لا يعلمه أحد ، ولكن رآه صلى الله عليه وسلم في عالم وسط بين الدنيا والآخرة ليلة الإسراء والمعراج هو عالم المعجزة ، وعندئذ لا يصح إعمال مبدأ الاستحالة أو عدم الجواز لخروج الأمر برمته عن

دائرة الحياة الدنيا ويصح القول بالرؤية ، لأن الله سبحانه وتعالى أهل نبيه حينئذ لهذه الرؤية بتكوين قدرات لديه وامكانات خرجت به عن قدراته البشرية ورقت به إلى سمو الملأ الأعلى ..

وبالتالي يصير الرأي الأول القائل بعدم الرؤية مردود .

رابعا : ولكن لأنه لم يثبت على وجه اليقين في أي مصدر من الكتاب أو السنة أنه صلى الله عليه وسلم رآه بالعين ، وأنه خشية الفرية على الله تعالى نقول بالرؤية بالقلب ، ويسقط من ثم الرأي الثاني القائل برؤية العين .. وسقوط هذين الرأيين لا يعني تطاولا على رأي القائلين بهما - إن صح نسبتهما إليهم – وهم من هم في عداد السلف والتابعين ، ولكن شكا في نسبة هذه الآراء إليهم خاصة مع استحالة أن يصل الخلاف بين بن عباس والسيدة عائشة رضي الله عنهما إلى حد أن ينفي الأول ما أكدته أم المؤمنين

خامسا : ومما يؤكد رؤيا القلب ما ثبت في جامع الترمذي ومسند الإمام أحمد أن رسول الله صلى الله عليه وسلم رأى الله سبحانه وتعالى في المنام وذلك في الحديث المرفوع عن بن عباس وفي رواية عن معاذ بن جبل رضي الله عنهما قوله صلى الله عليه وسلم " رأيت ربي في أحسن صورة فقال لي يا محمد أتدري فيما يختصم الملأ الأعلى ؟ فقلت لا أدري . فوضع يده بين كتفي فأحسست ببردها فقال لي يا محمد أتدري فيما يختصم الملأ الأعلى ؟ فقلت في الكفارات والدرجات " وساق الحديث (2) ، فإذا كان ذلك وكان الثابت من سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم أن الشيطان لا يتمثل به صلى الله عليه وسلم في المنام وأن رؤيته حق (3) فأولى بذلك رب العزة جل جلاله . فقد رآه صلى الله عليه وسلم مناما على الحقيقة ، لاستحالة تمثل الشيطان على الرائي والمرئي ، كما أن رؤيا الأنبياء هي رؤيا وحي(4)فلزم أن تكون حقيقة وحق، أما آيات سورتي النجم والتكوير فتتعلق برؤية جبريل

----

(1) اعتقاد أهل السنة والجماعة للالكائي (2) سنن الترمذي 3233 ، 3235 وقال قريب منه الهيثمي في الزوائد رواية عن ثوبان ثم عقب رجاله ثقات (3) في صحيح مسلم 2266 أن أبا هريرة قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول " ثم من رآني في المنام فسيراني في اليقظة أو لكأنما رآني في اليقظة فأن الشيطان لا يتمثل بي " (4) صحيح البخاري 138

سادس عشر : العصمة

والمعني بها هنا هو حمايته صلى الله عليه وسلم من أذى الناس حتى يتمكن من أداء رسالته على الوجه الكامل وعلى الوجه الذي يريده سبحانه وتعالى ، قال تعالى (يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ) (1) والترابط بين البلاغ والعصمة واضح بغير حاجة إلى مزيد من إيضاح ، وقيل في أسباب نزول هذه الآية أن عائشة رضي الله عنها قالت سهر رسول الله ذات ليلة فقلت يا رسول الله ما شأنك ؟ قال " ألا من رجل صالح يحرسنا "فقالت بينا نحن كذلك سمعت صوت

سلاح . فقال " من هذا ؟ فقيل سعد وحذيفة جئنا نحرسك "فنام رسول الله حتى سمع غطيطه ف لت هذه الآية فأخرج رسول الله رأسه من قبة أدم وقال انصرفوا فقد عصمني الله "(2) ، وعن بن عباس رضي الله عنه أن عمه [العباس] أراد أن يرسل إليه ليحرسه فقال له " يا عم إن الله عصمني من الجن والإنس " (3) (4) .

ويقول بن القيم { ضمان العصمة لا ينافي تعاطي أسبابا . فأن هذا الضمان له من ربه لا يناقض احتراسه من الناس ولا ينافيه مثلما أخبره الله تعالى بظهور دينه على الدين كله فلا يناقض ذلك أمره له بالقتال وإعداد القوة ورباط الخيل } (5)، يؤيد ذلك قوله تعالى (وَإِنْ يُرِيدُوا أَنْ يَخْدَعُوكَ فَإِن حَسْبَكَ اللهُ هُوَ الذِي أَيدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ) (6) وقوله أيضا (يَا أَيهَا النبِي حَسْبُكَ اللهُ وَمَنِ اتبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ) (7) ، وما كان ذلك لنبي قبل لأن العصمة على هذا النحو جاءت مباشرة وصريحة ومحددة في طبيعتها ونتائجها . بينما كانت عصمة الأنبياء عامة تدخل في أطر المعية والعناية الإلهية بالقدر الذي يحقق الغرض من بعثتهم . وهم يتفاوتون في هذا الصدد على قدر تفاوتم في دورهم النبوي . لذا قتل بعض الأنبياء . وعذب بعضهم . إذن فليس المقصود من العصمة هو العصمة من الذنوب والأثام سواء صغيرها وكبيرها أو عمدها وسهوها وسواء أكان ذلك لرسول الله أو لغيره من الأنبياء ، لأن العصمة وفق هذا المفهوم خروج بالرسول عن بشريته وعن جبلته وغريزته وفطرته وطبيعته التي أوجده الله عليها .. إذ لو كانت العصمة كذلك لما تعلل المشركين بقولهم (وَقَالُوا مَالِ هَذَا الرسُولِ يَأْكُلُ الطعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ لَوْلا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيراً) (8) لأن البشر عندهم يأكلون ويشربون ويغوطون ويتبولون ومن ثم فهم يخطئون ويصيبون فضلا عن أن عصمة النبي من الخطأ أو الذنب هو سلب لإرادته وحريته المميز بـا كإنسان على سائر المخلوقات ، وفي هذه الحالة يصير كواحد من هذه المخلوقات ا لـبولة على الطاعة بغير إرادة أو حرية ، كما أن ذلك يتعارض مع قوله تعالى (إِنا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحاً مُبِيناً لِيَغْفِرَ لَكَ اللهُ مَا تَقَدمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخرَ وَيُتِم نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَاطاً مُسْتَقِيماً)(9) وقوله (فَاعْلَمْ أَنهُ لا إِلَهَ إِلا اللهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَاللهُ يَعْلَمُ مُتَقَلبَكُمْ وَمَثْوَاكُمْ)(10)

----

(1) المائدة 67 (2) المستدرك على الصحيحين 3221 (3) مجمع الزوائد للهيثمي ج7 (4) انظر أسباب اا ول للنيسابوري

(5) بن القيم الفوائد (6) الأنفال 62 (7) الأنفال 64 (8) الفرقان 7 (9) الفتح 2 (10) محمد 1

ولكن هل معنى ذلك أنم غير معصومون من الخطأ والزلل والذنوب والآثام ؟ وهل تأخذ تصرفاتم – التي يقال عنها ظاهرا وجدلا أخطاء – مثالا على انعدام العصمة ؟ الإجابة بالنفي في الحالتين ، فهم أولا معصومون ولكن عصمتهم كانت من إرادتم وقوة عزيمتهم وعون من الله لازما ، وعصمة نبينا صلى الله عليه وسلم هي من ذات الإرادة والقوة ومن ذات العون والمعية ، وثانيا من الجهل ضرب هذه المواقف مثلا على عدم العصمة من وجهين : الأول خضوعها لميزان مغاير لأخطاء البشر دونم ، إذ تنبع أخطاء البشر وذنوبم من ضعف العزيمة والإرادة ومن سلطان الشيطان وهوى النفس ، مهما قلت هذه الذنوب أو دقت ،

الثاني : أنم معصومون حتى ولو وقع منهم خطأ واحدا كبيرا أو صغيرا ، لأن هذا الخطأ ليس هو القاعدة ، هذا وينبغي التفرقة بين نوعين من الذنوب . الأولى الذنوب الأخلاقية – إن صح هذا التعبير – صغيرة كانت أم كبيرة فمحال وقوع الأنبياء فيها ، واستحالة وقوعهم فيها تعود لقوة إرادتم وقوة إيمانم وقوة قربم وصلتهم بالله سبحانه وتعالى ، وإلا سقطت هيبتهم وحجتهم أمام قومهم ، الثانية هي الذنوب الاجتهادية – إن صح هذا التعبير – والتي تؤدي إليها محاولة النبي الإصلاح والتبليغ عن ربه فمن الممكن وقوع النبي فيها كخروج يونس مغاضبا وإلقاء موسى الألواح .. ولأن الأمر يقتضي مزيد من التفصيل نعرض ما يلي :- (3)

1- معنى العصمة : العصمة في اللغة هي المنع والوقاية قال تعالى (لا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللهِ إلا مَنْ رَحِمَ)(4) أي لا يوجد ما يمنع من الماء ، وتأتي بمعنى النجاة ومنها قوله تعالى (وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللهِ جَمِيعاً وَلا تَفَرَّقُوا)(5) أي تمسكوا بمنهج الله تنجوا ، وأيضا بمعنى الحفظ كقوله صلى الله عليه وسلم " فقد عصموا مني دمائهم وأموالهم " أي حفظوها ومنعوها وعند الأشاعرة : القدرة على الطاعة وعدم القدرة على المعصية ، وعند الزيدية : لطف من الله يكون النبي مدفوعا معه إلى عدم ارتكاب الكبائر . والمعتزلة يرونا لطف من الله أيضا على المكلف لا يجعل له داع إلى ترك الطاعة وارتكاب المعصية مع قدرته على ذلك ، بمعنى أن لا ينتهي إلى حد الإلجاء ، ومن ثم وطبقا لهذا التعريف فالأنبياء ليسوا مجبورين ، بل يعني أن استعدادهم كامل في التمييز بين الخير والشر ويستدلون على ذلك بدليلين : الأول . أن الأنبياء مكلفون بالطاعة وترك الذنوب والإثابة على الطاعة والترك ، ولو كان الذنب ممتنعا عنهم لما كان الأمر كذلك ، الثاني . قوله تعالى " (قُلْ إِنَمَا أَنا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَي أَنمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ) (4)حيث تفيد هذه الآية بشرية النبي بشمول معناها وأحوالها

2- فاعل العصمة : أي من يفعل العصمة هل يفعلها الله تعالى بالنبي ؟ أم يفعلها النبي بوصفه مختار ؟ اختلفت الفرق الإسلامية على ثلاثة مذاهب . المذهب الأول (الأشاعرة) : يرون أن الله هو الفاعل وأن الله لا يخلق فيهم ذنوبم ويصرفهم عن ذلك ووافقهم الزيدية والإمامية مستدلين على ذلك من قوله تعالى :وَلَوْلا أَنْ ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئاً قَلِيلاً) (5). ويتأتى ذلك عند بعضهم بالصرفة وعند آخرون باللطف الإلهي .

----

(1) معظم ما يلي تحت هذا البند عن كتاب عصمة الأنبياء في الأديان للدكتور محمود ماضي (2) هود من الآية 43

(3) آل عمران من الآية 103 (4) الكهف من الآية 110 (5) الإسراء 74

المذهب الثاني : يرى أن العصمة من الأنبياء أنفسهم ، ومعنى أن النبي معصوم أي أخبر عن أنه معصوم . وذلك بمعونة من الله وتوفيق لهم ، المذهب الثالث : يرى أن فاعل المعصية هو النبي من الجهتين ، جهة كونه مختارا بإصراره على الاستقامة . ومن جهة الله تعالى بالاستجابة له بعصمته .

3- عصمة الأنبياء قبل البعثة : على فريقين أيضا : معظم علماء الكلام من المعتزلة والشيعة والزيدية والظاهرية والأمامية يرون أن العصمة للأنبياء قبل البعثة – مع مراعاة اختلافهم في المعنى _ وهي من قبيل الإرهاصات ومقدمات النبوة . وأهل السنة يرون أنم معصومون قبل البعثة نعم ولكن من الجهل بالله وصفاته والتشكيك في شيء من ذلك !

4 - الكبائر والصغائر . يكاد يكون الإجماع معقود على عصمة الأنبياء من الكفر والشرك وكبائر المعاصي . أما الصغائر التي ترزي بفاعلها وتحط م لته وتسقط مروءته فلا تجوز أيضا . خاصة إذا كانت متعلقة بالتبليغ ، وما دون ذلك فيمكن

5- العصمة بعد البعثة . يرى بن تيمية أن الأنبياء عليهم السلام معصومون فيما يخبرون به عن الله تعالى وفي تبليغ رسالاته باتفاق الأمة بخلاف غير الأنبياء فإنم غير معصومين حتى ولو كانوا من الأولياء . أما فيما يتعلق بغير التبليغ فالقول الذي عليه جمهور الناس الموافق للسنة والمنقول عن السلف إثبات العصمة من الإقرار على الخطأ والذنوب مطلقا "يريد القول بإمكانية وقوع الخطأ من النبي بوصفه بشر إلا من الإقرار والإصرار عليه ، وأجاز القاضي عياض في الشفاء ذلك من جهة أن يعتقد النبي الشيء فيظهر خلافه . واستشهد بواقعتي تأبير النخل(1) والا ول بماء بدر ومعارضة الحباب بن المنذر ذلك (2). يريد القول بإمكانية وقوع الخطأ من النبي ولكن بشرطين أن يكون ذلك في أمور الدنيا وأحكام البشر ، وأن يكون ذلك مرده إلى الظن بصحة الرأي فيثبت عكسه . ويؤيد هذا الرأي بن خلدون في مقدمته عند الحديث عن طب البادية لما كان يراه رسول الله في أمر العلل وعلاجها ، ويقول أن رأيه صلى الله عليه وسلم في ذلك لا يتصل بالوحي . بل يعد من أحوال عاداته وجبلاته

وما نراه هو قدرة الأنبياء على ارتكاب كافة الذنوب المتعلقة بالأخلاق صغيرها وكبيرها وما تعلق منها بالنبوة – كالكتمان أو القصور في التبليغ – ومالا يتعلق با وقبل البعثة أو بعدها ، ولكنهم معصومون عن ذلك وعصمتهم من ذاتم وبتوفيق الله تعالى لهم .

----

(1) في صحيح مسلم 2361 عن موسى بن طلحة عن أبيه قال ثم مررت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم بقوم على رؤوس النخل فقال ما يصنع هؤلاء فقالوا يلقحونه يجعلون الذكر في الأنثى فيلقح فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ما أظن يغني ذلك شيئا قال فأخبروا بذلك فتركوه فأخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم بذلك فقال إن كان ينفعهم ذلك فليصنعوه فإني إنما ظننت

ظنا فلا تؤاخذوني بالظن ولكن إذا حدثتكم عن الله شيئا فخذوا به فإني لن اكذب على الله عز وجل (2) الرواية لدى القرطبي في تفسير قوله تعالى " إذ يغشيكم النعاس "

سابع عشر : غفران ذنوبه ما تقدم منها وما تأخر

سند ذلك قوله تعالى (إنا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحاً مُبِيناً لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَاطاً مُسْتَقِيماً) (1) ، وهذه الآية من أخريات الآيات التي نزلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم . حيث نزلت بعد فتح مكة في العام الثامن أو التاسع الهجري قبل وفاته صلى الله عليه وسلم في العام العاشر ، ونظيرها قوله تعالى " إذا جاء نصر الله والفتح ورأيت الناس يدخلون في دين الله أفواجا فسبح بحمد ربك واستغفره . إنه كان توابا " (2) وقالت السيدة عائشة رضي الله عنها لرسول الله بعد أن رأته قد تورمت قدماه من طول الوقوف بين يدي الله أتفعل هذا وقد غفر الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر ؟ فقال لها " أفلا أكون عبدا شكورا (3)وقال أيضا إني استغفر الله في اليوم والليلة مائة مرة

ومن ذلك علم أن الله سبحانه وتعالى جعل ذلك مكافأة له صلى الله عليه وسلم عقب فتح مكة ودخول الناس في دين الله أفواجا ، وأن هذه المكافأة ضمن فضائل أخر هي { من الله عليه بفتح مكة وتمام النعمة وهدايته الصراط المستقيم } . وأن غفران ذنبه صلى الله عليه وسلم لم يمنعه من الاستغفار ولم يمنعه من الشكر . وأن الاستغفار والشكر عملان إيجابيان يؤديان بالتعبد لله والتقرب إليه ، وهو ما يؤكد ما قلناه من أن عصمته صلى الله عليه وسلم وكذا عصمة الأنبياء من قبله ليس المقصود بها عصمته من الوقوع في الذنوب وإنما حمايته من تعرض الناس له ، ومن الآيات القريبة من هذه المعاني قوله تعالى : " وثيابك فطهر " (4) فمن بعض تفسيراتها ما روي عن بن عباس قوله - أي من الإثم ومما كانت الجاهلية تجيزه -. وقال قتادة ومجاهد ونحوه الشعبي والضحاك والزهري -نفسك فطهرها من الذنب - وقيل يعني لا تغدر . لأن الرجل إذا غدر قيل دنس الثياب وقال عكرمة أي لا تلبس ثوبك على معصية .(5) ، وكان صلى الله عليه وسلم يدعو ربه فيقول " اللهم طهرني من خطاياي كما ينقى الثوب الأبيض بالماء والثلج والبرد وباعد بيني وبين خطاياي كما باعدت بين المشرق والمغـرب (6)

وفي سبب نزول هذه الآية يقول أنس عن رسول الله صلى الله عليه وسلم " لقد أنزلت علي آية لهي أحب إلي مما على وجه الأرض . (7) وفي تفسيرها قيل ما تقدم من ذنبك أي قبل الرسالة ، وما تأخر أي بعده ، وقيل ما قبل الوحي وما بعده ، وقيل ما تقدم من ذنبك يوم بدر ، وما تأخر من ذنبك يوم حنين

حيث قال يوم بدر " اللهم إلا تلك هذه العصابة لن تعبد في هذه الأرض " فأنزل الله عليه الوحي يقول له " وما أدراك أني إن لم أهلك هذه الفئة لا أعبد في هذه الأرض ويوم حنين نزل قوله تعالى (فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِن اللَّهَ قَتَلَهُمْ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِن اللَّهَ رَمَى وَلِيُبْلِيَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلاَءً حَسَناً إِن اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ) (8) ، بمقولة أن رسول الله قال " لولم أرمهم بالرمال والحصباء ما انزموا "(9)وكلاهما ضعيف

----

(1) الفتح 2 (2) النصر (3) صحيح مسلم 2819 (4) بن حبان 926

(5) المدثر 4 (6) صحيح مسلم 476 (7) أسباب النزول للنيسابوري (8) الأنفال 17

(9) انظر تفسير القرطبي لقوله تعالى إنا فتحنا لك فتحا مبينا

ذنوب الأنبياء :

وما نراه أنه إذا اتفقنا أن الذنوب تتفاوت بين البشر كما تتفاوت بينهم الأعمال الصالحات ، حيث أن أقلهم ذنبا الأنبياء ثم الأولياء ثم الأقل فالأقل ، كما تتفاوت هذه الذنوب في الكم والكيف ، وأن ذنوب البشر مصدرها الهوى والدنيا والشيطان والنفس الأمارة بالسوء ووهن الإرادة وقلة العزيمة وضعف الإيمان ، مجتمعة هذه المصادر أو على انفراد ، وأن ذنوب الأنبياء مصدرها الدعوة إلى الله والجهاد في ذلك ، ويمكن القول أن ذنوب الأنبياء عليهم السلام وأخصهم محمد عليه الصلاة والسلام مصدرها اجتهادهم في البلاغ وتعلقها بالنبوة والرسالة ، كإجهاده نفسه صلى الله عليه وسلم في الدعوة وإسرافه في تمني اهتداء قومه جميعا حتى قال له ربه : (إِنكَ لا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِن اللهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ)(1) ، وجاءه بعض اليهود يسألونه عن بعض الأمور فوعدهم بالإجابة دون أن يستثني . فأنزل الله قوله "وَلا تَقُولَن لِشَيْءٍ إِني فَاعِلٌ ذَلِكَ غَداً إِلا أَنْ يَشَاءَ اللهُ وَاذْكُرْ رَبكَ إِذَا نَسِيت)(2)

ومنع نفسه عن العسل عندما أوهمته بعض زوجاته أن رائحة كريهة تنبعث من فمه . فأنزل الله قوله يَا أَيهَا النبِي لِمَ تُحَرمُ مَا أَحَل اللهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَزْوَاجِكَ وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ)(3) وما هذه الذنوب بذنوب في عرف البشر ، بل هي حسنات لهم وقربات إلى الله ، فلو أجهد امرؤ نفسه في الدعوة إلى الله وأسرف في ذلك وبالغ ، نال الأجر والثواب كلما اجتهد وكلما أسرف وتعب ، ولو نسي المشيئة فخطأه مرفوع عنه لقوله صلى الله عليه وسلم " رفع عن أمتي الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه " (4) ، لذا قيل " حسنات الأبرار سيئات المقربين " .

وما ارتكب رسول الله صلى الله عليه وسلم لا قبل الوحي ولا بعده ، ولا قبل فتح مكة ولا بعدها ، ولا يوم بدر ولا يوم حنين ، ذنوبا دنيوية أو بشرية -إن صح أحد هذين التعبيرين- ، إنما كانت ذنوبه من قبيل الذنوب الدينية أو النبوية -إن صح أيضا أحد هذين التعبيرين- ، ورغم ذلك أعلن الله صراحة غفرانا له ما تقدم منها وما تأخر ليلقاه طاهرا مطهرا من كل ذنب أيا كان نوعه وأيا كان سببه وأيا كان قدره وأيا كان عدده . ولم يثبت في أي مصدر أن ذلك كان لنبي قبله ، ولم يعد الله نبي من الأنبياء بمثل هذا الوعد ، وحديث الشفاعة الكبرى الذي قر فيه أكابر الأنبياء ببعض ذنوبهم معروف .

----

(1) القصص 56 (2) الكهف من الآية 24 (3) التحريم (4) بن حبان 7218

ثامن عشر : تأييده بجنود من عنده جلا وعلا

وهو وجه آخر من وجوه المعية الإلهية لرسوله صلى الله عليه وسلم ، حيث أيده سبحانه وتعالى في مواقف مختلفة بجنود من قبله وخلق من خلقه ، وذلك بقصد إعانته ومساعدته على أداء الأمانة وتبليغ الرسالة المكلف بها صلى الله عليه وسلم ، وكان أكثر هذا التأييد في الغزوات والحروب . كتأييده بالملائكة ، وضربه النعاس عليه وعلى المسلمين آمنة منه ، وإنزاله الماء طهرة لهم وإنزاله السكينة على قلبه وقلوب المؤمنين والربط على قلوبهم ، قال تعالى "إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أني مُمِدكُمْ بِأَلْفٍ مِنَ الْمَلائِكَةِ مُرْدِفِينَ وَمَا جَعَلَهُ اللهُ إِلا بُشْرَى وَلِتَطْمَئِن بِهِ قُلُوبُكُمْ وَمَا النصْرُ إِلا مِنْ عِنْدِ اللهِ إِن اللهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ إِذْ يُغَشيكُمُ النعَاسَ أَمَنَةً مِنْهُ وَيُنزلُ عَلَيْكُمْ مِنَ السمَاءِ مَاءً لِيُطَهرَكُمْ بِهِ وَيُذْهِبَ عَنْكُمْ رِجْزَ الشيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَى قُلُوبِكُمْ وَيُثَبتَ بِهِ الأَقْدَامَ إِذْ يُوحِي رَبكَ إِلَى الْمَلائِكَةِ أني مَعَكُمْ فَثَبتُوا الذِينَ آمَنُوا سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الذِينَ كَفَرُوا الرعْبَ فَاضْرِبُوا فَوْقَ الأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُل بَنَانٍ) (1) وقال سبحانه (لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئاً وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُم وَليْتُمْ مُدْبِرِينَ ثُم أَنْزَلَ اللهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنْزَلَ جُنُوداً لَمْ تَرَوْهَا وَعَذبَ الذِينَ كَفَرُوا وَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ) (2) وتأييده بريح اقتلعت خيام المشركين في غزوة الخندق ، قال تعالى " (يَا أَيهَا الذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحاً وَجُنُوداً لَمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيراً إِذْ جَاءُوكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنونَ بِاللهِ الظنُونَا) (3)

وكتأييده في الهجرة بالعمى الذي ضربه سبحانه وتعالى على المشركين فلم يروه إثناء خروجه ولم يروه أثناء وجوده في الغار مع صاحبه أبو بكر ، قال تعالى (وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَداً وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَداً فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لا يُبْصِرُونَ) (4) وقال (إِلا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللهُ)(5)وتأييده بصالح المؤمنين والملائكة خير معية لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال تعالى (إِنْ تَتُوبَا إِلَى اللهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا وَإِنْ تَظَاهَرَا عَلَيْهِ فَإِن اللهَ هُوَ مَوْلاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمَلائِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ) (6)

----

(1) الأنفال 12 (2) التوبة 26 (3) الأحزاب 10 (4) يس 9 (5) التوبة (6) التحريم 4

اختلاف التأييد عن المعجزة والعصمة

وهذا النوع من التأييد يختلف عن المعجزة ويختلف عن العصية ، أما اختلافه عن المعجزة فقد قلنا أن المعجزة الأساسية لرسول الله صلى الله عليه وسلم هي القرآن الكريم ، وأن المعجزات الخاصة هي كرامة له ومكرمة ، أما هذا النوع من التأييد فلا يندرج تحت هذين النوعين وإن كان معجزا في حد ذاته وإن تحدث الله سبحانه وتعالى به أو تحدث به رسوله كآية من آياته ، إذ كان غرضه وهدفه المحدد هو مساعدته وإعانته صلى الله عليه وسلم على أداء الأمانة وتبليغ الرسالة المكلف بما ، كما يريد جلا وعلا وكما تقتضي مشيئته ، بما يعني انتفاء صفة الخصوصية والكرامة عن هذا التأييد الإلهي ، ويتصف في الوقت ذاته بالشمولية والعموم للرسالة والإسلام بأكمله وهذا الفارق وإن بدا دقيقا خفيا ، إلا أنه يبدو جليا واضحا إذا علمنا أن معجزاته صلى الله عليه وسلم الحسية وإن أثرت في الإسلام إيجابا ، إلا أن عدم وجودها لم يكن ليؤثر فيه سلبا ، أما التأييد محل القول فما كان للإسلام أن تقوم له قائمة ، وما كان له أن ينطلق نحو قدره المقدر منذ بدء الخلق ونشأته بدونه ، وأما اختلاف التأييد عن العصمة فمن وجه واحد فقط هو خصوصية العصمة وشمولية التأييد ويتفق كلاهما في الهدف وهو نصرة الإسلام بعمومه . وهذه المادة من مواد التفاضل لم يحرم منها الأنبياء السابقون إلا أنا كانت في إطار محدود يكاد ينحصر بالنسبة لهم جميعا في حالات تقل عما لرسول الله وحده ،

ومن أمثلة هذا التأييد وحيه لنوح عليه السلام بصنع السفينة وأمره بأن يأخذ فيها من آمن معه من المؤمنين قال تعالى " (وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلا تُخَاطِبْنِي فِي الذِينَ ظَلَمُوا إِنهُمْ مُغْرَقُونَ) (1) وتأييده لعيسى بن مريم عليه السلام بروح القدس ، قال تعالى (وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ)(2) ولاحظ أن الآية فرقت بين البينات التي هي الآيات المعجزات وبين التأييد ، وتأييده لموسى عليه السلام برفع الطور فوق قومه ليؤمنوا قال تعالى " (وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلكُمْ تَتقُونَ) (3) ولم يذكر هذا الرفع ضمن معجزات موسى وآياته التسع الواردة في قوله تعالى (وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى تِسْعَ آيَاتٍ

بَيِّنَاتٍ) (4) ، فقال القرطبي فيها هي " العصا والسنون واليد والدم والطوفان والجراد والقمل والضفدع فلق البحر وقيل البينات التوراة "

ومن التأييد أيضا توقف الشمس ليوشع بن نون فيما رواه أبو هريرة رضي الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم " إن الشمس لم تحبس لبشر إلا ليوشع ليالي سار إلى بيت المقدس) (5)

----

(1) هود 37　　(2) البقرة من الآية 87　(3) الإسراء من الآية 101

(4) البقرة 63　　(5) المستدرك على الصحيحين 2618

تاسع عشر : وجوب محبته

أصل الحب موافقة الحبيب لمن يحبه ، إذ تجد دواعيه رضى في نفسه وراحة في قلبه ، ولأن رسول الله صلى الله عليه وسلم توافرت عنده دواعي المحبة وأسبابها فقد أحبه أصحابه حبا ضرب به المثل في التاريخ ، حتى عد ذلك من معجزاته ، بل قيل لو لم تكن له معجزة صلى الله عليه وسلم سوى حب أصحابه له لكفى ، وعلى الرغم من ذلك " أي على الرغم من توافر هذه الدواعي وقيام الدلائل عليها " فقد جعل الله تعالى حبه فرضا على المسلمين وجعله درجة سامقة من درجات العبودية لا يكمل إيمان العابد إلا به ، فقال صلى الله عليه وسلم " لن يكمل إيمان أحدكم حتى أكون أحب إليه من ماله وولده ونفسه التي بين جنبيه ". فقال عمر بن الخطاب لأنت أحب إلى من مالي وولدي يارسول الله إلا نفسي فقال " لا يا عمر إلا أن أكون أحب إليك من نفسك " فقال عمر " أنت أحب إلي من مالي وولدي ونفسي التي بين جنبي يا رسول الله . فقال صلى الله عليه وسلم " الآن يا عمر " (1) ،

وهنا لابد أن يعتمل في العقل سؤالين ، الأول هو إذا كانت أسباب الحب ومبرراته متوافرة لدى رسول الله صلى الله عليه وسلم فلما أمر الله به ؟ والثاني كيف تفاوت موقف عمر في لحظة بين الإقرار- وبصدق – بحبه لرسول الله عن ماله وولده دون نفسه ، والإقرار- وبصدق أيضا - بحبه له عن ماله وولده ونفسه التي بين جنبيه ؟

أما عن أن حبه صلى الله عليه وسلم أمرا لازما رغم توافر دواعيه فذاك لسببين :

الأول : لتبعيته صلى الله عليه وسلم وعبودية الله سبحانه وتعالى على منهجه وطريقته دون أن يكون للهوى دخل في ذلك الإتباع وتلك العبودية . فذلك قوله تعالى " (قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ)(2) ، وما ذاك إلا لأن رسول الله هو الصورة المجسدة النابضة لأوامر الله تعالى ونواهيه ولعبوديته له سبحانه كما يحب وكما يريد أن يعبد به .فكان لابد أن تكون عبودية المسلمين لله تعالى على نمط هذه الصورة ومثلها بغير زيادة ولا نقصان ، وعلى قدر إتقان المسلم لهذه الصورة تكون درجة العبودية ، وما كان

ذلك ليتحقق إلا بالحب الذي هو منشأه القلب ، وهذا الوجه يشترك فيه المسلمون جميعا الأولون منهم والمتأخرون ولكن يمتاز الأولون برؤية هذه الصورة ، فأدوا مثلها فوصلوا إلى الدرجة الأعلى للعبودية . وامتاز الذين بعدهم بقرب عهدهم بعهده صلى الله عليه وسلم ورأوا من رأوه ، فأدوا مثلما أدوا فوصلوا إلى الدرجة العالية من العبودية دون الأعلى ، وهكذا قلت الدرجات كلما بعد العهد وكلما تطاولت القرون وبعدت الصورة ،
إلا أن رحمـ ـ ـة الله ورسوله تركتا للمسلمين ميراثا من العلم بالله سبحانه وتعالى ، وبه صلى الله عليه وسلم يتوارثونه جيلا بعد جيل وقرونا تعقبها قرون ، وبذا العلم تبقى صورته صلى الله عليه وسلم مجسدة في عقول البشر وأذهانم مهما بعد بم الزمن ومهما اختلفت الألسنة والألوان . وكل ذلك منشأه الحب .

----

(1) البخاري 6257 (2) آل عمران 31

بل يتفاوت الثواب والعقاب بذا القدر من البعد والاختلاف ، حيث يزيد الثواب لمن اتبعوه حق الإتباع ولم يروه عمن رأوه واتبعوه ، حتى أنه صلى الله عليه وسلم وصف قوما لم يروه بأنم أحبابه ، وعمل الواحد منهم يعدل عمل خمسين من الصحابة ، فقال " إن من ورائكم أياما الصبر فيهن مثل قبض على الجمر ، للعامل فيهن مثل أجر خمسين رجلا يعملون مثل عمله وزاد بعضهم أجر خمسين منكم (1).

الثاني : حبه لذاته صلى الله عليه وسلم ولشخصه ، وذلك بغرض حمايته والذود عنه وفداءه بالأب والأم والروح والمال وبكل عزيز وغال وتفضيله وإيثاره على ما سواه ، وهذا النوع من الحب هو أحد الأسباب التي اتخذها الله سبحانه وتعالى حماية لنبيه وعصمته حتى يتمكن من أداء رسالته ووصول دينه إلى العالمين ، لما تتصف به هذه الرسالة من الكمال والشمول والعموم والخلود ، وهذا هو الوجه الإعجازي الذي اندهش له الناس قديما وحديثا ، وهو وجه اختص به الصحابة الأوائل فقط ممن رأوا رسول الله وعاشوا معه ، وحاربوا وخاضوا معه سنوات الكفاح والجهاد والسراء والضراء حتى مكن الله لهم دينهم الذي ارتضى ، وبقي هذا الحب مستقرا ومستودعا في قلوبم وأفئدتم يعلمونه لخلفهم وعقبهم ، حتى انتشر دين الله وبلغ ما بلغ ، أما المتأخرون من بعدهم فإنم وإن كان حبهم لرسول الله قاصر على التبعية ، والتبعية هي الدليل على حبهم ، بما في ذلك من أمنيات تخالج قلوبم ، ووجل تخشع له جوارحهم كلما ذكر اسمه صلى الله عليه وسلم ، فترق له الأفئدة وتفو إليه الأرواح وتشتاق إليه النفوس إلا أن ذلك لا يمنع الفداء والإيثار والتضحية إذا وجب الأمر حتى وإن زالت العلة الموجبة لذلك وهي موته صلى الله عليه وسلم ، لذا يقول القاضي عياض في الشفاء " فالقيام بحق النبي واجب ذبا عن مقام النبوة وعظيم م لتها وحماية عرضه الشريف صلى الله عليه وسلم لا يتهاون في ذلك مسلم ، لأن حمايته ونصرته عما يؤديه حيا أو ميتا واجب على كل مؤمن ، ولكن إذا قام بذا المطلوب من الحماية والذب عنه من

ظهر به الحق بقدرته على إجراء حكمه وفصلت به القضية وبان به الأمر وأقيم عليه ما يستوجبه سقط عن بقية الناس الفرض الذي وجب عليهم لأنه فرض كفاية لا فرض عين ، وبقي الاستحباب في تكثير الشهادة على من صدر منه مثل ما صدر والتحذير منه . واستدل القائلون بذلك ببيان حال المتهم بالكذب في الحديث النبوي ، فالاعتناء بذاته الشريفة أوجب منه بحديثه صلى الله عليه وسلم .. " (2) وذلك إلى الحد الذي قال به أبو عبيد القاسم بن سلام نقلا عن بن حجر : من حفظ شطر بيت مما هجى به النبي صلى الله عليه وسلم فهو كفر إن رضي بذلك أو استحسنه ، بل وحرم كتابة ما هجي به النبي صلى الله عليه وسلم وقراءته وحده أو مع غيره وحرم تركه دون محو أو إزالة بحرق أو نحوه ، لذا فقد أسقط السلف الأوائل من أحاديث المغازي والسير من هذا سبيله وتركوا روايته صونا لألسنتهم من النطق بمثله وكتابته إلا أشياء ذكروها يسيرة وغير مستبشعة . (3)

----

(1) بن حبان 385 (2) ت يه الأنبياء عن تسفيه الأغبياء لجلال الدين السيوطي (3) نفس المصدر

وأما عن تباين موقف عمر في لحظة واحدة فما هو بذلك ولكنه رضي الله عنه عبر في الأولى عن الذات البشرية بأسرها التي لاتجد أعز عندها من نفسها ، فلا تؤثر عليها غيرها . بل حتى في لحظات الإيثار والتضحية بالنفس فإن ذلك يكون في إطار حب النفس وعشقها . فيؤثرها أو يضحي با بوصفها أعز ما يملك ، وبوصفه لا يملك أغلى منها للإيثار أو التضحية . لذا ضرب الله تعالى بالأنصار المثل الأروع فقال عنهم (وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ) (1) وذلك لأن النفس هي أغلى من كل شيء ، أما في الثانية فقد عبر عمر عن ذات المسلم كما ينبغي أن يكون إسلامه ، وعن ذات المؤمن كما ينبغي أن يكون إيمانه ، فأعلن تسليمه بقضاء رسول الله وأعلن طاعته لأمره فقرر حبه له عن نفسه وعن ماله وولده وكل ما يملك ، وهو عندما قرر ذلك كان كسائر الصحابة ، أصدر قرارا نابعا من قلبه ومعبرا عن يقينه ، ومسلما به زمام هواه ومزاجه ورغباته ونزعاته إلى الله وإلى رسوله بحيث لايجد بعد ذلك ثمة تراجعا أو ندما

حب الرسول لصحابته .

وإن يكن حب الصحابة لرسول الله صلى الله عليه وسلم معجز ومبهر في ذاته رغم كونه فرض وواجب عليهم وعلى كل مسلم ومسلمة ، فأن الأمر الأعظم إعجازا هو حبه صلى الله عليه وسلم لهم . لأن اجتماع الناس مهما قلوا أو كثروا على حب شخص واحد أمر مقبول ومتصور ، خاصة إذا كان هذا الشخص هو رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أما أن يحب شخص واحد كل هذه الجموع على كثرتا حتى يظن الواحد منهم أنه المفضل والأثير لديه . فهذا هو العجيب وهذا هو المبهر حقا . ولقد أحب رسول الله صحابته حبا عادلا يصعب معه

تحديد المفضل عنده دون الأخر ، ولأن الدليل على صحة ما نقول لا ينتهي القول فيه لذا نقتصر على الإشارة إلى بعض أقواله التي قالها صلى الله عليه وسلم لبعض صحابته بما يمكن الاستدلال منها على مدى اتساع قلبه وحبه لهم

بعض قوله عنهم جميعا

- قال صلى الله عليه وسلم " أرحم أمتي بأمتي أبو بكر وأقواهم في دين الله عمر وأشـدهم حيـاء عثمـان وأقضاهم علي بن أبي طالب ولكل نبي حواري وحواري طلحة والزبير وحيث ما كان سعد بن أبي وقاص كـان الحق معه وسعيد بن زيد من أحباء الرحمن وعبد الرحمن بن عوف من تجار الرحمن وأبو عبيدة بن الجراح أمين الله وأمين رسول الله ولكل نبي صاحب سر وصاحب سري معاوية بن أبي سفيان فيمن أحبهم فقد نجا ومن أبغضهم فقد هلك (2)

- وفي حجة الوداع صعد صلى الله عليه وسلم المنبر فحمد الله تعالى وأثنى عليه ثم قال يا أيها الناس إن أبا بكر لم يسؤني قط فاعرفوا له ذلك ، يا أيها الناس إني راض عن عمر وعثمان وعلي وطلحة بن عبيد الله والزبير بـن العوام وسعد بن مالك وعبد الرحمن بن عوف والمهاجرين الأولين فاعرفوا لهم ذلك (3)

----

(1) الحشر 9 (2) سنن الترمذي 3790 (3) الديلمي في الفردوس بمأثور الخطاب 8187

- عن عبد الله بن مغفل المزني قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم الله الله في أصحابي لا تتخذوهم غرضا بعدي فمن أحبهم فبحبي أحبهم ومن أبغضهم فببغضي أبغضهم ومن آذاهم فقد آذاني ومن آذاني فقد آذى الله عز وجل ومن آذى الله يوشك أن يأخذه (1) (2)

بعض أقواله عن بعضهم فرادى

- عمر بن الخطاب : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم والذي نفسي بيده ما لقيك الشيطان قط سالكا فجا إلا سلك فجا غير فجك (3)

- عثمان بن عفان : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان عثمان رجل حيي (4)

- علي بن أبي طالب : عن أبي سعيد الخدري قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لعلي

" أنت مني بمـ لة هارون من موسى الا انه لا نبي بعدي " (5)

- الزبير بن العوام : قال صلى الله عليه وسلم لكل نبي حواري وإن حورايي الزبير وابن عمتي (6)

- أبو عبيدة الجراح : عن حذيفة قال جاء العاقب والسيد إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقالا أرسل معنا رجـلا أمينا فقال النبي صلى الله عليه وسلم سأرسل معكم رجلا أمينا حق أمين حق أمين قال فجثا لها أصحاب الـنبي على الركب قال فبعث أبا عبيدة بن الجراح (7)

- سعد بن أبي وقاص : عن سعيد بن المسيب قال سمعت سعدا يقول جمع لي رسول الله أبويه يوم أحد

- سعد بن معاذ : عن أبي سفيان عن جابر قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

لقد اهتز عرش الله عز وجل لموت سعد بن معاذ (8)

- أسامة بن زيد : عن محمد بن أسامة بن زيد عن أبيه قال لما ثقل رسول الله صلى الله عليه وسلم هبطت وهبط الناس معي إلى المدينة فدخلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد أصمت فلا يتكلم فجعل يرفع يـده إلى السماء ثم يصبها علي أعرف أنه يدعو لي

- عبد الله بن مسعود : عن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من أحب أن يقرأ القرآن غضا كما أنزل فليقرأه على قراءة بن أم عبد (9)

- عبد الله بن عباس : قال النبي صلى الله عليه وسلم له اللهم فقهه الدين وعلمه التأويل (10)

- عمار بن ياسر : عن هانئ بن هانئ عن علي قال كنت جالسا عند النبي صلى الله عليه وسلم فجاء عمار فاستأذن فقال ائذنوا له مرحبا بالطيب المطيب (11)

----

(1) أخرجه الخلعي والحافظ الدمشقي في معجمه (2) فضائل الصحابة لابن حنبل

(3) البخاري 3120 (4) مسلم 2402 (5) مسلم 2404 (6) البخاري 2691 (7) مسلم 2420

(8) مسلم 2466 (9) بن خزيمة 1156 (10) المستدرك 6280 والطبراني في الأوسط 1422 (11) بن حبان 7075

- بلال بن رباح : قال صلى الله عليه وسلم يا بلال أني دخلت البارحة الجنة فسمعت خشخشتك أمـامي فـبم سبقتني إليها قال ما أحدثت إلا توضأت فصليت ركعتين فقال صلى الله عليه وسلم بذا (1)

- عمرو بن العاص : قال طلحة بن عبيد الله لا أحدث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم شـيئا إلا أني سمعتـه يقول إن عمرو بن العاص من صالح قريش (2)

- معاوية بن أبي سفيان : عن العرباض بن سارية السلمي قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول " اللهم علم معاوية الكتاب والحساب وقه العذاب "(3)

- جعفر بن أبي طالب " دخلت البارحة الجنة فرأيت فيها جعفرا يطير مع الملائكة " (4)

- عكاشة بن محصن " منا خير فارس في العرب " (5)

- حارثة بن سراقة " عبد نور الله الإيمان في قلبه " (6)

- أبو طلحة الأنصاري " لا يصيبك السوء يا أبو أيوب " (7)

- سلمان الفارسي " سلمان منا آل البيت " (8)

- عثمان بن مظعون " إن ابن مظعون لحيي ستير " (9)

- معاذ بن جبل " يوشك إن طالت بك حياة أن ترى ما هاهنا مليء بساتين "(10)

- البراء بن عازب " رب أشعث أغبر ذي طمرين لا يؤبه له لو أقسم على الله لأبره " (11)

- عكرمة بن أبي جهل " اللهم اغفر له كل عداوة عدانيها وكل مسير سار فيه إلى موضع يريد به إطفاء نورك . واغفر له ما نال مني في وجهي وأنا غائب "(12)

- أبو سلمة " اللهم اغفر لأبي سلمة وارفع درجته في المهديين واخلفه في عقبة في الغابرين. (13)

- أبو موسى الأشعري " اللهم أغفر لعبد الله وأجعله يوم القيامة فوق كثير من خلقك(14)

- عروة بن مسعود " إن مثله في قومه كمثل صاحب ياسين في قومه " (15)

- أبو سفيان بن حرب " من دخل دار أبو سفيان فهو آمن "(16)

- جلبيبا " كان رسول في إحدى غزواته فسأل صحابته هل تفقدون أحد ؟ قالوا نعم فلان وفلان وفلان . وأعاد عليهم السؤال ثلاثا فأجابوا بذات الجواب فقال ولكني أفقد جلبيبا . فلما وجدوه في القتلى قال " لقد قتل سبعة ثم قتلوه إنه مني وأنا منه " (17)

----

(1) سنن الترمزي 3689 (2) مسند أحمد 1382 (3) بن خزيمة 1938ج3 (4) المستدرك 4890 (5) فتح الباري ج 11 (6) مصنف بن أبي شيبه 30425 (7) شعب الإيمان للبيهقي وقال فرد به يحي بن العلاء (8) المستدرك 6539
(9) مجمع الزوائد للهيثمي رواية عن الطبراني (10) مسلم 2281 (11) مسلم وبن حبان والمستدرك دون الإشارة إلى البراء وروي الحديث بألفاظه عن أنس (12) حياة الصحابة الكاندهلوي (13) مسلم 920 (14) مسلم 2498
(15) المستدرك 6579 (16) مسلم باب فتح مكة 1780 (17) قصة مائتين من الصالحين

عشرون : لا يعذبهم الله وهو فيهم

جرت سنة الله تعالى في الأمم السابقة القضاء عليهم بالهلاك والدمار والعذاب حال استمرارهم في تكذيبهم لرسلهم وأنبيائهم ، بينما أكرم رسوله صلى الله عليه وسلم بمكرمة لم تكن فيمن قبله . وهي رفع العذاب عمن كذبوه لعلهم يثوبون أو يخرج من أصلابهم من يوحده . وجعل لأجل ذلك سبيلين أحدهما وجوده صلى الله عليه وسلم بينهم فقال تعالى (وَمَا كَانَ اللهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ) (1) ، وقد أتت هذه الآية بعد قوله تعالى (وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا قَالُوا قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا إِنْ هَذَا إِلا أَسَاطِيرُ الْأَوَلِينَ وَإِذْ قَالُوا اللهُم إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَق مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنَ السمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ) (2) وأتت قبل قوله تعالى (وَمَا لَهُمْ أَلا يُعَذِّبَهُمُ اللهُ وَهُمْ يَصُدونَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَمَا كَانُوا أَوْلِيَاءَهُ إِنْ أَوْلِيَاؤُهُ إِلا الْمُتقُونَ وَلَكِن أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ وَمَا كَانَ صَلاتُهُمْ عِنْدَ الْبَيْتِ إِلا مُكَاءً وَتَصْدِيَةً فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ) (3) ، ومن ثم فلا يتفق ما جاء بمعظم التفاسير بأن العذاب الذي جاء في نهايات الآيات سالفة الذكر في قوله تعالى (فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ)" هو هزيمة المشركين في غزوة بدر ، وذلك لعدة أسباب :-

الأول :- أن ذلك ينفي القول في الآية السابقة برفع العذاب عنهم لوجود رسول الله بينهم . وللاستغفار الذي هو عامل مشترك بين جميع الأمم في تأخير العذاب ورفعه . قال تعالى على لسان نوح عليه السلام (فَقُلْتُ

اسْتَغْفِرُوا رَبكُمْ ـإنهُ كَانَ غَفاراً) (4) وقال عـلـ ــى لسان هود عليه السلام " (وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبكُمْ ثُم تُوبُوا ـإلَيْهِ يُرْسِلِ السمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَاراً وَيَزِدْكُمْ قُوةً ـإلَى قُوتِكُمْ وَلا تَتَوَلوْا مُجْرِمِينَ) (5) ، وقال صالح عليه السلام لقومه (وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحاً قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللهَ مَا لَكُمْ مِنْ ـإِلَهٍ غَيْرُهُ هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ ـفِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُم تُوبُوا ـإلَيْهِ ـإن رَبي قَرِيبٌ مُجِيبٌ) (6) ، الثاني : أن القتل والإصابة لم يلحق كل وجوه قريش ومشركيها ، الثالث : أن القتل والإصابة لحق أيضا جانب المسلمين وإن كان بعدد أقل ، الرابع : أن المسلمين هزموا في أحد ولم يكن ذلك عذابا بقدر ما كان ابتلاءا ، الخامس : أن هزائم الحروب لا تعد من قبيل العذاب الإلهي محل الفضيلة التي نتحدث عنها إذ المقصود بهذا النوع من العذاب الذي رفعه الله عن المشركين هو العذاب الذي كان يصيب الأمم السابقة جزاء عنادها وصلفها مع الأنبياء كالصيحة والسكرة والطوفان، لذا فأن هذا الآية جاءت عقب قوله تعالى على لسان الكفرة والمشركين من قريش (وَإِذْ قَالُوا اللهُم ـإنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَق ـمِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً ـمِنَ السمَاءِ أَوِ ائْتِنَا ـبِعَذَابٍ أَلِيمٍ)ومن ثم يكون العذاب المشار إليه في قوله تعالى (فَذُوقُوا الْعَذَابَ ـبِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ) يقصد به عذاب الآخرة ، وقد قيل أن هذه الميزة تشمل جميع الأنبياء بما فيهم محمدا ، إلا أن خروج الأنبياء ونجاتهم بوحي من الله قبل نزول العذاب بقومهم كان أمانا لهؤلاء الأنبياء من العذاب وبعد انتهاء مهمتهم ، بينما الأمان المختص به رسول الله هاهنا كان للمشركين لوجوده بينهم .

----

(1) الأنفال33 (2) الأنفال 32 (3) الأنفال 35 (4) نوح 10 (5) هود 52 (6) هود 61

تفرقة بين أنواع العذاب .

ويلزم التفرقة بين الموضوع الذي نحن بصدده وبين أمرين : الأول هو تأخير العذاب عن جميع الأمم بعد ظهور الإسلام إلى يوم القيامة ، والأمر الثاني إنزال بعض صنوف العذاب في الدنيا على بعض الأمم .

أما عن تأخير العذاب عن الأمم التي تلت الإسلام بما فيها الأمة الإسلامية حتى يوم القيامة فذلك من وجهين : الأول أن عذاب الإبادة كان يضرب الأمم السابقة لانتهاء دورهم الزمني وعدم صلاحيتهم للاستمرارية لتطبيق منهج الله المراد ، وكان ذلك ما يتناسب مع دينهم المؤقت ونبيهم المؤقت ، فلما دارت الأرض دورتها وأشرقت بنور الإسلام الدين الكامل الصالح للاستمرار والبقاء حتى قيام الساعة ، كان من الطبيعي ألا تهلك أمته الحاملة للوائه والداعية إليه في كل عصر وحين ، لأن هلاكها هلاك لدينها الخالد بخلود البقية المتبقية من الزمن ، خاصة وأنها أكثر الأمم التي آمنت بنبيا من أنبيائها واتبعت منهجه . وخاصة أيضا وأنهم مازالوا مطالبين بالدعوة إليه ونشره بين الأمم . وكان من الطبيعي أيضا ألا تباد الأمم الأخرى التي ليست على دين الإسلام لأنها معنية بوصول هذا الدين إليها ، والعلم والإيمان به والعمل بما جاء به .

الثاني : أن الله تعالى اقتضت مشيئته أن يؤخر العذاب عن هذه الأمم إلى يوم القيامة . لأن الإسلام أذن له في الوجود والساعة بين طرفة عين وانتبهاها . فذلك قوله صلى الله عليه وسلم " بعثت والساعة بين هاتين (1) وقال

" كيف أهنأ وقد التقم صاحب الصور القرن وانحنى ينتظر الأمر بالنفخة "(2) لذا قال تعالى (وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِمْ مَا تَرَكَ عَلَيْهَا مِنْ دَابَّةٍ وَلَكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلا يَسْتَقْدِمُونَ) (3) أما عن إنزال بعض صنوف العذاب في الحياة الدنيا على بعض القرى والمدن أو بعض الناس جمعا أو فرادى . كالزلازل والبراكين والأعاصير والفيضانات وغيره فذلك أيضا من وجهين :-

الأول : أن ذلك درب من دروب الآيات الكونية التي يظهرها الله تعالى في خلقه ودلالة على قدرته وعظمته ووجوده جلا وعلا ، ليتذكر من كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد . وليرتدع من كان يظن في نفسه القوة والجبروت لقوله تعالى (وَمَا نُرْسِلُ بِالْآيَاتِ إِلَّا تَخْوِيفاً)(4) وتصيب هذه الآيات الدول الإسلامية أو غيرها في أي وقت وحين ، وبغض النظر عن اللغة أو الجنس أو اللون أو الديانة أو الزمان أو المكان أو الحضارة أو الفقر ، ولا ينظر إلى هذه الآيات بالمعايير البشرية السطحية وبالعقلية البشرية المحدودة ، لأن ذلك جزء من تدبير الله لملكه وشأن من شئونه ، مما لا يدركه عقل ولا يعالجه فكر ، فهي من خصوصياته سبحانه ومن أسرار ملكوته

الثاني : أن ذلك إحدى وسائل الموت والفناء . فالموت كما يأتي بغتة لفرد واحد ، يأتي أيضا بغتة لأكثر من واحد، وكما يكون بغير أسباب فقد تتعدد أسبابه ، وكما أن لكل نفس أجلها فإذا جاء أجلها لا تستأخر ولا تستقدم فلكل أمة أجلها أيضا إذا جاء أجلهم فلا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون .

----

(1) الأحاديث المختارة للمقدسي إسناده صحيح 1542 (2) سنن الترمزى 3243 **(3)** النحل 61 (4) الإسراء من الآية 59

واحد وعشرون : جوامع الكلم

فذلك قوله صلى الله عليه وسلم " فضلت على الأنبياء بست ثم ذكر منها وأعطيت جوامع الكلم" (1)وقوله عن أبي موسى الأشعري" أعطيت فواتح الكلم وجوامعه وخواتمه (2) وتؤخذ هذه الفضيلة من وجهين : الأول هو اختصاصه باللغة العربية عن كثير من الأنبياء باعتبارها خير اللغات وأفضلها .. وفي الحديث " أحبوني لأني عربي وأحبوا العربية لأنا لغة القرآن ولغة أبيكم آدم ولغة أهل الجنة "(3) ، والثاني تميزه صلى الله عليه وسلم على المتكلمين بالعربية في لغته وكلامه ، حيث كان يعبر عن المراد بأقل الكلام وأيسره وأحلاه وأعذبه ، وهذا هو المقصود بجوامع الكلم ، أي الكلمة الجامعة لمعان كثيرة والمؤدية للمراد دون الحاجة إلى الإطناب والإضافات والتفاصيل ودون تكلف ودون تشدق . حتى أنه نهى صلى الله عليه وسلم عن التنطع والتشدق في القول فقال " أبغضكم إلي وأبعدكم عني مجلسا يوم القيامة مساوئكم أخلاقا والثرثارون والمتشدقون والمتفيهقون " (4)، وقال عن عبد الله بن عمر مرفوعا " إن الله ليبغض البليغ من الرجال الذي يتخلل بلسانه كما تخلل البقرة بلسانا " (5) ، فيما كان كلامه هو صلى الله عليه وسلم فصلا بينا واضحا قليلا يسيرا دقيقا لا ركاكة فيه ولا مبالغة ولا سماجة

ولا هزل ولا غموض ، فعن عائشة رضي الله عنها قالت " كان كلام رسول الله فصلا يفهمه كل من يسمعه " وقالت " كان يحدثنا حديثا لو عاده العاد لأحصاه " (6) وقالت " لم يكن يسرد كسردكم " (7) ، ويصف الجاحظ كلامه صلى الله عليه وسلم فيقول " ألقى الله على كلامه المحبة وغشاه بالقبول وجمع له بين المهابة والحلاوة ، وهو مع استغناءه عن إعادته وقلة حاجة السامع إلى معاودته لم تسقط له كلمة ، ولا زلت له قدم ، ولا بارت له حجه ، بل يبذ الخطب الطوال بالكلام القصير. ولا يحتج إلا بالصدق ، ثم لم يسمع الناس بكلام قط أعم نفعا ولا أصدق لفظا ولا أعدل وزنا من كلامه "(8) ، وقال عنه صلى اللّه عليه وسلم السخاوى " كان أفصح العرب لسانا، وأوضحهم بيانا. وأعذَبهم ُنطقا ،وأسدهم لفظا ، وأبينهم لَهجَة ، وأقومَهم حُجة ، وأعرفهم بمواقع الخطاب ، وأهدَاهم إلى طُرق الصواب. تأييدا إلهيا، ولُطفا سماويا ، وعنَاية ربانية ، ورعاَية رُوحانية ، حتى لقد قال له علي بن أبي طالب رضي الله عنه : يا رسول اللّه نحن بنو أب واحد، ونراك تكلم وفود العرب بما لا نفهم أكثره! " فقال أَدبني رَبي فأحْسَنَ تَأديبي ، وربيت في بني سَعد " (9) فكان صلى اللّه عليه وسلم ُيخَاطب العرب على اختلاف شُعُوبم وقبائلهم، وَتَباين ُبطونم وأفخاذهم وفصائِلهم، كلاّ منهم بما يفهمون، وُيحادثُهم بما يعلمون. ولهذا قال " أُمرْتُ أن أخاطبَ الناسَ على قَدْر عُقُولهم " (10) فكأنّ اللّه عزّ وجل قد أعْلَمه ما لم يكن َيعْلمُه غيرُه من بني أِبيه، وجمع فيه من المعارف ما تفرق ولم يوجد في قَاصِي العَرَب ودَانِيه ، وكان أصحاُبه رضي اللّه عنهم ومن َيِفدُ عليه من الُعَرب يعرفون أكثَرَ ما يقوله ، وما جَهلوه سألوه عنه فيوضحه لهم .

----

1) مسلم 523 (2) الطبراني في الكبير عن عبد الله بن عمر (3) جاء قريب من هذا في المستدرك على الصحيحين 6999

(4) سنن الترمزي2018 (5) شعب الإيمان4972 (6) البخاري 3374 (7) البخاري 3375 (8) البيان والتبيان للجاحظ

(9) المقاصد الحسنة في بيان كثير من الأحاديث المشتهرة (10) قريب منه عن جابر بنعبد الله بالفردوس بمأثور الخطاب للديلمي 111

ولتصور إحاطته صلى الله عليه وسلم بجوامع الكلم والتفرقة بين كلامه وكلام غيره ، خاصة وأن جودة النطق باللغة العربية سمة تكاد تكون مشتركة بين الناطقين بالعربية وقتها جميعا . نقول أن جميع الأحاديث المنقولة عنه صلى الله عليه وسلم هي كل كلامه في كل مناسباته وأحواله وفي كل الأوقات والأزمنة ومع جميع الناس ، فضلا عن أنه { لم يكن للعرب كلام مشتمل على الفصاحة والتصرف البديع والحكم والبلاغة بصفة دائمة ومستمرة . وإنما تنسب إلى حكيمهم كلمات معدودة وألفاظ قليلة وإلى شاعرهم قصائد محصورة يقع فيها الاختلال والاختلاف والتكلف والتجوز} ولكن يبقى القدر الذي بين كلامه صلى الله عليه وسلم وكلام غيره لا يخرج إلى حد الإعجاز ولا يتفاوت التفاوت الكبير ولا يخفى كلامه من جنس كلامهم (4) وما ذلك إلا ليبقى الإعجاز لكلام الله تعالى . والخلاصة أنه ليس المقصود بجوامع الكلم حسنه وجماله فقط إنما التعبير بمضمون الكلام بأقله ودون تكلف ، خاصة وأن كثير من الصحابة تمتع بحسن الكلام وجودة المنطق ودقة اللغة والبلاغة والبيان . حتى ليكاد يختلط القول على غير المتخصص واللبيب بين قوله صلى الله عليه وسلم وقول غيره

خطبة لعبد الله بن مسعود .

وخذ لذلك مثلا قول عبد الله بن مسعود رضي الله عنه في خطبته التي أوردها الباقلاني في سفره إعجاز القرآن كدليل يقدمه الباقلاني على التفرقة بين كلامه على ما به من حسن وجودة وكلام الله المعجز . قال رضي الله تعالى عنه " أصدق الحديث كتاب الله وأوثق العرى كلمة التقوى ، وخير الملل ملة إبراهيم وأحسن السنن سنة النبي محمد وخير الأمور أوسطها وشر الأمور محدثاتا ،وما قل وكفى خير مما كثر وألهى ، خير الغنى غنى النفس وخير ما ألقى في القلب اليقين ، الخمر جماع الإثم والنساء حبالة الشيطان والشباب شعبة من الجنون ، حب الكفاية مفتاح المعجزة ، من الناس من لا يأتي الجماعة إلا دبرا ولا يذكر الله إلا هجرا . أعظم الخطايا اللسان الكذوب ، سباب المؤمن فسوق وقتاله كفر ، وأكل لحمه معصية . من يتأل على الله يكذبه ومن يغفر يغفر له ، مكتوب في ديوان المحسنين من عفا عفي عنه ، الشقي من شقي في بطن أمه والسعيد من وعظ بغيره ، والأمور بعواقبها وملاك العمل خواتمه وأشرف الموت الشهادة ومن يعرف البلاء يصبر عليه ومن لا يعرفه ينكره " (1) (2)

----

(1) إعجاز القرآن للباقلاني (2) ونسب هذه الخطبة أيضا أو قريب منها لابن مسعود صاحب حلية الأولياء أبو نعيم الأصفهاني ، وعبد الرحمن بن علي في صفة الصفوة ، إلا أنني وجدته بزيادة في البيان والتعريف لابراهيم بن محمد الحسيني منسوبا لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم قال أخرجه البيهقي في دلائل النبوة وابن عساكر ورواه العسكري والديلمي عن عقبة بن عامر الجهني رضي الله عنه وأخرجه ابن أبي شيبة وأبو نعيم والقضاعي عن ابن مسعود موقوفا وقال بعض شراح الشهاب حسن غريب وأخرجه أبو نصر عبد الله بن سعيد السجزي في كتاب الإبانة عن أبي الدرداء رضي الله عنه "

<u>اثنان وعشرون : التشريع</u>

يشترك رسول الله صلى الله عليه وسلم مع غيره من الأنبياء في مهمة البلاغ عن ربه ، قال تعالى : (يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ) (1) وقال عن بعض الأنبياء السابقين كمبدأ عام (فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَيْكُمْ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْماً غَيْرَكُمْ وَلا تَضُرُّونَهُ شَيْئاً إِنَّ رَبِّي عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ) (2) ويقصد بالبلاغ تفسير مراد الله تعالى من الآية ، وكل الأنبياء في هذه المهمة لا يملكون تعديلا بالزيادة أو بالنقصان أو بالمحو أو بالإضافة ، ولكن فضل الله تعالى نبيه صلى الله عليه وسلم بأن أعطاه الحق في إضافة ما يراه من تشريعات تتفق مع منهجه الأصلي وبما لا يحيد عن هذا المنهج أو يخرج عنه ، ولسنا بحاجة إلى المقارنة بين تشريعه صلى الله عليه وسلم وتشريع غيره من البشر بما فيهم الصحابة والتابعين والفقهاء والعلماء ومن على شاكلتهم من أهل الحل والرأي ، إلا من وجه واحد فقط هو أن تشريعه صلى الله عليه وسلم قام به وحده بما أتاه الله من صفات وخصائص ،

أهلته صلى الله عليه وسلم لهذا العمل الجليل فشرع وسن وقنن وأفتى وحرم وحلل فكان كل ما صدر عنه مطابقا لمراد الله ومنهجه وكتابه .. وكان لهذه المطابقة والتطابق بين كتاب الله وشرعه صلى الله عليه وسلم أن رتب عليه الصلاة والسلام جزاءا لمن افترى عليه كذبا ، هو نفس الجزاء الذي جعله الله تعالى لمن افترى عليه سبحانه وتعالى الكذب ، فقال صلى الله عليه وسلم " من كذب علي متعمدا فليتبؤ مقعده من النار "(3)

وقبل أن نبين مشروعية تشريعه صلى الله عليه وسلم ومصدره نعرف هذا التشريع بأنه القواعد التي وضعها رسول الله صلى الله عليه وسلم مكملة للقرآن ، بما تصلح معه هذه القواعد بأن تكون منهجا يتبعه المسلمون ويتقيدون به ويقتدون به ، وإلا استحقوا الجزاء المترتب على مخالفتها وعدم إتباعها ، ويعبر عن هذا التشريع بالسنة سواء كانت قولا أو فعلا أو تقريرا . قال عليه الصلاة والسلام : " ألا إني أتيت القرآن ومثله معه " (4) ،

والمعنى الواسع له عند الفقهاء والعلماء هو الحكم الشرعي لكل فعل من أفعال المكلفين تحريما كان أو تحليلا أو محرما أو مكروها أو مندوبا . وسواء تعلق بالعبادات أو بالعادات وفي ذلك يقول بن تيميه " كل ما قاله _ صلى الله عليه وسلم _ بعد النبوة أو أقر عليه ولم ينسخ فهو تشريع "

وقولنا بأن للتشريع قواعد وأن له جزاء لهو مما يضفي أهميتها _ أي هذه القواعد _ ويبين جداوها كمصدر ثان بعد القرآن ، ومما يجعلها كذلك تشريع دائم ولازم لا يتغير بتغير الزمان أو المكان ولا يتغير كذلك بتغير الأشخاص أو الحوادث ،كتحريم الجمع بين الأخت وعمتها أو بينها وبين خالتها وكتحريم الرشوة وتحريم لبس الرجال للذهب وتحريم الحمر الأهلية وكأحاديث اللعان ، وكتحليله دمان هما الكبد والطحال وميتتان هما السمك والجراد وتحليل خروج النساء إلى المساجد ، كل هذا وغيره باق ما بقيت الدنيا ودائم ديمومة الحياة بغض النظر عما يرد من تطورات وبغض النظر عما يتغير من أشخاص

----

(1) المائدة 67 (2) هود 57 (3) صحيح مسلم 3 (4) مسند أحمد 17213

أما عن مصدر ومشروعية هذا التشريع فقد دلت آيات وأحاديث كثيرة على هذا المشروعية أطنب في ذكرها العلماء . إلا إني أختر منها ما ورد في سورة واحدة جمعت معظم وغالبية هذه التوصيات والأوامر الإلهية بوجوب إتباع منهجه وتشريعه صلى الله عليه وسلم ، كما تحدثت عن أمور وخصائص له صلى الله عليه وسلم كنبوته والوحي إليه وشهادة الله تعالى له وشهادته على الأمم ووسطيته وهي سورة النساء ، فبعد أن وضع الله تعالى أحكام المواريث في الآيات الأول من سورة النساء قال (تِلْكَ حُدُودُ اللهِ وَمَنْ يُطِعِ اللهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَناتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ وَمَنْ يَعْصِ اللهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعد حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَاراً خَالِداً فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُهِينٌ) (1) فمجيء هاتين الآيتين بعد هذه الأحكام الإلهية إنما هو إشارة واضحة إلى تفويضه صلى الله عليه وسلم في وضع تشريعات تضيف حكما إلى هذه الأحكام . وهو ما فعله صلى الله عليه وسلم ، فشرع حكما مكملا لهذه الأحكام فقال : " لا وصية لوارث إلا في حدود الثلث (2) ، ومنع أن يرث الكافر أو القاتل

أو المرتد "(3) ثم تلا ذلك أحكام أخرى تتعلق بالنكاح والرجال والنساء والطلاق والأنفاق والبخل وغير ذلك ثم قال تعالى : (يَوْمَئِذٍ يَوَد الذِينَ كَفَرُوا وَعَصَوُا الرسُولَ لَوْ تُسَوى بِهِمُ الْأَرْضُ وَلا يَكْتُمُونَ اللهَ حَدِيثاً) (4)

وأعقب بعد آيات أخرى قوله : (يَا أَيهَا الذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللهَ وَأَطِيعُوا الرسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدوهُ إِلَى اللهِ وَالرسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً) (5) وواصل سبحانه وتعالى حث الناس على إتباع نبيهم وتشريعه فقال في الآية الخامسة والستون (فَلا وَرَبكَ لا يُؤْمِنُونَ حَتى يُحَكمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُم لا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجاً مِما قَضَيْتَ وَيُسَلمُوا تَسْلِيماً) (6) ، وفي الآية الثمانون يقول (مَنْ يُطِعِ الرسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللهَ وَمَنْ تَوَلى فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظاً) (7) ثم يبين الله تعالى إحدى مهامه الأساسية لرسوله صلى الله عليه وسلم بما لا يخرج عن نفس الإطار التشريعي فيقول جلا وعلا : (إِنا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَق لِتَحْكُمَ بَيْنَ الناسِ بِمَا أَرَاكَ اللهُ وَلا تَكُنْ لِلْخَائِنِينَ خَصِيماً) (8) ثم يقول سبحانه وتعالى بعد ذلك في ذات السورة وعلى نفس السياق والنمط : (وَمَنْ يُشَاقِقِ الرسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَينَ لَهُ الْهُدَى وَيَتبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلهِ مَا تَوَلى وَنُصْلِهِ جَهَنمَ وَسَاءَتْ مَصِيراً) (9)

----

(1) النساء 13 وما بعدها (2) الحديث بجملته كما جاء في البخاري عن أنس بن مالك " إن الله جعل لكل ذي حق حقه ألا لا وصية لوارث والولد للفراش وللعاهر الحجر ألا لا يتولين رجل غير مواليه ولا يدعى إلى غير أبيه فمن فعل ذلك فعليه لعنة الله متتابعة إلى يوم القيامة ولا تنفق امرأة من بيت زوجها إلا بإذن زوج فقال رجل ومن الطعام يا رسول الله قال وهل أفضل أموالنا إلا الطعام ألا إن العارية مؤداة والمنحة مردودة والدين مقضي والزعيم غارم

(3) في صحيح البخاري عن أسامة بن زيد أن النبي صلى الله عليه وسلم قال لا يرث المسلم الكافر ولا يرث الكافر المسلم وفي سنن الترمذي عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال القاتل لا يرث (4) النساء 42 (5) النساء 59
(6) النساء 65 (7) النساء 80 (8) النساء 105 (9) النساء 115

ثلاث وعشرون : الأسوة

مصدرها قوله تعالى (لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللهَ كَثِيراً) (1) وجاءت هذه الآية في سورة الأحزاب ، وهي إحدى السور التي اهتمت أيضا اهتماما بالغا برسول الله صلى الله عليه وسلم وجعلته محورا وهدفا لآياتا فيرجى الرجوع إليها، وتتسع هذه الصفة لتشمل شخصية رسول الله صلى الله عليه وسلم كلها بأقواله وأفعاله وحركاته وسكناته ، وما جعله الله كذلك إلا لأنه المثال الذي يحتذى والنموذج الذي يتبع ، بوصفه الإنسان الذي أراده سبحانه ، وبوصفه الإنسان الذي عبد الله كما يريد الله بلا زيادة ولانقصان ، فكان هو وهو فقط على المراد الإلهي وعلى المقتضى الإلهي ، لذا جعله الله أسوة وجعل هذه

الأسوة مقربة إليه جلا وعلا وعلامة صادقة من علامات الإيمان وبرهانا صادقا عليه ، وأيضا طريقا للوصول إلى رضا الله تعالى وجناته . وبغير التأسي به يكون الإيمان ناقصا ويزيد بالتالي البعد والتباعد عن الله تعالى .

والأسوة بهذا الشمول هي تقليده صلى الله عليه وسلم في كل شؤون حياته صغيرها وكبيرها الدينية والدنيوية ، علما بأنه ليس له شئون دنيوية ، فكل شئونه لله وبالله وفي سبيل الله ، حتى دخوله الخلاء جعله صلى الله عليه وسلم عملا دينيا يثاب المرء عليه ، فأمر بدخوله بالقدم اليمنى والخروج منه باليسرى ، وجعل له ذكرا أثناء دخوله وأثناء خروجه . وحدد طريقة قضاء الحاجة وطريقة الاستنجاء والطهارة والغسل ، بل جعل من شئون الإنسان الخاصة سلوكا دينيا ، كطريقة الجماع سن له مقدمة وجعل له ذكرا ودعاءا .

والأسوة بهذا المعنى الشمولي الذي قلنا به تختلف عن الأسوة الخاصة التي جاءت مرتين في سورة الممتحنة عن سيدنا إبراهيم والذين آمنوا معه في قوله تعالى (قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَداً حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ (2) إذ ذاك وجه مخصوص في اتخاذ إبراهيم عليه السلام والذين آمنوا معه أسوة . هذا الوجه هو تبرئته عليه السلام والذين آمنوا معه من الشرك وعبودية غير الله ، وأكد سبحانه وتعالى هذا المعنى في الآية الأخرى بقوله (لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَمَنْ يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ)(3)

----

(1) الأحزاب 21 (2) الممتحنة من الآية رقم 4 (3) الممتحنة 6

أربع وعشرون : بشيرا ونذيرا

الأصل أن مهمة الأنبياء جميعا هي البشارة بجنة ورضا من الله . والإنذار بنار وسخط منه جلا وعلا . قال تعالى (وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحاً إِلَى قَوْمِهِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ) (1) ، وقال سبحانه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم (إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيراً وَنَذِيراً وَلا تُسْأَلُ عَنْ أَصْحَابِ الْجَحِيمِ) (2) ، ولكن يزيد رسول الله على ذلك بمكرمة

اختصة الله تعالى با دون غيره من الأنبياء وهي بشارته على وجه الخصوص لبعض من صحابته بالجنة ، وقضاءه على بعض الأشخاص باللعنة والنار . وهذا استثناء من الأصل ، حيث أن القضاء بدخول الجنة والنار لله تعالى وحده ومشيئته دون مشيئة أو إرادة غيره من خلقه ، فقد بشر رسول الله صلى الله عليه وسلم بالجنة أبو بكر الصديق والفاروق عمر وذو النورين عثمان ورهباني الأمة علي والشهيد الحي طلحة بن عبيد الله وحواري الرسول الزبير بن العوام وإمام النبي عبد الرحمن بن عوف (في صحيح مسلم صلى خلفه النبي وهو أمين النبي على نسائه أيضا) وأول من رمى بسهم سعد بن أبي وقاص وأمين الأمة أبو عبيدة الجراح وابن الحنيف سعيد بن زيد بن عمرو ، وسيدا شباب أهل الجنة الحسن والحسين . كذا سمية بنت خياط وياسر بن عامر أول شهيدين في الإسلام والطيار جعفر بن أبي طالب وعكاشة بن محصن وغيرهم . (3) وإذا كانت أعمال هؤلاء تدل على صدق رسول الله في دخولهم الجنة إلا أن أصل البشارة يؤخذ من زاوية أخرى ، هي أن صدق حدسه صلى الله عليه وسلم وفراسته وقربه من الله وعلمه به هو الذي منحه هذه الأفضلية ، لذا فإن هذه البشارة تعتمد على التوقع . ولا شك فإن توقعه صحيح ، ولا شك أيضا أن الله لن يخيب توقعه إرضاء له وحبا وكرامة ، فكم من صحابة شهد لهم التاريخ بصلاح أعمالهم وإخلاصهم وما بشرهم رسول الله بذلك كعثمان بن مظعون الذي نعته امرأته بكلمات تدل على صلاحه ودخوله الجنة فقال لها رسول الله صلى الله عليه وسلم " وما أدراك أن الله أكرمه "

وعمرو بن ثابت المعروف بالأصيرم من بني عبد الأشهل الذي أسلم يوم أحد فقاتل في صفوف المسلمين وقتل ولم يعلم به أحد . فلما انجلى غبار المعركة وجد في قتلى المسلمين فأخبروا رسول الله بذلك فقال هو في الجنة (4) بل وشهد لأناس ماتوا ولم يدخلوا الإسلام ولم يرى لهم المسلمين عملا صالحا كقيس بن ساعدة الأيادي . وزيد بن عمرو بن نوفيل الذي يبعث أمة وحده (5) وقضى على طائفة بالنار كالعاص بن وائل الذي جاء إلى رسول الله بعظم بال ففته وقال يا محمد أيبعث هذا بعدما رم ، فقال نعم يبعث الله هذا ثم يميتك ثم يدخلك النار "(6) ومات المذكور كافرا ، وقزمان ذاك الذي قاتل في صفوف المسلمين وحكم عليه رسول الله بأنه في النار قبل أن يره الناس ينتحر . (7)

----

(1) هود 29 (2) البقرة 119 (3) الثلاثون المبشرون بالجنة د/مصطفى مراد (4)قال الهيثمي في مجمع الزوائد رواه أحمد ورجاله ثقات (5) المستدرك 4956 وقال الحاكم في نايته صحيح على شرط مسلم ولم يخرجه
(6) المستدرك 3605 (7) قصته في فتح الباري ج7 3970

ويسري هذا المبدأ على من لعنهم رسول الله دون تحديد كشرع من شرائعه ، مثل الراشي والمرتشي وعبد الدرهم والخميصة والواصلة والمستوصلة وحامل الخمر وساقيها وما تحت الكعبين وعاق والديه . والأحاديث في هذا الشأن كثيرة ، منها على سبيل المثال : عن أبي هريرة قال صلى الله عليه وسلم لعن الله الراشي والمرتشي في

الحكم (1) وعن أبي هريرة أيضا قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم تعس عبد الدينار وعبد الدرهم وعبد القطيفة وعبد الخميصة إن أعطي رضي وإن منع سخط (2) ، وعن أنس رضي الله عنه قال لعن رسول الله صلى الله عليه وسلم في الخمر عشرة عاصرها ومعتصرها وبائعها ومبتاعها وحاملها والمحمولة إليه وشاربا وساقيها وآكل ثمنها (3) سقط في الرواية العاشرة ، وعن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ما كان أسفل من الكعبين من الإزار ففي النار وفي رواية عبد الصمد عن النبي صلى الله عليه وسلم قال ما تحت الكعبين من الإزار في النار "(4) إذ أن حكم هؤلاء دخول النار إن ماتوا على ذلك ،

ويدخل في ذات هذه الأحكام المهدر دمهم ، إذ أن قضاءه صلى الله عليه وسلم عليهم بالموت قتلا إنما حكما عليهم بدخول النار ، إلا من عفي عنه بإسلامه أو زوال أسباب إهدار دمه .. وقد أهدر صلى الله عليه وسلم دم عشرة من أكابر مجرمي قريش هم : - عبد العزى بن خطل ، عبد الله بن أبي سرح ، عكرمة بن أبي جهل ، الحارث بن نفيل بن وهب ، مقيس بن صبابة ، هبار بن الأسود ، كعب بن أبي سلمة ، مغنيتان كانتا لأبن أخطل ، سارة مولاة بني عبد المطلب وهي التي وجد معها الكتاب الذي بعثه حاطب بن أبي بلتعة لكفار قريش قبل فتح مكة ، وأمر رسول الله بقتلها في حالة عدم تسليمها هذا الكتاب . فلما أعطته عليا رضي الله عنه تحت تديد السلاح تركها ولم تقتل . حيث رهن رسول الله قتلها بعدم تسليمها الكتاب ، وأسلمت بعد ذلك ،، أما عبد الله بن عزى فقد تعلق بأستار الكعبة فسأل رجل رسول الله أن يقتله فقال نعم فقتله . بينما عفي عن بن أبي سرح لشفاعة عثمان بن عفان فيه ، وقتل مقيس بن صبابة والحارث بن نفيل بيد رجلين أشرك أحدهما بعد إسلامه وهو نميلة بن عبد اللله قاتل الأول . والثاني قتله علي بن أبي طالب .في حين أسلم هبار بن الأسود وكعب بن أبي سلمة وعفيا عنهما على الرغم من صنيع الأول بزينب بنت رسول الله عندما طعن ناقتها وأسقطها وأسقط جنينها ، وشعر الثاني الذي آذى به رسول الله صلى الله عليه وسلم والمسلمين . وقتلت إحدى المغنيتين واستؤمن للأخرى ، هذا بالإضافة إلى اثنين أمر رسول الله بقتلهما فقتلا ، ولكن ورد ذكرهما تحت بند السرايا التي أمر بإرسالها بجماعة عليها أمير ، وهما كعب بن الأشراف لهجائه الرسول والإسلام في شعره ومدح العدو وتحريض المشركين واليهود على المسلمين . وسلام بن أبي حقيق وكنيته أبو رافع وهو من أكابر اليهود لتأليبه الأحزاب واليهود على المسلمين وإعانتهم بالمؤن والمال الكثير ، وقتله عبد الله بن عتيك .. (5)

----

(1) بن حبان 5076 (2) بن حبان 3218 (3) الترمذي 1295

(4) سنن البيهقي الكبرى ج2 وقال رواه البخاري في الصحيح عن آدم (5)مستخلص من السيرة النبوية بعمومها

خمس وعشرون : اختيار أمته على سائر الأمم

كما في مسند الأمام أحمد وغيره من حديث بز بن حكيم بن معاوية بن حيدة عن أبيه عن جده قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " أنتم موفون سبعين أمة أنتم خيرها وأكرمها على الله"(1) وقوله " لا يزال أمر هذه الأمة مستقيما حتى تقوم الساعة " (2) قالوا فذلك ظاهر في أعمالهم وأخلاقهم وتوحدهم ومنازلهم في الجنة ومقاماتهم في الموقف فأنهم أعلى من الناس على تل فوقهم يشرفون عليه ، وفي مسند البزار من حديث أبي الدرداء قال سمعت أبا القاسم يقول " إن الله تعالى قال " إني باعث من بعدك أمة إن أصابها ما يحبون حمدوا وشكروا . وإن أصابهم ما يكرهون احتسبوا وصبروا ولا حلم ولا علم . قالوا يارب وكيف يكون هذا لا حلم ولا علم ؟ قال أعطيهم من حلمي وعلمي " (3) ولهذه الأمة عدة خصائص خصها الله تعالى بها إكراما لنبيه وتشريفا ومن أجله . منها :

1- **أحل الله لها الغنائم** وكانت الأمم من قبلها إذا أذن لها في الجهاد كانت تجمع الغنائم في مكان وتنزل النار من السماء فتأكلها . وكان ذلك دليلا على قبول غزوهم وإن لم تنزل النار كان دليلا على عدم قبوله ، ومن أسباب عدم القبول أن يقع فيهم الغلول ، ودليل هذه الخاصية قوله تعالى (لَوْلا كِتَابٌ مِنَ اللهِ سَبَقَ لَمَسكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ فَكُلُوا مِما غَنِمْتُمْ حَلالاً طَيباً وَاتقُوا اللهَ إِن اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ) (4) ، فقال جمهور المفسرين أن المراد في قوله تعالى "لولا كتاب سبق " أي في أم الكتاب الأول أن الغنائم حلال لها ، وقال صلى الله عليه وسلم " أحلت لي الغنائم ولم تحل لأحد "

2- **جعل الله لها الأرض مسجدا وترابا طهورا .**

فذلك قوله صلى الله عليه وسلم " وجعلت لي الأرض مسجدا وطهورا " .(5)

3- **وضع الله عنها الأغلال والإصر الذي كان مكتوبا على الأمم السابقة**

قال تعالى (وَجَاهِدُوا فِي اللهِ حَق جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدينِ مِنْ حَرَجٍ مِلةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَماكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ)(6) فأحل الله لها كثيرا مما حرم على الأمم السابقة ، وقال صلى الله عليه وسلم في جزء من الحديث " وأحل الله لنا كثيرا مما شدده على من كان قبلنا ولم يجعل علينا من حرج

4- **اختصها الله تعالى بيوم الجمعة .**

خير يوم طلعت فيه الشمس اليوم المبارك الذي اختلفت فيه الأمم فاتخذ اليهود السبت واتخذ النصارى الأحد فضلوا ، قال صلى الله عليه وسلم " نحن الآخرون السابقون يوم القيامة بيد أنهم أوتوا الكتاب قبلنا ثم هذا يومهم الذي فرض عليهم فاختلفوا فيه فهدانا الله إليه . فالناس لنا فيه تبع اليهود غدا والنصارى بعد غد " (7)

----

(1)مسند عبد بن حميد الكسى ج1 411 (2) صحيح البخاري 6882 (3) المستدرك 1289

(4)الأنفال 69 (5) صحيح البخاري 328 (6) الحج من الآية 78 (7) صحيح مسلم 855

5- تجاوز لها الله عن الخطأ والنسيان وحديث النفس .
فعن ابي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال " إن الله تجاوز عن أمتي الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه " وفي رواية " ما حدثت به نفسها مالم يتكلموا أو يعملوا به " (1)
6- حفظها الله من الهلاك والاستئصال . فلا تهلك بالسنين ولا بالجوع ولا بالغرق . ولا يسلط عليهم عدو من غيرها فيستبيح بيضتها ويستأصلها ولو اجتمع عليها من بأقطارها وذلك تكريما وتشريفا لمحمد عليه الصلاة والسلام ، قال صلى الله عليه وسلم " سألت ربي ثلاثا فأعطاني اثنتين ومنعني واحدة . سألت ربي أن لا يهلك أمتي بالسنين فأعطانيها . وسألته ألا يهلك أمتي بالغرق فأعطانيها . وسألته ألا يجعل بأسهم بينهم فمنعنيها " (2)
7- لا تجتمع على ضلالة وطائفة منها على الحق . فذلك قوله صلى الله عليه وسلم " إن الله أجار أمتي أن تجتمع على ضلالة " (3) وعن بن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله قال " إن الله لا يجمع أمتي على ضلالة ويد الله مع الجماعة ومن شذ شذ في النار " (4) ، وعن ثوبان رضي الله عنه قال قال رسول الله " لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق لا يضرهم من خذلهم حتى يأتي أمر الله وهم كذلك "(5)
8- شهداء الله في الأرض وشهداء على الأمم ووسط بينهم .
قال تعالى "(وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَسُولُ شَهِيداً عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى الناسِ فَأَقِيمُوا الصلاةَ وَآتُوا الزكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللهِ هُوَ مَوْلاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النصِيرُ)(6) وقوله (وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمةً وَسَطاً لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى الناسِ وَيَكُونَ الرَسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيداً)(7)

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال مروا بجنازة على النبي فأثنوا عليها خيرا . فقال النبي وجبت ثم مروا بجنازة أخرى فأثنوا عليها شرا فقال النبي " وجبت "قالوا يا رسول الله ما قولك في الأولى والأخرى وجبت ؟ فقال " الملائكة شهداء الله في السماء وأنتم شهداء الله في الأرض" (8) وعن أبي سعيد رضي الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " يجيء النبي ومعه الرجلان ويجيء النبي ومعه الثلاثة . وأكثر من ذلك وأقل . فيقال له هل بلغت فيقول نعم . فيدعى قومه فيقال هل بلغكم ؟ فيقولون لا ! فيقال من يشهد لك .؟ فيقول محمد وأمته فتدعى أمة محمد فيقال هل بلغ هذا ؟ فيقولون نعم فيقول وما علمكم بذا ؟ فيقولون أخبرنا نبينا بذلك أن الرسل قد بلغوا فصدقناه . فذلكم قوله تعالى { وتلا الآية } . (9)
9- صفوف كصفوف الملائكة . ومما يؤيد ذلك قوله صلى الله عليه وسلم عن حذيفة رضي الله عنه "فضلنا على الناس بثلاث جعلت صفوفنا كصفوف الملائكة وجعلت لنا الأرض مسجدا وجعلت تربتها لنا طهورا وذكر خصلة أخرى (10) ويقصد بالصفوف صفوف الصلاة .

----

(1) بن حبان 7219 (2) صحيح مسلم 2889 (3) قال المقدسي في الأحاديث المختارة إسناده صحيح
(4) سنن الترمزي 2167(5) مسلم 1920 (6) الحج من الآية 78 (7) البقرة من الآية 143
(8) صحيح البخاري 1301 (9) بن حبان 6431 (10) مسلم 522

10- الغر المحجلين :

تحشر يوم القيامة هذه الأمة إكراما لنبيها غر محجلين من آثار الوضوء . وبذه الصفة يعرفهم رسول الله صلى الله عليه وسلم عندما يكون في انتظارهم على حوضه . وقال صلى الله عليه وسلم " أنتم الغر المحجلين يوم القيامة من إسباغ الوضوء فمن استطاع منكم فليطل غرته " (1) بالإضافة إلى فضيلة التيمم التي لم تكن فيمن سبق

11- أول من تجتاز الصراط وتدخل الجنة وأكثر أهل الجنة .

أكرم الله تعالى هذه الأمة إكراما لنبيها بأن جعلهم أول من يجتاز الصراط وأول من يدخل الجنة بسلام . قال صلى الله عليه وسلم " نحن الآخرون الأولون ونحن أول من يدخل الجنة ، وقال " أهل الجنة مائة وعشرون صفا ثمانون منها من هذه الأمة وأربعون من باقي الأمم (2) ، وقال " ويضرب الصراط بين ظهري جهنم فأكون أنا وأمتي أول من نجوز " (3)

12- عمل قليل وأجر كثير . أقل الأمم أعمالا وأكثرها أجرا لقوله صلى الله عليه وسلم في حديث طويل آخره " ألا أنتم الذين يعملون من صلاة العصر إلى مغرب الشمس على قيراطين قيراطين . ألا إن لكم الأجر مرتين . فغضبت اليهود والنصارى فقالوا نحن أكثر عملا وأقل عطاءا . قال الله هل ظلمتكم من حقكم شيء ؟ قالوا لا قال فهذا فضلي أعطيه من أشاء "(4)

13-الآخرون السابقون . أي جعلها الله تعالى الآخرة زمانا والأولى م لة وفضلا فهي وإن تأخر وجودها في الدنيا عن الأمم الماضية فهي سابقة لهم في الخير . فهي أول من يحاسب وأول من يقضى بينها وأول من يجوز الصراط وأول من يدخل الجنة . فلقد قال صلى الله عليه وسلم " ونحن الآخرون السابقون يوم القيامة ، بيد أنم أوتوا الكتاب قبلنا " (5)

14 – حرمة دمائهم وأموالهم . فذلك قوله صلى الله عليه وسلم " لو أن أهل الأرض والسماء اجتمعوا على قتل رجل مسلم أدخلهم الله جميعا جهنم . ولا يبغضنا – آل البيت – أحد إلا كبه الله في النار "(6) وفي رواية لعذبم الله بغير عدد أو حساب " ويوم مقتل عثمان رضي الله عنه اشرف على الذين حصروه فسلم عليهم فلم يردوا عليه فقال عثمان أفي القوم طلحة قال طلحة نعم قال فإنا لله وإنا إليه راجعون أسلم على قوم أنت فيهم فلا تردون قال قد رددت قال ما هكذا الرد أسمعك ولا تسمعني ، يا طلحة أنشدك الله أسمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول لا يحل دم المسلم إلا واحدة من ثلاث أن يكفر بعد إيمانه أو يزني بعد إحصانه أو يقتل نفسا فيقتل با ؟ قال اللهم نعم فكبر عثمان فقال والله ما أنكرت الله منذ عرفته ولا زنيت في جاهلية ولا إسلام وقد تركته في الجاهلية تكرها وفي الإسلام تعففا وما قتلت نفسا يحل با قتلى " (7) وغير ذلك من خصائص كثيرة

----

(1) مسلم 246 (2) قال الهيثمي في الزوائد ضعيف (3) مسلم 182 (4) صحيح البخاري 2149
(5) صحيح مسلم 855 (6)قال الهيثمي رواه الطبراني ورجاله رجال الصحيح (7) سنن الترمزي 1402

ست وعشرون : أشهر وأكثر الأنبياء قتالا :

فذلك جماع قوله صلى الله عليه وسلم في أحاديث متفرقة وردت في الصحاح ، "أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله وأن محمد رسول الله . فأن قالوها عصموا مني دمائهم وأموالهم " (1) وقوله أيضا " وجعل رزقي تحت ظل سيفي " (2) وقوله " وجعل الذل والصغار على من خالف أمري "(3) وقوله " نصرت بالرعب من مسيرة شهر "(4) وذلك سبب تسميته صلى الله عليه وسلم بنبي الملحمة وكانت غزواته كلها وبعوثه وسراياه بعد الهجرة ولمدة عشر سنين حتى فتحت مكة في العام الثامن الهجري . ثم عاد رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المدينة واستقر با حتى لقي ربه ، واختلف العلماء في عدد غزواته صلى الله عليه وسلم ما بين سبع وعشرون غزوة وتسع وعشرين وما بين عدد الغزوات التي اشترك فيها بنفسه والتي لم يشترك فيها بنفسه ، فذكر مسلم في صحيحه من حديث عبد الله بن بريدة بن الحصيب الأسلمي عن أبيه قال غزا رسول الله صلى الله عليه و سلم تسع عشرة غزوة ، قاتل في ثمان منهن ، وعن زيد بن أرقم قال : غزا رسول الله صلى الله عليه و سلم تسع عشرة غزوة كنت معه في سبع عشرة و أما محمد بن إسحاق فقال : كانت غزواته التي خرج فيها بنفسه سبعاً وعشرين ، و كانت بعوثه و سراياه ثمانياً وثلاثين ، و زاد ابن هشام في البعوث على ابن إسحاق ، والغزوات المؤكد قتاله فيها بنفسه صلى الله عليه وسلم هي بدر وأحد والخندق وبني قريظة وبني المصطلق وبني النضير وخيبر وحنين والفتح . وقيل الغاب ووادي قراد وهما من أعمال خيبر (5) وبلغت سراياه وبعوثه حوالي الستين . والغزوات الكبار الأمهات التي نزل فيها قرآن هي : بدر . أحد . الخندق . خيبر . الفتح . حنين . تبوك . (6) . ومن بعض خصائصه صلى الله عليه وسلم في هذا الإطار ، أنه كان يبايع أصحابه في الحرب على أن لا يفروا وربما بايعهم على الموت،وكان يبعث البعوث يأتونه بخبر عدوه ، ويطلع الطلائع ، ويبث الحرس والعيون ، حتى لا يخفى عليه من أمر عدوه شئ . وكان إذا لقي عدوه دعا الله واستنصر به ، وأكثر هو وأصحابه من ذكر الله ، والتضرع له وكان كثير المشاورة لأصحابه في الجهاد . وكان يتخلف في ساقتهم ، وكان إذا أراد غزوة ورى بغيرها ، وكان يرتب الجيش والمقاتلة ، ويجعل في جنبة كفؤاً لها . وكان يبارز بين يديه بأمره ، وكان يلبس للحرب عدته ، وربما ظاهر بين درعين كما فعل يوم بدر وكان له ألوية ، وكان إذا لبس لأمة الحرب لا يرجع حتى يقاتل (7)، وكان إذا ظهر على قوم أقام بعرصتهم ثلاثاً ثم قفل . وكان إذا أراد أن يغير ينتظر ، فإذا سمع مؤذناً لم يغر ، وإلا أغار . وكان يحب الخروج يوم الخميس بكرة"وكان إذا اشتد البأس اتقوا به ، وكان أقربم إلى العدو ، وكان يحب الخيلاء في الحرب ، وينهى عن قتل النساء والولدان ، وينهى عن السفر بالقرآن إلى أرض العدو (8)

----

(1) صحيح مسلم 20 (2) صحيح البخاري 2575 (3) مصنف أبن أبي شيبة 19437 (4) صحيح البخاري 328
(5) زاد الميعاد ابن القيم (6) المصدر السابق (7) صحيح البخاري باب وأمرهم شورى (8) السيرة لمحمد بن سليمان بن علي

سبع وعشرون وتسعة وعشرون : الغنيمة . وخمس الفيء

قال الله تعالى (وَاعْلَمُوا أَنَمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَأَن لِلهِ خُمُسَهُ وَللرسُول وَلِذِي الْقُرْبى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السبِيلِ إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللهِ وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ وَاللهُ عَلَى كُل شَيْءٍ قَدِيرٌ) (1)

وقال سبحانه (مَا أَفَاءَ اللهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى فَلِلهِ وَللرسُول وَلِذِي الْقُرْبى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السبِيلِ كَيْ لا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ وَمَا آتَاكُمُ الرسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا وَاتقُوا اللهَ إِن اللهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ) (2)

اتفق الفقهاء على أن الغنيمة هي ما ناله المسلمون من عدوهم بالسعي وإيجاف الخيل والركاب والفيء هو كل مال دخل على المسلمين من غير حرب أو إيمان كخراج الأراضي وجزية الرؤوس وكذا خمس الغنائم ، ولله وللرسول صلى الله عليه وسلم من كلا النوعين الخمس . ولباقي المحاربين واليتامى والمساكين وذوي القربى الأرباع أخماس الباقية وأختلف الفقهاء في خمس رسول الله هل هو لنفسه أم يوزع في صالح المؤمنين بين قائل بذلك وذاك ، حيث قال الشافعي كل ما حصل من الغنائم من أهل دار الحرب من شيء قل أو كثر أو دار أو متاع أو غير ذلك فخمسه لله وللرسول ويصرف في صالح المؤمنين كإصلاح القناطر وبناء المساجد استنادا إلى قوله صلى الله عليه وسلم " ما لي مما أفاء الله عليكم إلا الخمس والخمس مردود عليكم " ويروى أنه أعطى منه المؤلفة قلوبهم لأنهم ليسوا في التقسيم . وقال أبو حنيفة يقسم على المذكورين في الآيات وهم اليتامى والمساكين وابن السبيل وذي القربى .. وقالوا أن الحكمة هو أن العرب في الجاهلية كانوا يجعلوا للزعيم أو القائد الربع .. ورأى أصحاب الشافعي – وهو ما نراه – أن خمس رسول الله له ولبيته ولأولاده ، أخذا من رواية عمر رضي الله عنه قوله كان من فيء رسول الله ما ينفق منه قوت سنة ، وهذا الخمس لرسول الله سواء اشترك في الحرب أو لا ، وهو يختلف عن سهمه المسمى بالصفي إن شاء عبدا أو آمة أو فرسا وفيه كان يحق له اصطفاء ما يختاره من الغنيمة قبل قسمتها من جارية أو غيرها ويسمى المختار الصفي والصفية والجمع الصفايا ومن صفاياه صفية بنت حيي اصطفاها وأعتقها وتزوجها

ولم يكن ذلك لنبي من قبل .قال صلى الله عليه وسلم " أحلت لي الغنائم ولم تحل لنبي قبلي " (3)

وقال أبو عبيدة خص الله رسوله من الأنفال والغنائم ما لم يجعله لغيره .

----

(1) الأنفال 41 (2) الحشر 7 (3) صحيح البخاري 2954

ثلاثون وواحد وثلاثون : زوجاته أمهات المؤمنين ، تخصيصه ببعض الزيجات

رفع الله تعالى شأن زوجاته صلى الله عليه وسلم إلى المقام الأسنى والأسمى بجعلهن أمهات المؤمنين ، وما ترتب على ذلك من آثار أهمها تحريمهن على غيره حال حياته صلى الله عليه وسلم إذا طلقهن ، أو بعد مماته . قال تعالى " (النَبِي أَوْلَى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ وَأَزْوَاجُهُ أُمَهَاتُهُمْ (1) وقال (وَمَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ اللهِ وَلا أَنْ تَنكِحُوا أَزْوَاجَهُ مِنْ بَعْدِهِ أَبداً إِن ذَلِكُمْ كَانَ عِنْدَ اللهِ عَظِيماً)(2)قيل نزلت في طلحة بن عبيد الله فإنه قال إن مات لأتزوجن عائشة ، وتحريم نكاحهن لما في إحلالهن لغيره من النقص لمنصبه ، واستخلص الماوردي من ذلك وجها فيما وهو أنه لا يجب عليهن عدة الوفاة ، وقيل أن الحكمة في ذلك كما جاء في سنن البيهقي من حديث حذيفة أنه صلى الله عليه وسلم قال لإحدى زوجاته إن سرك أن تكوني زوجتي في الجنة فلا تتزوجين بعدي فإن المرأة في الجنة لآخر أزواجها في الدنيا(3) ، فلذلك حرم على أزواج النبي أن ينكحن بعده لأنن أزواجه في الجنة ، وقد خصهن الله تعالى بأحكام تتناسب مع صلتهن بنبي الإسلام صلى الله عليه وسلم فقال " (يَا أَيهَا النَبِي قُلْ لِأَزْوَاجِكَ إِنْ كُنتُن تُرِدْنَ الْحَيَاةَ الدنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتعْكُن وَأُسَرحْكُن سَرَاحاً جَمِيلاً، وَإِنْ كُنتُن تُرِدْنَ اللهَ وَرَسُولَهُ وَالدارَ الْآخِرَةَ فَإِن اللهَ أَعَد لِلْمُحْسِنَاتِ مِنْكُن أَجْراً عَظِيماً ، يَا نِسَاءَ النَبِي مَنْ يَأْتِ مِنْكُن بِفَاحِشَةٍ مُبَيِنَةٍ يُضَاعَفْ لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللهِ يَسِيراً ، وَمَنْ يَقْنُتْ مِنْكُن لِلهِ وَرَسُولِهِ وَتَعْمَلْ صَالِحاً نُؤْتِهَا أَجْرَهَا مَرتَيْنِ وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقاً كَرِيماً ، يَا نِسَاءَ النَبِي لَسْتُن كَأَحَدٍ مِنَ النسَاءِ إِن اتقَيْتُن فَلا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلاً مَعْرُوفاً، وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُن وَلا تَبَرجْنَ تَبَرجَ الْجَاهِلِيةِ الْأُولَى وَأَقِمْنَ الصلاةَ وَآتِينَ الزكَاةَ وَأَطِعْنَ اللهَ وَرَسُولَهُ إِنمَا يُرِيدُ اللهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهرَكُمْ تَطْهِيراً، وَاذْكُرْنَ مَا يُتْلَى فِي بُيُوتِكُن مِنْ آيَاتِ اللهِ وَالْحِكْمَةِ إِن اللهَ كَانَ لَطِيفاً خَبِيراً) (4) ونظم الله تعالى له نكاحه وما يحل له من النساء فقال سبحانه (يَا أَيهَا النَبِي إِنا أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَكَ اللاتِي آتَيْتَ أُجُورَهُن وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِما أَفَاءَ اللهُ عَلَيْكَ وَبَنَاتِ عَمكَ وَبَنَاتِ عَماتِكَ وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَالاتِكَ اللاتِي هَاجَرْنَ مَعَكَ وَامْرَأَةً مُؤْمِنَةً إِنْ وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَبِي إِنْ أَرَادَ النَبِي أَنْ يَسْتَنْكِحَهَا خَالِصَةً لَكَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِي أَزْوَاجِهِمْ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ لِكَيْلا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ وَكَانَ اللهُ غَفُوراً رَحِيماً) (5) بهذه الآية أحل الله تعالى له صنوفا من النساء ثلاثة هن الزوجات والسراري والواهبات ، وزوجاته صلى الله عليه وسلم وأغلبهن من بنات عمه إحدى

عشر مات عن تسعة ، والسراري أربعة هن السيدة/ مارية والسيدة /ريحانة بنت شمعون واثنتان لم تسما ، والواهبات أنفسهن بغير صداق اثنتان أحدهما ليلى بنت الخطيم وأخرى لم تسم ، وزوجاته صلى الله عليه وسلم هن أمهات المسلمين والمؤمنين، والله هو الذي زوجه إياهن وهو الذي أختارهن له ، قال تعالى (عَسَى رَبُّهُ إِنْ طَلَّقَكُن أَنْ يُبْدِلَهُ أَزْوَاجاً خَيْراً مِنْكُن مُسْلِمَاتٍ مُؤْمِنَاتٍ قَانِتَاتٍ تَائِبَاتٍ عَابِدَاتٍ سَائِحَاتٍ ثَيِّبَاتٍ وَأَبْكَاراً) (6)

----

(1) الأحزاب من الاية 6 (2) الأحزاب من الآية 53 (3) سنن البيهقي الكبرى للبيهقي 13199
(4) الأحزاب من الآية 28 (5) الأحزاب 50 (6) التحريم 5

اثنان وثلاثون : أكثر الأنبياء أسماءا

تعددت أسمائه صلى الله عليه وسلم حتى بالغ بعضهم بالقول أنا بلغت الألف . وقد قدمنا فيما سبق أن كثرة الأسماء تدل على شرف المسمى وعظمته .

فمن أسمائه صلى الله عليه وسلم " المتوكل ، الماحي الذي يمحو الله به الكفر ، الحاشر الذي يحشر الناس عند قدمه ، العاقب الذي جاء عقب الأنبياء ولا نبي بعده ، المقضي الذي يقضي على آثار من تقدمه فكان خاتمهم ، الفاتح الذي فتح الله به أعين عميا وأذانا صما وقلوبا غلفا ، الهادي الذي هدى به الله من ضلالة ، ونبي التوبة الذي فتح الله به التوبة على أهل الأرض ، نبي الرحمة الموصوف من قبله ربه (وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ)(1) ، نبي الملحمة المأمور بقتال الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله محمد رسول الله ، الأمين . أمين الله على وحيه ودينه فهو أمين في السماء وأمين في الأرض ، الشاهد ، المبشر ، البشير ، النذير ، القاسم ، الضحوك القتال وهما وصفتان مزدوجتان لا ينفصل أحدهما عن الأخر بوصفه ضحوك للمؤمنين قتال للمشركين ، السراج المنير ، عبد الله قال تعالى (وَأَنَّهُ لَما قَامَ عَبْدُ اللهِ يَدْعُوهُ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَداً) (2) واشتهر عند الله تعالى بعبده :

ومن ذلك قوله سبحانه (سُبْحَانَ الذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السمِيعُ الْبَصِيرُ) (3) و (تَبَارَكَ الذِي نَزلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيراً) (4)

وسماه الله تعالى أيضا البينة في قوله تعالى (لَمْ يَكُنِ الذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنْفَكِينَ حَتى تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَة رَسُولٌ مِنَ اللهِ يَتْلُو صُحُفاً مُطَهرَةً) (5) قال القرطبي : منفكين أي منتهين عن كفرهم مائلين عنه حتى تأتيهم البينة أي محمد صلى الله عليه وسلم ، وكذا قال الشوكاني وأيضا المحلي والسيوطي في الجلالين ، بينما قال الطبري : البينة هي إرسال الله إياه رسولا إلى خلقه رسول من الله ، ولم يخالف بن كثير فقال البينة : يعني محمد صلى الله عليه وسلم وما يتلوه من القرآن العظيم الذي هو مكتتب في الملإ الأعلى في صحف مطهرة ،

و من أسمائه أيضا " السيد . سيد ولد آدم ، القاسم ، أحمد ، محمود ، المصطفى ، المتبى ، الشفيع ، الشهيد ، المختار ، الرءوف ، الرحيم ، الصادق .

----

(1) الأنبياء 107 (2) الجن 19 (3) الإسراء 1 (3) الفرقان 1 (5) البينة:1وما بعدها

ثلاث وثلاثون : خير أهل الأرض نسبا

هو خير الناس نسبا على الإطلاق فأشرف القوم قومه ، وأشرف القبائل قبيله ، وأشرف الأفخاذ فخذه .(1)

وهو القائل صلى الله عليه وسلم . " إن الله خلق الخلق فجعلني في خير فرقهم . ثم خير القبائل فجعلني في خير قبيلة . ثم خير البيوت فجعلني في خير بيت . فأنا خيرهم نفسا وخيرهم بيت . " (2)

يقول بن القيم "هو خير أهل الأرض نسبا على الإطلاق فلنسبه من الشرف أعلى الذروة . وشهد بهذا أعدائه " ثم يقول " وينتهي نسبه الصحيح الذي لا خلاف عليه بين النسابون إلى عدنان ، وعدنان من ولد إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام ، وبعد ذلك يختلفون " . (3)

وعن واثلة بن الأسقع قال قال رسول الله " إن الله اصطفى من ولد إبراهيم إسماعيل واصطفى من بني إسماعيل بني كنانة واصطفى من بني كنانة قريشا واصطفى من قريشا مضر واختار من قريش بني هاشم واختارني من بني هاشم فأنا خيار من خيار " (4)

وقال عليه الصلاة والسلام "لم يزل الله ينقلني من الأصلاب الحسيبة إلى الأرحام الطاهرة صفيا مهديا – أو مهذبا - لا تتشعب شعبيتان إلا كنت في خيرهما " (5)

وقال " أنا محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف بن قصي بن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤي بن غالب بن فهر بن مالك بن النضر بن كنانة بن خزيمة بن مدركة بن إلياس بن مضر بن نزار وما افترق الناس فرقتين إلا جعلني الله في خيرهما فأخرجت من بين أبوي فلم يصبني شيء من سنن الجاهلية وخرجت من نكاح ولم أخرج من سفاح من لدن آدم حتى انتهيت إلى أبي وأمي فأنا خيركم نسبا وخيركم أبا " (6)

----

(1) زاد الميعاد ج1 باب نسبه (2) الحديث كما جاء بسنن الترمزي 3607 عن العباس بن عبد المطلب قال قلت ثم يا رسول الله إن قريشا جلسوا فتذاكروا أحسابم بينهم فجعلوا مثلك كمثل نخلة في كبوة من الأرض فقال النبي صلى الله عليه وسلم إن الله خلق الخلق فجعلني من خيرهم من خير فرقهم وخير صليت ثم تخير القبائل فجعلني من خير قبيلة ثم تخير البيوت فجعلني من خير بيوتم فأنا خيرهم نفسا وخيرهم بيتا ، ثم قال الترمزي هذا حديث حسن(والحديث الحسن عند الترمزي كما جاء في كتابه العلل هو كل حديث يروى لا يكون في إسناده من يتهم بكذب ولا يكون الحديث شاذا .. انظر شرح مفاتيح علوم الحديث لمحمد عثمان الخشت)

(3) زاد الميعاد ج1 باب نسبه صلى الله عليه وسلم (4) سنن الترمزي 3605 (5) الاكتفا في المغازي

(6) أخرجه البيهقي في دلائل النبوة ، والحاكم عن أنس رضي الله عنه

أربع وثلاثون : لا يتمثل به الشيطان

ومن خصائصه صلى الله عليه وسلم هي ألا يتمثل به شيطان لصريح قوله صلى الله عليه وسلم (مـن رأني في المنام فقد رآني فإن الشيطان لا يتمثل بي) (1) وقد ورد الحديث بصفة الخصوص ولم يرد على سبيل العموم لجميع الأنبياء ، وقال العلماء إن ذلك محمول على رؤية النبي صلى الله عليه وسلم بصفاته الخَلقية الواردة في الأحاديـث الصحيحة وبالتالي أوجبوا معرفة السمات الخلقية للنبي صلى الله عليه وسلم خاصة وأنه كان هنـاك أشـخاص يشبهون النبي صلى الله عليه وسلم وكان أكثرهم شبهاً به الحسن بن علي رضي الله عنهما ، وعبد الله بن جعفر بن أبي طالب ، كما أجاب العلماء على مسألة افتراضية وهي رؤيته عليه الصلاة والسلام على غير خلقته المعروفة أو على عيب به كأن يراه الرائي حليق اللحية ، أو أقطع اليد أو أقطع الرجل فأجابوا برأيين : الأول : أن ذاـك يدل على نقص دين الرجل ، الثاني : هو الذي رجحه شيخ الإسلام بن تيميه وهو أن هذه الصورة كذب ، وهي من الشيطان ، خاصة إذا كانت الرؤية في اليقظة ، فإن ذلك كذب لأنه صلى الله عليه وسلم حي حياة برزخيـه ولا يراه أحد في اليقظة ولا يزور أحداً ولا يكلم أحداً . وما يدعيه البعض من أن النبي صلى الله عليه وسلم قـد أتى إليه في اليقظة وحدثه وأخبره فإن هذا بلا شك من الشياطين والجن ، خاصة أن ذاـك لم يحـدث لأكـابر الصحابة أبوبكر وعمر وعثمان وعلي والزبير وطلحة وعبد الرحمن بن عوف ، وسعيد بن زيد وأبو عبيدة وسعد ، وأهل بدر وأهل الشجرة وغيرهم من الصحابة سادة أولياء وأكابر المتقين ، فإن ادعى أحد أنه رأى النبي صلى الله عليه وسلم في اليقظة فلا شك أن المتمثل به شيطان أو جن ولا يثبت بذلك حكم ولا يغتر بذكر بعض من يظـن الناس فيهم الصلاح ويذكرون حكايات عن رؤيتهم للأنبياء ومجالستهم معهم فهم صادقون في الـالسة ولكن من

جالـــسوا ؟ فقـــد جالـــسوا الجـــن والـــشياطين حـــتى يكـــون ذلـــك فتنـــة (2)

----

(1)البخاري 6499 ومسلم 2266   (2) الفرقان بين أولياء الله وأولياء الشيطان

خمس وثلاثون : ميلاده وبعثه وهجرته وقبره بخير بقاع الأرض

ولد صلى الله عليه وسلم وبعث وأنزل عليه الوحي والقرآن بمكة . وهاجر وتوفي بالمدينة وعاش حياته وسنوات جهاده بما . وهما خير بقاع الأرض وخير موطن ، فمكة أم القرى والقائل فيها سبحانه وتعالى (أَوَلَمْ نُمَكِّنْ لَهُمْ حَرَماً آمِناً يُجْبَى إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِزْقاً مِنْ لَدُنَّا وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ)(1) وقوله " (وَقَالُوا إِنْ نَتَّبِعِ الْهُدَى مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَا أَوَلَمْ نُمَكِّنْ لَهُمْ حَرَماً آمِناً يُجْبَى إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِزْقاً مِنْ لَدُنَّا وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ) (2) وفي خطبة فتح مكة قال صلى الله عليه وسلم " أيها الناس أن الله حرم مكة يوم خلق السماوات والأرض فهي حرام بحرمة الله إلى يوم القيامة فلا يحل لأمريء يؤمن بالله واليوم الآخر أن يسفك فيها دما أو يعضد با شجرة . فأن أحد ترخص لقتال رسول الله فقولوا إن الله أذن لرسوله ولم يأذن لكم وإنما أحلت لي ساعة وقد عادت حرمتها اليوم كحرمتها بالأمس " (3)

والمدينة مهجره صلى الله عليه وسلم ومنها علت راية الإسلام وانتشر نور الله في الأرض وفيها دفن ، وعن ابن عباس أن النبي عليه السلام حين عزم الهجرة قال: اللهم إنك قد أخرجتني من أحب أرضك إلي فأنزلني أحب أرضك إليك! فأنزله المدينة .. (4)

ورأى النبي صلى الله عليه وسلم بلال بن حمامة وقد هاجر المدينة وهو يقول:

ألا ليت شعري هل ابيتنّ ليلةً ،، بفخٍر وحولي إذخرٌ وجليل

وهل أردن يوماً مياه مجّنةٍ ،، وهل يبدون لي شامةٌ وطفيل

فقال صلى الله عليه وسلم : اللهم حبب إلينا المدينة كما حببت مكة وأشد ، وصححها وبارك لنا في صاعها ومدها وانقل حماها إلى خيبر والجحفة. (5)
وعن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: إن إبراهيم عبد الله وخليله وأنا عبد الله ورسوله وان إبراهيم حرم مكة واني حرمت المدينة ما بين لابتيها عضاهها وصيدها لا يحمل فيها سلاح لقتال ولا تقطع منها شجرة إلا لعلف البعير. (6) ، وعن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم: من صبر على لأواء المدينة وشدتها كنت له يوم القيامة شفيعاً أو شهيداً.(7)

----

(1) القصص من الآية 57 (2) القصص 57 (3) صحيح مسلم 1354 (4) المستدرك5210
(5) صحيح البخاري 5330 (6) صحيح مسلم 1360، 1362 (7) صحيح مسلم 1377

الفصل الثالث
أفضليته في الآخرة

أولا : أول من تنشق عنه الأرض

فذلك قوله صلى الله عليه وسلم في بعض حديثه : "وأنا أول من تنشق عنه الأرض يوم القيامة ولا فخر"(1)وفي الصحيح " أن الناس يصعقون يوم القيامة فأكون أول من يفيق فإذا موسى آخذ بقوائم العرش فلا أدري أفاق قبلي أم جوزي بصعقة الطور " (2) وفي رواية " فلا أدري أكان فيمن صعق قبلي أم ممن استثناه الله تعالى " (3)

عن نبيه بن منبه أن كعبا دخل على عائشة رضي الله عنها فذكروا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال كعب ما من فجر يطلع إلا ونزل سبعين ألف ملك يحفون بالقبر يضربونه بأجنحتهم ويصلون على النبي حتى إذا أمسوا عرجوا وهبط سبعون ألف ملك غيرهم يحفون بالقبر ويضربونه بأجنحتهم ويصلون على النبي . سبعون ألفا بالنهار وسبعون ألفا بالليل . حتى إذا انشقت الأرض خرج في سبعين ألفا من الملائكة يوقرونه صلى الله عليه وسلم "

أما عن إفاقته من الصاعقة فيجد موسى عليه السلام ممسكا بقوائم العرش لا يدري أفاق قبله أم جوزي بصعقة الطور أو ممن شملهم الاستثناء فقد اختلف العلماء في ذلك اختلافا بين بعضه ابن القيم في كتابه الروح نرد منه بإيجاز مايلي " قال أحمد بن عمرو ظاهر الحديث يدل على أن هذه الصعقة إنما هي بعد النفخة الثانية نفخة البعث والاستثناء الوارد في قوله تعالى (فَصَعِقَ مَنْ فِي السمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إلا مَنْ شَاءَ اللهُ)(4) يدل على ذلك .

وقال القاضي عياض يحتمل أن يكون المراد بهذه الصعقة صعقة فزع بعد النشور حين تنشق السماوات والأرض وقال شيخنا أحمد بن عمرو – والكلام لم يزل لشيخ الإسلام بن القيم نقلا عن القرطبي - " الذي يزيح الأشكال أن الموت ليس بعدم محض ، وإنما هو الانتقال من حال إلى حال ويدل على ذلك أن الشهداء بعد قتلهم وموتهم أحياء عند ربهم يرزقون فرحين وتلك صفة الأحياء في الدنيا ، فالأنبياء أولى خاصة وأنه صح عن النبي أن الأرض لا تأكل أجساد الأنبياء وأنه اجتمع بالأنبياء ليلة الإسراء في بيت المقدس وفي السماء ، وأخبر أن من يسلم عليه إلا رد الله عليه روحه حتى يرد عليه السلام ، إلى غير ذلك مما يحصل به من جملته القطع بأن موت الأنبياء إنما هو رجع إلى أن غيبوا عنا بحيث لا ندركهم ، وذلك كالملائكة فأنهم أحياء موجودون ولكن لا نراهم ، وإذ تقرر أنهم أحياء فإذا نفخ في الصور نفخة الصعق صعق كل من في السماوات ومن في الأرض إلا ما شاء الله ، فأما صعق غير الأنبياء فموت وأما صعق الأنبياء فالأظهر أنه غشية ، فإذا نفخ في الصور نفخة البعث فمن مات حي ومن غشي عليه أفاق . فيكون نبينا أول ما يفيق وأول من يخرج من قبره ، إلا موسى فحصل فيه تردد ، ويقول بن القيم بعد ذلك "وهذا يدل على أنه صلى الله عليه وسلم يصعق فيمن يصعق وأن التردد حصل في موسى هل يصعق وأفاق قبله من صعقته ؟فعلم أنه صعقة فزع وليس صعقة موت وحينئذ فلا تدل الآية على أن الأرواح كلها تموت عند النفخة الأولى "ويقول في موضع آخر " الصعقة التي يصعقها الخلائق يوم القيامة إذا جاء الله سبحانه لفصل القضاء فإنهم يصعقون جميعا وأما موسى فإن كان لم يصعق فقد حوسب بصعقة تجلي ربه للجبل(1).

---

(1) بن حبان 6242 (2) صحيح البخاري 2281 (3) سنن الترمزي (4) الزمر: من الآية68 (5) الروح لابن القيم

صواعق ثلاث وليس اثنتين

على نفس المنهج الذي قلت به في بعض الوقائع التي تجرأت فيها برأي كالقول في قصة بحيرا ، حادثة شق الصدر وغيرهما ، أقول بالإيمان بما جاء في الصحيحين وجميع السنن بهذا الحديث ، بغير أن يمنع ذلك من إبداء ما أراه من رأي ، قال الله تعالى (فَإِذَا نُفِخَ فِي الصورِ فَلا أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلا يَتَسَاءَلُونَ) (2)، وقال سبحانه (فَإِذَا نُفِخَ فِي الصورِ نَفْخَةٌ وَاحِدَةٌ وَحُمِلَتِ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ فَدُكتَا دَكةً وَاحِدَةً فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ) (3) وقال"(وَنُفِخَ فِي الصورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلا مَنْ شَاءَ اللهُ ثُم نُفِخَ فِيهِ أُخْرَى فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ)(4) وقال جلا وعلا (وَيَوْمَ يُنفَخُ فِي الصورِ فَفَزِعَ مَنْ فِي السمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلا مَنْ شَاءَ اللهُ وَكُل أَتَوْهُ دَاخِرِينَ) (5) ، وقوله أيضا " (فَإِذَا نُقِرَ فِي الناقُورِ فَذَلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ عَلَى الْكَافِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ) (6)

وقوله (وَنُفِخَ فِي الصورِ فَإِذَا هُمْ مِنَ الْأَجْدَاثِ إِلَى رَبهِمْ يَنْسِلُونَ قَالُوا يَا وَيْلَنَا مَنْ بَعَثَنَا مِنْ مَرْقَدِنَا هَذَا مَا وَعَدَ الرحْمَنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ) (1) وقوله (فَذَرْهُمْ حَتى يُلاقُوا يَوْمَهُمُ الذِي فِيهِ يُصْعَقُونَ) (2) من جماع هذه الآيات البينات وغيرها في الكتاب يفهم أن النفخ والصعقة يكونا مرتين :-

الأولى هي الممهدة ليوم القيامة : التي عبر عنها رسول الله صلى الله عليه وسلم بقوله " كيف أنعم وصاحب القرن قد التهم القرن وأحنى الجبهة وأصغى الأذن ينتظر الأمر بالنفخة " وقوله أيضا " حين بعث إلي بعث إلى صاحب الصور فأهوى به إلى فيه وقدم رجلا وأخر أخرى ينتظر متى يؤمر بالنفخ فينفخ فاتقوا النفخ "(3)، وعندها يموت من الخلق من لم يكن مات بما فيهم الملائكة . ومن الناس وقتئذ شرارهم لقوله صلى الله عليه وسلم " تقوم الساعة على شرار الناس"(4) وقوله صلى الله عليه وسلم في جزء من حديث له "يبقى شرار الناس في خفة الطير وأحلام السباع لا يعرفون معروفا ولا ينكرون منكرا فيتمثل لهم الشيطان فيقول ألا تستجيبون فيقولون فما تأمرنا فيأمرهم بعبادة الأوثان ،وهم في ذلك دار رزقهم وحسن عيشهم ينفخ في الصور فلا يسمعه أحد إلا أصـغى ليتا ورفع ليتا(5) فأول من يسمعه رجل يلوط حوض ابله (6)فيصعق ويصعق الناس "(7).وقد ورد الاستثناء في هذه النفخة بقوله تعالى (وَنُفِخَ فِي الصورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلا مَنْ شَاءَ الله)(8)،واختلف العلماء في المستثنون ، فجاء عن بعضهم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سأل عن ذلك فقال "جبريل وميكال واسرافيل وملك الموت (9) وفي رواية " المستثنى جبريل وميكائيل وحملة العرش "، وقال أبو هريرة " الشهداء " وقال الضحاك رضوان والحور ومالك والزبانية . وقال قتادة الله أعلم بثيناه (10) (11) فإذا كان ذلك فأن محمدا عليه الصلاة والسلام وموسى وسائر الأنبياء عليهم السلام لا تصيبهم هذه الصعقة لموتم قبلها .

----

(2)المؤمنون101 (3) الحاقة 15,14 (4) الزمر 68 (5) النمل 78 (6) المدثر 8 وما بعدها (1) يس 52

(2) الطور 45 (3) سنن الترمزي3243 (4) صحيح مسلم 1924 (5) أي أمال صفحة عنقه (النهاية في غريب الحديث)

(6) يلوط لاط أصلح ورم وطينه(المصدر السابق (7) صحيح مسلم 2940 (8) الزمر من الآية 68 (9) باقي الرواية في شعب الإيمان للبيهقي 353 (10) الاستثناء (11) تفسير القرطبي

الثانية : نفخة البعث والنشور وقيام الناس لرب العالمين .

وهي المعبر عنها بقوله تعالى (ثُم نُفِخَ فِيهِ أُخْرَى فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ)(1)" ومعظم الآيات الخاصة بالنفخ هي المتعلقة بهذا النوع ، ومنها قوله سبحانه (وَيَوْمَ يُنفَخُ فِي الصور فَفَزِعَ مَنْ فِي السمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلا مَنْ شَاءَ اللهُ وَكُل أَتَوْهُ دَاخِرِينَ) (2) ولم يرد اختلاف عن العلماء في الاستثناء الخاص بهذه النفخة إذ ربما يشمل اختلافهم المشار إليه سابقا كلا الاستثناء ين ، ولكن لما كان الله تعالى عبر عن الصعقة حينئذ بالفزع ثم قال تعالى في الآية التالية للآية التي تضمنتها (مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا وَهُمْ مِنْ فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ آمِنُونَ) (3) وقال سبحانه في آية أخرى عن المحسنين من المؤمنين (لا يَحْزُنُهُمُ الْفَزَعُ الْأَكْبَرُ وَتَتَلَقاهُمُ الْمَلائِكَةُ هَذَا يَوْمُكُمُ الذِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ) (4) ولما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم هو أول زمرة المؤمنين الآمنين يومئذ ، فأنه يكون آمن من هذه الصعقة أيضا ومعه سائر الأنبياء والمرسلين بوصفهم من المؤمنين والمحسنين .

وإذا جاز القول باختلاف أحوال الفزع الناتج عن النفخة عن الفزع الخاص بيوم القيامة لتعلق الأول بالبعث المقدم للحساب وتعلق الثاني بأهوال الموقف بعد البعث ، فرسول الله صلى الله عليه وسلم آمن من فزع نفخة البعث والنشور كأمنه من فزع الموقف والحساب ، وذلك لأن استثناء الله تعالى لبعض مخلوقاته من الآثار المترتبة على النفخة والصعقة سواء كانت نفخة الصعقة أو نفخة الفزع . إنما لما تضمنته هذه الآثار من عذاب وألم محال تصورهما في حق رسول الله صلى الله عليه وسلم وسائر الأنبياء ، وقد دلت الحقائق التي اكتظ بها هذا البحث والفضائل التي عددناها وجميع القرائن والوقائع التي سردناها على استثناءه صلى الله عليه وسلم في الدنيا والآخرة من كل ما يشينه أو يؤلمه . فلا غرو إذن من أن يشمله الاستثناء المشار إليه ويشمل موسى أيضا وجميع الأنبياء ، وتبقى له صلى الله عليه وسلم الأفضلية في أوليته فيمن تنشق الأرض عنهم .

ومن ثم يكون لنا من القول الخاص بإفاقته صلى الله عليه وسلم من الصعقة فيجد موسى عليه السلام باطشا بقائمة العرش وقفة نبينها فيما يلي :-

أولا : - الصعقة في كلا الموقفين { صعقة الموت وصعقة النشور } تخالف صعقة موسى عليه السلام إبان تجلى ربه على الجبل إذ الأخيرة غشية مؤقتة وليست موتا أو عذابا ، قال تعالى (فَلَما تَجَلى رَبُهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكاً وَخَر مُوسَى صَعِقاً)(5) باعتبار أن سنة الله تعالى في الموت هي جعله مرة واحدة ، هي المبينة بقوله تعالى (كُل نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ)(6) وموت الإنسان مرتين أمر لم يقل به أحد ولم تدل عليه ثمة نصوص نقلية أو أدلة عقلية ، علما بأن تفسير قوله تعالى (قَالُوا رَبنَا أَمَتنَا اثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ فَاعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَى خُرُوجٍ مِنْ سَبِيلٍ) (7) لا يعني موت المرء مرتين .

----

(1) الزمر من الآية 68 (2) النمل 87 (3) النمل 89 (4) الأنبياء 103 (5) الأعراف من الآية 143

(6) آل عمران من الآية185 (7) غافر:11

حيث يقول القرطبي " أختلف أهل التأويل في معنى قولهم أمتنا اثنتين وأحييتنا اثنتين فقال ابن مسعود وابن عباس وقتادة والضحاك كانوا أمواتا في أصلاب آبائهم ثم أحياهم ثم أماتم الموتة التي لا بد منها في الدنيا ثم أحياهم للبعث والقيامة فهاتان حياتان وموتتان وهو قوله تعالى كيف تكفرون بالله وكنتم أمواتا فأحياكم ثم يميتكم ثم يحييكم ، وقال السدي أميتوا في الدنيا ثم أحياهم في القبور للمسألة ثم أميتوا ثم أحيوا في الآخرة "(1) .

أما فيما جاء بكتاب الله تعالى من إحياء بعض الموتى ، كالذي مرة على القرية الخاوية ، وكأصحاب الكهف فهو استثناء من هذه السنة ، وهو استثناء له معنى آخر ومعيار لا محل لتفصيله ها هنا ، ولا تعد صعقة موسى استثناء من هذا الأصل ، وباعتبار أن العذاب لا محل له بالنسبة لطلب موسى الرؤية ، لأن الله تعالى لم يكن ليثبت لموسى عليه السلام استحالة الرؤية ثم يعذبه ، إذ لو كان عذابا لعذبه لأول وهلة حال طلبه الرؤية مثلما عذب النقباء السبعين الذين طلبوا الرؤية فقال تعالى فيهم (يَسْأَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَنْ تُنَزِلَ عَلَيْهِمْ كِتَاباً مِنَ السمَاءِ فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَى أَكْبَرَ مِنْ ذَلِكَ فَقَالُوا أَرِنَا اللهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ الصاعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ)(2)

ومن ثم فلا رابط بينهم _ أي صعقة الموت وصعقة النشور في جهة وصعقة موسى في جهة أخرى _ إلا في المسمى . وقد سمى الله أمورا بطرفيها الأدنى منها والأعلى بمسمى واحد مع الاختلاف الصارخ والشديد بينهما . وما ذلك إلا لتقريب المعنى ولشمول اللغة العربية وكثرة تفريعاتا وتصاريفها ، مثال ذلك الجنة فقد أطلقت هذه الكلمة على جنة الخلد التي قال رسول الله صلى الله عليه وسلم عنها " فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر " (3) وأطلقت نفس الكلمة على ما في الأرض من بساتين ورياض لا تداني جنة الخلد بحال من الأحوال فقال تعالى " (لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ جَنَتَانِ عَنْ يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِنْ رِزْقِ رَبكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيبَةٌ وَرَب غَفُورٌ) (4)

ومن ذلك كلمة الصاعقة فقد اختلف معناها في أكثر من موضع ، فقال تعالى (فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ) (5) ، وقال (وَأَما ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى فَأَخَذَتْهُمْ صَاعِقَةُ الْعَذَابِ الْهُونِ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ) (6) ، فهي في هاتين الآيتين العذاب المدمر الذي قضى به سبحانه وتعالى على أمتي عاد وثمود ، يقاربا في ذات المعنى بدرجة أدنى الصاعقة التي ضربت النقباء السبعين الذين ذهبوا مع موسى لميقات ربه فقالوا أرنا الله جهرة فأنزل الله عليهم صاعقة أماتتهم ثم أحياهم ، فذلك قوله تعالى " (وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتى نَرَى اللهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصاعِقَةُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ ثُم بَعَثْنَاكُمْ مِنْ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلكُمْ تَشْكُرُونَ) (7) ، ثم يكون معناها بالنسبة لموسى عليه السلام مختلفا تماما عما سبق . لاقتصار المعنى على الغشية التي أصابته لهيبة الموقف وجلاله نتيجة تجلي الله على الجبل وجعله دكاء . والتي أفاق منها بعد ذلك . أي لم تكن هذه الصعقة موتا ولم تكن حرقا ولم تكن عذابا .

----

(1) تفسير القرطبي للاية (2) النساء: من الآية153 (3) صحيح مسلم 2824 (4) سبأ 15

(5) فصلت 13 (6) فصلت 17 (7) البقرة 56 .

ثانيا : أن تفسير حديث الصعقة المشار إليه على النحو الذي قيل وفسر به يصطدم مع قوله صلى الله عليه وسلم الذي تؤكد حقيقته القرائن والشواهد والفضائل النبوية من أنه " أول من تنشق عنه الأرض " إذ يعني سبق موسى عليه السلام له في البعث فضيلة لا دلالة عليها إلا من صعقة الغشية التي أسلفنا فيها القول ، ولو كانت هذه الفضيلة لموسى عليه السلام لما افتخر صلى الله عليه وسلم بأنه أول من تنشق عنه الأرض . خاصة وأن الأولوية لا تستثنى بأخر . فإما أن يكون هو الأول في مبعثه من مرقده صلى الله عليه وسلم وإما أن يكون موسى عليه السلام

ثالثا : القول بأن بقاء موسى عليه السلام مفيقا حتى نفخة البعث تأسيسا على أن الموت ليس بعدم محض وإنما هو الانتقال من حال إلى حال . قياسا على موت الشهداء وقياسا على حياة الملائكة . قول لا دليل عليه خاصة وأننا إذا قسنا حياة الأنبياء في الملأ الأعلى بحياة الشهداء فأن حياتم ستكون حياة أرواح لقوله صلى الله عليه وسلم عن حياة الشهداء بأن أرواحهم في جوف طير خضر تسرح في جنات النعيم وأنا معلقة بقناديل تزين عرش الرحمن (4) ، ولا قياس بحياة الملائكة . لأن الملائكة أحياء في عالم الغيب غير موتى . ولم يرد عن أي مصدر طبيعة موتم أو حياتم بعد بعثهم .

رابعا : أن تبرير بعض العلماء بأن صعقة الأنبياء غشية وصعقة غيرهم موت. إنما ينصرف إلى صعقة الموت الأولى ، بيد أن مدار الحديث عن صعقة البعث الموصوفة في كتاب الله بنفخة الفزع ، كما أن القول بأن موت الأنبياء غشية وغيرهم موت على الحقيقة استنادا إلى أن الأرض لا تأكل أجساد الأنبياء وأن الشهداء أحياء . هو تبرير فيه نظر لأن الموت ضد الحياة ، والغشية من الحياة ، وقد وصف سبحانه وتعالى نفسه بأنه الحي الذي لا يموت ، أي الذي لا تنعدم حياته . وقضى على جميع الخلائق بالعدم في قوله تعالى (كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ) (2) كما أن للموت سكرات وليس للغشية سكرات . وقد عانى الأنبياء من سكرات الموت حتى محمدا رسول الله . وقتل بعض الأنبياء ، وقال الله تعالى لرسوله المصطفى (إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ)(3) بما يعني أنم ذاقوا الموت حقيقة وواقعا وهم من الأنفس القائل فيها سبحانه (كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ) (4)، ولكن لأن رتبة الأنبياء أعلى من الشهداء الذين هم أحياء عند ربم يرزقون فقد ماتوا بأجسادهم فقط وعلت أرواحهم وسكنت الملأ الأعلى ، فصار موتم جسدا لا روحا ، علما بأن نفي الموت عن الشهداء واعتبارهم أحياء في قوله (وَلا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتاً بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ) (5) وقوله (وَلا تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتٌ بَلْ أَحْيَاءٌ وَلَكِنْ لا تَشْعُرُونَ) (6) لا يعني استثناءهم من الموت ، إنما يعني حياة برزخية غيبية ، مثلما عذاب القبر في برزخ نجهل كيفيته ، كما أن تخصيص الأنبياء – فرضا – ببقاء أجسادهم في قبورهم دون أن تأكلها الأرض أو الديدان لا ينفي موتم أيضا موتا حقيقيا . لكون ذلك تكريما للجسد فقط

----

(4) صحيح مسلم 1887 (2) الرحمن 26 وما بعدها (3) الزمر 30 (4) آل عمران من الآية 185

(5) آل عمران 169 (6) البقرة 154

- صعقة التجلي .

خامسا : إذا كان الحديث الأول يثبت أنه صلى الله عليه وسلم أول من تنشق عنه الأرض وهذا هو مقام الفضيلة المحسوبة له عليه الصلاة والسلام بغير منازع .

والثاني يثبت أنه يفيق من الصعقة التي تصعق الناس فيجد موسى ممسكا بالعرش ، إلا أنه لما كان صلى الله عليه وسلم ، وسائر الأنبياء كانوا من الموتى في صعقة الموت الأولى ، وكانوا حتما من الآمنين من الفزع في صعقة البعث الثانية . فأننا في هذه الحالة نكون أمام احتمال وحيد هو :-

وجود صعقة ثالثة تصعق فيها جميع المخلوقات بلا استثناء بما فيهم رسول الله صلى الله عليه وسلم وسائر الأنبياء وتكون هذه الصعقة بعد نشور المخلوقات للحساب ، أي بعد نفخة البعث وانتظار الحساب ، وهي صعقة غشي وليست صعقة موت ولا صعقة نشور ولا صعقة عذاب أيضا ، حيث تغشى الناس جميعا من جلالها وعظمتها ، ألا وهي صعقة التجلي تجلي الملك الجبار للحساب والفصل بين الخلائق ، وأول من يفيق منها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهي فضيلة أخرى تحتسب له إضافة إلى فضيلة أوليته بالخروج من القبر ، ولأنا ذات الصعقة التي أخذت موسى بن عمران عندما تجلى جلا جلاله للجبل في الدنيا ، فسيجده رسول الله بعد إفاقته ممسكا بقوائم العرش على احتمالين أشار إليهما صلى الله عليه وسلم هما : - إما أن يكون الله استثناه من صعقة التجلي هذه المؤدية إلى الغشي ، وإما أن تكون صعقته خفيفة إلى الحد الذي يفيق منها قبل رسول الله صلى الله عليه وسلم . وفي كلتا الحالين يكون السبب هو سبق صعقه عليه السلام فلا يصعق مرتين .

وفي هاتين الحالتين أيضا – أي حالة إفاقة موسى أو حالة عدم إصابته الصعقة أصلا – تبقى الفضيلة لرسول الله صلى الله عليه وسلم في إفاقته أولا . لأن الأمر بالنسبة لموسى عليه السلام بديلا عن صعقة أصابته في الحياة الدنيا ولم تكن أصابت رسول الله قبل ذلك .

ثانيا : عدم انقطاع نسبه صلى الله عليه وسلم

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم على المنبر " ما بال رجال يقولون إن رحم رسول الله لا تنفع قومه . بلى والله إن رحمي موصولة في الدنيا والآخرة وإني أيها الناس فرط لكم إذا جئتم فيقوم رجل فيقول أنا فلان بن فلان فأقول أما النسب فقد عرفتم ولكنكم أحدثتم بعدي وارتددتم القهقرى " (1)

وقال صلى الله عليه وسلم " كل نسب وسبب منقطع يوم القيامة إلا نسبي وسببي " (2)

وقوله " كل نسب وصهر ينقطع يوم القيامة إلا نسبي وصهري "

وعن عبد الله بن عمر مرفوعا " سألت ربي ألا أتزوج إلى أحد من أمتي ولا يتزوج إلي أحد منهم إلا كان معي في الجنة فأعطاني ذلك "(3) وكل نسب وسبب وصهر سواه صلى الله عليه وسلم منقطع في الآخرة حتى الأنبياء .

والمعنى المراد هو عدم تخلي رسول الله صلى الله عليه وسلم عن أنسابه وأصهاره يوم القيامة كأولئك الذين قال عنهم الله تعالى يوم القيامة (يَوْمَ يَفِر الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ وَأُمِهِ وَأَبِيهِ) (4)

ثالثا : أول من يدخل الجنة

عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال " أنا أول من يأخذ بحلقة باب الجنة ولا فخر " وفي حديث الشفاعة الكبير عن علي بن زيد عن أنس قال " فآخذ بحلقة باب الجنة فأقعقعها (5)

وزاد الطبراني فيقوم الخازن فيقول لي " لا أفتح لأحد قبلك ولا أقوم لأحد بعدك "

وعن سهيل عن أبيه عن أبي هريرة عن النبي قوله " آخذ بحلقة باب الجنة فيؤذن لي " (6)

وفي صحيح مسلم من حديث المختار بن فلفل عن أنس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " أنا أكثر الناس تبعا يوم القيامة . وأنا أول من يقرع باب الجنة " (7)

----

(1)مسند أحمد 11154 (2) قال الحاكم 4684 صحيح الإسناد ولم يخرجاه

(3) ذات المصدر وذات النتيجة 4667 (4) عبس:35
(5)سنن الدارمي 50 (6) ورد بصيغ كثيرة في معظم المسانيد كمسند أحمد (7) صحيح مسلم 196

رابعا : الوسيلة والفضيلة .

الوسيلة والفضيلة مسميان لمعنى واحد ذكرهما صلى الله عليه وسلم في قوله عن جابر بن عبد الله " من قال حين يسمع النداء اللهم رب هذه الدعوة التامة والصلاة القائمة آت محمدا الوسيلة والفضيلة وابعثه اللهم المقام المحمود الذي وعدته حلت له شفاعتي يوم القيامة "(1)

والوسيلة هي أعلى درجة في الجنة لا ينالها إلا عبد واحد . أراد رسول الله صلى عليه وسلم أن يكون هو الذي ينالها . وطلب من أمته أن يدعو الله بها له . وذلك في قوله صلى الله عليه عن أبي سعيد الخدري " الوسيلة درجة عند الله ليس فوقها درجة فسلوا الله أن يؤتيني الوسيلة " (2) وهو صاحبها فعلا لأنه هو الوحيد المؤهل لها .فعن عبادة بن الصامت رضي الله عنه قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إن الله رفعني يوم القيامة في أعلى غرفة من جنات النعيم ليس فوقي إلا حملة العرش " (3) يقول بن القيم " وسميت درجة النبي بالوسيلة لأنا أقرب الدرجات الى عرش الرحمن وهي أقرب الدرجات إلى الرحمن . وأصل اشتقاق لفظ الوسيلة من القرب . وهي فعيلة من وسل إليه تقرب إليه . ومعنى الوسيلة من الوصلة ولهذا كانت أفضل الجنة وأشرفها وأعظمها نورا ، قال فضل بن عياض " أتدرون لم حسنت الجنة ؟ لأن عرش رب العالمين سقفها وقال الكلبي"اطلبوا إليه القربة بالأعمال الصالحة فقد كشف سبحانه عن هذا المعنى كل الكشف فقال (أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَه)(4) وتختلف الوسيلة عن الفردوس في أن الفردوس الدرجة الأوسط والأعلى وأعدها الله للمجاهدين ، لما أورده البخاري في صحيحه عن أبي هريرة قول رسول الله صلى الله عليه وسلم " إن في الجنة مائة درجة أعدها الله للمجاهدين في سبيله . بين كل درجتين ما بين السماء والأرض فإذا سألتم الله فاسألوه الفردوس فإنه وسط الجنة وأعلى الجنة وفوقه عرش الرحمن . ومنه تفجر أنار الجنة "

ويقول بن القيم أيضا أن " الفردوس اسم يقال على جميع الجنة ويقال على أفضلها وأعلاها وأصلها البستان " مستندا إلى قوله تعالى "(إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلاً) (5) أما الوسيلة فسقفها عرش الرحمن والأقرب إلى الله ولعبد واحد فقط . هو ولا شك رسول الله صلى الله عليه وسلم

----

(1) صحيح البخاري 589

(2) قال الهيثمي في الزوائد رواه أحمد والطبراني في الكبير وفيه بن لهيعة وهو ضعيف باب اجابة المؤذن

(3)قاله بن كثير في جزء من كلام عن فضائل رسول الله صلى الله عليه وسلم تحت عنوان سورة الأنبياء يقصد الإسراء

(4) الإسراء: من الآية57 (5) الكهف:107

خامسا : الدعوة المستجابة .

وهي الدعوة التي أدخرها رسول الله صلى الله عليه وسلم لأمته يوم القيامة ، فقال " لكل نبي دعوة مستجابة فتعجل كل نبي دعوته . وإني اختبأت دعوتي شفاعة لأمتي يوم القيامة . فهي نائلة إن شاء الله من مات من أمتي لا يشرك بالله شيئا " (1) ، وعلى الرغم من أنه صلى الله عليه وسلم كان مستجاب الدعوة في حياته الدنيا . إلا أن له دعوة مستجابة مقدما . وهي أشبه بطلب لا يرد أيا كان هذا الطلب ، فلم يتعجل طلبها رسول الله ولم يطلبها لنفسه أو لواحد من أهله أو أقاربه أو أصحابه ، ولكنه أجلها لليوم المشهود ، وجعلها لأمته إنقاذا لهم من هول الموقف وشدته ، ورسول الله صلى الله عليه وسلم يشترك مع غيره من الأنبياء في استجابة الدعوة ، وقد استجاب الله تعالى لكل نبي في دعوته . ولكن تميز رسول الله عن سواه من الأنبياء بأن الدعاء كان بالنسبة له ارتقاء سماويا وصلة واتصالا إلهيا لم يكن له نظير مطلقا .. فكان دعاءه صلى الله عليه وسلم مستجابا في حينه وفي لحظته دون فاصل زمني حتى وإن تأخر تنفيذه إلى موعد تحقيق الإجابة ، ودون شروط أيضا لأن المعية كانت متواصلة والشروط كانت دائمة وأبدا متوافرة فهاهو يدعو لعبد الله بن عباس فيقول " اللهم فقه في دينك "(2) فيصير حبر الأمة ، ويدعو الله أن يعز الإسلام بعمر بن الخطاب فيقول" اللهم أعز الإسلام بأحد العمرين عمرو بن هشام وعمر بن الخطاب"(3) فيستجيب الله دعوته بخيرهما ويعز الإسلام بأفضلهما . وكان إسلامه رضي الله أشبه بالمستحيل حتى قال قائلهم لا يسلم عمر حتى يسلم حمار بن الخطاب ، وتجرأ عليه عتيبة بن أبي لهب زوج ابنته أم كلثوم فدعا الله عليه أن يسلط عليه كلبا من كلابه فلم يمت إلا من قتلة أسد رغم حرص القوم على حمايته ووضعه في وسطهم وبين رحالهم خوفا من دعوة رسول الله فيتخطاهم الأسد جميعا فيقضمه .(4)

وجاءه جبريل في ظلة من الملائكة يقول له " إن الله سمع قول قومك لك وما ردوا عليك به وقد بعث إليك ملك الجبال لتأمره بما شئت فيهم . فقال له ملك الجبال إن شئت لأطبقت عليهم الأخشبين فيأبى رسول الله "(5) - وقف عند كلمة لتأمره يتضح المعنى المراد - وكان صلى الله عليه وسلم يقول في شدة معاناته " والله لو سألت الله أن يجعل لي جبال تامة ذهبا لفعل " (6) وأراد الجيش في غزوة من الغزوات أن يأكلوا نواضح الإبل (التي يسقى عليها) من شدة الجوع فيأمرهم صلى الله عليه وسلم أن يأتوا بفضل طعامهم . فجمع الجيش ما لديهم فكان الرجل يأتي بالصاع وكان أخر يأتي بالصاعين فقط حتى بلغ جميع ما عندهم بضعة وعشرون صاعا فدعا

رسول الله عليه ففاض الطعام وملئوا أوعيتهم ، وفي شدة جدب دعا ب ول الماء فإذا الماء يساقط من السماء على الظراب والأودية حتى يكاد يغرق الدور . فيعود ثانية ويدعو قائلا " اللهم حوالينا لا علينا " (7) فيرتفع الماء

----

(1)صحيح البخاري 5945 ، 5946 (2) مسند أحمد 2397 (3) بن حبان 6881 (4)الحديث في المستدرك 3984
(5) الحديث بصحيح البخاري 3059 (6)المعجم الكبير للطبراني 295 (7) الحديث بتمامه مسند بن أبي شيبه برقم 29571

وفي إحدى المشاهد طلب رسول الله من حذيفة أن يأتيه بخبر عن عدوهم ، فتردد حذيفة من شدة الخوف والقر (البرد الشديد) ولكنه قام . فقال رسول الله " اللهم احفظه من بين يديه ومن خلفه وعن يمينه وعن شمائله ومن فوقه ومن تحته " فيقول حذيفة فوالله ما خلق الله فزعا ولا قرا كان في قلبي إلا وانتزعه مني " حتى أنه من شجاعته التي أودعها الله مكان خوفه استجابة لنبيه أراد أن يرمي أبو سفيان بسهم لولا أنه تذكر وصية رسول الله له ألا يخبر العدو عنهم .(1) ودعى عليه الصلاة والسلام لسعد بن أبي وقاص أن يكون مستجاب الدعوة فكان الناس يخافون دعوته ويرجونا . وعلى الرغم من ذلك جميعه ادخر الله تعالى له دعوة أخرى هي المستجابة بلا أدنى احتمال أو شك . وهي حتما لأمته . لأنه المبعوث رحمة لها . فلله الحمد والمنه .

سادسا : كل الأنبياء تحت لوائه

فذلك قوله في صحيح الجامع " أنا سيد ولد آدم يوم القيامة ولا فخر . وبيدي لواء الحمد ولا فخر . وما من نبي آدم فما سواه إلا تحت لوائي " (2) ، وفي رواية " وأنا خطيب الأنبياء إذا وفدوا وأمامهم إذا اجتمعوا ومبشرهم إذا أيسوا . ولواء الحمد بيدي وأنا أكرم ولد آدم على ربي " (3)

ولوائه صلى الله عليه وسلم هو لواء الإسلام الذي تحته كل الأنبياء ، ومسمى لواءه بلواء الحمد فذلك بوصفه أكثر الخلق الذين توافرت فيهم خصال الحمد ، فهو أعظم الخلق حمدا لربه تعالى وهو المحمود عند ربه والمحمود عند الملائكة والمحمود عند المرسلين والمحمود عند أهل الأرض كلهم وإن كفر به بعضهم ، فأن ما فيه من صفات الكمال محمودة عند كل عاقل وإن كابر عقله جحودا أو عنادا أو جهلا باتصافه با ، ولو علم اتصافه با لحمده

ورسول الله اختص بمسميات الحمد وصفاته ما لم يجتمع لغيره . فاسمه أحمد ومحمد . وأمته الحامدون يحمدونه على السراء والضراء . وصلاة أمته مفتتحة بالحمد وخطبته مفتتحة بالحمد وكتابه مفتتح بالحمد وخلفائه وأصحابه يكتبون المصاحف مفتتحا بالحمد لذا فأن بيده لواء الحمد يوم القيامة . (4)

ويقول بن تيميه " خص اللواء بالحمد لأنه أحب شيء إلى الله

----

(1) قصة مائتين من حياة الصحابة والتابعي (2) بن حبان 6478
(3) سنن الترمزي 3610 وفي نايته قال أبو عيس هذا حديث حسن غريب (3) بن القيم زاد الميعاد

سابعا : شهادته على الأمم

قال الله تعالى (وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمةً وَسَطاً لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى الناسِ وَيَكُونَ الرسُولُ عَلَيْكُمْ شَهيداً) (1) وقال تعالى (يَا أَيهَا النبِي إِنا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِداً وَمُبَشراً وَنَذِيراً وَدَاعِياً إِلَى اللهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجاً مُنِيراً) (2) ، وقوله (فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُل أُمةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلاءِ شَهِيداً) (3) تلك هي شهادته صلى الله عليه وسلم على الناس جميعا يوم القيامة الذين اتبعوه والذين لم يتبعوه ، من أسلموا ومن لم يسلموا ، من سائر الأمم الماضية ومن أمته ، هو وحده الشاهد عليهم والشهيد ، فيشهد للأنبياء بصدقهم ويشهد على من كذبوهم بكذبهم وبتانم . ويشهد للطائعين من أمته ويشهد على العصاة الذين أحدثوا من بعده إذ يردون عليه فيريد أن يشفع لهم فيقول له ربه . إنك لا تدري ماذا أحدثوا من بعدك فيقول سحقا سحقا (4)، وتؤكد هذه الشهادة مع شهادة الله تعالى له باستثناءه صلى الله عليه وسلم من السؤال يوم القيامة . سؤال المرسلين والذين أرسل إليهم ، ولا يخالف ذلك قوله تعالى (وَنَزَعْنَا مِنْ كُل أُمةٍ شَهِيدا)(5) ، إذ تلك شهادة الأنبياء على أنفسهم وعلى أممهم . وحتى إذا ما شهدوا على أنفسهم وعلى أممهم يحتاجون لشهادة الأمة الوسط الشهداء على الأمم يوم القيامة . قال الله (وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمةً وَسَطاً لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى الناسِ وَيَكُونَ الرسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيد(6)، فشهادته صلى الله عليه وسلم يوم القيامة شهادة خاصة وشهادة عامة ، أما الخاصة فهي شهادته على قومه فذلك قوله :

(يَا أَيهَا النبِي إِنا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِداً وَمُبَشراً وَنَذِيراً) (7) ، أي على أهل مكة ثم المسلمين جميعا . نظير ذلك قوله تعالى (إِنا أَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ رَسُولاً شَاهِداً عَلَيْكُمْ كَمَا أَرْسَلْنَا إِلَى فِرْعَوْنَ رَسُولاً) (8) وشهادة عامة هي شهادته على سائر الأنبياء والرسل والمرسل إليهم ، قال قتادة " شاهد على أمته بالتبليغ إليهم وعلى سائر الأمم بتبليغ أنبيائهم .

----

(1)البقرة: من الآية143 (2) الأحزاب:46 (3) النساء:41 (4) الحديث بتمامه كما جاء في صحيح مسلم 249 عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أتى المقبرة فقال ثم السلام عليكم دار قوم مؤمنين وإنا إن شاء الله بكم لاحقون وددت أنا قد رأينا إخواننا قالوا أو لسنا إخوانك يا رسول الله قال أنتم أصحابي وإخواننا الذين لم يأتوا بعد فقالوا كيف تعرف من لم يأت بعد من أمتك يا رسول الله فقال أرأيت لو أن رجلا له خيل غر محجلة بين ظهري خيل دهم بم ألا يعرف خيله قالوا بلى يا رسول الله قال فإنم يأتون غرا محجلين من الوضوء وأنا فرطهم على الحوض ألا ليذادن رجال عن حوضي كما يذاد البعير الضال أناديهم ألا هلم فيقال إنم قد بدلوا بعدك فأقول سحقا سحقا

(5) القصص: من الآية75 (6) البقرة: من الآية143 (7) الأحزاب:45 (8) المزمل: 15

=

ثامنا : الكوثر

الكوثر غير الحوض ، إذ الحوض هو الذي يكون في الموقف قبل الصراط وقبل دخول الجنة ، قال القرطبي في التذكرة " للنبي حوضين أحدهما في الموقف والآخر في الجنة ، واستخلص ذلك من حديثه صلى الله عليه وسلم المنقول عن أبي هريرة في صحيح البخاري القائل فيه النبي " بينا أنا قائم على الحوض إذا زمرة عرفتها ، خرج رجل من بيني وبينهم فقال له هلم ، فقلت إلى أين ؟ فقيل إلى النار ، قلت وما شأنم ؟ قالوا إنم ارتدوا على أدبارهم القهقرى . ثم إلى زمرة أخرى حتى إذا عرفتهم خرج من بيني وبينهم رجل فقيل له هلم ، فقلت إلى أين ؟ فقالوا إلى النار ، قلت وما شأنم قالوا ارتدوا على أدبارهم فلا أراه يخلص منهم إلا مثل همل النعم "(1) وسئل عليه الصلاة والسلام ما آنية الحوض فقال"والذي نفسي بيده لآنيته أكثر من عدد نجوم السماء وكواكبها في الليلة المظلمة "(2)، وسئل عن عرضه فقال " من مقامي حتى عمان "وفي رواية " ما بين صنعاء إلى إيلة "وسئل عن شرابه فقال "أحلى من العسل وابيض من الثلج فيه ميزابان من الجنة أحدهما من ذهب والأخر من ورق"(3) ولكل نبي حوض ، فذلك قوله صلى الله عليه وسلم " لكل نبي حوض وإنم يتباهون إيهم أكثر وارده . وأرجو أن أكون أنا أكثرهم ورودا " (4) وروي عن بن عباس قوله سئل رسول الله عن الوقوف بين يدي الله تعالى هل فيه ماء ؟ فقال إي والذي نفسي بيده أن فيه لماء وإن أولياء الله ليردون حياض الأنبياء ويبعث الله تعالى سبعين ألف ملك في أيديهم عصي من نار يذودون الكفار عن حياض الأنبياء "(5) وقال البكري المعروف بالواسطي " لكل نبي حوض إلا صالح عليه السلام فأن حوضه ضرع ناقته (6) واختلف أهل التأويل في الكوثر على عدة أقوال أوردها القرطبي في تفسيره ، الأول أنه نر في الجنة حافتاه من الذهب وبحراه على الدر والياقوت . تربته أطيب من المسك وماءه أحلى من العسل وأبيض من الثلج ، الثاني أنه حوض النبي في الموقف قاله عطاء ، وقال في صحيح مسلم عن

أنس رضي الله عنه قال " أغفى النبي إغفاءة فرفع رأسه مبتسما فقالوا له يا رسول الله ما أضحكك ؟ فقال أنزلت علي آية آنفا وتلا " إنا أعطيناك الكوثر فصلي لربك وانحر إنا شانئك هو الأبتر " ثم قال هل تدرون الكوثر ؟ قالوا الله ورسوله أعلم . قال إنه نهر وعدنيه ربي عز وجل في الجنة عليه خير كثير ، وعليه حوضي ترد عليه أمتي يوم القيامة آنيته بعدد نجوم السماء " الثالث النبوة وقيل القرآن والإسلام ، وقيل كثرة الصحابة والأتباع ، وقيل الصلاة عليه ورفع ذكره . وقيل نور القلب وقيل الشفاعة . والمعجزات والتوحيد . وأقوال كثيرة من هذا القبيل أصح ما اتفق عليه العلماء الأول والثاني . وذلك لما ورد عن أنس رضي الله عنه سمع قوما يتذاكرون الحوض فقال " ما كنت أرى أن أعيش حتى أرى أمثالكم يتمارون في الحوض .لقد تركت عجائز خلفي ما تصلي امرأة منهن إلا سألت الله أن يسقيها من حوض النبي "(7)

----

(1) قال المنذري في الترغيب والترهيب 2482 رواه البخاري ومسلم (2) صحيح مسلم 2300 (3)صحيح مسلم 2301
(4) الطبراني المعجم الكبير 6881 (5) بن كثير في التفسير جزء 2 وعقب بن كثير بقوله "هذا حديث غريب
(6) نقله المناوي في فيض القدير عن القرطبي جزء 2 ص 516 (7) القرطبي تفسير الكوثر بتصرف غير مخل

وما نراه :- أنه لما كان سبب نزول السورة الكريمة أن العاص بن وائل السهمي كان إذا ذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم قال دعوه فإنما هو رجل أبتر لا عقب له لو هلك انقطع ذكره واسترحتم منه . وفي رواية عطاء بن عباس أنه كان يمر بمحمد ويقول له أني لأشنؤك وإنك لأبتر من الرجال .وعن بن عباس قال " نزلت في العاص وذلك أنه رأى رسول الله يخرج من المسجد وهو يدخل فالتقيا عند باب بني سهم فقالوا له مع من كنت تتحدث فقال مع الأبتر " ويقصد به النبي ، وكان عليه الصلاة والسلام توفي ولده عبد الله من خديجة " ولما كان الله سبحانه وتعالى يمتن على عبده صلى الله عليه وسلم بنعمة بديلة عن قولة هذا الشقي ويثبت فؤاده ويطمئنه ويسعده بهذا البديل ، ويطلب منه في الوقت ذاته أن يؤدي الشكر لهذه النعمة التي أعطاه إياها ، وهو أن يصلي لربه وينحر ، لذا اتخذ الناس من الصلاة والنحر علامة على الشكر وذكر النعمة ، ولما كانت العرب تعبر عن كلمة الكوثر بأنه كل شيء كثير في العدد والتدبر والخطر ، مثل النوفل من النفل والجوهر من الجهر ، وقيل أنها تطلق على الرجال كثيري الخير وقيل إطلاقها على الأصحاب والأتباع ، ولما كان الله سبحانه وتعالى قد قرر أن محمد ليس أبا أحد من المسلمين في قوله تعالى " (مَا كَانَ مُحَمدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ وَلَكِنْ رَسُولَ اللهِ وَخَاتَمَ النِبيينَ وَكَانَ اللهُ بِكُل شَيْءٍ عَلِيماً) (1) فأن الكوثر يحمل على أحد معنيين الأول الرسالة وختام النبوة ، والثاني القرآن الكريم وكلاهما مرتبطان ويعبران الخير العظيم والبديل الأعظم عن حرمانه صلى الله عليه وسلم من الولد والرجال والأول أقرب لما يلي :- أولا هي لا تصلح لمعنى حوض الجنة الذي ماءه أحلى من العسل وأبيض من الثلج ، لأن هذه صفة ماء الجنة عموما ، قال تعالى (مَثَلُ الْجَنةِ التِي وُعِدَ الْمُتقُونَ فِيهَا أَنهَارٌ مِنْ مَاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنهَارٌ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيرْ طَعْمُهُ وَأَنهَارٌ مِنْ خَمْرٍ لَذةٍ لِلشارِبِينَ وَأَنهَارٌ مِنْ عَسَلٍ مُصَفّىً وَلَهُمْ فِيهَا مِنْ كُل الثمَرَاتِ وَمَغْفِرَةٌ مِنْ رَبهِمْ) (2) وفيها لا يجوع الإنسان ولا يعرى ولا يظمأ فيها ولا يضحى .

ثانيا الحاجة إلى الشرب من الظمأ والتعب تكون في الموقف وشدته ، لذا كان حوض النبي المضروب على الصراط ، والذي إذا شرب منه أحد لا يظمأ بعده أبدا ، أي طيلة فترة الحساب وحتى دخوله الجنة

ثالثا : لأن الأبتر المقصود به في السورة الحرمان من شيء دنيوي (الولد) فكان لزاما أن يكون الرد على هذا الشائن بنعمة أنعم الله تعالى بها على رسوله صلى الله عليه وسلم دنيوية أيضا ، ومن ثم فلا يصلح صرف هذه النعمة إلى النعم الآخروية لمواجهة هذا الشائن الأبتر بها . خاصة وأننا إذا تأملنا النعم التي يمتن الله تعالى بها على رسوله صلى اله عليه وسلم نجد معظمها دنيوية ، مثال ذلك تجده في سورتي الضحى والشرح

رابعا : قد لا تصلح بعض الأقوال السابقة ككثرة الأصحاب والأتباع مثلا للكوثر باعتبار أن هذه السورة نزلت في مكة في أوائل البعثة وقت أن كان الإسلام ضعيفا ولم يكتمل الدين وتتم النعمة بعد ولم يكثر الأتباع وكالصلاة عليه ورفع ذكره والشفاعة والمعجزات ، لأن كل ذلك فضائل له صلى الله عليه وسلم بجانب فضيلة الكوثر .

----

(1) الأحزاب:40 (2) محمد:15

تاسعا : الشفاعة والمقام المحمود .

معنى الشفاعة : - جاء في تفسير القرطبي

الشفاعة : أصلها الشفعة ونحوها . من الشفع وهو الزوج في العدد لأن الشافع يصير مع صاحب الحاجة شفيعا ويقال ناقة شفوع إذا جمعت بين محلبين في حلبة واحدة وناقة شفيع إذا اجتمع لها حمل وولد يتبعها . والشفع ضم واحد إلى واحد والشفعة ضم ملك الشريك إلى ملك الشافع . وهي على التحقيق إظهار م لة الشفيع عند المشفع ، وفي صحيح مسلم " اشفعوا تؤجروا ويجعل الله على لسان نبيه ما يحب " (1)، وفي المعجم الوجيز شفع الشيء ضم مثله إليه . لذا فهي ضد الوتر الذي هو الفرد . ومن أجمل ما قيل في المعنى " كل شيء في الكون فيه شفع سوى الله فهو الوتر " . قال تعالى "(وَمِنْ كُلِ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَكُمْ تَذَكَرُونَ) (2)

الشفاعة بين النفي والإذن .

وردت الشفاعة في آيات من القرآن كثيرة منها قوله تعالى (مَنْ ذَا الَذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلا بِإِذْنِه)(3)

وقوله (إِن رَبكُمُ اللهُ الَذِي خَلَقَ السمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتةِ أَيامٍ ثُم اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُدَبرُ الْأَمْرَ مَا مِنْ شَفِيعٍ إِلا مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ ذَلِكُمُ اللهُ رَبكُمْ فَاعْبُدُوهُ أَفَلا تَذَكَرُونَ) (4)

وفي مثل هذه الآيات قيد الله سبحانه وتعالى الشفاعة بإذنه . فدل ذلك على حقيقتها وشرطها الذي هو الإذن ، وقال تعالى (وَاتقُوا يَوْماً لا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئاً وَلا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ وَلا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلا هُمْ يُنصَرُونَ) (5)، وقال سبحانه (وَاتقُوا يَوْماً لا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئاً وَلا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلا تَنْفَعُهَا شَفَاعَةٌ وَلا هُمْ يُنْصَرُونَ) (6) فنفت هاتين الآيتين الشفاعة عن الشافع لنفسه أو لغيره . وذلك حتما لغير الذين لم يتقوا هذا اليوم ولم يعدوا له أو الذين أنكروه . خاصة وأن الآيتين وردتا في معرض الحكاية عن بني إسرائيل ، حيث

يذكرهم الله تعالى بنعمه عليهم ثم يحذرهم من مغبة عدم اتباع المكتوب عندهم في التوراة . وذلك بعدم قبول شفاعة أحدهم له أو عليه يوم القيامة ، لذا يقول سبحانه عن هؤلاء الكافرون أو المنكرة (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لا بَيْعٌ فِيهِ وَلا خُلَّةٌ وَلا شَفَاعَةٌ وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ) (7) فختم سبحانه الآية عن الكافرين كناية على أنم هم المقصودين من حرمانم الشفاعة ، ويؤكد ذلك قوله تعالى (وَذَرِ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَعِباً وَلَهْواً وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَذَكِّرْ بِهِ أَنْ تُبْسَلَ نَفْسٌ بِمَا كَسَبَتْ لَيْسَ لَهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيٌّ وَلا شَفِيعٌ وَإِنْ تَعْدِلْ كُلَّ عَدْلٍ لا يُؤْخَذْ مِنْهَا أُولَئِكَ الَّذِينَ أُبْسِلُوا بِمَا كَسَبُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ) (8) ويؤكد ذلك أيضا قوله عن أهل سقر في سورة المدثر (فَمَا تَنْفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ) (9)

----

(1) صحيح مسلم 2627 باب استحباب الشفاعة (2) الذريات:49 (3) البقرة: من الآية255
(4) يونس:3 (5) البقرة:48 (6) البقرة:123 (7) البقرة:254 (8) الأنعام:70 (9) المدثر:48

فيقول القرطبي في هذه الآية دليل على صحة الشفاعة للمذنبين وليس للكفار شفيع يشفع لهم . وكذا قوله (وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الْآزِفَةِ إِذِ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَنَاجِرِ كَاظِمِينَ مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلا شَفِيعٍ يُطَاعُ)(1)

لذا يقول بن القيم في الحاشية " نفيه سبحانه الشفاعة يوم القيامة لا يضاد الأحاديث المتواترة بثبوتا فقد نفى سبحانه الشفاعة التي كان أهل الشرك يثبتونا . وهي شفاعة يتقدم با الشافع بين يدي المشفوع عنده وإن لم يأذن له . وأما التي أثبتها الله ورسوله فهي الشفاعة التي تكون من بعد إذنه "

ويقول في موضع آخر – لا أذكر مصدره – " الشفاعة التي نفاها الله تعالى هي الشفاعة الشركية في قلوب المشركين المتخذين من دون الله شفعاء فيعاملون بنقيض قصدهم من شفاعتهم ويفوز با الموحدون ولعله يقصد بذلك قوله تعالى : (وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لا يَضُرُّهُمْ وَلا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ)(2) .

كما وردت الشفاعة في أحاديث كثيرة منها ما جاء في الصحيحين عن أنس رضي الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لكل نبي دعوة دعاها لأمته . وإني احتبست دعوتي شفاعة لأمتي يوم القيامة "(3).

وفي رواية زيادة " فهي نائلة إن شاء الله من مات من أمتي لا يشرك بالله شيئا " (4)

وفي صحيح البخاري عن أبي هريرة سألت رسول الله من أسعد الناس بشفاعتك يوم القيامة ؟ فقال صلى الله عليه وسلم لقد ظننت أن لا يسألني عن هذا أولى منك لما رأيت من حرصك على الحديث . أسعد الناس بشفاعتي يوم القيامة من قال لا إله إلا الله من قبل نفسه " (5) وفي صحيح البخاري أيضا عن أنس بن مالك رضي الله عنه إذا كان يوم القيامة شفعت فقلت يا رب ادخل الجنة من كان في قلبه خردلة من إيمان فيدخلون . " (6)

وعن عمران بن الحصين رضي الله عنه في ذات الصحيح أيضا قوله صلى الله عليه وسلم يخرج قوم من النار بشفاعتي فيدخلون الجنة ويسمون بالجهنمين " (7)

أنواع الشفاعة .

وقد أدرج العلماء أنواعا كثيرة من الشفاعات منها :-

شفاعة عامة حيث يرغب فيها الناس إلى الأنبياء نبيا نبيا حتى يريحهم الله من مقامهم " وأشهر ذلك حديث الشفاعة الكبرى " ويقصد بهذه الشفاعة البدء في الحساب وإراحة المؤمنين من عذاب الموقف .وفي بدائع الفوائد لابن القيم نقلا عن آخر يقول " إنما امتنع سائر الأنبياء عن الشفاعة لأنهم عوقبوا قبل الغفران فأحجموا عنها ونبينا غفر له قبل العتاب في قوله تعالى : (عَفَا اللهُ عَنْكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ) (8) فتقدم لها .فتكون حكمة شفاعة محمد صلى الله عليه وسلم أنه غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر . قال تعالى (لِيَغْفِرَ لَكَ اللهُ مَا تَقَدَمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخرَ وَيُتِم نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَاطاً مُسْتَقِيما (9)

----

(1) غافر:18 (2) يونس: من الآية18 (3) صحيح مسلم 198 (4) مسلم 199 (5) صحيح البخاري 99 ، 6201
(6) البخاري 7071 (7) البخاري 6198 (8) التوبة: من الآية43 (9) الفتح:2

وقيل " هذا من كمال فضلهم وخوفهم وعبوديتهم وتواضعهم فأن من فوائد ما يتاب منه أن تكمل العبودية ويزداد الخوف والخضوع فترفع الدرجات . وامتناعهم عن الشفاعة هو من هذا القبيل فترفع درجاتهم ، لذلك امتنع المسيح ولم يذكر ذنبا وقال اذهبوا إلى محمد لأنه الوحيد الذي غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر . فعلم أن تأخرهم عن الشفاعة لم يكن لنقص درجاتهم وإنما لما علموه من عظمة المقام المحمود الذي يستدعي كمال مغفرة الله للعبد ، ويقول بن القيم أيضا في تحفة المولود " إذن الله تعالى في الشفاعة موقوف على عمل المشفوع له من توحيده وإخلاصه . ومن الشافع من قربه من الله . وم لته – أي المشفوع له – لا تستحق بقرابة ولا بنوة ولا أبوة " - الشفاعة في فتح الجنة لأهلها - الشفاعة في دخول من لا حساب عليهم الجنة

- الشفاعة في تخفيف العذاب عن بعض أهل النار - الشفاعة في قوم استوجبوا النار فيشفع لهم ألا يدخلوها .

- شفاعته في قوم من المؤمنين في زيادة الثواب ورفعة الدرجات .

كما يقول بن القيم في بدائع الفوائد أكثر الأحاديث صريحة في أن الشفاعة في أهل التوحيد من أرباب الكبائر إنما تكون بعد دخولهم النار . وأما أن يشفع فيهم قبل الدخول فلا أظفر فيه على نص

بعض المؤذون لهم في الشفاعة .

تشمل الشفاعة كل من أذن الله تعالى له من النبيين والصديقين والشهداء . كما تشفع الأعمال الصالحة لصاحبها . ففي أحد الصحيحين قوله صلى الله عليه وسلم " أقرءوا القرآن فأنه يأتـي يوم القيامة شفيعا لأصحابه " (1) وقيل قال صلى الله عليه وسلم في الثلث الذين يقتلون شهداء في الملاحم " شهيدهم كشهيد عشرة من

شهداء بدر يشفع الواحد من شهداء بدر في سبعين ويشفع شهيد الملاحم في سبع مائة " (2) وقال أيضا " إن من أمتي من يعظم النار حتى يصير ركنا من أركانا . وإن من أمتي من يشفع لأكثر من ربيعة ومضر " (3) وعن الحسن " إن الولد إذا ولد فأهريق عنه الدم فمات وهو صغير يشفع لوالديه "ويقول الغزالي رحمه الله : " اعلم أنه إذا حق دخول النار على طوائف من المؤمنين فأن الله تعالى بفضله يقبل فيهم شفاعة الأنبياء والصديقين والعلماء والصالحين وكل من له عند الله جاه وحسن معاملة " (4)

شفاعة رسول الله في الدنيا والآخرة .

فإذا كان ذلك فبماذا فضل الله تعالى محمدا على الأنبياء في الشفاعة ؟.

التفضيل من عدة وجوه منها ضمان قبول شفاعته . بينما شفاعة غيره مرهونة بإذن الله تعالى وقبولها . فذلك قوله صلى الله عليه وسلم " إني ادخرت دعوتي ليوم القيامة شفاعة لأمتي "(5)

----

(1) صحيح مسلم 804 (2) الفتن لنعيم بن حماد المروزي (3) مسند أحمد 17891

(4) الإحياء وربما المنقذ من الضلال (5) قال الهيثمي في المجمع رجاله رجال صحيح وذكره البيهقي في الاعتقاد

وفي صحيح مسلم عن عمرو بن العاص أن رسول الله صلى الله عليه وسلم تلا قول الله تعالى قول إبراهيم عليه السلام " (رَب إِنهُن أَضْلَلْنَ كَثِيراً مِنَ الناسِ فَمَنْ تَبِعَنِي فَإِنهُ مِني وَمَنْ عَصَانِي فَإِنكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ) (1) وقول عيسى عليه السلام " (إِنْ تُعَذبْهُمْ فَإِنهُمْ عِبَادُكَ وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ) (2) فرفع رأسه ثم قال يارب أمتي فقال الله تعالى لجبريل قل له " إنا سنرضيك في أمتك ولا نسؤوك " (3) ، ومنها أنه أول شفيع وأول مشفع لقوله صلى الله عليه وسلم كما جاء في صحيح الجامع " وأنا أول شافع وأول مشفع ولا فخر " ، ومنها كثرة من يستفيدون من شفاعته . لقوله عليه الصلاة والسلام " إني لأشفع يوم القيامة لأكثر مما على وجه الأرض من حجر ومدر " (4)

وقد أُذن له صلى الله عليه وسلم في الشفاعة حال حياته الدنيا ومن ذلك قبول شفاعة عثمان بن عفان في العفو عن عبد الله بن أبي سرح – وقد تقدم – وقبول شفاعة رأس المنافقين عبد الله بن أبي في يهود بني النضير عندما أجلاهم عليه الصلاة والسلام إلى أذرعات ولم يقرهم في المدينة – (5)وكذلك يهود بني قريظة عندما حكم فيهم رسول الله سعد بن معاذ رضي الله تعالى عنه ولو كان شفع فيهم سعد لقبل صلى الله عليه وسلم شفاعته لأنه – أي سعد – اشترط على الجميع بما فيهم رسول الله قبول حكمه أيا كان ووافق رسول الله (6) - ولنا عن هذين الموضوعين حديث مفصل في الجزء الثاني لهذا البحث إن شاء الله - بينما لم يقبل شفاعة أسامة بن زيد في العفو

عن شريفة القوم التي سرقت لأنا كانت تتعلق بحد من حدود الله (7) . وعندما ذهب يصلح بين امرأة وزوجها سألته أتشفع أم تأمر فقال بالشفاعة فردت شفاعته صلى الله عليه وسلم .

قولة لأبن القيم في الرد على منكري الشفاعة .

منكري الشفاعة قديما وحديثا ما بين غلاة ووسط وما بين حسني النية وسيئها وقعوا في التأويل فلم يصيبوا . وحسبنا هذه القولة لأبن القيم التي نقلتها عن كتابه دار الهجرتين .حيث يقول "ولما برتم نصوص الشفاعة وصاح بم أهل السنة وأئمة الإسلام من كل قطر وجانب ورموهم بسهام الرد أحالوا بالشفاعة على زيادة الثواب فقط لا على الخروج من النار . فردوا السنة المتواترة قطعا وصاروا مضغة في أفواه الأمة وعارا في فرقها . فأن أمر الشفاعة أظهر عند الأمة من أن يقبل شكا أو نزاعا وهو عند مثل الصراط والحساب ونحوهما مما يعلم إخبار الرسول به .

----

(1) إبراهيم:36 (2) المائدة:118 (3) مسلم 202 (4) الأوسط للطبراني 5360 (5) الطبري تفسير آية الجلاء سورة الحشر

(6) انظر تفصيلا صحيح مسلم 1768 (7) الحديث كما جاء في صحيح مسلم 1688 عن عائشة ثم أن قريشا أهمهم شأن المرأة المخزومية التي سرقت فقالوا من يكلم فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا ومن يجترئ عليه إلا أسامة حب رسول الله صلى الله عليه وسلم فكلمه أسامة فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم أتشفع في حد من حدود الله ثم قام فاختطب فقال أيها الناس إنما أهلك الذين قبلكم أنم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد وأيم الله لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها

المقام المحمود :

وقد أجمع علماء الأمة وفقهائها أن المقام المحمود المعني فى قوله تعالى (عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبكَ مَقَاماً مَحْمُوداً)(1) وقوله صلى الله عليه وسلم " من قال حين يسمع النداء اللهم رب هذه الدعوة التامة والصلاة والقائمة آتي محمدا الوسيلة والفضيلة والمقام المحمود الذي وعدته إنك لا تخلف الميعاد حلت له شفاعتي يوم القيامة " (2) هو الشفاعة

فقد أخرج الحاكم في المستدرك عن علي بن الحسين أن رجلا من أهل العلم أخبره أن رسول الله قال " يمد الأرض يوم القيامة مثل الأديم ثم لا يكون لبشر من بني آدم منها إلا موضع لقدميه وأُدعى أول الناس فأخر ساجدا حتى يؤذن لي فأقوم ثم يؤذن لي في الشفاعة فأقول أي رب عبادك عبدوك في أطراف الأرض .. فذلك المقام المحمود "، وعن يزيد بن صهيب قال كنت قد شغفني رأي من رأي الخوارج (3) فخرجت أريد الحج فمررنا بالمدينة فإذا بجابر بن عبد الله يحدث القوم عن رسول الله بذكره الجهنمين فقلت له ما هذا الذي تحدث به ؟ أو ليس الله يقول (إِنكَ مَنْ تُدْخِلِ النارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ)(4) ويقول (كُلمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ غَم أُعِيدُوا فِيهَا وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ) (5) ؟ فقال بلى ثم قال أي بني أتقرأ القرآن ؟ قلت بلى . قال وهل سمعت بالمقام المحمود ؟

قلت بلى قال فذلك هو الذي يُخرج به الله تعالى من يخرج منها فيخرجون منها كعيدان السماسم فيدخلون نهرا من أنهار الجنة فيغتسلون فيه فيخرجون كأنهم القراطيس البيض"(6)

وأخرج الحاكم أيضا في المستدرك قوله صلى الله عليه وسلم " إذا كان يوم القيامة كنت أنا وأمتي على تل فيكسونني حلة خضراء ثم يأذن لي الله تعالى أن أقول ما شاء الله لي أن أقول فذلك المقام المحمود "

الأمر الذي يفهم منه أن الشفاعة عامة هي المذكورة في أقسامها سالفة الذكر . بينما المقام المحمود خاص بمن دخلوا النار من أهل التوحيد والإسلام ممن غلبت سيئاتهم حسانتهم . فيخرجون منها بعد مدة لا يعلمها إلا الله ويسمون الجهنمين . ويبدو أن هذا المقام يكون بعد فراغ الخلائق من الحساب ودخول أهل الجنة الجنة ودخول أهل النار النار . ومعرفة مصير رجال الأعراف ، وقبل أن يؤتى بالموت على هيئة كبش أملح فيذبح فيقول الجبار الملك يا أهل الجنة خلود بلا موت ويا أهل النار خلود بلا موت (7) .

----

(1) الإسراء: من الآية79 (2) صحيح البخاري 589 (3) يقصد تكفير مرتكب الكبائر وخلوده في النار
(4) آل عمران: من الآية192 (5) الحج: 22 (6)شبيه ذلك ما رواه بن كثير عن " أبي سعيد الخدري قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " أما أهل النار الذين هم أهلها فإنهم لا يموتون فيها ولا يحيون ولكن ناس أصابتهم النار بذنوبهم أو قال بخطاياهم فأماتهم الله إماتة حتى إذا كانوا فحما إذن في الشفاعة فجيء بهم ضبائر ضبائر فبثوا على أنهار الجنة ثم قيل يا أهل الجنة أفيضوا عليهم فينبتون نبات الحبة تكون في حميل السيل فقال رجل من القوم كأن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد كان يرعى بالبادية (7) الحديث تفصيلا أخرجه مسلم 2849

الخاتمة

لأنه الإنسان الوحيد الذي توافرت فيه كل شرائط النبوة أجمعها ، ولأنه الأنسان الوحيد الذي توافرت فيه كل أسس الأختيار والاجتباء ، ولأنه الأنسان النبي الذي اجتمعت فيه خصائص لم تكن في انسان غيره أو نبي قبله ، ولأنه كان الأنسان الوحيد الأوحد بين البشر قاطبة الأصلح للنبوة الخاتمة ، ولأنه الأنسان الذي استقل في قراراته ورؤاه وأقواله وأفعاله وفي كل تصرفاته عن غيره من البشر ، ولأنه الوحيد بين البشر قاطبة الذي لم يصل إلى مرحلة الكمال البشري فحسب ولكن تخطى هذا الكمال درجة لا يعلمها إلا الله ، ولأنه الوحيد الذي لم يصل إلى رضاء الله تعالى فحسب ولكنه تخطى ذلك بالوصول إلى مراده ، ولأنه النبي الوحيد الذي فضله الله تعالى على غيره من الأنبياء والرسل بفضائل لم يستحقها سواه ، كان محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم هو النبي الخاتم ، والرسول إلى الناس كافة ، والأحق بتنزل القرآن العظيم عليه والمبعوث رحمة للعالمين ، والهادي إلى الصراط المستقيم ، والسراج المنير ، ومخرج الناس من الظلمات إلى النور ،

فقد عددنا شروط النبوة ومعاييرها سواء كانت للنبوة بصفة عامة أو للنبوة الخاتمة بصفة خاصة ، فوجدناها تتطابق عليه شكلا وموضوعا وخلقة وخلقا ، وبينا أسس الأختيار وقواعده فثبت بما لا يدع مجالا للشك أنه الجدير بذا الأختيار والأحق بذا الأجتباء ، وأوجزنا خصائص وقدرات لم تكن في غيره ولم يحتملها غيره فتميز با عمن سواه ، وقارناه بغيره من البشر فوجدنا أنه الأفضل والأحق ، وبينا تصرفاته وتصرفات غيره وأقواله وأقوال غيره وأفعاله وأفعال غيره وقراراته وقرارات غيره ورؤاه ورؤى غيره ، في الموقف الواحد وفي المواقف المتعددة ، فثبتت استقلاليته الموجبة لحمل الأمانة وتبعات الرسالة ، ورأينا كيف أن الكمال مرحلة يمكن أن يصل إليها أفاضل البشر ، أما هو فلم يسعه إلا تخطي هذه المرحلة ليسمو بذلك فوق قدرات الناس ومقدرتم على الوصول إلى الكمال ، شأن الرضا الإلهي ، هو أيضا درجة أو مرحلة لم يجعلها الله عسيرة على من أرادها فرضي سبحانه وتعالى عن كثير من البشر ، ولكن كان مراده جلا وعلا هو الدرجة السامقة التي تفوق الرضا والتي لم يصلها إلا هو صلى الله عليه وسلم ، ليستحق بذلك جميعه وبما لا نعرفه ، أن يكون المفضل لدى الله تعالى ، والأثير لديه ، والحبيب والخليل والمقرب منه ، والجدير باختراق السماوات العلا والوصول إلى سدرة المنتهى والأحق برؤيته ، والأحق بالحوض والشفاعة والمقام المحمود .

ولعلي بذلك أكون قد قدمت سطرا ولو واحدا في كتاب يجب أن يعاد كتابته عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لنسبر فيه بعض أغواره ، ونغوص في بعض أعماقه ، لنكتشف حينئذ أفاقا جديدة وانوارا لم تزل ساطعة ، تصل الأرض بالسماء إسراءا متجددا ومعراجا متواصلا ، لعل ذلك يحي موات قلوبنا ، وينير ظلمة أرواحنا ، ولعله يعيد لهذه الأمة عزها القديم ، ويرد إليها مجدها المسلوب ، ويعيد إليها شرفها المستباح وكرامتها المهدرة ،

المراجع

معظم المراجع أخذا من البرمجيات الالكترونية الأتية :-

1- الآيات القرآنية مصحف النور للنشر المكتبي سيمافور

2- موسوعة القرآن الكريم وعلومه آية سوفت

3- الموسوعة الحديثية المصغرة مركز النور للقرآن والسنة

4- المكتبة الإسلامية الشاملة انترناشيونال ميديا سوفت وير

5- سلسلة العالم والمتعلم مركز التراث أبحاث الحاسب الآلي

6- موسوعة طالب العلم الشرعي مركز التراث

7- مكتبة الأسرة الإلكترونية مركز التراث

8- مكتب الأجزاء الحديثية مركز التراث

9- الموسوعة الصوتية لمحمد حسين يعقوب آية سوفت

10- مؤلفات الشيخ وتلميذه بن القيم مركز التراث لأبحاث الحاسب الآلي

11- السيرة النبوية الهدية للبرمجيات العربية

وهي على النحو الأتي

القرآن الكريم

1- تفسير القرطبي لمحمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح القرطبي أبو عبد الله
2- تفسير الطبري لمحمد بن يزيد بن جرير بن خالد الطبري أبو جعفر
3- تفسير بن كثير لإسماعيل بن عمر بن كثير الدمشقي أبو الفداء
4- تفسير الجلالين لمحمد بن أحمد + عبد الرحمن بن أبي بكر المحلي + السيوطي
5- أسباب ال ول أبي الحسن علي بن أحمد الواحدي النيسابوري

الأحاديث والمتون ومتعلقاتها

1- صحيح مسلم لمسلم أبو الحجاج أبو الحسين القشيري النيسابوري
2-صحيح البخاري (الجامع المختصر) لمحمد بن إسماعيل أبو عبد الله البخاري
4-مسند الإمام أحمد لأحمد بن حنبل أبو عبد الله الشيباني
5- سنن ابن خزيمة لمحمد بن إسحاق بن خزيمة أبو بكر السلمي النيسابوري
6-سنن ابن حبان بترتيب ابن بلبان لمحمد بن حبان بن أحمد أبو حاتم التميمي
7-سنن الدارمي لعبد الله بن عبد الرحمن أبو محمد الدارمي
8-سنن أبي داود لسليمان بن الأشعث أبو داود السجستاني الأزدي
9-سنن ابن ماجه لمحمد بن يزيد أبو عبد الله القزويني
10-الجامع الصحيح سنن الترمذي لمحمد بن عيسى أبو عيسى الترمذي السلمي
11-السنن الكبرى أحمد بن شعيب أبو عبد الرحمن النسائي
12-المعجم الكبير لأبو القاسم سليمان بن أحمد الطبراني
13-المعجم الأوسط ، ،
14-الروض الداني (المعجم الصغير) ،،
15-سنن الدارقطني لعلي بن عمر أبو الحسن الدارقطني البغدادي
16-ال تبى من السنن ،،
17-سنن البيهقي الكبرى أحمد بن الحسين بن علي بن موسى أبو بكر البيهقي
18-السنن الصغرى ،،
19-صحيح مسلم بشرح النووي أبو زكريا يحيى بن شرف بن مري النووي
20-المستدرك على الصحيحين لمحمد بن عبد الله أبو عبد الله الحاكم النيسابوري
21-المسند المستخرج على صحيح الإمام مسلم لأبي نعيم أحمد بن عبد الله بن أحمد بن إسحاق الأصبهاني
22-فتح الباري شرح صحيح البخاري أحمد بن علي بن حجر أبو الفضل العسقلاني
32-نوادر الأصول في أحاديث الرسول محمد بن علي بن الحسن أبو عبد الله الحكيم الترمذي
24-شرح سنن ابن ماجه للسيوطي لعبد الرحمن بن أبي بكر أبو عبد الرحمن السيوطي
25-شرح السيوطي على سنن النسائي ،،

26-تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي لمحمد عبد الرحمن بن عبد الرحيم المباركفوري أبو العلي
27-الترغيب والترهيب من الحديث الشريف عبد العظيم بن عبد القوي المنذري أبو محمد
28-شعب الإيمان أبو بكر أحمد بن الحسين البيهقي
29-مسند أبو يعلي التميمي أحمد بن علي بن المثنى الموصلي أبو يعلى
30-مسند أبي عوانه للأسفرائيني
31-مسند الشافعي لأبو عبد الله محمد بن إدريس الشافعي
32-مسند الربيع للربيع الأزدي
33-مسند الزرقاني لعبد الرازق بن همام الصنعاني
34-الأحاديث المختارة أبو عبد الله محمد بن عبد الواحد بن أحمد الحنبلي المقدسي
35-موارد الظمآن إلى زوائد ابن حبان لعلي بن أبي بكر الهيثمي أبو الحسن
36-مجمع الزوائد ومنبع الفوائد علي بن أبي بكر الهيثمي
37-تأويل مختلف الحديث لعبد الله بن مسلم بن قتيبة أبو محمد الدينوري
38-جامع العلوم في شرح خمسين حديثا من جوامع الحكم لأبو الفرج عبد الرحمن بن أحمد بن رجب الحنبلي
39-الأحاديث المختارة لأبو عبد الله محمد بن عبد الواحد بن أحمد الحنبلي المقدسي
40-التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد أبو عمر يوسف بن عبد الله بن عبد البر النمري
41-فيض القدير شرح الجامع الصغير لعبد الرؤوف المناوي
42-الثقات لمحمد بن حبان بن أحمد أبو حاتم التميمي البستي
43-الكامل في ضعفاء الرجال عبد الله بن عدي بن عبد الله بن محمد أبو أحمد الجرجاني
44-حاشية ابن القيم على سنن أبي داود محمد بن أبي بكر أيوب الزرعي أبو عبد الله
45-الموضوعات ابي الفرج عبد الرحمن بن محمد بن علي بن الجوزي
46-مشتهر الأحاديث للسخاوي
47-تأويل مختلف الحديث لابن قتيبة
48-الضعفاء والمتروكين أحمد بن شعيب النسائي
49-الأحكام للأمدي
50-الأحكام لابن حزم
51-صحيح الجامع للعلامة ناصر الدين الألباني

السيرة

1-بدء سيرة الرسول لمحمد بن عبد الوهاب بن سليمان بن علي التميمي
2-الفصول في السيرة لابن كثير
3-السيرة النبوية لابن هشام عبد الملك بن هشام بن أيوب الحميري
4-سيرة بن إسحاق لمحمد بن إسحاق بن يسار بن خيار
5-السيرة الحلبية لعلى بن برهان الدين الحلبي

6-عيون الأثر لمحمد بن محمد بن محمد بن عبد الله بن محمد
7-الشفاء لعياض بن موسى بن عياض اليحصبي
8-سيرة بن كثير لإسماعيل بن كثير
9-جوامع السيرة النبوية لابن حزم الأندلسي
10-الشمائل المحمدية للترمزي
11-دلائل النبوة جعفر بن محمد بن الحسن الفريابي أبو بكر
12-دلائل النبوة إسماعيل بن محمد بن الفضل التيمي الأصبهاني
13-دلائل النبوة للبيهقي
14-دلائل النبوة للورداني
15-أعلام النبوة للماوردي
16- غاية السول في خصائص الرسول لسراج الدين عمر ابن نور الدين أبي الحسن علي ابن شهاب الدين
17-مجموعة الفتاوى لابن تيميه
19-بن تيمية طريق الهجرتين
20-الروح لابن القيم
21-هداية الحيارى في الرد على أجوبة اليهود والنصارى بن القيم
22-بدائع الفوائد ابن القيم
23-الفوائد ابن القيم
24-زاد الميعاد لابن القيم

التاريخ

1-تاريخ الخلفاء لجلال الدين بن عبد الرحمن بن كمال الدين السيوطي
2-بداية ونهاية إسماعيل بن عمر بن كثير الدمشقي
3-تاريخ الأمم والملوك محمد بن جرير الطبري أبو جعفر
4-المنتظم في تاريخ الملوك ابن الجوزي
5-تاريخ الإسلام لشمس الدين محمد بن عثمان الذهبي
6-الاكتفاء في المغازي أبو الربيع سليمان بن موسى بن سالم الكلاعي البلنسي
7-تاريخ بن خلدون

أماكن

1-فضائل مكة والسكن فيها للحسن بن يسار البصري أبو سعيد
2-فضائل المدينة للمفضل بن محمد بن إبراهيم الجندي أبو سعيد

3-معجم البلدان ياقوت بن عبد الله الحموي أبو عبد الله

السنة

1-شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة من الكتاب والسنة لهبة الله بن الحسن بن منصور اللالكائي
2-السنة عمرو بن أبي عاصم الضحاك الشيباني
3-العظمة عبد الله بن محمد بن جعفر بن حيان الأصبهاني أبو محمد
4-الاعتقاد والهداية إلى سبيل الرشاد على مذهب السلف وأصحاب الحديث أحمد بن الحسين البيهقي
5-الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح بن تيميه
6-الصفدية لابن تيميه
7-العقيدة الأصفهانية بن تيمية
8-السنة للطبري
9-مجلس إملاء في رؤية الله للأصبهاني
10-منهاج السنة النبوية ابن تيمية

رسول الله

1-الصارم المسلول على شاتم الرسول ابن تيمية
2-تركة النبي والسبل التي وجهها فيه لحماد بن إسحاق بن إسماعيل بن زيد البغدادي أبو إسماعيل
3-جلاء الإفهام في الصلاة على خير الأنام ابن القيم
4-تلخيص كتاب الاستغاثة (الرد على البكري) بن تيميه
5-مكارم الأخلاق عبد الله بن محمد أبو بكر القرشي
6-الزهد وصفة الزاهدين أحمد بن محمد بن زياد بن بشر بن درهم أبو سعيد
7-كتاب الزهد الكبير أبو بكر أحمد بن الحسين بن علي بن عبد الله بن موسى البيهقي
8-الزهد أحمد بن محمد بن حنبل

الأنبياء

1-قصص الأنبياء لابن كثير
2-النبوات للرازي محمد بن عمر بن الحسن بن الحسين التيمي البكري فخر الدين الرازي -
3-النبوات أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام ابن عبد الله بن أبي القاسم بن تيمية الحراني
4-فصل في أن دين الأنبياء واحد وشرائعهم مختلفة بن تيمية

الصحابة

1-الإصابة في تمييز الصحابة لأحمد بن علي بن حجر أبو الفضل العسقلاني الشافعي
2-سير أعلام النبلاء للذهبي محمد بن أحمد بن عثمان بن قايماز الذهبي أبو عبد الله
3- تذيب التهذيب لأحمد بن علي بن حجر أبو الفضل العسقلاني الشافعي
4-الطبقات الكبرى محمد بن سعد بن منيع أبو عبدالله البصري الزهري
5-فصل في فضل العرب لابن القيم

6-فضائل الصحابة أحمد بن حنبل أبو عبد الله الشيباني

تذيب الأسماء لأبو زكريا بن حزام نقلا عن أبو الحسن الخطابي

8-فصل في فضل العرب لابن القيم

المعاجم

1-أبجد العلوم الوشي المرقوم في بيان أحوال العلوم

2-لسان العرب

3-مختار الصحاح

4-الفائق

5= التعريفات للجرجاني

6- التعاريف لمحمد عبد الرؤوف المناوي

7- معجم البلدان لياقوت الحموي

بالاضافة إلى المتفرقات الآتية

1-التبيان في أقسام القرآن

2-بديع القرآن

3- القرآن محاولة لفهم عصري د/ مصطفى محمود

4- رجال نزل فيهم القرآن د/ عبد الرحمن عميرة

5-الوجيز في بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز للفيروزابادي إعداد أ/ علي عبد الباسط مزيد

6-إحياء علوم الدين محمد بن محمد بن أحمد أبو حامد الطوسي الغزالي

8-الفراسة دليلك إلى معرفة أخلاق الناس للرازي

9-القواعد المثلى في صفات الله وأسماءه الحسنى العلامة محمد بن صالح بن عثيمين

10-عظمة الإسلام للأستاذ/ محمد عطية الأبراشي

11-حقائق الإسلام وأباطيل خصومه لعباس محمود العقاد

12-قيم تراثية وثقافية المرحوم/ زكي نجيب محمود

13-التربية العقلية أ/ علي عبد الحليم محمود

15-نساء النبي سير وقضايا أ/ سعيد هارون عاشور

16-الرحيق المختوم للكافوري

17-فتاوي إمام العالمين وسيد المرسلين ابن القيم تحقيق أ/ مصطفى عاشور

18- السيرة النبوية في القرآن الكريم د/ عبد الصبور شاهين

19-التاريخ فكرة ومنهاج المرحوم / سيد قطب

20-فجر الإسلام أ/ أحمد أمين

21-عبقرية المكان لجمال حمدان

22-الفرقان بين أولياء الله وأولياء الشيطان بن تيميه

23-عبقرية محمد المرحوم / عباس محمود العقاد
24-قالوا عن محمد أ / عبده مباشر
25- محمد أعظم عظماء العالم لأحمد ديدات ومايكل هارت ترجمة أ / علي الجوهري
26-عظمة الرسول للأستاذ / عطية الأبراشي
27-رسول الإنسانية في الأدب العربي الحديث د/ محمد حامد الحضيري
28- محمد رسول الله المرحوم/ محمد متولي الشعراوي
29-خصائص الرسول وأمته أ/ مجدي إبراهيم علي
30-النبوة من علم العقائد إلى فلسفة التاريخ أ/ علي مبارك
31-عصمة الأنبياء أ/ محمود ماضي
32-الإسلام والأديان الأخرى نقاط الاتفاق والاختلاف لواء / أحمد عبد الوهاب
33-حياة الصحابة محمد يوسف بن محمد إلياس للكاندهلوي تحقيق أ/ محمد بكر إسماعيل
34-مقام الصحابة وعلم التاريخ للعالم الهندي محمد شفيع ترجمة د/ سمير عبد الحميد إبراهيم
35-العواصم من القواصم محمد بن أبي بكر ابن العربي
36-مائتي قصة من حياة الصالحين أ /سعد يوسف أبو عزيز
37-عبقرية الصديق للعقاد
38-عبقرية عمر ،،
39-عبقرية الإمام ،،
40-الثلاثون المبشرون بالجنة ،،، النار د/مصطفى مراد
41-من أخلاق النبي أ/ أحمد الحوفي
42-تـ يه الأنبياء عن تسفيه الأغبياء لجلال الدين السيوطي إعداد أ/ علي عبد العال الطهطاوي .
43-أدلة وبراهين على إلوهية المسيح فيكتوريا إبراهيم

الفهرس

المقدمة

الباب الأول

النبوة

الفصل الأول : معنى النبوة وشروطها

تعريف النبوة

المشيئة الإلهية

معايير الاصطفاء

1- المكان

2- الزمان
3- المعجزة
4 - الرسالة أو الشريعة أو المنهج .

ثانيا :- معايير الأنبياء

1-المعيار النوعي :
2- اللغة ،
3- الحرية والحسب والنسب
4 - المعيار الأخلاقي
5 - المعيار العقلي
6 - المعيار الشكلي
7- السن

ثانيا شروط النبي الخاتم

1 - الاسم والصفة .
2- المنعة
3 - الأمية
4- ألا يعقب ولد

شروط وخصائص أخرى إجمالية

الفصل الثاني الاختيار

أسس الاختيار وجهل الناس بنبوة رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل أن يكلف با

الأدلة على ذلك

علامات النبوة قبل مبعثه صلى الله عليه وسلم

بحيرا الراهب

سيف بن ذي يزن

صور الأنبياء

الفصل الثالث : الخصائص النبوية المحمدية

تحمل الوحي

ليست كل تصرفاته وحي

تحمل نزول القرآن

تحمل العلم .

تعليمه ما لم يكن يعلم وتكليفه وحده من العلم ما كلف الناس به جميعا .

تحمل من حوله

ثانيا : الصدق والأمانة في التبليغ

ثالثا :- العبودية الحقة - بعض الآثار النبوية :

الفصل الثالث : صلاحيته للرسالة

أولا – أشراف مكة وعظمائها

1-أبو مسعود عمر بن عمير الثقفى سيد ثقيف

2- الوليد بن المغيرة .

3- أمية بن أبي الصلت

4- عتبة بن ربيعة

ثانيا- الحنفاء

ثالثا- الصحابة

1- عمر بن الخطاب :

2- عثمان بن عفان

3-علي بن أبى طالب .

المقارنة

4- أبو بكر الصديق

الباب الثاني

الأخلاق

الفصل الأول : استقلالية رسول الله

مرحلة ما قبل البعثة ، الصدق والأمانة :

عوامل استقلالية هذه المرحلة .

الفطرة والطفولة

البيئة والوراثة .

معدنه

الوحي

الوحي وسيلة إلى غاية

بعض الحكمة من بعض الأحداث

الفرق بين الوحي وبين وغيره

الوحي ومحمد (زواجه من خديجة)

حادثة شق الصدر

الملاحظات

المرحلة الثانية

1-قصة الأراشي
2-رد الأمانات
3 - شراء إحدى الراحلتين :
4- فاطمة والخادم :
5- مفاتيح الكعبة :
6- اذهبوا فأنتم الطلقاء :
7 - عبد الله بن أبي سرح
8 - عبد الله بن أبي بن سلول .
9- بيعة النساء
10 - أعرابي يبول

الفصل الثاني : منظومة الكمال

تخطيه الكمال
1- أنس خادمه.
2- حادثة الإفك
3- إيذاء قريش له .
4- أبي رهم الغفاري .
5 - لست ملكا .
6 - طعامه
7 –معاناته .
8 – عبس وتولى .
9- الله أحق أن تخشاه .

منظومة الكمال
1-دين الإسلام الكامل
2-في مجال العبادات
3- جوهر الديانات
4- الكتب السماوية والأنبياء .
5- كمال الزمان والمكان .
6- ما كان لمحمد أن يخطئ
7- خير أمة .

الفصل الثالث : محمد الإنسان كما أراده الله

مراد الله تعالى
1- الرحمة للعالمين .

2-وَإِنكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ
3- صبره
4- تواضعه
5- حياؤه
6- خوفه وخشيته .
7 - زهده

الباب الثالث
التفاضل

الفصل الأول : أسس تفاضل
أولا : ت يه الأنبياء عن تسفيه الأغبياء
ثانيا : معنى التفاضل وأساسه
ثالثا : رأي في بعض ما قيل في التفاضل
1- يا أيها النبي
2- الحبيب والخليل
3- تقديمه في الذكر
4-الصفات الشخصية
5- القسم بحياته
6- وصفه بالنور
7- في حروف القرآن الكريم
8- لا تتبع الهوى
9- غفران ذنبه
10- مقارنة غير محمودة
الفرق بين معجزات الأنبياء ومعجزات رسول الله المادية
الإسراء والمعراج
11- النحر والوتر والضحى
12- القتل في الحرم
13- لا يكره فتواه في الغضب
14- مناغاة القمر
15-الجمع بين النساء
16- انعقاد نكاحه بلا ولي
رابعا : منظومة الفضائل عند الماوردي
الوجه الأول كمال خَلقه صلى الله عليه وسلم

الوجه الثاني كمال أخلاق النبي صلى الله عليه و سلم :
فضائل أقوال النبي عليه السلام :
الوجه الرابع في فضائل أفعاله فمختبر بثماني خصال
خامسا : -خصائص وفضائل أخرى له صلى الله عليه وسلم
1-حسنه وبائه
2- طيب رائحته
3- نشاطه وحيويته
4-لا يأخذ الصدقة ويقبل الهدية 3-
5- لا يورث وما تركه صدقة 4-
6- عدم جواز التكني بكنيته
7- أولى بالمؤمنين من أنفسهم :
8- جواز خلوته بنساء أمته :
9- إنصافه للمتأخرين من أمته
10-مكتوب على قوائم العرش
11-لست كهيئتكم ولست كأحدكم
12- الكذب عليه ليس كالكذب على غيره :
13- إيذاءه يوجب العذاب من الله :
14- من سبه قتل ومن يسبه هو غنم
15- كلامه هو فقط الموصوف بالحديث ،
16- تنام عيناه ولا ينام قلبه
17-في مسجده روضة والصلاة فيه بألف ولا تشد الرحال إلا إليه
18-المخير من قبل بربه
19 – يدفن حيث قبض
20- لا يدخل بيتا مزوقا

21 - ما كان لنبي أن يغل
22- دخوله مكة بغير احرام
23 : تخصيصه بأكثر من أربع زوجات
الفصل الثاني : أفضليته في الدنيا
أولا :- البشارة به
ثانيا : - إرهاصات النبوة :
ثالثا - خاتم الأنبياء والمرسلين .

رابعا وخامسا وسادسا : عالمية الرسالة وبعثه للجن وكثرة الأتباع

سابعا : جعل القرآن شريعته .

ثامنا : شهادة التوحيد

إيمان القوم بنبيهم

إيمان المسلمين بم :

تاسعا وعاشرا :- ورفعنا لك ذكرك : وبعض الفضائل القرآنية

أولا : ذكره في القرآن الكريم

ثانيا : أمة وحده

ثالثا : محور أكثر الآيات والرابط بينها

رابعا : بعض الفضائل القرآنية

خامسا :السيرة النبوية .

سادسا : قرن اسمه باسمه جلا وعلا :

حادي عشر : الصلاة والسلام عليه

ثاني عشر وثالث عشر : شهادة الله له والدفاع عنه :

رابع عشر وخامس عشر : كرامه بمعجزات خاصة ورؤية ربه .

إعجاز بصره

رؤية الله .

الرؤية بالفؤاد هو الأقرب للصحة

سادس عشر : العصمة

سابع عشر : غفران ذنوبه ما تقدم منها وما تأخر ذنوب الأنبياء

ثامن عشر : تأييده بجنود من عنده جلا وعلا

اختلاف التأييد عن المعجزة والعصمة

تاسع عشر : وجوب محبته

حب الرسول لصحابته .

بعض قوله عنهم جميعا

بعض أقواله عن بعضهم فرادى

عشرون : لا يعذبم الله وهو فيهم

تفرقة بين أنواع العذاب .

واحد وعشرون : جوامع الكلم

اثنان وعشرون : التشريع

ثلاث وعشرون : الأسوة

أربع وعشرون : بشيرا ونذيرا

خمس وعشرون : اختيار أمته على سائر
ست وعشرون : أشهر وأكثر الأنبياء قتالا
سبع وعشرون وثمانية وعشرون : الغنيمة . وخمس الفيء
تسعة وعشرون وثلاثون : زوجاته أمهات المؤمنين ، تخصيصه ببعض الزيجات
واحد وثلاثون : أكثر الأنبياء أسماءا
اثنين وثلاثون : خير أهل الأرض نسبا
ثلاث وثلاثون : لا يتمثل به الشيطان
أربع وثلاثون : ميلاده وبعثته وهجرته وقبره بخير بقاع الأرض
الفصل الثالث : أفضليته في **الآخرة**
أولا : أول من تنشق عنه الأرض
صواعق ثلاث وليس اثنتين
الثالثة صعقة التجلي .
ثانيا : عدم انقطاع نسبه صلى الله عليه وسلم
ثالثا : أول من يدخل الجنة
رابعا : الوسيلة والفضيلة .
خامسا : الدعوة المستجابة .
سادسا : كل الأنبياء تحت لوائه
سابعا : شهادته على الأمم
ثامنا : الكوثر
الكوثر والحوض
تاسعا : الشفاعة والمقام المحمود .
معنى الشفاعة
المقام المحمود
الخاتمة
المراجع
الفهرس

المؤلف

عبد العزيز عيد عبد العزيز

المهنة / محام

الإقامة / القاهرة ، دار السلام ، الملاءة 3 ش الشهيد عارف

السن / 45 عام

الهاتف / 3198099 ، 0106875058

أرجو ممن **يرى** ثمة **نقد أن** يخبرني **بالمراسلة أو الهاتف باعتبار أن هذه هي المرة الأو**لى